الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء السادس

(إبراهيم – الحجر – النحل – الإسراء - الكهف)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2023م / 1444هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم - عليه السلام - فكان ذلك اسما لها لا يعرف لها غيره. ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيء ﷺ ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول.

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم - عليه السلام - جرى في كثير من السور أنّها من السور ذوات {ألر}. وقد ميّز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء - عليهم السلام - التي جاءت قصصهم فيها، أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي (سورة الحجر)، ولذلك لم تضف سورة الرعد إلى مثل ذلك لأنّها متميّزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء.

وهي مكّية كلّها عند الجمهور. وعن قتادة إلّا آيتي { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً - إلى قوله - وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [28]، وقيل: إلى قوله { فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [30]. نزل ذلك في المشركين في قضيّة بدر، وليس ذلك إلّا توهّما كما ستعرفه.

نزلت هذه السور بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء.

وقد عدّت السبعين في ترتيب السور في النزول.

وعدّت آياتها أربعا وخمسين عند المدنين وخمسين عند أهل الشام، وإحدى وخمسين عند أهل البصرة. واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة.

أغراض السورة

ابتدأت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وبالتنويه بشأنه، وأنّه أنزل لإخراج النّاس من الضلالة.

والامتنان بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله تعالى الذي أنزله. ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه.

وإيقاظ المعاندين بأنّ محمدا ﷺ ما كان بدعا من الرسل. وأنّ كونه بشرا أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل.

وضرب له مثلا برسالة موسى - عليه السلام - إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل.

وتذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها.

وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب، وكيف كانت عاقبة المكذبين.

وإقامة الحجّة على تفرد الله تعالى بالإلهيّة بدلائل مصنوعاته.

وذكر البعث.
وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ.
وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر.
ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك، والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين.
وعدّ بعض نعمه على الناس تفصيلا ثم جمعها إجمالا.
ثم ذكّر الفريقين بحال إبراهيم - عليه السلام - ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم - عليه السلام - ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام.
وتحذيرهم من كفران النعمة.
وإنذارهم أن يحل بهم ما حلّ بالذين ظلموا من قبل.
وتثبيت النبي ﷺ بوعد النصر.
وما تخلل ذلك من الأمثال.

{ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [1]

{ **ألر** } تقدّم الكلام على الحروف المقطعة في فاتحة سورة البقرة وعلى نظير هذه الحروف في سورة يونس.
{ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** } الكلام على هذا التركيب كالكلام على قوله {ألمص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف:1-2]، فللعلم بمُنزله حذف الفاعل في آية سورة الأعراف، وهو مقتضى الظاهر والإيجاز، ولكنّه ذُكر هنا لأنّ المقام مقام الامتنان على النّاس المستفاد من التعليل بقوله { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }، ومن ذكر صفة الربوبيّة بقوله { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } ، بخلاف آية سورة الأعراف فإنّها في مقام الطمأنة والتصبير للنبيء ﷺ المنْزل إليه الكتاب، فكان التعرّض لذكر المنْزل إليه والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام مع ما فيه من قضاء حقّ الإيجاز. أمّا التعرض للمنْزل إليه هنا فللتنويه بشأنه، وليجعل له حظّ في هذه المنّة وهو حظّ الوساطة، كما دلّ عليه قوله {لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، ولما فيه من غم المعاندين والمبغضين للنبيء ﷺ.
{ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }
وإسناد الإخراج إلى النبيء ﷺ لأنّه مبلّغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار

فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبيّن للنّاس ويقرّب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنذر والبشارة. وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دلّ على أنّ الهداية هي مراد الله تعالى من النّاس، وأنّه لم يتركهم في ضلالهم.

الإخراج: مستعار للنقل من حال إلى حال. شبّه الانتقال بالخروج فشبّه النقل بالإخراج.

{ **الظُّلُمَاتِ / النُّورَ** } استعارة للكفر والإيمان، لأنّ الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك، والإيمان يرشد إلى الحقّ فهو كالنور في إيضاح السبيل. وجمع {الظُّلُمَاتِ} وإفراد {النُّورَ} تقدّم في الأنعام[1]

الإذن: الأمر بفعل يتوقّف على رضى الآمر به. وهو إرساله إليهم لأنّه هو الإذن الذي يتعلّق بجميع الناس. ولمّا كان الإرسال لمصلحتهم أضيف الإذن إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير النّاس، أي بإذن الذي يدبّر مصالحهم.

{ **إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } بدل من { النُّورَ }، ومناسبة الصراط، المستعار للدين الحقّ، لاستعارة الإخراج والظلمات والنور، ولما يتضمنه من التمثيل.

واختيار {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} من بين الصفات العُلى لمزيد مناسبتها للمقام.

العزيز: الذي لا يُغلب. وإنزال الكتاب برهان على أحقيّة ما أراده الله من النّاس فهو به غالب للمخالفين مقيم الحجّة عليهم.

الحميد: بمعنى المحمود، لأنّ في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه.

وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين، من كلّ منساق إلى الاهتداء من أوّل وهلة، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجّة ونفاذ الحيلة.

{ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ [2] الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ } [3].

{ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }.

قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر برفع اسم الجلالة على أنّه خبر عن مبتدإ محذوف. وقرأه الباقون إلّا رويسا عن يعقوب بالجرّ على البدلية من { الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ، وهي طريقة عربية. ومآل القراءتين واحد وكلتا الطريقتين تفيد أنّ المستقل إليه أجدر بالذكر عقب ما تقدمه، فإن اسم الجلالة أعظم من بقية الصفات لأنّه علم الذات الذي لا يشاركه موجود في إطلاقه ولا في معناه الأصلي المنقول منه إلى العلميّة إلّا أن الرفع

أقوى وأفخم.

{ **الَّذِي** } إجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة لزيادة التفخيم لا للتعريف. لأنّ ملك سائر الموجودات صفة عظيمة، والله معروف بها عند المخاطبين. وفيه تعريض بأنّ صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بواصل إلى المقصود لنقصان ذويه. وفي ذكر هذه الصلة إدماج تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض.

{ **وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** }.

لمّا أفاد قوله السابق تعريضا بالمشركين الذين اتّبعوا صراط غير الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض عطف الكلام إلى تهديدهم وإنذارهم.

{ **وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ** } إنشاء دعاء عليهم في مقام الغضب والذمّ، مثل قولهم: ويحك، فعطفه من عطف الإنشاء على الخبر.

{ **وَيْلٌ** } مصدر لا يعرف له فعل. ومعناه الهلاك وما يقرب منه من سوء الحالة، ولأنّه لا يعرف له فعل كان اسم مصدر وعومل معاملة المصادر، ينصب على المفعوليّة المطلقة ويرفع لإفادة الثبات. يقال: ويل لك وويلك، بالإضافة. ويقال: يا ويلك، بالنداء. وقد يذكر بعد هذا التركيب سببه فيؤتى به مجرورا بحرف (من) الابتدائية كما في قوله هنا {مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}.

الكافرون: هم المعهودون، وهم الذين لم يخرجوا من الظلمات إلى النور، ولا اتّبعوا صراط العزيز الحميد، ولا انتفعوا بالكتاب الذي أنزل لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

{ **يَسْتَحِبُّونَ** } بمعنى يحبّون، فالسين والتاء للتأكيد مثل استقدم واستأخر. وضُمّن معنى يؤثرون، فعدّي إلى مفعول آخر بواسطة حرف {على} في قوله { عَلَى الْآخِرَةِ } أي يؤثرونها عليها.

{ **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً** } تقدّم نظيره في قوله { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ } [آل عمران:99].

الصد عن سبيل الله: المقبلين على الإسلام من الدخول فيه. شبّه ذلك بمن يمنع المار من سلوك الطريق. وجعل الطريق طريق الله لأنّه موصل إلى مرضاته فكأنّه موصل إليه. أو يصدّون أنفسهم عن سبيل الله لأنّهم عطّلوا مواهبهم ومداركهم من تدبّر آيات القرآن، فكأنّهم صدّوها عن السير في سبيل الله.

{ **أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** } الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما وُصفوا به من الضلال بسبب صدّهم عن سبيل الحقّ وابتغائهم سبيل الباطل. ودلّ حرف الظرفيّة (في) على أنّ الضلال محيط بهم.

{ **بَعِيدٍ** } يجوز أن يكون على وجه المجاز العقلي، وإنّما البعيد هم الضالون، أي ضلالا بعدوا به عن الحقّ

فأسند البعد إلى سببه. ويجوز أن يراد وصفه بالبعد على تشبيهه بالطريق الشاسعة التي يتعذّر رجوع سالكها، أي ضلال قويّ يعسر إقلاع صاحبه عنه.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[4]

إذا كانت صيغة القصر مستعملة في ظاهرها ومسلّطة على متعلّقي الفعل المقصور كان قصرا إضافيّا لقلب اعتقاد المخاطبين. كانوا لتعنّتهم يقولون: هلّا نزل القرآن بلغة العجم، وهو مروي في تفسير الطبري هنالك عن سعيد بن جبير أنّ العرب قالوا ذلك.

وقد كان المتنصّرون من العرب والمتهوّدون منهم مثل عرب اليمن تترجم لهم بعض التوراة والإنجيل بالعربية كما ورد في حديث ورقة بن نوفل في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري، فاستقرّ في نفوس المشركين من جملة مطاعنهم أنّ القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة التي جاءت بها الكتب السالفة.

فصارت عربيّته عندهم من وجوه الطعن في أنّه منزل من الله. فالقصر هنا لردّ كلامهم، أي ما أرسلنا من رسول بلسان إلّا لسان قومه المرسل إليهم، لا بلسان قوم آخرين.

فموقع هذه الآية عقب آية {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} بيّن المناسبة.

اللسان: اللغة وما به التخاطب. أطلق عليها اللسان من إطلاق اسم المحلّ على الحال به، مثل: سال الوادي.

القوم: الأمّة والجماعة، فقوم كلّ أحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة، وقوم كل رسول أمّته المبعوث إليهم، إذ كان الرسل يبعثون إلى أقوامهم، وقوم محمد ﷺ هم العرب، وأما أمّته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم النّاس كافة.

وإنّما كان المخاطب أوّلا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذّر نزوله بلغات الأمم كلها، فاختار الله أن يكون رسوله ﷺ من أمّة هي أفصح الأمم لسانا، وأسرعهم أفهاما، وألمعهم ذكاء، وأحسنهم استعدادا لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من الرّسل في حياته عدد من النّاس مثل الذين آمنوا بمحمد ﷺ في حياته، فقد عمّ الإسلام بلاد العرب، وقد حجّ مع النبيء ﷺ في حجّة الوداع نحو خمسين ألفا أو أكثر. وقيل مائة ألف وهم الرجال المستطيعون.

{ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } تعليل وفيه إيماء إلى هذا المعنى، لأنّه لمّا كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين، من بين لغات الأمم المرسل إليهم، هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها. ولكن لمّا كان المقصود من سياقها الردّ على طعنهم في القرآن بأنّه نزل بلغة لم ينزل بها كتاب قبله اقتصر في ردّ خطئهم

على أنّه إنّما كان كذلك ليبيّن لهم لأنّ ذلك هو الذي يهمّهم.

{ **فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } تفريع على مجموع جملة { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ }، ولذلك جاء فعل {يُضِلُّ} مرفوعا غير منصوب إذ ليس عطفا على فعل { لِيُبَيِّنَ } لأنّ الإضلال لا يكون معلولا للتبيين ولكنّه مفرّع على الإرسال المعلّل بالتبيين. والمعنى أنّ الإرسال بلسان قومه لحكمة التبيين. وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبيَّن لهم.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل، لأنّ **العزيز** قويٌّ لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عمّا خُلق له، و**الحكيم** يضع الأشياء مواضعها، فموضع الإرسال والتبيين يأتي على أكمل وجه من الإرشاد.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } [5]

لمّا كانت الآيات السابقة مسوقة للردّ على من أنكروا أنّ القرآن منزل من الله أعقب الرد بالتمثيل بالنظر، وهو إرسال موسى - عليه السلام - إلى قومه بمثل ما أرسل به محمد ﷺ، وبمثل الغاية التي أرسل لها.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى** } وتأكيد الإخبار عن إرسال موسى - عليه السلام - بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المنكرين رسالة محمد ﷺ منزلة من ينكر رسالة موسى - عليه السلام -.

{ **بِآيَاتِنَا** } الباء للمصاحبة، أي إرسالا مصاحبا للآيات الدالة على صدقه في رسالته، كما أرسل محمد ﷺ مصاحبا لآية القرآن الدال على أنّه من عند الله.

{ **الظُّلُمَاتِ** } مستعار للشرك والمعاصي، و { **النُّورِ** } مستعار للإيمان الحقّ والتقوى، وذلك أنّ بني إسرائيل لمّا طال عليهم الأمد في مصر بعد وفاة يوسف - عليه السلام- سرى إليهم الشرك واتّبعوا دين القبط، فكانت رسالة موسى - عليه السلام - لإصلاح اعتقادهم مع دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله الواحد، وكانت آيلة إلى إخراج بني إسرائيل من الشرك والفساد وإدخالهم في حظيرة الإيمان والصلاح.

التذكير: إزالة نسيان شيء. ويستعمل في تعليم مجهول كان شأنه أن يُعلم. ولمّا ضُمّن التذكير معنى الإنذار والوعظ عدّي بالباء، أي ذكّرهم تذكير عظة بأيّام الله.

{ **أَيَّامِ اللَّهِ** } أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره، وتأييده المؤمنين على عدوّهم، فإنّ ذلك كلّه مظهر من مظاهر عزّة الله تعالى. وشاع إطلاق اسم اليوم مضافا إلى اسم شخص أو قبيلة، على يوم انتصر فيه مسمّى المضاف إليه على عدوّه، يقال: أيّام تميم، أي أيّام انتصارهم.

فالمراد هنا الأيام التي أنجى الله فيها بني إسرائيل من أعدائهم ونصرهم وسخّر لهم أسباب الفوز والنصر

وأغدق عليهم النعم في زمن موسى - عليه السلام - فإنّ ذلك كلّه ممّا أمر موسى - عليه السلام - بأن يذكرهمُوه.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } اسم الإشارة عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير، فالإخراج من الظلمات بعد توغّلهم فيها وانقضاء الأزمنة الطويلة عليها، آية من آيات قدرة الله تعالى. والتذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله وعزّته وتأييد من أطاعه. وكل ذلك آيات كائنة في الإخراج والتذكير على اختلاف أحواله.

ولكون الآيات مختلفة، بعضها آيات موعظة وزجر وبعضها آيات منّة وترغيب، جعلت متعلقة بـ **{ كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }** إذ الصبر مناسب للزجر، والإنعام يبعث النفس على الشكر.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }[6]

هذا ممّا قاله موسى لقومه بعد أن أنجاهم الله من استعباد القبط وإهانتهم، وهو من التذكير بأيّام الله الذي أمر الله موسى - عليه السلام - أن يذكّره قومه.

وقد تقدّم تفسير نظيرها في قوله تعالى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [البقرة:49] وكذا في [الأعراف:141].

وإنّما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة، تفنّنا في إعادة القصّة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي، وهو ذكر سوء العذاب مجملا، وذكر أفظع أنواعه مبيّنا.

{ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } عطفت في الآيات الثلاث لأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب، لأنّ استحياء النّساء في ذاته نعمة ولكنّه يصير من العذاب عند اقترانه بتذبيح الأبناء، إذ يعلم أنّ مقصودهم من استحياء النّساء استرقاقهنّ وإهانتهنّ، فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهنّ. فسمّي جميع ذلك بلاء.

البلاء: أصله الاختبار. والبلاء هنا المصيبة بالشرّ، سمّي باسم الاختبار لأنّه اختبار لمقدار الصبر. وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلّا على المكروه.

{ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ } جعل هذا الضرّ الذي لحقهم واردا من جانب الله، لأنّ عدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله، وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحقّ الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب عليهم السلام، واتّباعهم دين القبط وعبادة آلهتهم. واختيار وصف الربّ هنا للإيماء إلى أنّه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين.

وهذه الآية تضمنت ما في سفر الخروج [الإصحاح21 / الفقرة 17] و [الإصحاح 13 / الفقرة 3]، وما في سفر اللاويين [الإصحاح 26 / الفقرة 13].

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [7]

من كلام موسى - عليه السلام - ، والتقدير: واذكروا نعمة الله عليكم إذ تأذّن ربكم لئن شكرتم. لأنّ الجزاء عن شكر النعمة بالزيادة منها نعمة وفضل من الله، لأنّ شكر المنعم واجب فلا يستحق جزاء لولا سعة فضل الله.

{ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ } تكلّم كلاما علنا، أي كلّم موسى - عليه السلام - بما تضمّنه هذا الذي في الآية بمسمع من جماعة بني إسرائيل. ولعل هذا الكلام هو الذي في سفر الخروج [الإصحاح 91 / الفقرات 9 - 20 - والإصحاح 20 / الفقرات 1- 18- 22 - والإصحاح 23 / الفقرات 20 – 30].

التأذّن مبالغة في الأذان يقال: أذّن وتأذّن كما يقال: توعّد وأوعد، وتفضّل وأفضل.

{ لَئِنْ شَكَرْتُمْ } موطئة للقسم والقسم مستعمل في التأكيد. والشكر مؤذن بالنعمة. فالمراد: شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها.

{ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } جاءت به المقابلة. والكفر مراد به كفر النعمة وهو مقابلة المنعم بالعصيان. وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك، كما أنّ الشكر مقابلة النعمة بإظهار العبودية والطاعة.

{ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } [8]

أعيد فعل القول في عطف بعض كلام موسى - عليه السلام - على بعض لئلا يتوهّم أنّ هذا مما تأذن به الربّ، وإنّما هو تنبيه على كلام الله. وفي إعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتّى تبرز مستقلة وحتّى يصغي إليها السامعون للقرآن.

ووجه الاهتمام بها أنّ أكثر الكفار يحسبون أنّهم يحسنون إلى الله بإيمانهم، وأنّ أنبياءهم حين يلحّون عليهم بالإيمان إنّما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرص على مصلحتهم. فلمّا وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خشي أن يحسبوا ذلك لانتقام المثيب بما أثاب عليه، ولتضرّره ممّا عاقب عليه، فنبههم إلى هذا الخاطر الشيطاني حتّى لا يسري إلى نفوسهم فيكسبهم إدلالا بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر.

{ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً } للتنصيص على العموم.

الغني: الذي لا حاجة له في شيء، فدخل في عموم غناه أنّه غنيّ عن الذين يكفرون به.
الحميد: المحمود. والمعنى: أنّه محمود من غيركم مستغن عن حمدكم.

{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [9]

استئناف ابتدائي رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة الالتفات في قوله { أَلَمْ يَأْتِكُمْ } ، لأنّ الموجّه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيّون بقوله { وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [2]، وهم معظم المعني من النّاس في قوله { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [1]، فإنّهم بعد أن أجمل لهم الكلام في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [4]، ثم فصّل بأن ضرب المثل للإرسال بإرسال موسى - عليه السلام - ، وقُضي حقّ ذلك عقّبه بكلام جامع لأحوال الأمم ورسلهم، فكان بمنزلة الحوصلة والتذييل، مع تمثيل حالهم بحال الأمم السالفة وتشابه عقليّاتهم في حججهم الباطلة، وردّ الرسل عليهم ما ردّ به القرآن على المشركين في مواضع، ثم ختم بالوعيد.
والاستفهام إنكاري لأنّهم قد بلغتهم أخبارهم، فأمّا قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان، وأمّا عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضا بها، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137].
{ **وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** } يشمل أهل مدين وأصحاب الرسّ وقوم تُبّع وغيرهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلّا الله. وهذا كقوله تعالى {وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً} [الفرقان: 38].
{ **لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ** } معترضة، وهو كناية عن الكثرة التي يستلزمها انتفاء علم النّاس بهم.
{ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ** } جاء كل أمّة رسولها.
{ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ** } الضمائرعائد جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه. وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعلّه من مبتكرات القرآن.
والمعنى يحتمل عدّة وجوه أنهاها في (الكشاف) إلى سبعة وفي بعضها بُعد، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنّهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدّة الضحك من كلام الرسل، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء.
الردّ: مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه. أي وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها ثم أعادوا وضعها فتلك الإعادة ردّ. وحرف { **فِي** } للظرفية المجازية المراد بها التمكين، فهي بمعنى (عَلَى).

{ **وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ** } أكّدوا كفرهم بما جاءت به الرسل بما دلت عليه (إن) والفعل الماضي، وسمّوا ما كفروا به مرسلا به تهكّما بالرسل.

{ **وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** } فمرادهم: أنّهم وإن كانوا كاذبين في دعوى الرسالة فقد يكون في بعض ما يدعون إليه ما هو صدق وحقّ، فإنّ الكاذب قد يقول حقّا. وجعلوا الشك قويا فلذلك عبّر عنه بأنّهم مظروفون فيه، أي هو محيط بهم ومتمكّن كمال التمكّن.

{ **مُرِيبٍ** } الموقِع في الريب، وهو مرادف الشكّ، فوصف الشك بالمريب من تأكيد ماهيته، كقولهم: ليل أَلْيَل.

{ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [10]

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}

استفهام إنكاري. ومورد الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله، فقدّم متعلّق الشكّ للاهتمام به، ولو قال: أشك في الله، لم يكن له هذا الوقع. وعلّق اسم الجلالة بالشك، والاسم العلم يدلّ على الذات. والمراد: إنكار وقوع الشكّ في أهمّ الصفات الإلهيّة وهي صفة التفرّد بالإلهيّة، أي صفة الوحدانية.

وأتبع اسم الجلالة بالوصف الدال على وجوده وهو وجود السماوات والأرض الدال على أن لهما خالقا حكيما لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة المنظمة عن غير فاعل مختار.

{ **يَدْعُوكُمْ** } حال من اسم الجلالة، أي يدعوكم أن تنبذوا الكفر ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك ويدفع عنكم عذاب الاستئصال فيؤخركم في الحياة إلى أجل معتاد.

الدعاء: حقيقته النداء. فأطلق على الأمر والإرشاد مجازا لأن الآمر ينادي المأمور.

ويعدى فعل الدعاء إلى الشيء المدعو إليه بحرف الانتهاء غالبا وهو (إلى)، وقد يعدّى بلام التعليل داخلة على ما جعل سببا للدعوة فإن العلّة تدل على المعلول، كقوله تعالى {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ} [نوح: 7]، أي دعوتهم إلى إلى الإيمان لتغفر لهم، وهو في هذه الآية كذلك، أي يدعوكم إلى التوحيد ليغفر لكم.

{ **قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** }

أرادوا إفحام الرسل بقطع المجادلة النظريّة، فنفوا اختصاص الرسل بشيء زائد في صورتهم البشريّة يعلم به أنّ الله اصطفاهم دون غيرهم، فلذلك طالبوا رسلهم أن يأتوا بحجّة محسوسة تثبت أنّ الله اختارهم للرسالة.

وعبّروا عن دينهم بالموصوليّة لما تؤذن به الصلة من التنويه بدينهم بأنه متقلّد آبائهم الذين يحسبونهم معصومين من اتباع الباطل، وللأمم تقديس لأسلافها.

{ **فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } لأنّ مجرد كونهم بشرا لا يقتضي مطالبتهم بالإتيان بسلطان مبين وإنّما اقتضاه أنّهم جاءوهم بإبطال دين قومهم، وهو مضمون ما أرسلوا به.

السلطان: الحجّة. وتقدّم في قوله { أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [الأعراف:71].

المبين: الواضح الذي لا احتمال فيه لغير ما دلّ عليه.

{ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [11] وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [12].

{ **إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } تقرير للدليل ولكنّه تمهيد لبيان غلط المستدلّ في الاستنتاج من دليله. ومحل البيان هو الاستدراك { **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** }. والمعنى: أنّ المماثلة في البشريّة لا تقتضي المماثلة في الزائد عليها، فالبشر كلّهم عباد الله والله يمنّ على من يشاء من عباده بنعم لم يعطها غيرهم. فالاستدراك رفع لما توهّموه من كون المماثلة في البشريّة تقتضي الاستواء في كل خصلة.

{ **وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } ثم عطفوا على ذلك تبيين أنّ ما سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين ليس ذلك إليهم ولكنّه بمشيئة الله وليس الله بمكرَه على إجابة من يتحدّاه.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } أمر لمن آمن من قومهم بالتوكّل على الله، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوّليّا لأنّهم أوّل المؤمنين. وتقديم المجرور مؤذن بالحصر وأنّهم لا يرجون نصرا من غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم. وفيه إيماء إلى أنّهم واثقون بنصر الله.

التوكّل: الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بأنّه أعلم بما يصلح، فالتوكّل على الله تحقّق أنّه أعلم بما ينفع أولياءه من خير الدنيا والآخرة. وتقدّم الكلام عنه عند قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } آل عمران:59].

والجملة استدلال على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله، لأنّهم رأوا بوارق عنايته بهم إذ هداهم إلى طرائق النجاة والخير.

{ **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا** }

جاءوا بإنكار نفي التوكل على الله. وزادوا قومهم تأييسا من التأثّر بالأذى فأقسموا على أنّ صبرهم على أذى قومهم سيستمر، فصيغة الاستقبال المستفادة من المضارع المؤكّد بنون التوكيد في { **لَنَصْبِرَنَّ** } دلّت على أذى مستقبل. ودلت صيغة الماضي المنتزع منها المصدر في قوله { **مَا آذَيْتُمُونَا** } على أذى مضى، فحصل من ذلك معنى نصبر على أذى متوقّع، كما صبرنا على أذى مضى، وهذا إيجاز بديع.

{ **وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يحتمل أن تكون من بقية كلام الرسل فتكون تذييلا وتأكيد لجملة السابقة، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، فهي تذييل للقصّة وتنويه بشأن المتوكّلين على الله.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ [13] وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}[14].

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } تغيير أسلوب الحكاية بطريق الإظهار دون الإضمار يؤذن بأنّ المراد هنا غير الكافرين الذين تقدّمت الحكاية عنهم، فإنّ الحكاية عنهم كانت بطريق الإضمار. فالظاهر عندي أنّ المراد هنا كفار قريش على طريقة التوجيه. وأنّ المراد بـ { **رُسُلِهِمْ** } الرّسول محمد ﷺ، أجريت على وصفه صيغة الجمع. وإطلاق صيغة الجمع على الواحد مجاز: **إما استعارة** إن كان فيه مراعاة تشبيه الواحد بالجمع تعظيما له كما في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ } [المؤمنون:99]. **وإمّا مجاز مرسل** إذا روعي فيه قصد التعمية، فعلاقته الإطلاق والتقيد. والعدول عن الحقيقة إليه لقصد التعمية.

ويؤيّده قوله بعد ذلك { وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ } فإنّه لا يعرف أنّ رسولا من رسل الأمم السالفة دخل أرض مكذّبيه بعد هلاكهم وامتلكها إلّا النبيء محمدا ﷺ، قال في حجة الوداع: " منزلنا إن شاء الله غدا بالخَيْف خَيْفَ بني كنانة حيثُ تقاسموا على الكفر".

وعلى تقدير أن يكون المراد بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } في هذه الآية نفس المراد من الأقوام السالفين فالإظهار في مقام الإضمار لزيادة تسجيل اتّصافهم بالكفر حتّى صار الخصلة التي يعرفون بها. وعلى هذا التقدير يكون المراد من الرسل ظاهر الجمع، فيكون هذا التوعّد شنشنة الأمم ويكون الإيماء إليهم به سنّة الله مع رسله.

العود: الرجوع إلى شيء بعد مفارقته. ولم يكن أحد من الرسل متّبعا ملّة الكفر بل كانوا منعزلين عن المشركين دون تغيير عليهم. فكان المشركون يحسبونهم موافقين لهم.

الملّة: الدين. وقد تقدّم عند قوله تعالى { دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [الأنعام :161].

{ **فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ** } تفريع على ما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض، أي أوحى الله إلى الرّسل ما يثبّت به قلوبهم، وهو الوعد بإهلاك الظالمين.

{ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ** } وإسكان الأرض التمكين منها وتخويلها إيّاهم، كقوله { وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ } [الأحزاب: 27]. والخطاب للرّسل والذين آمنوا بهم، فلا يقتضي أن يسكن الرّسول بأرض عدوّه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون، كما مكّن الله لرسوله مكّة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها.

{ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** } إشارة إلى المذكور من الإهلاك والإسكان المأخوذين من { لَنُهْلِكَنَّ - وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ }. واللام للملك، أي ذلك عطاء وتمليك لمن خاف مقامي.

{ **خَافَ مَقَامِي** } خافني، فلفظ (مقام) مقحم للمبالغة في تعلّق الفعل بمفعوله، كقوله تعالى { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن: 64]. وخوف الله: هو خوف غضبه، لأنّ غضب الله أمر مكروه لدى عبيده.

{ **وَخَافَ وَعِيدِ** } عطف على { خَافَ مَقَامِي } مع إعادة فعل { خَافَ } لأنّ هذه الصلة وإن كان صريحها ثناء على المخاطبين فالمراد منها التعريض بالكافرين بأنّهم لا يخافون وعيد الله، ولولا ذلك لكانت جملة {خَافَ مَقَامِي} تغني عن هذه الجملة، فإن المشركين لم يعبأوا بوعيد الله وحسبوه عبثا. ولذلك لم يجمع بينهما في سورة البينة [8] { ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } لأنّه في سياق ذكر نعيم المؤمنين خاصة.

وهذه الآية في ذكر إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم فكان المقام للفريقين، فجمع في جزاء المؤمنين بإدماج التعريض بوعيد الكافرين، وفي الجمع بينهما دلالة على أنّ من حقّ المؤمن أن يخاف غضب ربّه وأن يخاف وعيده، وأولئك هم المتّقون الصالحون.

{ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [15] مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ [16] يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ}[17].

يجوز أن تكون معطوفة على { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ } وضمير { وَاسْتَفْتَحُوا } عائد إلى الرسل، أي فوعدهم الله النصر وخاب الذين كفروا، أي لم يتحقّق توعّدهم الرسل بقولهم {لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}. ويجوز أن تكون { وَاسْتَفْتَحُوا } عطفا على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ } ويكون ضمير { اسْتَفْتَحُوا } عائدا على الذين { كَفَرُوا } ، أي وطلبوا النصر على رسلهم فخابوا في ذلك.

الاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر، قال تعالى { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ } [الأنفال 19].

الجبّار: المتعاظم شديد التكبّر. و**العنيد**: المعاند للحق. وتقدّما في قوله { وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود:59]. والمراد بهم المشركون المتعاظمون، فوصف {جَبَّارٍ} خلق نفساني، ووصف {عَنِيدٍ} من أثر وصف {جبّار} لأنّ العنيد المكابر معارض للحجّة.

{ **مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ** } أي خاب الجبّار العنيد في الدنيا وليس ذلك حظّة من العقاب بل وراءه عقاب الآخرة.
الوراء: مستعمل في معنى ما ينتظره ويحلّ به من بعد، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول، كالشيء الذي يكون من وراء المرء لا يشعر به لأنّه لا يراه. والمعنى: أنّ جهنّم تنتظره فهو صائر إليها بعد موته.
الصديد: المُهلة. أي مثل الماء يسيل من الدمل ونحوه، والمعنى: ويسقى صديدا عوض الماء.
التجرّع: تكلّف الجَرْع، والجرع: بلع الماء.
{ **وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ** } السوغ: انحدار الشراب سلسا في الحلق، يقال: شراب سائغ. والمعنى لا يقارب أن يسيغه فضلا عن أن يسيغه بالفعل.
{ **وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ** } أي حلول آلمه وسكراته، بقرينة قوله { وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ }، أي ولا يموت فيستريح.
{ **وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** } مثل الكلام في قوله { مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ }، أي ينتظره عذاب آخر.
الغليظ: حقيقته الخشن، وهو مستعمل هنا في القوّة والشدّة، أي عذاب ليس بأخفّ مما هو فيه. وتقدّم عند قوله { وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود:58].

{ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ }[18]

تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة. وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق من شدّة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أنّ لهم أعمالا من الصلة والمعروف: من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقرى ضيوف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتمار، ورفادة الحجيج، فهل يجدون ثواب ذلك؟
المثل: الحالة العجيبة، أي حال الذين كفروا العجيبة أنّ أعمالهم كرماد.
شُبهت أعمالهم برماد مكدّس فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتثر وتفرق تفرقا لا يرجى معه اجتماعه. ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمّعه، والهيئة المشبهة معقولة.
ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلي، أي عاصف ريحه، كما يقال: يوم ماطر، أي سحابه.
الرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم.
العاصف: تقدّم في قوله { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22].
ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المجتمع، لأنّ الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا

وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف، حتّى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم.
قرأ نافع وأبو جعفر{ الرياح } وقراه البقية { الرِّيحُ } بالإفراد، وهما سواء لأن التعريف تعريف الجنس.
{ **لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ** } بيان لجملة التشبيه، أي ذهبت أعمالهم سدى فلا ينتفعون بشيء منها.
{ **ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ** } تذييل جامع لخلاصة حالهم، وهي أنّها ضلال بعيد. والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيته، وقد تقدم في قوله تعالى {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً} [النساء:116].

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** [19] **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** } [20].

استئناف بياني في موقع التعليل لجملة الاستئناف، قدّم عليها كما تجعل النتيجة مقدمة في الخطابة والجدال على دليلها. وقد بيّنّاه في كتاب (أصول الخطابة). ومناسبة موقع هذا الاستئناف ما سبقه من تفرّق الرماد في يوم عاصف.
{ **أَلَمْ تَرَ** } الخطاب لكلّ من يصلح للخطاب، وكلّ من يُظنّ به التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين.
الرؤية: مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتأمّل، لأنّ السماوات والأرض مشاهدة لكل ناظر، وأمّا كونها مخلوقة لله فمحتاج إلى أقل تأمّل لسهولة الانتقال من المشاهدة إلى العلم. فلمّا كان أصل ذلك رؤية المخلوقات المذكورة علّق الاستدلال على الرؤية. كقوله تعالى {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس:101].
الحقّ هنا: الحكمة، أي ضدّ العبث، بدليل مقابلته به في قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الدخان:38، 39].
{ **يُذْهِبْكُمْ** } الخطاب لجماعة من جملتهم المخاطب بـ { أَلَمْ تَرَ }. والمقصود: التعريض بالمشركين خاصة، تأكيدا لوعيدهم الذي اقتضاه قوله { لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ }.
{ **وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** } إيماء إلى أنّه يُذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين.
{ **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** } عطف للتأكيد، وإنّما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكّد في الجملة بأنّه يفيد أنّه سهل عليه هيّن، كقوله {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم:27].
العزيز: الممتنع بقوّته وقدرته.

{ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } [21]

عطف على { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } [20] باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب، و في الكلام محذوف، إذ التقدير: فأذهبهم وبرزوا لله جميعا، أي يوم القيامة. وعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتّى كأنّه قد وقع.

البروز: الخروج من مكان. والمعنى هنا: حشروا من القبور. و{جَمِيعاً} تأكيد ليشمل جميعهم من سادة ولفيفٍ. وقد جيء في هذه الآية و التي بعدها بوصف حال الفرق يوم القيامة، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم، ومجادلة الجميع للشيطان، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بنُزل الكرامة. والغرض من ذلك تنبيه النّاس إلى تدارك شأنهم.

الضعفاء: عوام النّاس والأتباع.

الذين استكبروا: السادة، لأنّهم يتكبّرون على العموم.. والسين والتاء للمبالغة في الكبر.

التبع: اسم جمع التابع مثل الخدم.

{ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا } الاستفهام مستعمل في التورّك والتوبيخ والتنكيت، لأنّهم آيسون منهم لما رأوا آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم. ، فعلموا أنّهم قد غرّوهم في الدنيا. أي فأظهروا مكانتكم عند الله التي كنتم تدعونها وتغروننا بها في الدنيا.

{ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } (من) الأولى بدلية، أي غناء بدلا عن عذاب الله. والمعنى: هل تغنون عنا شيئا.

{ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ } جواب المستكبرين اعتذار عن تغريرهم بأنّهم ما قصدوا به توريط أتباعهم كيف وقد ورّطوا أنفسهم أيضا. أي لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا.

{ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا } من كلام الذين استكبروا. وهي مستأنفة تبيين عن سؤال من الضعفاء. فضمير المتكلّم المشارك شامل للمتكلمين والمجابين، جمعوا أنفسهم إتماما للاعتذار عن توريطهم.

الجزع: حزن مشوب باضطراب، و**الصبر** تقدّم.

{ مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } واقعة موقع التعليل لمعنى الاستواء، أي حيث لا محيص ولا نجاة.

المحيص: مصدر ميمي كالمغيب والمشيب وهو **النجاة**. ويقال: حاص عنه، أي نجا منه. ويجوز أن يكون اسم مكان من حاص أيضا، أي ما لنا **ملجأ** ومكان ننجو فيه.

{ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[22]

أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة وهو الشيطان. على أنّ قوله { فَلا تَلُومُونِي } يظهر منه أنّه توجه إليه ملام صريح، ويحتمل أنّه توقعه فدفعه قبل وقوعه وأنّه يتوجّه إليه بطريقة التعريض. والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه لأنّ هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضماره الشرّ لهم فيما وعدهم في الدنيا، ممّا شأنه أن يستفزّ غضبهم من كيده لهم وسخريّته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنّهم بما يتوقّعون إتيانه إليهم من قبله. وذلك أصل عظيم في الموعظة والتربية.

{ **قُضِيَ الْأَمْرُ** } تمّم الشأن، أي إذن الله وحكمه. ومعنى إتمامه: ظهوره، وهو أمره تعالى بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية، قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [يس:59]، وذلك بتوجيه كل فريق إلى مقرّه الذي استحقّه بعمله، فيتصدى الشيطان للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلّهم معه في تبعة ضلالهم، وقد أنطقه الله بذلك لإعلان الحقّ، وشهادة عليهم بأنّ لهم كسبا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحقّ. فهذا شبيه شهدة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقولهم لهم { أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } إظهارا للحقيقة وتسجيلا على أهل الضلالة وقمعا لسفسطتهم. وأخبر الله بها الناس استقصاء في الإبلاغ ليحيط النّاس علما بكل ما سيحل بهم. وإيقاظا لهم ليتأمّلوا الحقائق الخفيّة فتصبح بيّنة واضحة.

{ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ** } وإضافة {وَعْدَ} إلى {الْحَقِّ} من إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف، أي الوعد الحق الذي لا نقض له.

الحق: هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به. وضدّه: الإخلاف، ولذلك قال { وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ }، أي كذبت موعدي. وشمل وعد الحقّ جميع ما وعدهم الله بالقرآن على لسان رسوله ﷺ. وشمل الخلف جميع ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه، وما يعدهم إلّا غرورا.

{ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ }

السلطان: اسم مصدر، تسلّط عليه، أي غلبه وقهره، أي لم أكن مجبرا لكم على اتّباعي فيما أمرتكم.

والاستثناء منقطع لأنّ ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله. فالمعنى: لكني دعوتكم فاستجبتم لي.

{ **فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ** }. والمقصود: لوموا أنفسكم إذ قبلتم إشارتي ودعوتي.

{ **مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ** }، بيان لجملة النهي عن لومه، لأنّ لومه فيه تعريض بانّهم يتطلّبون منه حيلة لنجاتهم، فنفى ذلك عن نفسه بعد أن نهاهم عن أن يلوموه.

الإصراخ: الإغاثة، اشتق من الصراخ، لأنّ المستغيث يصرخ بأعلى صوته، فقيل: أصرخه، إذا أجاب صراخه، كما قالوا: أعتبه، إذا قبل استعتابه.

{ **إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ** } استئناف آخر من تبعات عبادتهم إيّاه قصد منه دفع زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع لله تعالى.

{ **كَفَرْتُ** } أراد شدّة التبرّي من إشراكهم إيّاه في العبادة. فإن أراد من ماضي فعل { كَفَرْتُ } ماضي الأزمنة كلّها، أي كنت غير راض بإشراككم إياي، فهو كذب منه أظهر به التذلّل، وإن كان مراده من الماضي إنشاء عدم الرضى بإشراكهم إيّاه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يقبل متاب.

والإشراك الذي كفر به، إشراكهم إيّاه في العبادة، بأن عبدوه مع الله، لأنّ من المشركين من يعبدون الشياطين والجنّ، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته.

{ **إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } من الكلام المحكي عن الشيطان. وهي في موقع التعليل لما تقدّم.

{ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ }[23]

انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين، لأنّ حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهارا لتفاوت الأحوال، فلم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيها لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنّهم حينئذ في سلامة ودعه.

ويجوز جعل الواو للحال، أي برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان، وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات، فيكون إشارة إلى أنّهم فازوا بنزل الكرامة من أوّل وهلة.

{ **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** } إشارة إلى العناية والاهتمام، فهو إذن أخصّ من أمر القضاء العام.

{ **تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ** } تقدّم نظيره في أول سورة يونس.

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ [24] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [25] وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } [26].

استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية. فضرب الله مثلا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك.

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً } إيقاظ ليترقّب ما يرد بعد هذا الكلام، وذلك مثل قولهم: ألم تعلم. ولم يكن هذا المثل مما سبق ضربه قبل نزول الآية، فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل.

{ أَلَمْ } الاستفهام نزّل المخاطب منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم، أو هو مستعمل في التعجّب من عدم العلم بذلك مع أنّه ممّا تتوفّر الدواعي على علمه. أو هو للتقرير. ومثله في التقرير كثير، وهو كناية في التحريض على العلم بذلك. والخطاب لكل من يصلح للخطاب.

{ ضَرَبَ اللَّهُ } إسناده إلى اسم الجلالة لأنّ الله أوحى به إلى الرسول ﷺ

{ مَثَلاً } تقدّم في قوله { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].

{ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... }

الكلمة الطيبة : قيل هي كلمة الإسلام، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

الكلمة الخبيثة: كلمة الشرك.

الطيبة: النافعة. استعير الطيب للنفع لحسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكيّة.

الفرع: ما امتد من الشيء وعلا، مشتقّ من الافتراع وهو الاعتلاء. وفرع الشجرة: غصنها.

السماء: مستعمل في الارتفاع، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر.

الأُكل: (بضم الهمزة) المأكول. وتقدّم عند قوله { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ } [الرعد:4].

فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحسّ والفرح في النفس وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها. وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلا لجمع التشبيه وتفريعه.

{ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ... }

وكذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضدّ بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد، وضيق الصدر، وكدر التفكير، والضرّ المتعاقب. وقد اختصر فيها التمثيل اختصارا

اكتفاء بالمضاد، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيّبة.

وفي جامع الترمذي عن إنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: " {مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} قال: هي النخلة . { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} قال: هي الحنظل ".

{ **اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ** } لأنّ النّاس لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها.

الاجتثاث: قطع الشيء كلّه، مشتق من الجُثّة وهي الذات.

{ **مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ** } تأكيد لمعنى الاجتثاث لأنّ الاجتثاث من انعدام القرار.

والأظهر أنّ المراد بالكلمة الطيبة القرآن وإرشاده، وبالكلمة الخبيثة تعاليم أهل الشرك وعقائدهم.

{ **كَلِمَةٍ** } في الموضعين مطلقة على القول والكلام، كما دل عليه قوله { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ }.

والمقصود مع التمثيل إظهار المقابلة بين الحالين بتمثيل كل حالة على حدة بخلاف ما يأتي عند قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً }[النحل:75]، فانظر بيانه هنالك.

{ **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

{ **لَعَلَّهُمْ** } رجاء تذكّرهم، أي تهيئة التذكّر لهم، وقد مضت نظائرها.

{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } [27]

جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عما أثاره تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الثابتة.

{ **بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** } الكلام الصادق الذي لا شك فيه. والمراد به أقوال القرآن لأنّها صادقة المعاني واضحة الدليل. والباء في { بِالْقَوْلِ } للسببية.

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } ومعنى تثبيت الذين آمنوا بها، أنّ الله يسّر لهم فهم الأقوال الإلهيّة على وجهها وإدراك دلائلها حتّى اطمأنت إليها قلوبهم ولم يخامرهم فيها شك فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير متردّدين. وذلك في الحياة الدنيا ظاهر، وأمّا في الآخرة فبإلفائهم الأحوال على نحو ما علموه في الدنيا، فلم تعترهم ندامة ولا لهف. ويكون ذلك بمظاهر كثيرة يظهر فيها ثباتهم بالحقّ قولا وانسياقا، وتظهر فيها فتنة غير المؤمنين في الأحوال كلها. ومن مظاهر هذا التثبيت فيهما ما ورد من وصف فتنة سؤال القبر. روى البخاري والترمذي عن البراء بن عازب أنّ رسول الله ﷺ قال: " المسلم إذا سئل في القبر يشهد أنّ لا إله إلا

الله وأنّ محمدا رسول الله "، فذلك قوله تعالى {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}.

{ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** } ، أي المشركين، أي يجعلهم في حيرة وعماية في الدنيا وفي الآخرة.

الضلال: اضطراب وارتباك. فهو الأثر المناسب لسببه، أعني الكلمة التي اجتثت من فوق الأرض كما دلّت عليه المقابلة.

{ **وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** } كالتذييل لما قبلها. وتحت إبهام {مَا يَشَاءُ} وعمومه مطاو كثيرة، من ارتباط ذلك بمراتب النفوس، وصفاء النيات في تطلب الإرشاد. وفي كل تلك الأحوال مراتب ودرجات لا تبلغ عقول البشر تفصيلها. وإظهار اسم الجلالة لقصد أن تكون كلّ جملة مستقلة بدلالتها حتّى تسير مسير المثل.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ [28] جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [29].

ابتدئ بذكر أحوال المشركين لأنّها أعجب والعبرة بها أولى والحذر مقدّم على التحلي بضدها، ثم أعقب بذكر أحوال المؤمنين بقوله { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا } [31]. والاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ذلك.

الرؤية: هنا بصريّة متعلقها مما يُرى، ولأنّ تعديّة فعلها بـ { إِلَى } يرجّح ذلك، كما في قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } [البقرة:258]. وقد نزل المخاطب منزلة من لم ير. والخطاب لمن يصحّ منه النظر إلى حال هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله مع وضوح حالهم.

الكفر: كفران النعمة، وهو ضدّ الشكر، والإشراك بالله من كفران نعمته.

{ **بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً** } محسن الاحتباك. وتقدير الكلام: بدلوا نعمة الله وشكرها كفرا بها. واستعير التبديل لوضع الشيء في الموضع الذي يستحقّه شيء آخر، لأنّه يشبه تبديل الذات بالذات.

والذين بدّلوا هذا التبديل هم الذين تلقّوا الكلمة الخبيثة من الشيطان، أي كلمة الشرك، وهم الذين استكبروا من مشركي أهل مكّة فكابروا دعوة الإسلام وكذّبوا النبيء ﷺ، وشرّدوا من استطاعوا، وتسبّبوا في إحلال قومهم دار البوار، فإسناد فعل { أَحَلُّوا } إليهم على طريقة المجاز العقلي.

ونعمة الله التي بدّلوها هي نعمة أن بوّأهم حرمه، وأمّنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة النّاس تهوي إليهم، وسلّمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة. ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه ﷺ وهداهم إلى الحقّ، وهيأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدّلوا شكر ذلك بالكفر به.

قومهم: هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتّى ماتوا كفّارا، فهم أحقّ بأن يضافوا إليهم.

البوار: الهلاك والخسران. **وداره**: محلّه الذي وقع فيه.

الإحلال بها: الإنزال فيها. والمراد بالإحلال التسبّب فيه، أي كانوا سببا لحلول قومهم بدار البوار. وهي جهنّم في الآخرة. وبه فسّر علي وابن عباس وكثير من العلماء، ويجوز أن تكون أرض بدر وهو رواية عن علي وعن ابن عباس. واستعمال صيغة الماضي في { أَحَلُّوا } لقصد التحقيق.

{ **وَبِئْسَ الْقَرَارُ** } عطف على جملة {يَصْلَوْنَهَا} ، أو حال من {جَهَنَّمَ}. والتقدير: وبئس القرار هي.

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ }[30]

الضمير راجع إلى { الَّذِينَ بَدَّلُوا } وهم أئمة الشرك.

{ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً** } والجعل يصدق على من اخترع ذلك، كما فعل عمرو بن لحي وهو من خزاعة. ويصدق على من أقرّ به ونشره واحتجّ له، مثل وضع أهل مكّة الأصنام في الكعبة.

الأنداد: جمع نِدّ (بكسر النون)، وهو المماثل في مجد ورفعة، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً } [البقرة:22].

سبيل الله: كل عمل يجري على ما يرضي الله. شبّه العمل بالطريق الموصلة، وقد تقدّم غير مرة.

{ **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ المخاطب بـ {أَلَمْ تَرَ } إذا علم هذه الأحوال يتساءل عن الجزاء المناسب لجرمهم وكيف تركهم الله يرفلون في النعيم، فأجيب بأنّهم يصيرون إلى النّار، أي يموتون فيصيرون إلى العذاب. وهذا كقوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران :196، 197].

{ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ } [31].

استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقّت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله، وهو الفريق الذي حقّت عليه الكلمة الطيّبة. فلما ابتدئ بالفريق الأوّل لقصد الموعظة والتخلّي ثُنّي بالفريق الثاني على طريقة الاعتراض بين أغراض الكلام كما سيأتي في الآية عقبها. ونظيره قوله تعالى { وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً - إلى أن قال - وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [الإسراء:50، 52].

ولمّا كانوا متحلّين بالكمال صيغ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان، وبصيغة الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك، فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين.

ولمّا كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعين أنّ المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأنّ المضارع دال على التجدّد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبّس بالفعل الذي يؤمر به، بخلاف صيغة (افعل) فإنّ أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسا به. فأصل { يُقِيمُوا الصَّلاةَ } ليقيموا، فحذفت لام الأمر تخفيفا.

{ **مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** } للتذكير بالنعمة تحريضا على الإنفاق ليكون شكرا للنعمة.

{ **سِرّاً وَعَلانِيَةً** } حالان من ضمير {يُنْفِقُوا}. وهما مصدران. وتقدّم عند قوله {سِرّاً وَعَلانِيَةً} [البقرة:274]. والمقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق، فربّما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل نفع كثير وثواب جزيل، فبين الله للنّاس أنّ الإنفاق برّ لا يكدّره ما يحف به من الأحوال، " وإنّما الأعمال بالنيّات ". وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ } [التوبة: 79].

وقيل المقصود من السرّ الإنفاق المتطوّع به، ومن العلانية الإنفاق الواجب. وتقديم السرّ على العلانيّة تنبيه على أنّه أولى الحالين لبعده عن خواطر الرياء، ولأنّ فيه استبقاء لبعض حياء المتصدّق عليه.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ** } أي ليفعلوا ذينك الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذر فيه المعاوضات والإنفاق. وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنّون أن يكونوا ازدادوا من ذينك لما يسرّهم من ثوابهما فلا يجدون سبيلا للاستزادة منهما، إذ لا بيع يومئذ فيشتري الثواب ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف بالثواب. **فالمراد بالبيع المعاوضة وبالخلال الكناية عن التبرّع.** ونظيره قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } [البقرة:254].

وبهذا تبين أن المراد من الخلال هنا آثارها، بقرينة المقام، وليس المراد نفي الخلّة، أي الصحبة والمودّة لأنّ المودّة ثابتة بين المتقين، قال تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف:67].

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ [32] وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [33] وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [34].

استئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمّنته جملة { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً }. وقد فصل بينه وبين المستدلّ عليه بجملة { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ }. وأدمج في الاستدلال تعداده لنعم تستحق الشكر عليها ليظهر حال الذين كفروها، وبالضدّ حال الذين شكروا عليها، وليزداد الشاكرون شكرا. فالمقصود الأول هو الاستدلال على أهل الجاهلية، كما يدل عليه تعقيبه بقوله { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [35]. فجيء في هذه الآية بنعم عامة مشهودة محسوسة لا يستطاع إنكارها، إلّا أنّها للتذكير بأنّ المنعم بها وموجدها هو الله تعالى.

{ **اللَّهُ الَّذِي** } افتتح الكلام باسم الموجد لأنّ تعينه هو الغرض الأهم. وأخبر عنه بالموصول لأنّ الصلة معلومة الانتساب إليه والثبوت له، إذ لا ينازع المشركون في أنّ الله هو صاحب الخلق ولا يدّعون أنّ الأصنام تخلق شيئا، كما قال { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان: 25]، فخلق السماوات والأرض دليل على إلهية خالقها وتمهيد للنعم المودعة فيها؛ كإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإخراج الثمرات من الأرض، والبحار والأنهار من الأرض. والشمس والقمر من السماء، والليل والنهار من السماء ومن الأرض، وقد مضى بيان هذه النعم في آيات مضت.

الرزق: القوت.

التسخير: حقيقته التذليل والتطويع، وهو مجاز في جعل الشيء قابلا لتصرّف غيره فيه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54]. ومعنى **تسخير الفلك**: تسخير ذاتها بإلهام البشر لصنعها وشكلها بكيفية تجري في البحر بدون مانع.

{ **بِأَمْرِهِ** } متعلق بـ {تَجْرِيَ}، والأمر هنا الإذن، أي تيسير جريها في البحر، وذلك بكفّ العواصف عنها وبإعانتها بالريح الرخاء، وهذا كقوله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} [الحج: 65]. وقد بينته آية { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ } [سورة الشورى: 32- 33].

تسخير الأنهار: خلقها على كيفيّة تقتضي انتقال الماء من مكان إلى مكان وقراره في بعض المنخفضات

فيستقي منه من تمرّ عليه وينزل على ضفافه حيث تستقرّ مياهه. وخلق بعضها مستمرّة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها.

تسخير الشمس والقمر: خلقهما بأحوال ناسبت انتفاع البشر بضيائهما، وضبط أوقاتهم بسيرهما.

{ **دَائِبَيْنِ** } دائبين على حالات لا تختلف إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها فوقعوا في حيرة وشك.

الفلك: جمع لفظه كلفظ مفرده. وتقدّم عند قوله {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} [البقرة:164].

{ **وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ** } أعطاكم بعضا من جميع مرغوباتكم الخارجة عن اكتسابكم بحيث شأنكم فيها أن تسألوا الله إيّاها، وذلك مثل توالد الأنعام، وإخراج الثمار والحبّ، ودفع العوادي عن جميع ذلك: كدفع الأمراض عن الأنعام، ودفع الجوائح عن الثمار والحبّ. فالجملة تعميم بعد خصوص، فهي بمنزلة التذييل لما قبلها لحكم يعلمها الله ولا يعلمونها { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى: 27]، فالإنعام والامتنان يكون بمقدار البذل لا بمقدار الحرمان.

{ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** } تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم، تنبيها على أنّ ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أو لا يتذكّرونه عند إرادة تعداد النعم. وذلك مثل النعم المعتاد بها التي ينسى النّاس أنّها من النعم، كنعمة النفس، ونعمة الحواس، ونعمة هضم الطعام والشراب، ونعمة الدورة الدموية، ونعمة الصحة.

الإحصاء: ضبط العدد، وهو مشتق من الحَصَا اسما للعدد، وهو منقول من الحصى، وهو صغار الحجارة لأنّهم كانوا يعدّون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للغلط.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** } تأكيد لمعنى الاستفهام الإنكاري المستعمل في تحقيق تبديل النعمة كفرا، فلذلك فصلت عنها .و{ **الْإِنْسَانَ** } هنا هو صنف من الناس، وهو المشرك، مثل الذي في قوله { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [الشورى: 66]، وهو استعمال كثير في القرآن.

{ **ظَلُومٌ كَفَّارٌ** } صيغتا المبالغة اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا }، إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها، إذ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئا.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [35] رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [36].

عطف على { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً } [28] فإنّهم كما بدّلوا نعمة الله كفرا أهملوا الشكر على ما بوّأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم - عليه السلام - وبدّلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء

بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدّلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرا بمُفيض تلك النّعم.

ويجوز أن تكون معطوفة على { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } بأن انتقل من ذكر النعم العامة للنّاس التي يدخل تحت منّتها أهل مكّة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خص الله بها أهل مكّة. وغيّر الأسلوب في الامتنان بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم - عليه السلام - والتعريض بذرّيّته من المشركين.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ } اسم زمان ماض منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، زيادة في التعجيب من شأن المشركين.

{ رَبِّ } منادى محذوف منه حرف النداء. وأصله (ربي)، حذفت ياء المتكلّم تخفيفا، وهو كثير في المنادى المضاف إلى الياء.

البلد: المكان المعيّن من الأرض، ويطلق على القرية. والتعريف تعريف العهد لأنّه معهود بالحضور.

وحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يرد بعده البيان بقوله {عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } [37]. وقد مضى في سورة البقرة تفسير نظيره. والتعريف هنا للعهد، والتنكير في آية البقرة تنكير النوعيّة، فهنا دعا للبلد بأن يكون آمنا، وفي آية سورة البقرة دعا لمشار إليه أن يجعله الله من نوع البلاد الآمنة، فمآل المفادين متّحد.

{ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ }، { وَاجْنُبْنِي } أمر من الثلاثي المجرّد، يقال: جنبه الشيء، إذا جعله جانبا عنه، أي باعده عنه، وهي لغة أهل نجد. وأهل الحجاز يقولون: جنّبه بالتضعيف أو أجنبه بالهمز. وجاء القرآن هنا بلغة أهل نجد لأنّها أخف.

{ وَبَنِيَّ } أبناء صلبه، وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق، فهو من استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جميع نسله تعميما في الخير فاستجيب له في البعض.

الأصنام: جمع صنم، وهو صورة أو حجارة أو بناء يتّخذ معبودا ويدعى إلها. وأراد إبراهيم - عليه السلام - مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، أصنام قوم نوح، ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم.

{ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ } وإعادة النداء لإنشاء التحسر على ذلك .والكلام تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها، بأنّها ضلال راج بين كثير من النّاس، فحقّ للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفه فتنتها.

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد لما يفيده حرف (إنّ) في هذا المقام من معنى التعليل.

وذلك أن إبراهيم - عليه السلام - خرج من بلده (**أور**) بلد الكلدانيين إنكارا على عبدة الأصنام، فقال { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: 99] وقال لقومه { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [مريم: 48]. فلمّا مرّ بمصر وجدهم يعبدون الأصنام ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء عَرَبَةَ تهامة فأسكن بها زوجه فوجدها خالية ووجد حولها (**جُرهم**) قوما على الفطرة والسذاجة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل -

عليه السلام -. ثم أقام هنالك معلم التوحيد، وهو بيت الله الكعبة بناه هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون مأوى التوحيد، وأقام ابنه هنالك ليكون داعية للتوحيد. فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلدا آمنا حتّى يسلم ساكنوه وحتّى يأوى إليهم من إذا آوى إليهم لقّنوه أصول التوحيد.

{ **فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي** } ، أي فمن تبعني من النّاس فتجنّب عبادة الأصنام فهو منّي. فدخل في ذلك أبوه وقومه، ويدخل فيه ذرّيّته لأنّ الشرط يصلح للماضي والمستقبل.

{ **وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تأدّب في مقام الدعاء، ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه.

والمعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى.

وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم - عليه السلام - وخشية من استئصال عصاة ذريته. ولذلك متّعهم الله قليلا في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله { قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 126] وقوله { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ } [الزخرف: 27].

وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنّهم لم يبرّوا بأبيهم إبراهيم - عليه السلام - .

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }[37]

جملة مستأنفة لابتداء دعاء آخر. وافتتحت بالنداء لزيادة التضرّع. وفي كون النداء تأكيدا لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله.

وأضيف الربّ هنا إلى ضمير الجمع خلافا لسابقيه لأنّ الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه. ولعلّ إسماعيل - عليه السلام - حاضر معه حين الدعاء كما تدلّ له الآية الأخرى { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} - إلى قوله - وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } [البقرة:127].

{ **مِنْ ذُرِّيَّتِي** } يعني إسماعيل - عليه السلام - وهو بعض ذرّيّته، فكان هذا الدعاء صدر من إبراهيم - عليه السلام - بعد زمان من بناء الكعبة وتقرّي مكّة.

الواد: الأرض بين الجبال، وهو وادي مكّة.

{ **غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** } صفة، أي بواد لا يصلح للنبت لأنّه حجارة، فإنّ كلمة ذو تدلّ على صاحب ما أضيفت إليه وتمكّنه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمال ثابت له، وإذا أريد ضد ذلك قيل: غير ذي مال، كقوله تعالى { قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } [الزمر: 28]، أي لا يعتريه شيء من العوج.

{ **عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** } صفة ثانية لواد أو حال. و**المحرّم**: المُمَنّع من تناول الأيدي إيّاه بما يفسده أو يضرّ أهله بما جعل الله له في نفوس الأمم من التوقير والتعظيم.

{ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ** } أي أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معمورا أبدا.

{ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ** } فرّع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، لأنّ همّة الصالحين في إقامة الدين.

الأفئدة: جمع فؤاد، وهو القلب. والمراد هنا النفس والعقل. والمعنى: فاجعل أناسا يقصدونهم برغبة وشوق.

تهوي: مضارع هوَى (بفتح الواو): سقط. وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة، ولذلك عدّي باللام. وهو كناية عن المحبّة والشوق إلى زيارتهم.

والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردّد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم.

ومحبّة النّاس إيّاهم يحصل معها محبّة البلد وتكرير زيارته، وذلك سبب لاستئناسهم به ورغبتهم في إقامة شعائره، فيؤول إلى الدعوة إلى الدين.

{ **لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** } ورجاء شكرهم داخل في الدعاء لأنّه جعل تكملة له تعرّضا للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بان يكونوا من الشاكرين.

{ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ}[38]

جاء بهذا التوجّه إلى الله جامعا لما في ضميره، وفذلكة للجمل الماضية لما اشتملت عليه من ذكر ضلال كثير من النّاس، وذكر من اتبع دعوته ومن عصاه، وذكر أنّه أراد من إسكان أبنائه بمكّة رجاء أن يكونوا حرّاس بيت الله، وأن يقيموا الصلاة، وأن يشكروا النعم المسؤولة لهم. وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتّى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النيّة إليه.

أي تعلم أحوالنا وتعلم كلّ شيء. ولكونها تذييلا أظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلا بنفسه بمنزلة المثل والكلام الجامع.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** }[39]

لما دعا الله لأهمّ ما يهمّه وهو إقامة التوحيد وكان يرجو إجابة دعوته وأنّ ذلك ليس بعجب في أمر الله، خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدين في إبّان الكبر وحين اليأس من الولادة، فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء، أي مجيب، أي متصف بالإجابة وصفا ذاتيا، تمهيدا لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوته سلفا. فهذا مناسبة موقع هذه الجملة بعد ما قبلها.

{ **عَلَى الْكِبَرِ** } للاستعلاء المجازي بمعنى (مع)، أي مع الكبر الذي لا تحصل معه الولادة. وكان عمر إبراهيم حين ولد له إسماعيل عليهما السلام ستا وثمانين سنة (86). وعمره حين ولد له إسحاق عليهما السلام مائة سنة (100). وكان لا يولد له من قبل.

{ **إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** } تعليل، أي وهب ذلك لأنّه سميع الدعاء. والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ بمثال المبالغة أو الصفة المشبّهة ليدلّ على كثرة ذلك وأنّ ذلك شأنه، فيفيد أنّه وصف ذاتيّ لله تعالى.

{ **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** [40] **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** } [41].

جملة مستأنفة من تمام دعائه. و**الإقامة**: الإدامة، وتقدّم في صدر سورة البقرة.

{ **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** } {مِنْ} ابتدائية وليست للتبعيض، لأنّ إبراهيم - عليه السلام - لا يسأل الله إلّا أكمل ما يحبّه لنفسه ولذرّيّته.

{ **وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** } ودعاؤه بتقبّل دعائه ضراعة بعد ضراعة. وحذفت ياء المتكلم في {دُعَاءِ} في قراءة الجمهور تخفيفا كما تقدّم في قوله تعالى { وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [الرعد:30].

{ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** } ثم دعا بالمغفرة لنفسه وللمؤمنين ولوالديه ما تقدّم منه ومن المؤمنين قبل نبوءته، وما استمر عليه أبوه بعد دعوته من الشرك، أمّا أمّه فلعلّها توفيت قبل نبوءته. وهذا الدعاء لأبويه قبل أن يتبيّن له أن أباه عدو لله كما في آية سورة براءة.

{ **يَقُومُ الْحِسَابُ** }: يثبت. استعير القيام للثبوت تبعا لتشبيه الحساب بإنسان قائم، لأنّ حالة القيام أقوى أحوال الإنسان إذ هو انتصاب للعمل. ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق، إذ قويت واشتدت. وقولهم: ترجّلت الشمس، إذا قوي ضوءها، وتقدّم عند قوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:4].

{ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ [42] **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ }** [43].

له اتصال بجملة { قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [30] الذي هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأنّ لا يغترّوا بسلامتهم وأمنهم تنبيها لهم على أنّ ذلك متاع قليل زائل، فأكّد ذلك الوعيد بهذه الآية، مع إدماج تسلية الرّسول ﷺ على ما يتطاولون به من النعمة والدعة. وباعتبار ما فيه من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر حسن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل.

{ وَلا تَحْسَبَنَّ } ظاهرها نهي عن حسبان ذلك. وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه، أي تحقّق أنّ الله ليس بغافل، وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة، فهو كناية بمرتبتين. وعلى هذا الاستعمال جاءت الآية سواء جعلنا الخطاب لكلّ من يصحّ أن يخاطب فيدخل فيه النبيء ﷺ أم جعلناه للنبيء ابتداء ويدخل فيه أمته.

ونفي الغفلة عن الله ليس جاريا على صريح معناه لأنّ ذلك لا يظنّه مؤمن، بل هو كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين. ومنه جاء معنى التسلية للرسول ﷺ.

الغفلة: الذهول، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } [الأنعام:156].

{ الظَّالِمُونَ } المراد بالظلم هنا الشرك، لأنّه ظلم للنفس بإيقاعها في سبب العذاب المؤلم. وظلم لله بالاعتداء على ما يجب له من الاعتراف بالوحدانيّة. ويشمل ذلك ما كان من الظلم دون الشرك مثل ظلم النّاس بالاعتداء عليهم أو حرمانهم حقوقهم فإنّ الله غير غافل عن ذلك. ولذلك قال سفيان بن عيينة: هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم.

{ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } ارتفاعه كنظر المبهوت الخائف. أي تشخص فيه أبصار النّاس من هول ما يرون. ومن جملة ذلك مشاهدة هول أحوال الظالمين.

الإهطاع: إسراع المشي مع مد العنق كالمتختّل، وهي هيئة الخائف.

إقناع الرأس: طأطأته من الذلّ، وهو مشتق من قنع إذا تذلّل.

{ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ } في موضع الحال أيضا. و**الطَّرْفُ**: تحرك جفن العين. والمعنى لا يرجع إليهم، أي لا يعود إلى معتاده، أي لا يستطيعون تحويله. فهو كناية عن هول ما شاهدوه.

{ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء } تشبيه بليغ، إذ هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدّة الهول. والهواء في كلام العرب: الخلاء. وليس هو المعنى المصطلح عليه في علم الطب وعلم الهيئة.

{ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ [44] وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ } [45].

{ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ}

الناس: يعمّ جميع البشر. والمقصود: الكافرون، بقرينة قوله { يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا }. ولك أن تجعل النّاس ناسا معهودين وهم المشركون.

{ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ } منصوب على أنّه مفعول ثان لـ { أَنْذِرِ }، وفعل الإنذار يتعدّى إلى مفعول ثان على التوسّع لتضمينه معنى التحذير. وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه مجازا مرسلا.

العذاب: عذاب الآخرة، أو عذاب الدنيا الذي هُدّد به المشركون.

{ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ } طلب تأخير العذاب، إن كان مرادا به عذاب الآخرة فالتأخير بمعنى تأخير الحساب، أي يقول الذين ظلموا: أرجعنا إلى الدنيا لنجيب دعوتك. وهذا كما في قوله تعالى { رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون:99، 100]، فالتأخير مستعمل في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازا مرسلا بعلاقة الأول.

وإن حمل على عذاب الدنيا فالمعنى: أنّ المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم. فالتأخير على هذا حقيقة. والرسل على هذا المحمل مستعمل في الواحد مجازا، والمراد به محمد ﷺ.

القريب: القليل الزمن. شبّه الزمان بالمسافة، أي أخّرنا مقدار ما نجيب به دعوتك.

{ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ }

افتتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيها على معطوف عليه مقدّر هو رفض ما سألوه، حذف إيجازا لأنّ شأن مستحقّ التوبيخ أن لا يعطى سؤله. فالتقدير: كلا، ألم تكونوا أقسمتم...

الزوال: الانتقال من المكان. وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب.

{ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ } بيان لجملة { أَقْسَمْتُمْ }. وهذا القسم قد يكون صادرا من جميع الظالمين حين كانوا في الدنيا لأنّهم كانوا يتلقون تعاليم واحدة في الشرك يتلقاها الخلف عن سلفهم. ويجوز أن يكون ذلك صادرا من معظم هذه الأمم أو بعضها ولكن بقيّتهم مضمرون لمعنى هذا القسم.

{ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } فإنّه يعم جميع أمم الشرك عدا الأمة الأولى منهم.

والمراد بالسكنى: الحلول، ولذلك عدّي بحرف الظرفية خلافا لأصل فعله المتعدي بنفسه. وكان العرب

يمرون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام ويحطون الرحال هنالك، ويمرون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن.

{ **وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ** } حاصل من مشاهدة آثار العذاب من خسف وفناء استئصال.

{ **وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ** } بأقوال المواعظ على ألسنة الرسل عليهم السلام، ووصف الأحوال الخفيّة.

وقد جمع لهم في إقامة الحجّة بين دلائل الآثار والمشاهدة، ودلائل الموعظة.

{ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } [46].

يجوز أن يكون عطف خبر على خبر، ويجوز أن يكون حالا من { النَّاسَ }، أي أنذرهم في حال وقوع مكرهم.

المكر: تبييت فعل السوء بالغير وإضماره. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } [آل عمران:54]

{ **وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ** } العنديّة إمّا عنديّة علم، أي وفي علم الله مكرهم، فهو تعريض بالوعيد والتهديد بالمؤاخذة بسوء فعلهم، وإمّا عنديّة تكوين، وتقديره في إرادة الله، فيكون وعيدا بالجزاء على مكرهم.

{ **لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** } قرأ الجمهور { لِتَزُولَ } بكسر اللام وبنصب الفعل المضارع بعدها فتكون (إن) نافية ولام { لِتَزُولَ } لام الجحود، أي وما كان مكرهم زائلة منه الجبال، وهو استخفاف بهم، أي وما هو بالذي تزول منه الجبال. وفي هذا تعريض بأنّ الرسول ﷺ والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنّهم كالجبال الرواسي.

وقرأ الكسائي وحده - بفتح اللام الأولى - من {لَتَزُولُ} ورفع اللام الثانية على أن تكون {إنْ} مخففة من {إنّ} المؤكدة وقد أكمل إعمالها، واللام فارقة بينها وبين النافية، فيكون الكلام إثباتا لزوال الجبال من مكرهم، أي هو مكر عظيم لتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول. وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيع أو شديد في نوعه على نحو قوله تعالى {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً} [مريم: 90].

{ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [47]

تفريع على { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [42]. وهذا محلّ التسلية. والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم.

وأضيف { مُخْلِفَ } إلى مفعوله الثاني وهو { وَعْدِهِ } وإن كان المفعول الأوّل {رُسُلَهُ} هو الأصل في التقديم والإضافة إليه، لأنّ الاهتمام بنفي إخلاف الوعد أشدّ، فلذلك قدم.

{ **رُسُلَهُ** } جمع مراد به النبيء ﷺ لا محالة، فهو جمع مستعمل في الواحد مجازا. وهذا تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم بأنّ الله منجز له ما وعده من نصره على الكافرين به. فأمّا وعده للرسل السابقين فذلك أمر قد تحقّق فلا يناسب أن يكون المراد.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** } تعليل للنهي عن حسبانه مخلف وعده.

العزّة: القدرة. والمعنى: أن موجب إخلاف الوعد منتف عن الله تعالى لأنّ إخلاف الوعد يكون إمّا عن عجز وإمّا عن عدم اعتياد الموعود به، فالعزّة تنفي الأوّل وكونه صاحب انتقام ينفي الثاني. وهذه الجملة تذييل أيضا وبها تمّ الكلام.

{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [48] وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [49] سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [50] لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [51].

استئناف لزيادة الإنذار بيوم الحساب، لأنّ في هذا تبيين بعض ما في ذلك اليوم من الأهوال.

التبديل: التغيير في شيء إمّا بتغيير صفاته، كقوله تعالى { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } [الفرقان:70]، وقولك: بدلت الحلقة خاتما، وإمّا بتغيير ذاته وإزالتها بذات أخرى، كقوله تعالى { بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا } [النساء: 56]، وقوله { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ } [سبأ:16].

تبديل الأرض والسماوات يوم القيامة: إمّا بتغيير الأوصاف التي كانت لها وإبطال النظم المعروفة فيها في الحياة الدنيا، وإمّا بإزالتها ووجدان أرض وسماوات أخرى في العالم الأخروي. وحاصل المعنى: استبدال العالم المعهود بعالم جديد.

{ **وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } مثل ما ذُكر في قوله { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً }. وضمير { بَرَزُوا } عائد إلى معلوم من السياق، أي وبرز النّاس أو برز المشركون.

{ **الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } للرد على المشركين الذين أثبتوا له شركاء وزعموا أنّهم يدافعون عن أتباعهم.

التقرين: وضع اثنين في قرن، أي حبل.

الأصفاد: جمع صِفاد بوزن كتاب، وهو القيد والغلّ.

السرابيل: جمع سربال وهو القميص.

القطران: دهن من تركيب كيمياوي قديم عند البشر يصنعونه من إغلاء شجر الأرز وشجر السرو وشجر الأُبْهُل (بضم الهمزة والهاء وبينهما موحدة ساكنة) وهو شجر من فصيلة العرعر، ومن شجر العرعر، بأن

تقطّع الأخشاب وتجعل في قبة مبنية على بلاط سويّ وفي القبّة قناة إلى خارج، وتوقد النار حول تلك الأخشاب فتصعد الأبخرة منها ويسري ماء البخار في القناة فتصب في إناء آخر موضوع تحت القناة فيتجمع منه ماء أسود يعلوه زبد خاثر أسود، فالماء يعرف بالسائل والزبد يعرف بالبرقي. ويتخذ للتداوي من الجرب للإبل ولغير ذلك مما هو موصوف في كتب الطب.

وجعلت سرابيلهم من قطران لأنّه شديد الحرارة فيؤلم الجلد الواقع هو عليه، فهو لباسهم قبل دخول النار ابتداء بالعذاب حتى يقعوا في النار.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } مستأنفة، إمّا لتحقيق أن ذلك واقع كقوله {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات: 5، 6]، وإما استئناف ابتدائي، وأخّرت إلى آخر الكلام لتقديم {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ}.

{ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [52]

الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلّها من أين ابتدأته أصبت مراد الإشارة، والأحسن أن يكون للسورة كلّها.

البلاغ: اسم مصدر التبليغ، أي هذا المقدار من القرآن في هذه السورة تبليغ للنّاس كلّهم.

واللام في {لِلنَّاسِ} هي المعروفة بلام التبليغ، وهي التي تدخل على اسم من يسمع قولا أو ما في معناه.

{ **وَلِيُنْذَرُوا** } عطف على { بَلاغٌ } عطف على كلام مقدر يدل عليه لفظ {بَلاغٌ}. والتقدير: هذا بلاغ للنّاس ليستيقظوا من غفلتهم ولينذروا به. وقد تقدّم قريب من نظم هذه الآية في قوله تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } [الأنعام:92].

والمعنى: وليعلموا ممّا ذكر فيه من الأدلّة ما الله إلّا إله واحد. وهذا قصر موصوف على صفة وهو إضافي، أي أنّه تعالى لا يتجاوز تلك الصفة إلى صفة التعدد بالكثرة أو التثليث، كقوله { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } [النساء:171].

التذكّر: النظر في أدلة صدق الرسول ﷺ ووجوب اتّباعه، ولذلك خصّ بذوي الألباب تنزيلا لغيرهم منزلة من لا عقول لهم { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [الفرقان44].

وقد رتّبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض، فابتدئ بالصفة العامة وهي حصول التبليغ، ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار، ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانيّة، لما في خلال هذه السورة من الدلائل، ثم بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل. وهذه المراتب هي جامع حكمة ما جاء به الرسول ﷺ موزّعة على من بلّغ إليهم. ويختص المسلمون بمضمون قوله { وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ }.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحِجْر

سمّيت هذه السورة سورة الحِجْر، ولا يعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أنّ اسم الحِجر لم يذكر في غيرها. والحِجر اسم البلاد المعروفة به وهو حِجر ثمود. وثمود هم أصحاب الحِجر. وسيأتي الكلام عليه عند قوله تعالى { وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ }.

وهي مكّيّة كلّها وحكي الاتفاق عليه .

واستثناء قوله تعالى { كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } بناء على تفسيرهم {الْمُقْتَسِمِينَ} بأهل الكتاب وهو صحيح، وتفسير { جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } أنّهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب. ولم يقل ذلك إلّا يهود المدينة، وهذا لا نصحّحه كما نبينه عند الكلام على تلك الآية.

ولو سلم هذا التفسير من جهتيه فقد يكون لأنّ اليهود سمعوا القرآن قبل هجرة النبيء ﷺ بقليل فقالوا ذلك حينئذ، على أنّه قد روي أنّ قريشا لمّا أهمّهم أمر النبيء ﷺ استشاروا في أمره يهود المدينة.

وعلى تصحيح أنّها مكّيّة فقد عدّت الرابعة والخمسين في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام.

ومن العجيب اختلافهم في وقت نزول هذه السورة وهي مشتملة على آية { فاصدع بما تؤمر } وقد نزلت عند خروج النبيء ﷺ من دار الأرقم في آخر السنة الرابعة من بعثته.

وعدد آيها تسع وتسعون باتفاق العادين.

أغراض السورة

افتتحت بالحروف المقطّعة التي فيها تعريض بالتحدي بأعجاز القرآن.

وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه.

وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم.

وتوبيخهم بأنّهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم.

وإنذارهم بالهلاك عند حلول إبّان الوعيد الذي عيّنه الله في علمه.

وتسلية الرسول ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه وما يتورّكون بطلبه منه، وأنّ تلك عادة المكذّبين مع رسلهم.

وأنّهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به وأنّ الله حافظ كتابه من كيدهم.

ثم إقامة الحجّة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم.

وذكر البعث ودلائل إمكانه.

وانتقل إلى خلق نوع الإنسان وما شرّف الله به هذا النوع.

وقصة كفر الشيطان.

ثم ذكر قصّة إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وأصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر.

وختمت بتثبيت الرّسول ﷺ وانتظار ساعة النصر، وأن يصفح عن الذين يؤذونه، ويكل أمرهم إلى الله، ويشتغل بالمؤمنين، وأنّ الله كافيه أعداءه.

مع ما تخلّل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجنّ، واستراقهم السمع، ووصف أحوال المتّقين، والترغيب في المغفرة، والترهيب من العذاب.

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ }[1]

{ آلر } تقدّم الكلام على نظير فاتحة هذه السورة في أوّل سورة يونس. وتقدّم في أوّل سورة البقرة ما في مثل هذه الفواتح من إعلان التحدّي بإعجاز القرآن.

{ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } الإشارة إلى ما هو معروف قبل هذه السورة من مقدار ما نزل من القرآن. وهذه الإشارة لتنزيل آيات القرآن منزلة الحاضر المشاهد.

{ الْكِتَابِ } علم بالغلبة على القرآن الذي أنّزل على محمد ﷺ للهدى والإرشاد إلى الشريعة. وسمي كتابا لأنّهم مأمورون بكتابة ما ينزل منه لحفظه ومراجعته. و التعريف للدلالة على معنى كمال الجنس، فاقتضى أنّ تلك الآيات هي آيات كتاب بالغ منتهى كمال جنسه، أي من كتب الشرائع.

ووقعت هذه الآية في مفتتح تهديد المكذّبين بالقرآن لقصد الإعذار إليهم باستدعائهم للنظر في دلائل صدق الرسول ﷺ وحقّيّة دينه.

{ وَقُرْآنٍ } عطف على { الْكِتَابِ } لأنّ اسم القرآن جعل علما على ما أنزل على محمد ﷺ للإعجاز والتشريع، فهو الاسم العلم لكتاب الإسلام مثل اسم التوراة والإنجيل والزبور.

فاسم القرآن أرسخ في التعريف به من الكتاب لأنّ العلم الأصلي أدخل في تعريف المسمّى من العلم بالغلبة، فسواء نكّر لفظ القرآن أو عرّف باللام فهو علم على كتاب الإسلام.

وابتدئ بالمعرف باللام لما في التعريف من إيذان بالشهرة والوضوح وما فيه من الدلالة على معنى الكمال، ولأنّ المعرّف هو أصل الإخبار والأوصاف، ثمّ جيء بالمنكر لأنّه أريد وصفه بالمبين، والمنكر أنسب بإجراء الأوصاف عليه، ولأنّ التنكير يدلّ على التفخيم والتعظيم، فوزّعت الدلالتان على نكتة التعريف ونكتة التنكير.

فأمّا تقديم الكتاب على القرآن في الذكر فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنّهم سيجيء وقت يتمنّون فيه أن لو كانوا مؤمنين. فلمّا كان الكلام موجّها إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المنزّل على محمد ﷺ بعنوانه الأعم وهو كونه كتابا، لأنّهم حين جادلوا ما جادلوا إلّا في كتاب فقالوا { لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157].

المبين: اسم الفاعل من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان **مبالغة في ظهوره،** أي ظهور إعجازه الذي تحققه المعاندون وغيرهم. وإنّما لم نجعل المبين بمعنى أبان المتعدّي لأنّ كونه بيّنا في نفسه أشدّ في توبيخ منكريه من وصفه بأنّه مظهر لما اشتمل عليه. وسيجيء قريب من هذه الآية في أوّل سورة النمل.

{ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ }[2]

استئناف ابتدائي وهو مفتتح الغرض وما قبله كالتنبيه والإنذار.

{ **رُبَمَا** } مركبة من (رب). وهو حرف يدلّ على تنكير مدخوله ويجرّ ويختص بالأسماء. وهو بتخفيف الباء وتشديدها في جميع الأحوال. وفيها عدّة لغات. واقترنت بها (ما) التي تكفّ عمل (رب) غالبا. وبذلك يصح دخولها على الأفعال. فإذا دخلت على الفعل فالغالب أن يراد بها التقليل. والتقليل هنا مستعمل في التهكّم والتخويف. والأكثر أن يكون فعلا ماضيا، وقد يكون مضارعا للدلالة على الاستقبال كما هنا.

والكلام خبر مستعمل في التهديد والتهويل في عدم اتباعهم دين الإسلام والمعنى: قد يودّ الذين كفروا لو كانوا أسلموا.

{ **لَوْ** } مستعملة في التمنّي لأنّ أصلها الشرطية، إذ هي حرف امتناع لامتناع، فهي مناسبة لمعنى التمنّي الذي هو طلب الأمر الممتنع الحصول. والتزم حذف جوابها اكتفاء بدلالة المقام عليه ثم شاع حذف القول.

{ **كَانُوا** } الإتيان بفعل الكون الماضي للدلالة على أنّهم يودّون الإسلام بعد مضي وقت التمكّن من إيقاعه، وذلك عندما يقتلون بأيدي المسلمين، وعند حضور يوم الجزاء. وقد ودّ المشركون ذلك غير مرة في الحياة الدنيا حين شاهدوا نصر المسلمين. قال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ } [الأنعام:27].

{ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [3]

اقتضت (رُبّ) أنّ استمرارهم على غلوائهم هو أكثر حالهم، وهو الإعراض عمّا يدعوهم إليه الإسلام من الكمال النفسي، فبإعراضهم عنه رضوا لأنفسهم بحياة الأنعام، فخوطب الرّسول ﷺ بما يُعرّض لهم بذلك من أنّ حياتهم حياة أكل وشرب. { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [محمد:12].

{ **ذَرْهُمْ** } أمر لم يُسمع له ماض في كلامهم. وهو **بمعنى الترك**. وتقدم في قوله { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].

والأمر بتركهم مستعمل في لازمه وهو قلّة جدوى الحرص على إصلاحهم. وليس مستعملا في الإذن بمتاركتهم لأنّ النبيء ﷺ مأمور بالدوام على دعائهم، ودليله قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً - إلى قوله - وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } [الأنعام:70] ، فما أمره بتركهم إلّا وقد أعقبه بأمره بالتذكير بالقرآن، فعلم أن الترك مستعمل في عدم الرجاء في صلاحهم.

وقد حذف متعلّق الترك لأنّ الفعل نزل منزلة ما لا يحتاج إلى متعلّق، إذ المعني به ترك الاشتغال بهم والبعد

عنهم، فذلك عدي فعل الترك إلى ذواتهم ليدل على اليأس منهم.

{ **يَأْكُلُوا** } مجزوم بلام الأمر محذوفة. وهو أمر للتوبيخ والتوعّد والإنذار بقرينة قوله { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }.

التمتّع: الانتفاع بالمتاع. وقد تقدّم غير مرة، منها قوله { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

{ **وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ** } إنساؤه إيّاهم ما حقّهم أن يتذكروه، بأن يصرفهم تطلّب ما لا ينالون عن التفكير في البعث والحياة الآخرة.

{ **الْأَمَلُ** }: مصدر. وهو ظنّ حصول أمر مرغوب مع استبعاد حصوله. فهو واسطة بين الرجاء والطمع.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفرّع على التعريض التصريح بالوعيد، وهو مما يستعمل في الوعيد كثيرا حتى صار كالحقيقة. وفيه إشارة إلى أن لإمهالهم أجلا معلوما كقوله {وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ} [الفرقان:42].

{ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ [4] مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } [5].

اعتراض تذييلي لأنّ في هذه الجملة حكما يشملهم وهو حكم إمهال الأمم التي حقّ عليها الهلاك، أي ما أهلكنا أمّة إلّا وقد متعناها زمنا وكان لهلاكها أجل ووقت محدود، فهي ممتّعة قبل حلوله، وهي مأخوذة عند إبّانه.

وهذا تعريض لتهديد ووعيد مؤيّد بتنظيرهم بالمكذّبين السالفين.

وإنّما ذكر حال القرى التي أهلكت من قبل لتذكير هؤلاء بسنّة الله في إمهال الظالمين لئلّا يغرّهم ما هم فيه من التمتّع، فيحسبوا أنّهم أفلتوا من الوعيد.

وهذا التهديد لا يقتضي أنّ المشركين قدّر الله أجلا لهلاكهم، فإنّ الله لم يستأصلهم ولكن هدى كثيرا منهم إلى الإسلام بالسيف وأهلك سادتهم يوم بدر.

القرية: تطلق على المدينة. وتقدّمت عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259].

الكتاب: القدر المحدود عند الله. شبّه بالكتاب في أنّه لا يقبل الزيادة والنقص.

{ **وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ** } في موضع الحال، وصاحب الحال { قَرْيَةٍ }.

{ **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا** } لبيان فائدة التحديد في { وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ }: أنّه عدم المجاوزة بدءا ونهاية.

ومعنى (تسبق أجلها) تفوته، أي تُعدم قبل حلوله، شبّه ذلك بالسبق.

{ **وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** }: يتأخّرون. فالسين والتاء للتأكيد.

وأنّث مفردا ضمير الأمّة مرة مراعاة للفظ، وجمع مذكرا مراعاة للمعنى.

{ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ [6] لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [7].

عطف على { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا } [3]، والمناسبة أنّ المعطوف عليها تضمّنت انهماكهم في الملذّات والآمال، وهذه تضمّنت توغّلهم في الكفر وتكذيبهم الرسالة المحمدية. والمعنى: ذرهم يكذّبون ويقولون شتى القول من التكذيب والاستهزاء.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } النداء للتشهير بالوصف المنادى به، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكّم. وقرينة التهكم قولهم { إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ }.

{ الذِّكْرُ }: مصدر ذكر، إذا تلفّظ. ومصدر ذكر إذا خطر بباله شيء. فالذكر الكلام الموحى به ليُتلى ويكرّر، فهو للتلاوة، لأنّه يذكر ويعاد، إمّا لأنّ فيه التذكير بالله واليوم الآخر، وإمّا بمعنى أنّ به ذكرهم في الآخرين. والمراد به هنا القرآن، فتسمية القرآن ذكرا تسمية جامعة عجيبة لم يكن للعرب علم بها من قبل أن ترد في القرآن. وكذلك تسميته قرآنا لأنّه قصد من إنزاله أن يقرأ، فصار الذكر والقرآن صنفين من أصناف الكلام الذي يلقى للنّاس لقصد وعيه وتلاوته، كما كان من أنواع الكلام الشعر والخطبة والقصة والأسطورة. ويدلّك لهذا قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ } [يّس:69]، فنفى أن يكون الكتاب المنزّل على محمد ﷺ شعرا، ووصفه بأنّه ذكر وقرآن.

{ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } وإنّما وصفوه بالجنون لتوهّمهم أنّ ادعاء نزول الوحي عليه لا يصدر من عاقل، لأنّ ذلك عندهم مخالف للواقع توهّما منهم بانّ ما لا تقبله عقولهم التي عليها غشاوة ليس من شأنه أن يقبله العقلاء فالداعي به غير عاقل.

المجنون: الذي جنّ، أي أصابه فساد في العقل من أثر مس الجن إيّاه في اعتقادهم، فالمجنون اسم مفعول مشتقّ من الفعل المبني للمجهول وهو من الأفعال التي لم ترد إلّا مسندة للمجهول.

{ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ } استدلال على ما اقتضته الجملة قبلها باعتبار أن المقصود منها تكذيب الرّسول ﷺ. و**{ لَوْ مَا }** حرف تخصيص بمنزلة **(لولا)** التحضيضية. ويلزم دخولها الجملة الفعلية.

والمراد بالإتيان بالملائكة حضورهم عندهم ليخبروهم بصدقه في الرسالة. وهذا كما حكى الله في الآية الأخرى بقوله تعالى { أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً } [الاسراء:92].

{ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } أي من النّاس الذين صفتهم الصدق.

{ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ } [8]

مستأنفة ابتدائيّة، جوابا لكلامهم وشبهاتهم ومقترحاتهم. أريد منه إزالة جهالتهم إذ سألوا نزول الملائكة علامة على التصديق، لأنّهم وإن طلبوا ذلك بقصد التهكم فهم مع ذلك معتقدون أنّ نزول الملائكة هو آية صدق الرسول ﷺ، فكان جوابهم مشوبا بطرف من الأسلوب الحكيم، وهو صرفهم إلى تعليمهم المَيْزَ بين آيات الرّسل وبين آيات العذاب، فأراد الله أن لا يدّخرهم هديا، وإلّا فهم أحرياء بأن لا يجابوا.

النزول: التدلّي من علو إلى سفل. والمراد به هنا انتقال الملائكة من العالم العلوي إلى العالم الأرضي نزولا مخصوصا. وهو نزولهم لتنفيذ أمر الله بعذاب يرسله على الكافرين. كما أنزلوا إلى مدائن لوط -عليه السلام- وليس مثل نزول جبريل عليه السلام أو غيره من الملائكة إلى الرسل عليهم السلام بالشرائع أو بالوحي.

{ بِالْحَقِّ } المراد هنا الشيء الحاقّ، أي المقضي، مثل إطلاق القضاء بمعنى المقضي. وهو هنا صفة لمحذوف يعلم من المقام، أي العذاب الحاقّ. قال تعالى { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } [الحج:18]، وقرينته قوله **{ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ }**، أي لا تنزل الملائكة للنّاس، غير الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلّا مصاحبين للعذاب الحاقّ، كما تنزّلت الملائكة على قوم لوط وهو عذاب الاستئصال.

والمعنى: ولو تنزلت الملائكة لعجّل للمنزل عليهم ولما أمهلوا. ويفهم من هذا أنّ الله منظرهم، لأنّه لم يرد استئصالهم، لأنه أراد أن يكون نشر الدين بواسطتهم فأمهلهم حتى اهتدوا ولكنه أهلك كبراءهم ومدبّريهم.

ونظير هذا قوله في سورة الأنعام { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ }.

الإنظار: التأخير والتأجيل.

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }[9]

استئناف ابتدائي لإبطال جزء من كلامهم المستهزئين به { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [6].

وكان هذا الجواب من نوع القول بالموجب بتقرير إنزال الذكر على الرسول ﷺ مجاراة لظاهر كلامهم.

والمقصود الردّ عليهم في استهزائهم، فأكّد الخبر بـ { إِنَّا } وضمير الفصل مع موافقته لما في الواقع، ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأنّ منزّل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء.

وشمل حفظه الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسّر تواتره وأسباب ذلك، وسلّمه من التبديل والتغيير حتّى حفظته الأمّة عن ظهور قلوبها من حياة النبيء ﷺ، فاستقر بين الأمّة بمسمع من النبيء ﷺ وصار حفّاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر.

وقد حكى عياض في(المدارك): " أنّ القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البصري سئل عن السر

في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من طرق التغيير له. فأجاب بأنّ الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال { بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } [المائدة:44] وتولى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون } ".

وفي هذا مع التنويه بشأن القرآن إغاضة للمشركين بأنّ أمر هذا الدين سيتمّ وينتشر القرآن ويبقى على مرّ الأزمان. وهذا من التحدي ليكون هذا الكلام كالدليل على أنّ القرآن منزّل من عند الله آية على صدق الرّسول ﷺ لأنّه لو كان من قول البشر أو لم يكن آية لتطرقت إليه الزيادة والنقصان ولاشتمل على الاختلاف، قال تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} [النساء:82].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ [10] وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[11].

وهذه إبطال لاستهزائهم على طريقة التمثيل بنظرائهم من الأمم السالفة. وفي هذا التنظير تحقيق لكفرهم لأنّ كفر أولئك السالفين مقرّ عند الأمم ومتحدّث به بينهم. وفيه أيضا تعريض بوعيد أمثالهم وإدماج بالكناية عن تسلية الرسول ﷺ.

{ **وَلَقَدْ** } التأكيد بلام القسم وقد لتحقيق سبق الإرسال من الله، مثل الإرسال الذي جحدوه واستعجبوه، كقوله تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ } [يونس:2].

الشيع: جمع شيعة وهي الفرقة التي أمرها واحد، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} [الأنعام:65].

أي القرون الأولى، فإنّ من الأمم من أرسل إليهم ومن الأمم من لم يرسل إليهم.

{ **كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** }، **(كانُوا)** دلّت على أنّه سجيّة لهم، والمضارع دلّ على تكرّره منهم، وأنّه سنّتهم. وتقديم المجرور يفيد القصر للمبالغة، لأنهم لما كانوا يكثرون الاستهزاء برسولهم وصار ذلك سجية لهم نزلوا منزلة من ليس له عمل إلّا الاستهزاء بالرسول.

{ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ [12] لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } [13].

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عن جملة { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [9]، إذ قد يخطر بالبال أنّ حفظ الذكر يقتضي أن لا يكفر به من كفر. فأجيب بأنّ ذلك عقاب من الله لهم لإجرامهم وتلقّيهم الحقّ بالسخرية وعدم التدبّر، ولأجل هذا اختير لهم وصف المجرمين دون الكافرين لأنّ وصف الكفر صار لهم كاللقب لا يشعر بمعنى التعليل.

{ **نَسْلُكُهُ** } التعبير بصيغة المضارع للدلالة على أنّ المقصود إسلاك في زمن الحال، أي زمن نزول القرآن، ليعلم أنّ المقصود بيان تلقّي المشركين للقرآن، فلا يتوهّم أنّ المراد بالمجرمين شيع الأولين مع ما يفيده المضارع من الدلالة على التجديد المناسب لقوله { وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ }، أي تجدّد لهؤلاء إبلاغ القرآن على سنّة إبلاغ الرسالات من قبلهم. وفيه تعريض بأنّ ذلك أعذار لهم ليحلّ بهم العذاب كما حلّ بمن قبلهم.

السلك: الإدخال.

المجرمون: هم كفار قريش. فإنهم يسمعونه ويفهمونه إذ هو من كلامهم ويدركون خصائصه، ولكنّه لا يستقر في عقولهم استقرار تصديق به بل هم مكذبون به. وبهذا السلوك تقوم الحجّة عليهم بتبليغ القرآن إليهم ويعاد إسماعهم إيّاه المرّة بعد المرّة.

{ **لا يُؤْمِنُونَ بِهِ** } بيان للسلك المشبّه به أو حال من المجرمين، أي تعيه عقولهم ولا يؤمنون به. وهذا عام مراد به من ماتوا على الكفر منهم.

{ **وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** } معترضة بين { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } وجملة { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ } [14]. والكلام تعريض بالتهديد بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم الماضية معاملة للنظير بنظيره، لأنّ كون سنة الأولين مضت أمر معلوم غير مفيد ذكره، فكان الخبر مستعملا في لازمه بقرينة تعذّر الحمل على أصل الخبرية.

السنّة: العادة المألوفة. وتقدّم في قوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:137].

{ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ [14] لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } [15].

عطف على { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } [13] وهو كلام جامع لإبطال جميع معاذيرهم بأنّهم لا يطلبون الدلالة على صدقه، لأنّ دلائل الصدق بيّنة، ولكنّهم ينتحلون المعاذير المختلفة.

أي أنّهم لو اتصلوا بعالم القدس والنفوس الملكيّة ورأوا ذلك رأي العين لاعتذروا بأنّها تخيّلات وأنّهم سُحروا. ونظيره قوله { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [الأنعام:7].

{ **فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ** } و(ظلّ) تدل على الكون في النهار، أي وكان ذلك في وضح النّهار.

العروج: الصعود. ويجوز في مضارعه ضم الراء وبه القراءة وكسرها، أي فكانوا يصعدون في ذلك الباب نهارا.

{ **لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا** }، { سُكِّرَتْ } (بضم السين وتشديد الكاف) في قراءة الجمهور، وبتخفيف

الكاف في قراءة ابن كثير. وهو مبني للمجهول على القراءتين، أي **سدّت**. يقال: سكّر الباب بالتشديد وسكره بالتخفيف إذا سدّه. والمعنى: لجحدوا أن يكونوا رأوا شيئا.

{ **بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ** }، أي ما رأيناه هو تخيّلات المسحور، أي فعادوا إلى إلقاء تبعة ذلك على الرّسول ﷺ بأنّه سحرهم حين سأل لهم الله أن يفتح بابا من السماء ففتحه لهم.

وتقدم الكلام على السحر وأحواله عند قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } [البقرة:102].

{ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ [16] وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [17] إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ } [18].

لمّا جرى الكلام السابق في شأن تكذيب المشركين برسالة محمد ﷺ وما تورّكوا به في ذلك، انبرى القرآن يبيّن لهم دلائل تفرّد الله تعالى بالإلهية، فذكر الدلائل الواضحة من خلق السماوات والأرض، ثم أعقبها بدلائل إمكان البعث من خلق الحياة والموت وانقراض أمم وخلفها بأخرى في قوله تعالى { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } [23]. وصادف ذلك مناسبة ذكر فتح أبواب السماء في تصوير غلوائهم بعنادهم، فكان الانتقال إليه تخلّصا بديعا. وفيه ضرب من الاستدلال على مكابرتهم فإنّهم لو أرادوا الحقّ لكان لهم في دلالة ما هو منهم غنية عن تطلب خوارق العادات.

{ **وَلَقَدْ** } افتتح الكلام بلام القسم وحرف التحقيق تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردّد فأكّد لهم الكلام بمؤكّدين. ومرجع التأكيد إلى تحقيق الاستدلال وإلى الإلجاء إلى الإقرار بذلك.

البروج: جمع بُرج (بضم الباء)، وحقيقته البناء الكبير المتّخذ للسكنى أو للتحصّن. وهو يرادف القصر، قال تعالى { وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النساء:78].

وأطلق البرج على بقعة معيّنة من سمت طائفة من النجوم غير السيّارة وتسمّى (النجوم الثوابت) متجمّع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يشاهد من الجو، فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطا لو خططت بينها خطوط لخرج منها شبه صورة حيوان أو آلة سمّوا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس. وقد سمّاها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان.

وسماها العرب بروجا ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سببا لوضع الاسم، تخيّلوا أنّها منازل للشمس لأنّهم وقّتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قبّة الجو نهارا فيما يخيّل للناظر أنّ الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكانا بعدد شهور السنة الشمسية وما هي في الحقيقة إلّا سموت لجهات تقابل كل جهة منها الأرض من جهة وراء الشمس مدة معيّنة. ثم إذا انتقل موقع الأرض من مدارها كل شهر من السنة

تتغيّر الجهة المقابلة لها. فبما كان لها من النظام تسنّى أن تجعل علامات لمواقيت حلول الفصول الأربعة وحلول الأشهر الاثني عشر، فهم ضبطوا لتلك العلامات حدودا وهميّة عيّنوا مكانها في الليل من جهة موقع الشمس في النّهار وأعادوا رصدها يوما فيوما. وكلما مضت مدّة شهر من السنة ضبطوا للشهر الذي يليه علامات في الجهة المقابلة لموقع الشمس في تلك المدّة. وهكذا، حتّى رأوا بعد اثني عشر شهرا أنّهم قد رجعوا إلى مقابلة الجهة التي ابتدأوا منها فجعلوا ذلك حولا كاملا. وتلك المسافة التي تخال الشمس قد اجتازتها في مدة السنة سموها دائرة البروج أو منطقة البروج. وللتمييز بين تلك الطوائف من النجوم جعلوا لها أسماء الأشياء التي شبهوها بها وأضافوا البرج إليها.

وهي على هذا الترتيب ابتداء من برج مدخل فصل الربيع: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.

وأول من رسم هذه الرسوم الكلدانيون، ثم انتقل علمهم إلى بقية الأمم، ومنهم العرب فعرفوها وضبطوها وسموها بلغتهم.

ولذلك أقام القرآن الاستدلال بالبروج على عظيم قدرته وانفراده بالخلق لأنّهم قد عرفوا دقائقها ونظامها الذي تهيّأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا تخلف ملاحظة راصدها. وما خلقها الله بتلك الحالة إلّا ليجعلها صالحة لضبط المواقيت كما قال تعالى { لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس:5]. ثم ارتقى في الاستدلال بكون هذه البروج العظيمة الصنع قد جعلت بأشكال تقع موقع الحسن في الأنظار فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل فكانت الفوائد منها عديدة.

{ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } فهو إدماج للتعليم في أثناء الاستدلال. وفيه التنويه بعصمة الوحي من أن يتطرقه الزيادة والنقص، بأنّ العوالم التي يصدر منها الوحي وينتقل فيها محفوظة من العناصر الخبيثة. فهو يرتبط بقوله { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [9].

وكانوا يقولون: محمد كاهن؛ ولذلك قال الوليد بن المغيرة لمّا حاورهم فيما أعدّوا من الاعتذار لوفود العرب في موسم الحجّ إذا سألوهم عن هذا الرجل الذي ادّعى النبوءة. وقد عرضوا عليه أن يقولوا: هو كاهن، فكان من كلام الوليد أن قال: "... ولا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ". وكان الكهّان يزعمون أنّ لهم شياطين تأتيهم بخبر السماء، وهم كاذبون ويتفاوتون في الكذب.

والمراد بالحفظ من الشياطين الحفظ من استقرارها وتمكّنها من السماوات.

الشيطان: تقدّم في سورة البقرة.

الرجيم: المحقّر، لأنّ العرب كانوا إذا احتقروا أحدا حصبوه بالحصباء. كقوله تعالى { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } [34]، أي ذميم محقّر. و**الرُجام** (بضم الراء) الحجارة. قيل، هي أصل الاشتقاق. ويحتمل العكس.

وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغال الثقفي الذي كان دليل جيش الحبشة إلى مكة. قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قبر أبي رغال

والرجم عادة قديمة حكاها القرآن عن قوم نوح { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء:116]. وعن أبي إبراهيم { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ } [مريم:46]. وقال قوم شعيب { وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } [هود:91].

{ **إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ** } الاستماع بخفية من المتحدّث، كأنّ المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذي يخفيه عنه.

{ **فَأَتْبَعَهُ** } بمعنى تبعه. والهمزة زائدة. وتقدّم عند قوله {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف:175].

المبين: الظاهر البيّن.

وفيه تعليم لهم بأنّ الشهب التي يشاهدونها متساقطة في السماء هي رجوم للشياطين المسترق، طردا لها عن استراق السمع كاملا، فقد عرفوا ذلك من عهد الجاهلية ولم يعرفوا سببه.

والمقصود من منع الشياطين من ذلك منعهم الاطلاع على ما أراد الله عدم اطّلاعهم عليه من أمر التكوين ونحوه، ممّا لو ألقته الشياطين في علم أوليائهم لكان ذلك فسادا في الأرض. وربّما استدرج الله الشياطين وأولياءهم فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهّان، فلمّا أراد الله عصمة الوحي منعهم من ذلك بتاتا فجعل للشهب قوّة خرق التموّجات التي تتلقى منها الشياطين المسترقون السمع وتمزيق تلك التدرجات الموصوفة في الحديث الصحيح.

ثم إن ظاهر الآية لا يقتضي أكثر من تحكّك (مُسترق السمع) على السماوات لتحصيل انكشافات جُبِل المسترقُ على الحرص على تحصيلها. وفي آية الشعراء ما يقتضي أنّ هذا المسترق يلقي ما تلقّاه من الانكشافات إلى غيره لقوله { يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } [الشعراء:223].

ومقتضى تكوين الشهب للرجم أنّ هذا الاستراق قد منع عن الشياطين.

وفي سورة الجن دلالة على أنّه منع بعد البعثة ونزول القرآن إحكاما لحفظ الوحي من أن يلتبس على النّاس بالكهانة، فيكون ما اقتضاه حديث عائشة وأبي هريرة - رضي الله عنهما - من استراق الجنّ السمع وصفا للكهانة السابقة. ويكون قوله: " ليسوا بشيء " وصفا لآخر أمرهم.

وقد ثبت بالكتاب والسنة وجود مخلوقات تسمّى بالجنّ وبالشياطين مع قوله { وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ } [صّ:37]. والأكثر أن يُخصّ باسم الجنّ نوع لا يخالط خواطر البشر، ويخصّ باسم الشياطين نوع دابة الوسوسة في عقول البشر بإلقاء الخواطر الفاسدة.

وظواهر الأخبار الصحيحة من الكتاب والسنّة تدلّ على أنّ هذه المخلوقات أصناف، وأنّها سابحة في الأجواء

وفي طبقات مما وراء الهواء وتتصل بالأرض، وأنّ منها أصنافا لها اتصال بالنفوس البشرية دون الأجسام وهو الوسواس ولا يخلو منه البشر.

وبعض ظواهر الأخبار من السنّة تقتضي أنّ صنفا له اتصال بنفوس ذات استعداد خاص لاستفادة معرفة الواقعات قبل وقوعها أو الواقعات التي يبعد في مجاري العادات بلوغ وقوعها، فتسبق بعض النفوس بمعرفتها قبل بلوغها المعتاد. وهذه النفوس هي نفوس الكهّان وأهل الشعوذة، وهذا الصنف من المخلوقات من الجنّ أو الشياطين هو المسمّى بـ (**مُسترق السمع**) وهو المستثنى بقوله تعالى { إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ }. فهذا الصنف إذا اتصل بتلك النفوس المستعدّة للاختلاط به حجز بعض قواها العقلية عن بعض فأكسب البعض المحجوز عنه ازدياد تأثير في وظائفه بما يرتدّ عليه من جراء تفرّغ القوة الذهنية من الاشتغال بمزاحمة إلى التوجه إليه وحده، فتكسبه قدرة على تجاوز الحدّ المعتاد لأمثاله، فيخترق الحدود المتعارفة لأمثاله اختراقا ما، فربما خلصت إليه تموّجات هي أوساط بين تموّجات كرة الهواء و تموجات الطبقات العليا المجاورة لها، مما وراء الكرة الهوائيّة.

ولنفرض أنّ هذه الطبقة هي المسمّاة بالسماء الدنيا وأنّ هذه التموجات هي تموجات الأثير فإنها تحفظ الأصوات مثلا. ثم هذه التموّجات التي تخلص إلى عقول أهل هذه النفوس المستعدّة لها تخلص إليها مقطّعة مجملة فيستعين أصحاب تلك النفوس على تأليفها وتأويلها بما في طباعهم من ذكاء، ويخبرون بحاصل ما استخلصوه من بين ما تلقّفوه وما ألفوه وما أوّلوه. وهم في مصادفة بعض الصدق متفاوتون على مقدار تفاوتهم في حدّة الذكاء وصفاء الفهم والمقارنة بين الأشياء، وعلى مقدار دربتهم ورسوخهم في معالجة مهنتهم وتقادم عهدهم فيها. فهؤلاء هم الكهّان. وكانوا كثيرين بين قبائل العرب. وتختلف سمعتهم بين أقوامهم بمقدار مصادفتهم لما في عقول أقوامهم. ولا شكّ أنّ لسذاجة عقول القوم أثرا ما، وكان أقوامهم يعدّون المعمّرين منهم أقرب إلى الإصابة فيما ينبئون به، وهم بفرط فطنتهم واستغفالهم البله من مريديهم لا يُصدرون إلّا كلاما مجملا موجّها قابلا للتأويل بعدة احتمالات، بحيث لا يؤخذون بالتكذيب الصريح، فيكلون تأويل كلماتهم إلى ما يحدث للنّاس في مثل الأغراض الصادرة فيها تلك الكلمات، وكلامهم خلو من الإرشاد والحقائق الصالحة.

وهم بحيلتهم واطلاعهم على ميادين النفوس ومؤثراتها التزموا أن يصوغوا كلامهم الذي يخبرون به في صيغة خاصة ملتزما فيها فقرات قصيرة مختتمة بأسجاع، لأنّ النّاس يحسبون مزاوجة الفقرة لأختها دليلا على مصادفتها الحقّ والواقع، وأنّها أمارة صدق. وكانوا في الغالب يلوذون بالعزلة، ويكثرون النظر في النجوم ليلا لتتفرّغ أذهانهم. فهذا حال الكهّان وهو قائم على أساس الدجل والحيلة والشعوذة مع الاستعانة باستعداد خاص في النفس وقوة تخترق الحواجز المألوفة.

وهذا يفسّره ما في كتاب الأدب من صحيح البخاري عن عائشة: أنّ ناسا سألوا رسول الله ﷺ عن الكهّان فقال: " ليسوا بشيء ، فقيل: يا رسول الله فإنّهم يحدّثون أحيانا بالشيء يكون حقّا. فقال رسول الله ﷺ: " تلك الكلمة من الحقّ يخطفها الجنّيّ فيقرّها في أذن وليّه قَرّ الدجاجة (قرّت الدجاجة تقرّ قرّا: أخف صوتها) فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ".

وما في تفسير سورة الحجر من صحيح البخاري من حديث سفيان عن أبي هريرة قال نبي الله ﷺ: " إذا قضى الله الأمر في السماء وضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانا ...

وهذه الظواهر كلّها لا تقتضي إلّا إدراك المسموعات من كلام الملائكة. وعبر عنه بالسمع لأنه يؤول إلى الخبر، فالذي يحصل لمسترق السمع شعور ما تتوجه الملائكة لتسخيره، والذي يحصل للكاهن كذلك. والمآل أن الكاهن يخبر به فيؤول إلى مسموع.

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ [19] وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } [20].

انتقال من الاستدلال بالآيات السماويّة إلى الاستدلال بالآيات الأرضيّة لمناسبة المضادة.

{ **مَدَدْنَاهَا / رَوَاسِيَ** } تقدّم معنى اللفظتين في [الرعد:3]

الموزون: مستعار للمقدّر المضبوط.

{ **معايش** }: جمع معيشة. وبعد الألف ياء تحتيّة لا همزة كما تقدّم في صدر سورة الأعراف. أي جعلنا لكم أيّها المخاطبين في الأرض معايش.

{ **وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** } وجعلنا في الأرض معايش لمن لستم له برازقين، أي لمن لستم له بمطعمين. وهي الموجودات التي تقتات من نبات الأرض ولا يعقلها النّاس.

{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ }[21]

هذا اعتراض ناشئ عن قوله { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ } [19]، وهو تذييل.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } ما هو نافع للنّاس بقرينة قوله { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ }. وفي الكلام حذف الصفة.

{ **خَزَائِنُهُ** } شبّهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيليّة المَكنية. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ } [الأنعام:50].

{ **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** } أطلق الإنزالَ على تمكين النّاس من الأمور التي خلقها الله لنفعهم، إطلاقا

مجازيا، باعتبار أنّ تصاريف الأمور كائن في العوالم العلويّة، وهذا كقوله تعالى { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ } [الزمر:6].

{ **بِقَدَرٍ** } (بفتح الدال): التقدير. وتقدّم عند قوله تعالى { فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } [الرعد:17].

{ **مَعْلُومٍ** } أنه معلوم تقديره عند الله تعالى.

{ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [22]

انتقال من الاستدلال بظواهر السماء وظواهر الأرض إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء الواقعة بين السماء والأرض، وذلك للاستدلال بفعل الرياح والمنّة بما فيها من الفوائد.

الإرسال: مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان. وهذا يدلّ على أنّ الرياح مستمرّة الهبوب في الكرة الهوائية. وهي تظهر في مكان آتية إليه من مكان آخر وهكذا...

{ **لَوَاقِحَ** } حال من { الرِّيَاحَ }. صالح لأن يكون جمع لاقح وهي الناقة الحبلى. واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سببا في نزول المطر، كما استعمل العقيم ضد اللاقح في قوله { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ } [الذاريات:41].

وصالح لأنّ يكون جمع ملقّح وهو الذي يجعل غيره لاقحا، أي الفحل إذا ألقح الناقة. أي أنّ الرياح تلقّح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نَوْره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح. وهذا هو **الإبّار**. وبعضه لا يحصل إلّا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة. وبعضه يكتفي منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر.

ومن بلاغه الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العملين اللذين تعملهما الرياح وقد فسرت الآية بهما. واقتصر جمهور المفسّرين على أنها لواقح السحاب بالمطر.

{ **أَسْقَيْنَاكُمُوهُ** } بمعنى جعلناه سقيا، فالهمزة فيه للجعل. وكثر إطلاق أسقى بمعنى سقى.

{ **وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** } أي وما أنتم له بمحافظين ومنشئين عندما تريدون.

{ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } [23]

لما جرى ذكر إنزال المطر وكان مما يسبق إلى الأذهان عند ذكر المطر إحياء الأرض به ناسب أن يذكر بعده جنس الإحياء كلّه لما فيه من غرض الاستدلال على الغافلين عن الوحدانيّة، ولأنّ فيه دليلا على إمكان البعث. والمقصود ذكر الإحياء ولذلك قدّم، وذكر الإماتة للتكميل.

{ **نُحْيِي** } والمراد تكوين الموجودات التي فيها الحياة، وإحياؤها أيضا بعد فناء الأجسام. وقد أدمج في الاستدلال على تفرّد الله تعالى بالتصرّف، إثبات البعث ودفع استبعاد وقوعه واستحالته. ولمّا كان المشركون منكرين نوعا من الإحياء كان توكيد الخبر مستعملا في معنييه الحقيقي والتنزيلي.

{ **وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ** } معنى الإرث هنا البقاء بعد الموجودات، تشبيها بالإرث، وهو أخذ ما يتركه الميّت من أرض وغيرها.

{ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ [24] وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [25].

لما ذكر الإحياء والإماتة وكان الإحياء (بكسر الهمزة) يذكّر بالأحياء (بفتحها)، وكانت الإماتة تذكّر بالأموات الماضين تخلّص من الاستدلال بالإحياء والإماتة على عظم القدرة إلى الاستدلال بلازم ذلك على عظم علم الله، وهو علمه بالأمم البائدة وعلم الأمم الحاضرة.

{ **الْمُسْتَقْدِمِينَ** } الذين تقدّموا الأحياء إلى الموت أو إلى الآخرة، فالتقدّم فيه بمعنى الماضي.

{ **الْمُسْتَأْخِرِينَ** } الذين تأخّروا وهم بعد انقراض غيرهم إلى أجل يأتي.

والسين والتاء في الوصفين للتأكيد مثل استجاب، ولكن قولهم استقدم بمعنى تقدّم على خلاف القياس لأنّ فعله رباعي. وقد تقدّم عند قوله تعالى { لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].

{ **وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ** } نتيجة هذه الأدلة من قوله { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ } [23] فإنّ الذي يحيي الحياة الأولى قادر على الحياة الثانية بالأولى، والذي قدّر الموت ما قدّره عبثا. قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ } [الملك:2].

وقد أكّدت الجملة بحرف التوكيد وبضمير الفصل لردّ إنكارهم الشديد للحشر. وقد أسند الحشر إلى الله بعنوان كونه ربّ محمد ﷺ، تنويها بشأن النبيء ﷺ لأنّهم كذّبوه في الخبر عن البعث.

{ **إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** } للإشارة إلى حكمة الإحياء والإماتة، تعليلا لجملة { وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ } لأنّ شأن (**إِنَّ**) إذا جاءت في غير معنى الرد على المنكِر أن تفيد معنى التعليل والربط بما قبلها.

الحكيم: الموصوف بالحكمة. وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة: 269].

العليم: الموصوف بالعلم العام، أي المحيط، وتقدّم عند قوله {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران :140].

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [26] وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } [27].

تكملة لإقامة الدليل على انفراده تعالى بخلق أجناس العوالم وما فيها. ومنه يتخلّص إلى التذكير بعداوة الشيطان للبشر ليأخذوا حذرهم منه ويحاسبوا أنفسهم على ما يخامرها من وسواسه بما يرديهم. جاء بمناسبة ذكر الإحياء والإماتة فإنّ أهم الإحياء هو إيجاد النوع الإنساني. ففي هذا الخبر استدلال على عظيم القدرة والحكمة وعلى إمكان البعث، وموعظة وذكرى. والمراد بالإنسان آدم - عليه السلام -.

الصلصال: الطين الذي يترك حتّى ييبس فإذا يبس فهو صلصال وهو شبه الفخّار، إلّا أنّ الفخّار هو ما يبس بالطبخ بالنّار. قال تعالى { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ } [الرحمن:14].

الحمأ: الطين إذا اسودّ وكرهت رائحته. وهو صفة لـ {صَلْصَالٍ}.

المسنون: صفة ثانية، الذي طالت مدّة مكثه، وهو اسم مفعول من فعل سنّهُ إذا تركه مدة طويلة تشبه السنة. وأحسب أن فعل (سنّ) بمعنى ترك شيئا مدة طويلة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { لَمْ يَتَسَنَّهْ } [البقرة:259].

والمقصود من ذكر هذه الأشياء التنبيه على عجيب صنع الله تعالى إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة. وفيه إشارة إلى أنّ ماهية الحياة تتقوّم من الترابية والرطوبة والتعفّن، وهو يعطي حرارة ضعيفة. ولذلك تنشأ في الأجرام المتعفّنة حيوانات مثل الدود، ولذلك أيضا تنشأ في الأمزجة المتعفّنة الحمّى. وفيه إشارة إلى الأطوار التي مرت على مادة خلق الإنسان.

{ **وَلَقَدْ** } توكيد الجملة بلام القسم وبحرف (قد) لزيادة التحقّق، تنبيها على أهميّة هذا الخلق وأنّه بهذه الصفة.

{ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ** } إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين آدم وجند إبليس.

{ **مِنْ قَبْلُ** } تعليم أنّ خلق الجانّ أسبق لأنّه مخلوق من عنصر الحرارة والحرارة أسبق من الرطوبة.

{ **السَّمُومِ** } (بفتح السين): الريح الحارة. فالجنّ مخلوق من الناريّة والهوائيّة ليحصل الاعتدال في الحرارة فيقبل الحياة الخاصة اللائقة بخلقة الجنّ، فكما كوّنَ الله الحمأةَ الصلصالَ المسنونَ لخلق الإنسان، كوّنَ ريحا حارة وجعل منها الجنّ. فهو مكوّن من حرارة زائدة على مقدار حرارة الإنسان ومن تهوية قوية. والحكمة كلّها في إتقان المزج والتركيب.

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ [28] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [29] فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [30] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [31] قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [32] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ [33] قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [34] وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [35].

عطف قصّة على قصّة. وقد تقدّم الكلام في نظائره في سورة البقرة وفي سورة الأعراف.

البشر: مرادف الإنسان، أي أنّي خالق إنسانا. وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم، أو أنّ الله وصف لهم حقيقة الإنسان بالمعنى الذي عبّر عنه في القرآن.

وإنّما ذكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أنّ شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها.

التسوية: تعديل ذات الشيء. وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة لنفخ الروح.

النفخ: حقيقته إخراج الهواء مضغوطا بين الشفتين مضمومتين كالصفير، واستعير هنا لوضع قوّة لطيفة السريان قويّة التأثير دفعة واحدة. وليس ثمة نفخ ولا منفوخ.

وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق. وفيه إيماء إلى أنّ حقائق العناصر عند الله تعالى لا تتفاضل إلّا بتفاضل آثارها وأعمالها. وأنّ كراهة الذات أو الرائحة إنّما هو تابع لما يلائم الإدراك الحسّي أو ينافره تبعا لطباع الأمزجة أو لإلف العادة، ولا يؤبه في علم الله تعالى. وهذا هو ضابط وصف القذارة والنزاهة عند البشر. ألا ترى أنّ المنيّ يستقذر في الحس البشري على أنّ منه تكوين نوعه، ومنه تخلّقت أفاضل البشر. وكذلك المسك طيب في الحس البشري لملاءمة رائحته للشم وما هو إلّا غدة من خارجات بعض أنواع الغزال.

وهذا تأصيل لكون عالم الحقائق غير خاضع لعالم الأوهام. وفي الحديث: " لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ". وفيه: " لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلّا جاء يوم القيامة ودمه يَشْخُب، اللونُ لونُ الدم والريحُ ريحُ المسك".

{ **فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** } وهو الوقوع لقصد التعظيم. كقوله تعالى { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً } [يوسف: 100]. وهذا تمثيل لتعظيم يناسب أحوال الملائكة وأشكالهم، تقديرا لبديع الصنع والصلاحية لمختلف الأحوال الدال على تمام علم الله وعظيم قدرته.

وأمر الملائكة بالسجود لا ينافي تحريم بالسجود في الإسلام لغير الله من وجوه:
أحدهما: أنّ ذلك المنع لسد ذريعة الإشراك والملائكة معصومون من تطرق ذلك إليهم.
ثانيها: أنّ شريعة الإسلام امتازت بنهاية مبالغ الحقّ والصلاح، فجاءت بما لم تجئ به الشرائع السالفة، لأنّ الله أراد بلوغ أتباعها أوجّ الكمال في المدارك ولم يكن السجود من قبل محظورا فقد سجد يعقوب وأبناؤه ليوسف - عليهم السلام - وكانوا أهل إيمان.
ثالثها: أن هذا إخبار عن أحوال العالم العلوي، ولا تقاس أحكامه على تكاليف عالم الدنيا.
{ **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** } عنوان على طاعة الملائكة. و{ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } تأكيد على تأكيد.
{ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** } تقدّم القول على نظيره في سورة البقرة وسورة الأعراف. وقوله هنا { أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } بيان لقوله في سورة البقرة [34] {وَاسْتَكْبَرَ}، لأنّه أبى أن يسجد وأن يساوي الملائكة في الرضى بالسجود. فدلّ هذا على أنّه عصى وأنّه ترفّع عن متابعة غيره.
{ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** } استفهام توبيخ.
{ **لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ** } جحود. وتقدّم أنه أشدّ في النفي من (لا أسجد) في {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ} [المائدة:116].
{ **لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** } تأييد لإبايته من السجود بأنّ المخلوق من ذلك الطين حقير ذميم لا يستأهل السجود. وهذا ضلال نشأ عن تحكيم الأوهام بإعطاء الشيء حكم ما منه التكوين للشيء الكائن.
{ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا** } عطفت جملة أمره بالخروج بالفاء لأنّ ذلك الأمر تفرّع على جوابه المُنبئ عن كفره وعدم تأهّله للبقاء في السماوات.
{ **منها** } الضمير عائد إلى السماوات وإن لم تذكر لدلالة ذكر الملائكة عليها. وقيل: عائد إلى الجنة. وقد اختلف علماؤنا في أنّها موجودة.
{ **فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** } الفاء دالة على سبب إخراجه من السماوات. و (إن) مؤذنة بالتعليل. وذلك إيماء إلى سبب إخراجه من عوالم القدس.
الرجيم: المطرود. وهو كناية عن الحقارة. وتقدّم في قوله تعالى {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [17].
{ **اللَّعْنَةَ** }: السب بالطرد.
{ **إِلَى يَوْمِ الدِّينِ** } وهو يوم الجزاء، غاية للعن استعمالا في معنى الدوام، كأنّه قيل أبدا. وليس ذلك بمقتضي أنّ اللعنة تنتهي يوم القيامة ويخلفها ضدّها، ولكن المراد أنّ اللعنة عليه في الدنيا إلى أن يلاقي جزاء عمله فذلك يومئذ أشد من اللعنة.

{ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [36] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [37] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}[38]

سؤاله النظرة بعد إعلامه بأنّه معلون إلى يوم الدين فاض به خبث جبلّته البالغ نهاية الخباثة التي لا يشفيها إلّا دوام الإفساد في هذا العالم، فكانت هذه الرغبة مجلبة لدوام شقوته. وخاطب الله بصفة الربوبية تخضعا وحثا على الإجابة.

{ **فَأَنْظِرْنِي** } فاء التفريع. فرّع السؤال عن الإخراج، ووسّط النداء بين ذلك.

وذكرت هذه الحالة من أوصاف نفسيّته بعثا لكراهيّته في نفوس البشر الذين يرون أنّ حقّ النفس الأبيّة أن تأنف من الحياة الذميمة المحقّرة، وذلك شأن العرب، فإذا علموا هذا الحرص من حال إبليس أبغضوه واحتقروه فلم يرضوا بكل عمل ينسب إليه.

الإنظار: الإمهال والتأخير. وتقدّم في قوله { فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ } [البقرة:280]. والمراد تأخير إماتته.

{ **يَوْمِ يُبْعَثُونَ** } عبّر به عن يوم الدين تمهيدا لما عقد عليه العزم من إغواء البشر، فأراد الإنظار إلى آخر مدة وجود نوع الإنسان في الدنيا. وضمير { يُبْعَثُونَ } للبشر المعلومين من تركيب خلق آدم عليه السلام، وأنّه يكون له نسل ولا سيما حيث خلقت زوجه حينئذ، فإنّ ذلك يقتضي أن يكون منهما نسل.

{ **يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** } تفنّنا وتفاديا من إعادة اللفظ قضاء لحق حسن النظم، ولما فيه من التعليم بأنّ الله يعلم ذلك الأجل، فالمراد: المعلوم لدينا. وفيه تعريض بأنّ من لم يؤمنوا بذلك اليوم من الناس لا يعبأ بهم.

وهذا الإنظار رمز إلهي على أنّ ناموس الشرّ لا ينقضي من عالم الحياة الدنيا وأنّ نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار، قال تعالى { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ } [الانبياء:18].

{ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[39].

{ **بِمَا أَغْوَيْتَنِي** } الباء للسببية، و(ما) موصولة، إشارة إلى غواية يعلمها الله وهي التي جبله عليها، فلذلك اختير لحكايتها طريقة الموصوليّة.

{ **لَأُزَيِّنَنَّ** } لام قسم محذوف مراد بها التأكيد، وهو القسم المصرّح به في قوله { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [صّ:82].

التزيين: التحسين، أي جعل الشيء زيْنا، أي حسنا. وحذف المفعول لظهوره من المقام، أي لأزيننّ لهم الشرّ والسيّئات فيرونها حسنة، وأزيّن لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات.

الإغواء: جعلهم غاوين. والغَواية (بفتح الغين): الضلال. والمعنى: ولأضلّنّهم.
{ **فِي الْأَرْضِ** } لأنّها أوّل ما يخطر بباله عند خطور الغواية لاقتران الغواية بالنزول إلى الأرض الذي دلّ عليه قوله تعالى { فَاخْرُجْ مِنْهَا } [34]، أي اخرج من الجنّة إلى الأرض كما جاء في قوله { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ} [البقرة:36].
{ **لَهُمْ / لَأُغْوِيَنَّهُمْ / مِنْهُمُ** }، الضمائر لبني آدم، لأنّه قد علم علما ألقي في وجدانه بأنّ آدم عليه السلام ستكون له ذرّيّة.
{ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** } (بفتح اللام) عند نافع وحمزة وعاصم والكسائي على معنى الذين أخلصتهم وطهّرتهم. وقرئ (بكسر اللام) لابن كثير وابن عامر وأبي عمرو، أي الذين أخلصوا لك في العمل.

{ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [41] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ [42] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [43] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}[44].

{ **قَالَ هَذَا** } الإشارة إلى غير مشاهد تنزيلا له منزلة المشاهد، وتنزيلا للمسموع منزلة المرئي. وهو مع ذلك غير مذكور لقصد التشويق إلى سماعه عند ذكره. فاسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن، كما يكتب في العهود والعقود: هذا ما قاضى عليه فلان فلانا أنّه كيت و كيت.
ويجوز أن تكون الإشارة إلى الاستثناء الذي سبق في حكاية كلام إبليس من قوله { إِلَّا عِبَادَكَ }[40] لتضمّنه أنّه لا يستطيع غواية العباد الذين أخلصهم الله للخير، فتكون جملة { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } مستأنفة أفادت نفي سلطانه.
الصراط: مستعار للعمل الذي يقصد منه عامله فائدة. شبّه بالطريق الموصل إلى المكان المطلوب.
{ **مُسْتَقِيمٌ** } نعت لـ { صِرَاطٌ }، أي لا اعوجاج فيه. واستعيرت الاستقامة لملازمة الحالة الكاملة.
{ **عَلَيَّ** } مستعملة في الوجوب المجازي، وهو **الفعل الدائم الذي لا يتخلّف** كقوله تعالى{ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } [الليل:12]، أي أنّا التزمنا الهدى لا نحيد عنه لأنّه مقتضى الحكمة وعظمة الإلهية.
وهذه الجملة مما يرسل من الأمثال القرآنيّة. والمعنى أنّ الله وضع سنّة في نفوس البشر أنّ الشيطان لا يتسلّط إلّا على من كان غاويا، أي مائلا للغواية مكتسبا لها دون من كبح نفسه عن الشر. فإنّ العاقل إذا تعلّق به وسواس الشيطان علم ما فيه من إضلال وعلم أنّ الهدى في خلافه فإذا توقّق وحمل نفسه على اختيار الهدى

وصرف إليه عزمه قوي على الشيطان فلم يكن له عليه سلطان، وإذا مال إلى الضلال واستحسنه واختار إرضاء شهوته صار متهيّئا إلى الغواية فأغواه الشيطان فغوى.

{ **مَنِ اتَّبَعَكَ** } الاتباع مجاز بمعنى الطاعة واستحسان الرأي كقوله { اتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران:31].

{ **الْغَاوِينَ** } من باب إطلاق اسم الفاعل على الحصول في المستقبل بالقرينة، لأنّه لو كان غاويا بالفعل لم يكن لسلطان الشيطان عليه فائدة. وقد دلّ على هذا المعنى تعلّق نفي السلطان بجميع العباد، ثم استثناء من كان غاويا. فلمّا كان سلطان الشيطان لا يتسلّط إلّا على من كان غاويا علمنا أنّ ثمّة وصفا بالغواية هو مهيّئ تسلّط سلطان الشيطان على موصوفه. وذلك هو الموصوف بالغواية بالقوة لا بالفعل، أي بالاستعداد للغواية لا بوقوعها.

{ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** } الضمير عائد إلى { مَنِ اتَّبَعَكَ }، والموعد مكان الوعد. وأطلق هنا على المصير إلى الله، استعير الموعد لمكان اللقاء تشبيها له بالمكان المعيّن بين النّاس. وفي ذلك تمليح بهم لأنّهم ينكرون البعث والجزاء.

{ **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ** } الظاهر أنّ السبعة مستعملة في الكثرة، أو أريد بالأبواب الكناية عن طبقات جهنّم لأنّ الأبواب تقتضي منازل فهي مراتب مناسبة لمراتب الإجرام بأن تكون أصول الجرائم سبعة تتفرع عنها جميع المعاصي الكبائر. وعسى أن نتمكّن من تشجيرها في وقت آخر. وقد يكون من جملة طبقاتها طبقة النفاق قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء:145].

{ **لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ** } وتقسيمها بالتعيين يعلمه الله تعالى. أي لكلّ باب فريق يدخل منه، أو لكلّ طبقة من النّار قسم من أهل النّار مقسوم على طبقات أقسام النّار.

واعلم أنّ هذه الأقوال التي صدرت من الشيطان لدى الحضرة القدسية هي انكشاف لجبلّة التطور الذي تكيّفت به نفس إبليس من حين أبى من السجود. وأمّا الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التكوينيّة التي قدّرها الله تعالى. وليست تلك الأقوال كلّها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته، ولا بغلبة من الشيطان لخالقه، فإنّ ضعفه تجاه عزّة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك.

{ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [45] ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ [46] وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [47] لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ** } [48].

استئناف ابتدائي، انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتّقين على عادة القرآن في التفنّن.

المتّقون: الموصوفون بالتقوى. وتقدّمت عند صدر سورة البقرة.

الجنّات: جمع جنّة. تقدّمت عند قوله تعالى { أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [البقرة [25].
العيون: جمع عين اسم لثقب أرضي يخرج منه الماء. فقد يكون انفجارها بدون عمل الإنسان. وأسبابه كثيرة تقدمت عند قوله تعالى { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } [البقرة:74]. وقد يكون بفعل فاعل وهو التفجير.
{ **ادْخُلُوهَا** } معمولة لقول. والتقدير: يقال لهم ادخلوها. والقائل هو الملائكة عند إدخال المتّقين الجنّة.
السلام: التحيّة. وتقدّم في قوله { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ} [الأنعام:54].
{ **آمِنِينَ** } والأمن النجاة من الخوف.
{ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ** } عطف على الخبر.
الغلّ (بكسر الغين): البغض. وتقدّم في قوله تعالى { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف:43]، أي ما كان بين بعضهم من غلّ في الدنيا.
{ **إِخْوَاناً** } حال، وهو على معنى التشبيه، أي كالإخوان، أي كحال الإخوان في الدنيا. وأول من يدخل في هذا العموم أصحاب النبيء ﷺ فيما شجر بينهم من الحوادث الدافع إليها اختلاف الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين، والشدّة في إقامة الحقّ على حسب اجتهادهم. كما روي عن علي كرم الله وجهه أنّه قال: إنّي لأرجو من أن أكون أنا و طلحة ممن قال الله تعالى فيهم { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً }. فقال جاهل من شيعة علي اسمه الحارث بن الأعور الهمذاني: كلّا، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد. فقال عليّ: " فلمن هذه الآية لا أمّ لك، بفيك التراب ".
{ **عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** }
السرر: جمع سرير. وهو محمل كالكرسي متسع يمكن الاضطجاع عليه والاتكاء. وهو مجلس أصحاب الدعة والرفاهية لتمكّن الجالس عليه من التقلّب كيف شاء حتى إذا ملّ جلسة انقلب لغيرها.
التقابل: كون الواحد قبالة غيره، وهو أدخل في التأنّس بالرؤية والمحادثة.
{ **لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ** }
المسّ: كناية عن الإصابة.
النصب: التعب الناشئ عن استعمال الجهد.

{ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [49] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } [50].

هذا تصدير لذكر القصص التي أريد من التذكير بها الموعظة بما حلّ بأهلها، وهي قصّة قوم لوط وقصّة أصحاب الأيكة وقصّة ثمود. وابتدئ ذلك بقصّة إبراهيم - عليه السلام - لما فيها من كرامة الله له تعريضا

بالمشركين إذ لم يقتفوا آثاره في التوحيد. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا
{ **نَبِّئْ عِبَادِي** } ابتداء الكلام بفعل الإنباء لتشويق السامعين إلى ما بعده كقوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ} [سورة البروج:17] ونحوه. والمقصود هو قوله تعالى الآتي { وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } [51]، وإنّما قدّم الأمر بإعلام النّاس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصليّة قبل الموعظة بجزئيّات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم المؤمنين لأنّ ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب.
وقدّمت المغفرة على العذاب لسبق رحمته غضبه.

{ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ [51] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ [52] قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ [53] قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ [54] قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ [55] قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}[56].

القصة من مظاهر رحمته تعالى وعذابه.
{ **ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ** }: الملائكة الذين تشكّلوا بشكل أناس غرباء مارين ببيته. وتقدّمت القصة في سورة هود.
{ **قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ** } جاءت مفصولة بدون عطف لأنّها جواب عن جملة { فَقَالُوا سَلاماً }. وقد طوي ذكر ردّه السلام عليهم إيجازا لظهوره. صرّح به في [الذريات:25] { قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ }، أي قال إنّا منكم وجلون بعد أن ردّ السلام. وفي سورة هود أنّه أوجس منهم خيفة حين رآهم لم يمدّوا أيديهم للأكل.
{ **إِنَّا** } من كلام إبراهيم - عليه السلام - فهو يعني به نفسه وأهله، لأنّ الضيف طرقوا بيتهم في غير وقت طروق الضيف فظنهم يريدون به شرا، فلمّا سلّموا عليه فاتحهم بطلب الأمن {إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ}، أي أخفتمونا.
الوجِل(بكسر الجيم): الخائف. والوجَل (بفتح الجيم) الخوف. ووقع في [هود :70] { نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً }.
{ **إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** } استئناف كلام آخر بعد أن قدّم إليهم القِرى وحضرت امرأته فبشّروه بحضرتها كما فُصّل في سورة هود.
{ **بِغُلامٍ عَلِيمٍ** }: إسحاق - عليه السلام - أي عليم بالشريعة، أي بأن يكون نبئا.
وقد حكي هنا قولهم لإبراهيم - عليه السلام -، وحكي في سورة هود قولهم لامرأته، لأنّ البشارة كانت لهما معا، فقد تكون حاصلة في وقت واحد فهي بشارتان باعتبار المبشَّر، وقد تكون حصلت في وقتين متقاربين بشّروه بانفراد ثم جاءت امرأته فبشّروها.

{ **قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي** } للتعجب.

{ **عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ** } بمعنى (مع)، الدالة على شدّة اقتران البشارة بمس الكبر إيّاه.

المسّ: الإصابة. والمعنى: تعجّب من بشارته بولد مع أنّ الكبر مسّه.

{ **فَبِمَ تُبَشِّرُونَ** } استفهام تعجّب. نُزّل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنّه يكاد يكون غير معلوم. وقد علم إبراهيم عليه السلام من البشارة أنّهم ملائكة صادقون فتعيّن أنّ الاستفهام للتعجّب.

{ **قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ** } جواب الملائكة إيّاه بأنّهم بشّروه بالخبر الحقّ، فكلامهم ردّ لكلامه وليس جواب على استفهامه، لأنّه استفهام غير حقيقي.

{ **فلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ** } نهوه عن استبعاد ذلك بأنّه استبعاد رحمة القدير، بعد أن علم أنّ المبشّرين بها مرسلون إليه من الله، فاستبعاد ذلك يفضي إلى القنوط من رحمة الله. ولمّا كان إبراهيم - عليه السلام - منزّها من القنوط من رحمة الله جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين، تحذيرا له ممّا يدخله في تلك الزمرة، ولم يفرضوا أن يكون هو قانطا، لرفعة مقام نبوّته عن ذلك.

وهذا النهي كقوله الله تعالى لنوح - عليه السلام - { إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود:46].

{ **قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ** }. وهو استفهام إنكار في معنى النفي، يعني أنه لم يقنط ولكنّه امتلكه المعتاد فتعجّب، فصار ذلك كالذهول عن المعلوم، فلمّا نبهه الملائكة أدنى تنبيه تذكّر.

القنوط: اليأس. وقرأ الجمهور {وَمَنْ يَقْنَطُ} (بفتح النون)، وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف (بكسر النون) وهما لغتان في فعل قنط.

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ [57] قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ [58] إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ [59] إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ } [60].

هذا الحوار، بين إبراهيم والملائكة عليهم السلام، يجمع بين بيان فضل إبراهيم - عليه السلام - وبين موعظة قريش بما حلّ ببعض الأمم المكذّبين.

انتقل إبراهيم عليه السلام إلى سؤالهم عن سبب نزولهم إلى الأرض، لأنّه يعلم أنّ الملائكة لا ينزلون إلّا لأمر عظيم كما قال تعالى { مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ } [الحجر:8]. وقد نزل الملائكة يوم بدر لاستئصال سادة المشركين ورؤسائهم.

{ **خَطْبُكُمْ** } الخطب تقدّم في قوله تعالى { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ } [يوسف:51].

{ **إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ** } إيجاز حذف وتقدير الكلام: إنّا أرسلنا إلى لوط لأجل قوم مجرمين، أي

لعذابهم. و**القوم المجرمون**: هم قوم سدوم وقراها. وتقدّم ذكرهم في سورة هود.

{ **إِلَّا آلَ لُوطٍ** } الاستثناء منقطع لأنّهم غير مجرمين.

{ **إِلَّا امْرَأَتَهُ** } استثناء متّصل لأنّها من آل لوط.

{ **إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** } استئناف بياني لبيان الإجمال الذي في استثناء آل لوط، لدفع احتمال أنّهم لم يرسلوا إليهم ولا أمروا بإنجائهم.

{ **قَدَّرْنَا** } وإسناد التقدير إلى ضمير الملائكة لأنّهم مزمعون على سببه. وهو ما وكّلوا به من تحذير لوط عليه السلام وآله من الالتفات إلى العذاب، وتركهم تحذير امرأته حتّى التفتت فحلّ بها ما حل بقوم لوط.

{ **إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ** } أي ذهابها وهلاكها. وتقدّم ذكر الغابرين في سورة الأعراف.

{ **فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ** [61] **قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** [62] **قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ** [63] **وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** [64] **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ** } [65]

تفريع على حكاية قصّتهم مع إبراهيم وقد طوى ما هو معلوم من خروج الملائكة من عند إبراهيم.

وعبّر بآل لوط - عليه السلام - لأنّهم نزلوا في منزله بين أهله.

{ **إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** } وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي كانت تمرّ بهم، أي لا تعرف قبيلتكم. وتقدّم قوله تعالى { نَكِرَهُمْ } [هود:70].

{ **قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ** } أجابوه بما يزيل خوفه وريبته. وفيه إيماء إلى التعذيب، أي بالأمر الذي كان قومك يشكّون في حلوله بهم.

{ **وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** } الخبر الحقّ، ولذلك ذيّل بجملة { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }.

{ **جِئْنَاكَ** ... **وَأَتَيْنَاكَ** } التعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنّن لدفع تكرار الفعل الواحد، وللتأكيد اللفظي بالمرادف. كقوله تعالى { وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [الفرقان:33]. وعليه تكون الباء في قوله { بِمَا كَانُوا } وقوله { بِالْحَقِّ } للملابسة.

ويحتمل أن تكون لذكر الفعل الثاني وهو {وَأَتَيْنَاكَ} خصوصية لا تفي بها واو العطف، وهي مراعاة اختلاف المجرورين بالباء في مناسبة كلّ منها للفعل الذي تعلّق هو به. فلمّا كان المتعلق بفعل { **جِئْنَاكَ** } أمرا حسّيا وهو العذاب الذي كانوا فيه يمترون، وكان ما يصح أن يسند إليه المجيء بمعنى كالحقيقي، إذ هو مجيء مجازي مشهور مسو للحقيقي، أوثر فعل { جِئْنَاكَ } ليسند إلى ضمير المخاطبين ويعلق به { **بِمَا كَانُوا فِيهِ**

يَمْتَرُونَ }.

وأمّا متعلّق فعل { **أَتَيْنَاكَ** } وهو { **بِالْحَقِّ** } فهو أمر معنوي لا يقع منه الإتيان. فإنّ هذا الإتيان مسند إلى الملائكة بمعناه الحقيقي، وكانوا في إتيانهم ملابسين للحقّ، أي الصدق، وليس الصدق مسندا إليه الإتيان.

فالباء في قوله تعالى { بِالْحَقِّ } للملابسة لا للتعدية.

{ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ }

القِطْع (بكسر القاف وسكون الطاء): الجزء الأخير من الليل.

وأمروه أن يجعل أهله قدّامه ويكون من خلفهم، فهو يتبع أدبارهم، أي ظهورهم ليكون كالحائل بينهم وبين العذاب الذي يحلّ بقومه بعقب خروجه. فبكونه وراء أهله يخافون الالتفات لأنّه يراقبهم. وقد مضى تفصيل ذلك في سورة هود، وأنّ امرأته التفتت فأصابها العذاب.

ولم يبيّنوا له المكان الذي يقصده إلّا وقت الخروج، وهو مدينة عموريّة، كما تقدّم في سورة هود.

{ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ }[66]

{ **قَضَيْنَا** } قدّرنا، وضمّن معنى أوحينا فعدي بـ (إلى). أي أوحينا إليه بما قضينا.

{ **ذَلِكَ الْأَمْرَ** } إبهام للتهويل. والإشارة للتعظيم، أي الأمر العظيم.

{ **أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ** } جملة مفسّرة لـ { ذَلِكَ الْأَمْرَ } وهي المناسبة للفعل المضمّن وهو (أوحينا).

الدابر: الآخر، أي آخر شخص. وهو كناية عن استئصالهم كلّهم، كما تقدّم عند قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام:45].

{ **مُصْبِحِينَ** } أي في أوّل وقته، وهو حال من اسم الإشارة. ومبدأ الصباح وقت شروق الشمس، ولذلك قال بعده { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ } [73].

{ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ [67] قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ [68] وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ } [69]

الجزء الأهمّ من القصّة. ومجيء أهل المدينة إليه ومحاورته معهم كان قبل أن يعلم أنّهم ملائكة ولو علم ذلك لما أشفق مما عزم عليه أهل المدينة، كما جاء في قوله تعالى { قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ } [هود:81]. والواو لا تفيد ترتيب معطوفها. والمدينة هي سدوم.

{ **يَسْتَبْشِرُونَ** } يفرحون، وهو مطاوع بشّره فاستبشر، قال تعالى { فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ } [براءة:111].

وصيغ بصيغة المضارع لإفادة التجدّد مبالغة في الفرح. وذلك أنّهم علموا أنّ رجالا غرباء حلوا ببيت لوط عليه السلام ففرحوا بذلك ليغتصبوهم كعادتهم السيّئة. وقد تقدّمت القصّة في سورة هود.
{ **فَلا تَفْضَحُونِ** } الفضح والفضيحة: شهرة حال شنيعة. وكانوا يتعيّرون بإهانة الضيف ويعدّ ذلك مذلّة لمضيّفه.
{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ** } ذكّرهم بالوازع الديني وإن كانوا كفارا، استقصاء للدعوة التي جاء بها، وبالوازع العرفي.
الخزي: الذلّ والإهانة. وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [سورة البقرة:85].

{ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ [70] قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [71] لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [72] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ [73] فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ [74] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [75] وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ [76] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ } [77].

{ **أَوَلَمْ نَنْهَكَ** } عطف على كلام لوط - عليه السلام - جار على طريقة العطف على كلام الغير. والاستفهام إنكاري، والمعطوف هو الإنكار.
{ **الْعَالَمِينَ** } النّاس. أي ألم ننهك عن حماية النّاس أو عن إجارتهم، وقد كانوا يقطعون السبيل.
{ **قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي** } عرض عليهم بناته ظنّا أنّ ذلك يردعهم ويطفئ شبقهم. وقد تقدّم في سورة هود معنى عرضه بناته، وأنه يجوز أن يراد به بنات صلبه وكن اثنتين أو ثلاثا، ويجوز أن يراد به بنات القوم كلّهم تنزيلا لهم منزلة بناته، لأنّ النبيء كأبّ لأمّته.
{ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** } معترضة بين أجزاء القصّة للعبرة في عدم جدوى الموعظة فيمن يكون في سكرة هواه. والمخاطب بها محمد ﷺ من قبل الله تعالى. وقيل هو من كلام الملائكة بتقدير قول.
{ **لَعَمْرُكَ** } صيغة قسم. واللام لام القسم. و**العَمْر** (بفتح العين وسكون الميم) أصله لغة في العُمر (بضم العين) فخص المفتوح بصيغة القسم لخفّته بالفتح، لأنّ القسم كثير الدوران في الكلام. فهو قسم بحياة المخاطب به. وقد يستعملونه بغير اللام فحينئذ يقرنونه باسم الجلالة وينصبونهما، كقول عمر بن أبي ربيعة: عمرك الله كيف يلتقيان.
السكرة: ذهاب العقل. مشتقة من السَكر (بفتح السين) وهو السدّ والغلق. وأطلقت هنا على الضلال تشبيها لغلبة دواعي الهوى على دواعي الرشاد بذهاب العقل وغشيته.

{ **يَعْمَهُونَ** } يتحيّرون ولا يهتدون. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ** }

{ **الصَّيْحَةُ** } صعقة في الهواء، وهي صواعق وزلازل وفيها حجارة من سجيل. وقد مضى بيانها في هود.

{ **مُشْرِقِينَ** } انتصب على الحال من ضمير الغيبة. وهو اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا في وقت الشروق.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ** } تذييل.

{ **فِي ذَلِكَ** } الإشارة إلى جميع ما تضمّنته القصة من الآيات؛ آية نزول الملائكة في بيت إبراهيم - عليه السلام - كرامة له، وبشارته بغلام عليم، وإعلام الله إيّاه بما سيحلّ بقوم لوط، ونصر الله لوطا بالملائكة، وإنجاء لوط - عليه السلام - وآله، وإهلاك قومه وامرأته لمناصرتها إيّاهم.

الآيات: الأدلة، أي دلائل على حقائق من الهداية وضدّها. وتقدّم الكلام حولهاعند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39].

{ **لِلْمُتَوَسِّمِينَ** } أصحاب التوسّم وهو التأمّل في السمة، والمراد للمتأمّلين في الأسباب وعواقبها، وأولئك هم المؤمنون. وهو تعريض بالذين لم تردعهم العبر بأنّهم دون مرتبة النظر، تعريضا بالمشركين الذين لم يتّعظوا، بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم من قبلهم التي عرفوا أخبارها ورأوا آثارها.

{ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ** }، أي المدينة المذكورة آنفا هي بطريق باق يشاهد كثير منكم آثارها في بلاد فلسطين في طريق تجارتكم إلى الشام وما حولها، وهذا كقوله { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137،138].

المقيم: أصله الشخص المستقرّ في مكانه غير مرتحل. وهو هنا مستعار لآثار المدينة الباقية في المكان بتشبيهه بالشخص المقيم.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** } تذييل للتنبيه على أنّ المتوسّمين هم المؤمنون.

وجعل ذلك (آية) بالإفراد تفنّنا لأنّ (آية) اسم جنس يصدق بالمتعدّد، على أن مجموع ما حصل لهم آية على المقصود من القصة وهو عاقبة المكذبين. وفي مطاوي تلك الآيات آيات.

{ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ [78] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } [79].

{ **وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** }.

عطف قصّة على قصّة لما في كلتيهما من الموعظة. وذكر هاتين القصتين المعطوفتين تكميل وإدماج إذ لا علاقة بينهما وبين ما قبلهما من قصة إبراهيم والملائكة. وخصّ بالذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر لأنّهم مثل قوم لوط في موعظة المشركين من الملائكة، لأنّ أهل مكّة يشاهدون ديار هذه الأمم الثلاث.

{ **الْأَيْكَةِ** }: الغيضة من الأشجار الملتف بعضها ببعض. واسم الجمع (أيك)، وأطلقت هنا مرادا بها الجنس إذ قد كانت منازلهم في غيضة من الأشجار كثيرة الورق. وقد تخفّف الأيكة فيقال: ليكة.

{ **أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** }: هم قوم شعيب - عليه السلام - وهم مدين. وقيل أصحاب الأيكة فريق من قوم شعيب غير أهل مدين. فأهل مدين سكان الحاضرة وأصحاب الأيكة هم باديتهم وكان شعيب رسولا إليهم جميعا. قال تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ} [الشعراء:176-177]. وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى في سورة الشعراء.

{ **لَظَالِمِينَ** }: لمشركين.

الانتقام: العقوبة لأجل ذنب، مشتقّة من النقم، وهو الإنكار على الفعل. يقال: نقم عليه ، ونقم منه أيضا. وتقدّم في قوله { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا } [الأعراف:126]. وأجمل الانتقام في هذه الآية وبين في آيات أخرى، مثل آية هود.

{ **وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ** }

{ **إِنَّهُمَا** } الذي يظهر لي أنّ ضمير التثنية عائد على أصحاب الأيكة باعتبار أنهم قبيلتان، وهما مدين وسكان الغيضة الأصليون الذين نزل مدين بجوارهم، فإنّ إبراهيم - عليه السلام - أسكن ابنه مدين في شرق بلاد الخليل، ولا يكون إلّا في أرض مأهولة. وهذا عندي هو مقتضى ذكر قوم شعيب - عليه السلام - باسم مدين مرات وباسم أصحاب الأيكة مرات. وسيأتي لذلك زيادة إيضاح في سورة الشعراء.

ويجوز أن يكون ضمير التثنية لقرية قوم لوط وأيكة قوم شعيب - عليهما السلام - .

الإمام: الطريق الواضح لأنّه يأتمّ به السائر، أي يعرف أنّه يوصل.

مُبِينٍ: البيّن. أي أن كلتا القريتين بطريق القوافل بأهل مكّة. وقد تقدم آنفا قوله { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } فإدخال مدينة لوط عليه السلام في الضمير هنا تأكيد للأوّل.

{ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ [80] وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ [81] وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ [82] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ [83] فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [84].

جمعت قصص هؤلاء الأمم الثلاث: قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر في نسق، لتماثل حال العذاب الذي سلط عليها وهو عذاب الصيحة والرجفة والصاعقة.

أصحاب الحجر: هم ثمود كانوا ينزلون الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم). **والحجر**: المكان المحجور، أي الممنوع من الناس، أو اشتق من الحجارة لأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتا محكما. وقد

جعلت طبقات وفي وسطها بئر عظيمة وبئار كثيرة.
والحجر هو المعروف بـ **(وادي القرى)** وهو بين المدينة والشام، وهو المعروف اليوم باسم **مدائن صالح** على الطريق من خيبر إلى تبوك. وأما حَجر(بفتح الحاء) اليمامة مدينة بني حنيفة، وهي في بلاد نجد وتسمّى العروض وهي اليوم من بلاد البحرين.
وقد توهّم بعض المستشرقين من الإفرنج أنّ البيوت المنحوتة في ذلك الجبل كانت قبورا، وتعلّقوا بحجج وهمية. وممّا يفنّد أقوالهم خلو تلك الكهوف عن أجساد آدمية. وإذا كانت تلك قبورا فأين كانت منازل الأحياء؟ والظاهر أنّ ثمود لما أخذتهم الصيحة كانوا منتشرين في خارج البيوت لقوله تعالى { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ }. وقد وجدت في مداخل تلك البيوت نقر صغيرة تدلّ على أنّها مجعولة لوصد أبواب المداخل في الليل.
{ **الْمُرْسَلِينَ** } التعريف للجنس، فيصدق بالواحد، إذ المراد أنّهم كذّبوا صالحا - عليه السلام - فهو كقوله تعالى { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء:105]. وكذلك جمع الآيات في قوله { آيَاتِنَا } مراد به الجنس، وهي آية الناقة، أو أريد أنّها آية تشتمل على آيات في كيفية خروجها من صخرة، وحياتها، ورعيها، وشربها. وقد روي أنّها خرج معها فصيلها، فهما آيتان.
{ **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً** } والنحت: بري الحجر أو العود من وسطه أو من جوانبه. والمعنى أنّهم يتّخذون بيوتا في صخر الجبال.
{ **آمِنِينَ** } حال، وهي حال مقدّرة، أي مقدّرين أن يكونوا آمنين عقب نحتها وسكناها.
{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** } الفاء للتعقيب والسببية. أي داخلين في وقت الصباح.
{ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } أي يصنعون، أي البيوت التي عنوا بتحصينها وتحسينها كما دلّ عليه فعل { كَانُوا }. وصيغة المضارع في { يَكْسِبُونَ } لدلالتها على التكرّر والتجدّد المكنّى به عن إتقان الصنعة. ليدلّ على أنّ الذي لم يغن عنهم شيءٌ متخذ للإغناء ومن شأنه ذلك.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ [85] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } [86].

{ **وَمَا خَلَقْنَا** } موقع الواو في صدر هذه الجملة بديع. فهذه الجملة صالحة لأن تكون تذييلا لقصص الأمم المعذّبة ببيان أنّ ما أصابهم قد استحقّوه فهو من عدل الله بالجزاء على الأعمال بما يناسبها. والجملة أيضا صالحة لأنّ تكون تصديرا للجملة التي بعدها { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ }. والمراد ساعة جزاء المكذّبين بمحمد ﷺ،

أي ساعة البعث. فعلى الأول تكون الواو اعتراضية أو حالية، وعلى الثاني عاطفة جملة على جملة وخبرا على خبر. وإنّما أكسبها هذا الموقع البديع نظم الجمل المعجز والتنقّل من غرض إلى غرض بما بينها من المناسبة.

{ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا** } أصناف المخلوقات من حيوان وجماد، فشمل الأمم التي على الأرض وما حلّ بها، وشمل الملائكة الموكّلين بإنزال العذاب، وشمل الحوادث الكونيّة التي حلّت بالأمم من الزلازل والصواعق و الكسف.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة متعلّقة بـ { خَلَقْنَا } ، أي خلقا ملابسا للحقّ، بحيث يكون الحقّ باديا في جميع أحوال المخلوقات. والملابسة هنا عرفيه، فقد يتأخّر ظهور الحقّ عن خلق بعض الأحوال والحوادث تأخرا متفاوتا. فالملابسة بين الخلق والحقّ تختلف باختلاف الأحوال من ظهور الحقّ وخفائه. على أنّه لا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور.

والحقّ هنا هو إجراء أحوال المخلوقات على نظام ملائم للحكمة والمناسبة في الخير والشرّ، والكمال والنقص، والسموّ والخفض، في كل نوع بما يليق بماهيته وحقيقته وما يصلحه، وما يصلح هو له، بحسب ما يقتضيه النظام العام لا بحسب الأميال والشهوات، فإذا لاح ذلك الحقّ الموصوف مقارنا وجوده لوجود محقوقه فالأمر واضح، وإذا لاح تخلّف شيء عن مناسبة فبالتأمل والبحث يتّضح أن وراء ذلك مناسبة قضت بتعطيل المقارنة المحقوقة، ثم لا يتبدّل الحقّ آخر الأمر.

وهذا التأويل يُظهره موقع الآية عقب ذكر عقاب الأمم التي طغت وظلمت، فإنّ ذلك جزاء مناسب تمرّدها وفسادها، وأنّها وإن أمهلت حينا برحمة من الله لحكمة استبقاء عمران جزء من العالم زمانا فهي لم تفلت من العذاب المستحقّ لها. وكذلك القول في جزاء الآخرة.

{ **وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ** } نتيجة الاستدلال، فمن عرف أنّ جميع المخلوقات خلقت خلقا ملابسا للحقّ وأيقن به علم أنّ الحقّ لا يتخلّف عن مستحقّه ولو غاب وتأخّر، وإن كان نظام حوادث الدنيا قد يعطّل ظهور الحقّ في نصابه وتخلفه عن أربابه. فعلم أنّ وراء هذا النظام نظاما مدّخرا يتّصل فيه الحقّ بكل مستحقّ إن خيرا وإن شرّا، فلا يحسبنّ من فات من الذين ظلموا قبل حلول العذاب بهم مفلتا من الجزاء، فإنّ الله قد أعدّ عالما آخر يعطي فيه الأمور مستحقيها.

والمقصود من هذا تسلية النبيء ﷺ على ما لقيه من أذى المشركين وتكذيبهم واستمرارهم على ذلك إلى أمد معلوم. وفي إمهال الله تعالى المشركين ثمّ في إنجائهم من عذاب الاستئصال حكمة تحقّق بها مراد الله من بقاء هذا الدين وانتشاره في العالم، بتبليغ العرب إيّاه وحمله إلى الأمم.

{ **السَّاعَةَ** } ساعة البعث وذلك الذي افتتحت به السورة. وذلك انتقال من تهديدهم ووعيدهم بعذاب الدنيا إلى

تهديدهم بعذاب الآخرة.

{ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } أمر نبيّه ﷺ بالإعراض عن أذاهم وسوء تلقّيهم للدعوة.

{ الصَّفْحَ } العفو. وقد تقدّم في قوله تعالى { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ } [العقود:13]. وهو مستعمل هنا في لازمه وهو عدم الحزن والغضب من صنيع أعداء الدين وحذف متعلّق الصفح لظهوره، أي عمّن كذّبك وآذاك.

{ الْجَمِيلَ } الحسن. والمراد الصفح الكامل.

ثم إنّ في هذه الآية ضربا من ردّ العجز على الصدر، إذ كان قد وقع الاستدلال على المكذّبين بالبعث بخلق السماوات والأرض عند قوله { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً } [14-16]. وانتقل بعد ذلك إلى التذكير بخلق آدم عليه السلام وما فيه من العبر. ثم إلى سوق قصص الأمم التي عقبت عصور الخلقة الأولى، فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم حيث ذكر خلق السماوات ودلالته على البعث بقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ }.

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أي لأنّ في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم يعلمها ربّك، فمصلحة النبيء ﷺ في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم.

{ الْعَلِيمُ } بما يأتيه كلّ منكم، وهذا كقوله { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [فاطر:8].

وفي الآية إيماء إلى بشارة النبيء ﷺ بأنّ الله يخلق من أولئك من يكونون أولياء للنبيء ﷺ، وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين ولدوا، كقول النبيء ﷺ: " لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده ".

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبيء ﷺ:

دعاني داع غير نفسي وردني ... إلى الله من أطردته كل مطرد

يعني بالداعي النبيء ﷺ. وتلك هي نكتة ذكر وصف { الْخَالِقُ } دون غيره من الأسماء الحسنى.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ }[87]

اعتراض بين { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } وجملة { لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } [88]. أتبع التسلية والوعد بالمنّة ليُذكّر نبيه ﷺ بالنعمة العظيمة، فيطمئن بأنّه كما أحسن إليه بالنعم الحاصلة فهو منجزه الوعود الصادقة. وفي هذا الامتنان تعريض بالرد على المكذّبين.

إيتاء القرآن: أي إعطاؤه، وهو تنزيله عليه والوحي به إليه. وأوثر فعل **{ آتَيْنَاكَ }** دون (أوحينا) أو (أنزلنا) لأنّ الإعطاء أظهر في الإكرام والمنّة.

{ **سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي** } وجعل { الْقُرْآنَ } معطوفا يشعر بأنّ السبع المثاني من القرآن. وذلك ما درج عليه جمهور المفسّرين ودل عليه الحديث الآتي. وقد وصف القرآن بالمثاني في قوله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ } [الزمر:23]، فيتعيّن أنّ المراد آيات أو سور من القرآن، وأنّ { **مِنَ** } تبعيضيّة. وذلك أيضا شأن (مِنَ) إذا وقعت بعد اسم عدد. وأنّ المراد أجزاء من القرآن، آيات أو سور لها مزيّة اقتضت تخصيصها بالذكر من بين سائر القرآن، ولكون المثاني غير السبع مغايرة بالكلية والجزئية، تصحيحا للعطف.

{ **الْمَثَانِي** } يجوز أن يكون جمع مُثنّى (بضم الميم وتشديد النون) اسم مفعول مشتقا من ثنّى إذا كرّر تكريرة. وقيل جمع مَثْناة (بفتح الميم وسكون الثاء المثلثة وبهاء تأنيث في آخره). فهو مشتق من اسم الاثنين.

والأصح أنّ السبع المثاني **هي سورة فاتحة الكتاب** لأنّها يثنّى بها، أي تعاد في كل ركعة من الصلاة، فاشتقاقها من اسم الاثنين المراد به مطلق التكرير.

ثم إن كان المراد بالسبع سبع آيات فالمؤتى هو سورة الفاتحة لأنّها سبع آيات وهذا الذي ثبت عن رسول الله ﷺ في حديث أبي سعيد بن المعلى وأبي بن كعب وأبي هريرة في الصحيح عن رسول الله ﷺ: " أنّ أمّ القرآن هي السبع المثاني" فهو الأولى بالاعتماد عليه. وقد تقدّم ذلك في ذكر أسماء الفاتحة.

{ **وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** } عطف على السبع، من عطف الكلّ على الجزء لقصد التّعميم، ليعلم أنّ إيتاء القرآن كلّه نعمة عظيمة. وأجري وصف { **الْعَظِيمَ** } على القرآن تنويها به.

وإن كان المراد بالسبع سورا كما هو مروي من قول ابن عباس وكثير من الصحابة والسلف، واختلفوا في تعيينها بما لا ينثلج له الصدر، فيكون إبهامها مقصودا لصرف النّاس للعناية بجميع ما نزل من سور القرآن كما أبهمت ليلة القدر.

{ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ [88] وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ } [89].

استئناف بياني لما يثيره المقصود من قوله { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [85]، ومن تساؤل يجيش في النفس عن الإملاء للمكذّبين في النعمة والترف مع ما رمقوا به من الغضب والوعيد، فكانت جملة { لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } بيانا لما يختلج في نفس السامع من ذلك، ولكونها بهذه المثابة فصلت عن التي قبلها فصل البيان عن المبين.

المَدّ: أصله الزيادة. وأطلق على بسط الجسم وتطويله. يقال: مدّ يده إلى كذا، ومدّ رجله في الأرض. ثم

استعير للزيادة من شيء. ومنه مدد الجيش، ومدّ البحر، والمدّ في العمر. وتلك إطلاقات شائعة صارت حقيقة. واستعير المدّ هنا إلى التحديق بالنظر والطموح به تشبيها له بمدّ اليد للمتناول، لأنّ المنهي عنه نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم، أي فإن ما أوتيته أعظم من ذلك.

والأزواج هنا يحتمل أن يكون على معناه المشهور، أي الكفّار ونسائهم. ووجه تخصيصهم بالذكر أن حالتهم أتم أحوال التمتع لاستكمالها جميع اللذات والأنّس.

{ **وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** } شامل لكل حال من أحوالهم من شأنها أن تحزن الرسول ﷺ وتؤسفه. فمن ذلك كفرهم كما قال تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]. ففي هذا النهي كناية عن قلّة الاكتراث بهم، وعن توعّدهم بأن سيحلّ بهم ما يثير الحزن لهم، وكناية عن رحمة الرّسول ﷺ بالناس.

{ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** } ولمّا كان هذا النهي يتضمّن شدّة قلب وغلظة اعترضه بالأمر بالرفق للمؤمنين. وهو اعتراض مراد منه الاحتراس. وهذا كقوله { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح:29]. وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع خفض جناحه يريد الدنو، أو الذي يتهيّأ لحضن فراخه. وفي ضمن هذه التمثيليّة استعارة مكنية، والجناح تخييل. وقد بسطناه في قوله تعالى { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الاسراء:24]، وقد شاعت هذه التمثيليّة حتّى صارت كالمثل في التواضع واللين في المعاملة. وضدّ ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدّة.

وفي الآية تمهيد لما يجيء بعدها من قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [94].

{ **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ** } عطف على { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ }. فالمقول لهم هذا القول هم المتحدّث عنهم بالضمائر السابقة في قوله تعالى { مِنْهُمْ / عَلَيْهِمْ }، فالتقدير: وقل لهم، لأنّ هذا القول مراد منه المتاركة، أي ما عليّ إلّا إنذاركم، والقرينة هي ذكر النذارة دون البشارة لأنّ النذارة تناسب المكذّبين، إذ النذارة هي الإعلام بحدث فيه ضرّ.

النذير: فعيل بمعنى مُفعِل مثل الحكيم بمعنى المحكم.

{ **المبين** } الموضح المصرح.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل ومن تعريف الجزأين قصر قلب، أي كما تحسبون أنّكم تغيظونني بعدم إيمانكم فإني نذير مبين غير متقايض معكم لتحصيل إيمانكم.

{ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ [90] الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } [91].

تخلّص من تسلية النبيء ﷺ إلى وعيد المشركين الطاعنين في القرآن بأنّهم سيحاسبون على مطاعنهم.

{ **الْمُقْتَسِمِينَ** } افتعال من قسّم إذا جعل شيئا أقساما. وصيغة الافتعال هنا تقتضي تكلّف الفعل. ومعنى التقسيم والتجزئة هنا تفرقة الصفات والأحوال لا تجزئه الذات.

والمقتسمون يجوز أن يراد بهم جمع من المشركين، من قريش وهم ستة عشر رجلا، سنذكر أسماءهم، فيكون المراد بالقرآن مسمى هذا الاسم العلم، وهو كتاب الإسلام، وهو الراجح، ويؤيّده أنّ السورة مكّيّة.

ويجوز أن يراد بهم طوائف أهل الكتاب قسّموا كتابهم أقساما، منها ما أظهروه ومنها ما انسوه، فيكون القرآن مصدرا أطلق بمعناه اللغوي، أي المقروء من كتبهم. أو قسّموا كتاب الإسلام، منه ما صدّقوا به وهو مما وافق دينهم، ومنه ما كذّبوا به وهو ما خالف ما هم عليه.

{ **الْقُرْآنَ** } هنا يجوز أن يكون المراد به الاسم المجعول علما لكتاب الإسلام. ويجوز أن يكون المراد به الكتاب المقروء فيصدق بالتوراة والإنجيل.

{ **عِضِينَ** } جمع عضة، والعضة: الجزء والقطعة من الشيء.

وروي عن قتادة أنّ المقتسمين نفر من مشركي قريش جمعهم الوليد بن المغيرة لمّا جاء وقت الحجّ فقال: إنّ وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا، فانتدب لذلك ستة عشر رجلا فتقاسموا مداخل مكّة وطرقها لينفّروا النّاس عن الإسلام، فبعضهم يقول: لا تغتروا بهذا القرآن فهو سحر، وبعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم يقول: كلام مجنون، وبعضهم يقول: قول كاهن، وبعضهم يقول: هو أساطير الأولين اكتتبها، فقد قسموا القرآن أنواعا باعتبار اختلاف أوصافه.

وهؤلاء النفر هم: [حنظلة بن أبي سفيان - عتبة بن ربيعة - أخوه شيبة - الوليد بن المغيرة - أبو جهل بن هشام - أخوه العاص - أبو قيس بن الوليد - قيس بن الفاكه - زهير بن أمية - هلال بن عبد الأسود - السائب بن صيفي - النضر بن الحارث - أبو البختري بن هشام - زمعة ابن الحجاج - أمية بن خلف - أوس بن المغيرة].

{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [92] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [93].

الفاء للتفريع، وهذا تفريع على ما سبق من قوله تعالى { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [85]، والواو للقسم، فالمفرّع هو القسم وجوابه. والمقصود بالقسم تأكيد الخبر. وليس الرّسول ﷺ ممّن يشك في صدق هذا الوعيد، ولكن التأكيد متسلّط على ما في الخبر من تهديد { لَنَسْأَلَنَّهُمْ }.

{ **فَوَرَبِّكَ** } ووصف الربّ مضافا إلى ضمير النبيء ﷺ إيماء إلى أنّ في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذّبين عن تكذيبهم إيّاه، سؤال ربّ يغضب لرسوله ﷺ.
والسؤال مستعمل في لازم معناه، وهو وعيد للمسؤول، كقوله { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [التكاثر:8].

{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [94] إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ [95] الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [96].

تفريع على { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي } [87] بصريحه وكنايته عن التسلية على ما يلاقيه من تكذيب قومه. نزلت هذه الآية في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ورسول الله ﷺ مختفٍ في دار الأرقم بن أبي الأرقم. روي عن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبيء ﷺ مستخفيا حتّى نزلت { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } فخرج هو وأصحابه. يعني أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزلت سورة المدّثّر كان يدعو النّاس خفية وكان من أسلم من النّاس إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين، فلحقهم المشركون يستهزئون بهم ويعيبون صلاتهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد ابن أبي وقاص أدمى فيه سعد رجلا من المشركين. فبعد تلك الوقعة دخل رسول الله ﷺ وأصحابه دار الأرقم عند الصفا فكانوا يقيمون الصلاة بها، واستمروا كذلك ثلاث سنين أو تزيد، فنزل قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ }. وبنزولها ترك الرسول ﷺ الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدعوة للإسلام جهرا.
الصدع: الجهر والإعلان. وأصله الانشقاق. ومنه انصداع الإناء، أي انشقاقه. فاستعمل الصدع في لازم الانشقاق وهو ظهور الأمر المحجوب وراء الشيء المنصدع.
{ **بِمَا تُؤْمَرُ** } الدعوة إلى الإسلام. وقصد شمول الأمر، أي كلّ ما أمر الرسول ﷺ بتبليغه، وهو إيجاز بديع.
{ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** } الإعراض عن بعض أحوالهم لا عن ذواتهم. عن استهزائهم، وعن تصدّيهم إلى أذى المسلمين. وليس المراد الإعراض عن دعوتهم لأنّ قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } مانع من ذلك.
{ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** } تعليل للأمر بالإعلان بما أمر به، فإنّ اختفاء النبيء ﷺ بدار الأرقم كان بأمر من الله تعالى لحكمة علمها الله، أهمّها تعدّد الداخلين في الإسلام في تلك المدّة بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدين مع أنّ دعوته مخفية، ثم إنّ الله أمر رسوله ﷺ بإعلان دعوته لحكمة أعلى، تهيّأ اعتبارها في علمه تعالى.
{ **الْمُسْتَهْزِئِينَ** } التعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أنّه كفاه استهزاءهم وهو أقل أنواع الأذى، فكفايته ما هو أشد من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحرى. والتعريف للجنس فيفيد العموم، أي كفيناك كلّ

مستهزئ. وفي التعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أنّ قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء، كقوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً} [آل عمران:111]، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبيء بغير الاستهزاء. وذلك لطف من الله برسوله ﷺ.

{ **كَفَيْنَاكَ** } الكافي هو متولّي عمل عن غيره لأنّه أقدر عليه، أو لأنّه يبتغي راحة المكفي. يقال: كفيت مُهمّك، فيتعدى الفعل إلى مفعولين ثانيهما هو المهمّ المكفي منه. فالأصل أن يكون مصدرا فإذا كان اسم ذات فالمراد أحواله التي يدل عليها المقام، فإذا قلت: كفيتك عدوك، فالمراد: كفيتك بأسه، وإذا قلت: كفيتك غريمك، فالمراد: كفيتك مطالبته. فلما قال هنا { كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } فُهم أنّ المراد كفيناك الانتقام منهم وإراحتك من استهزائهم. وكانوا يستهزئون بصنوف من الاستهزاء كما تقدم. ومن استهزائهم استهزاؤهم بأسماء سور القرآن مثل سورة العنكبوت وسورة البقرة، كما في (الإتقان) في ذكر أسماء السور.

وعدّ من كبراء المستهزئين خمسة هم: [الوليد بن المغيرة - الأسود بن عبد يغوث - الأسود بن المطلب – العاصي بن وائل - الحارث بن عيطلة (يقال ابن عيطل وهو اسم أمّه دعي لها واسم أبيه قيس. وفي الكشاف و القرطبي أنّه ابن الطُلاطِلة ومثله في القاموس)] ، هلكوا بمكّة متتابعين، وكان هلاكهم العجيب المحكي في كتب السيرة صارفا أتباعهم عن الاستهزاء لانفراط عقدهم.

وقد يكون من أسباب كفايتهم زيادة الداخلين في الإسلام بحيث صار بأس المسلمين مخشيّا، وقد أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فاعتز به المسلمون، ولم يبق من أذى المشركين إيّاهم إلّا الاستهزاء، ثم أسلم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فخشيه سفهاء المشركين، وكان إسلامه في حدود سنة خمس من البعثة.

{ **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ** } للتشويه بحالهم، ولتسلية الرسول ﷺ بأنّهم ما اقتصروا على الافتراء عليه فقد افتروا على الله. وصيغة المضارع { يَجْعَلُونَ } للإشارة إلى أنّهم مستمرّون على ذلك مجدّدون له.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** }. وفرّع على الأمرين الوعيد وحذف مفعول { يَعْلَمُونَ } لدلالة المقام عليه، أي فسوف يعلمون جزاء بهتانهم.

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ [97] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [98] وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [99].

لمّا كان الوعيد مؤذنا بإمهالهم قليلا، كما دلّ عليه حرف التنفيس في قوله تعالى { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [96] طمأن الله نبيّه ﷺ بأنّه مطّلع على تحرّجه من أذاهم وبهتانهم؛ من أقوال الشرك وأقوال الاستهزاء، فأمره بالثبات والتفويض إلى ربّه، لأنّ الحكمة في إمهالهم، ولذلك افتتحت الجملة بلام القسم وحرف التحقيق.

وليس المخاطب ممن يداخله الشك في خبر الله تعالى ولكن التحقيق كناية عن الاهتمام بالمخبر، وأنّه بمحلّ العناية من الله. فالجملة معطوفة على { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئينَ } [95] أو حال.

{ **أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ** } مجاز عن كدر النفس. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود:12].

{ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** } أمره بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما يقولونه من نسبة الشريك، أي عليك بتنزيه ربّك فلا يضرّك شركهم. على أنّ التسبيح قد يستعمل في معناه الكنائي مع معناه الأصلي فيفيد الإنكار على المشركين فيما يقولون، أي فاقتصر في دفعهم على إنكار كلامهم. وهذا مثل قوله تعالى { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً } [الاسراء:93]. وتسبيح الله تنزيهه بقول: سبحان الله.

{ **وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** } أبلغ في الاتصاف بالسجود من (ساجدا) كما تقدّم في قوله تعالى { وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [براءة:119]، وقوله { قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة:67] ونظائرهما.

الساجدون: هم المصلّون. فالمعنى: ودم على الصلاة أنت ومن معك.

وليس هذا موضع سجدة من سجود التلاوة عند أحد من فقهاء المسلمين.

{ **الْيَقِينُ** } المقطوع به، الذي لا شك فيه وهو النصر الذي وعده الله به.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النحل

سمّيت هذه السورة عند السلف سورة النحل، وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة. ووجه تسميّتها بذلك أنّ لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى. وعن قتادة أنّها تسمّى سورة النِعَم (أي بكسر النون وفتح العين). قال ابن عطيّة: لما عدّد الله فيها من النعم على عباده.

وهي مكّيّة في قول الجمهور، وهو عن أبن عباس وابن الزبير. وقيل: إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة منصرف النبيء ﷺ من غزوة أحد، وهي قوله { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } [126] إلى آخر السورة. قيل نزلت في نسخ عزم النبيء ﷺ على أن يمثّل بسبعين من المشركين أن أظفره الله بهم مكافاة على تمثيلهم بحمزة.

وعن قتادة وجابر بن زيد أنّ أوّلها مكّيّ إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } [41] فهو مدني إلى آخر السورة.

وسيأتي في تفسير قوله تعالى{ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ } [79] ما يرجّح أنّ بعض السورة مكّيّ وبعضها مدنيّ، وبعضها نزل بعد الهجرة إلى الحبشة كما يدل عليه قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا} [110]، وبعضها متأخر النزول عن سورة الأنعام لقوله في هذه { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} [118]، يعني بما قصّ من قبل قوله تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } [الأنعام:146].

وهذه السورة نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة الم السجدة. وقد عدت الثانية والسبعين في ترتيب نزول السور.

وآيها مائة وثمان وعشرون بلا خلاف.

أغراض السورة

معظم ما اشتملت عليه السورة إكثارُ متنوّع الأدلّة على تفرد الله تعالى بالإلهيّة، والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته.

وأدلة إثبات رسالة محمد ﷺ. وإنزال القرآن عليه ﷺ.

وأنّ شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم - عليه السلام - .

وإثبات البعث والجزاء، فابتدئت بالإنذار بأنّه قد اقترب حلول ما أنذر به المشركون من عذاب الله الذي يستهزئون به، وتلا ذلك قرع المشركين وزجرهم على تصلّبهم في شركهم وتكذيبهم.

وانتقل إلى الاستدلال على إبطال عقيدة الشرك، فابتدئ بالتذكير بخلق السماوات والأرض، وما في السماء من شمس وقمر ونجوم، وما في الأرض من ناس وحيوان ونبات وبحار وجبال، وأعراض الليل والنهار.

وما في أطوار الإنسان وأحواله من العبر.

وخصّت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها.

والتنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان، وإبطال افترائهم على القرآن.

والاستدلال على إمكان البعث وأنّه تكوين كتكوين الموجودات.

والتحذير ممّا حلّ بالأمم التي أشركت بالله وكذّبت رسله عليهم السلام، عذاب الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة. وقابل ذلك بضدّه من نعيم المتّقين المصدّقين والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في الله وظلموا.

والتحذير من الارتداد عن الإسلام، والترخيص لمن أكره على الكفر في التقية من المكرهين.

والأمر بأصول من الشريعة، من تأصيل العدل، والإحسان، والمواساة، والوفاء بالعهد، وإبطال الفحشاء والمنكر والبغي، ونقض العهود، وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة.

وأدمج في ذلك ما فيها من العبر والدلائل، والامتنان على النّاس بما في ذلك من المنافع، والمحاسن، وحسن المناظر، ومعرفة الأوقات، وعلامات السير في البر والبحر، ومن ضرب الأمثال.

ومقابلة الأعمال بأضدادها.

والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.

والإنذار بعواقب كفران النعمة.

ثم عرض لهم بالدعوة إلى التوبة

وملاك طرائق دعوة الإسلام وتثبيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ووعده بتأييد الله إيّاه.

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [1]

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ }

لمّا كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وكان قد تكرّر وعيدهم من قبل، في آيات كثيرة، بيوم يكون الفارق بين الحقّ والباطل، فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدّتهم. وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتّى اطمأنّوا أنّه غير واقع فصاروا يهزأون بالنبيء ﷺ والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم، صدرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حلّ ذلك المتوعّد به. فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحقّق الوقوع بقرينة تفريع { فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ }، لأنّ النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنّه لمّا يحلّ بعد.

الأمر: مصدر بمعنى المفعول، كالوعد بمعنى الموعود، أي ما أمر الله به. أي تقديره وإرادة حصوله في الأجل المسمّى الذي تقتضيه الحكمة.

{ أَمْرُ اللَّهِ } إبهام يفيد تهويله وعظمته لإضافته لمن لا يعظم عليه شيء. وقد عبّر عنه تارات بـ (وعد الله) ومرّات بـ (أجل الله) ونحو ذلك.

والخطاب للمشركين ابتداء لأنّ استعجال العذاب من خصالهم، قال تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } [الحج:47]. ويجوز أن يكون شاملا للمؤمنين، لأنّ عذاب الله وإن كان الكافرون يستعجلون به تهكّما لظنّهم أنه غير آت، فإنّ المؤمنين يضمرون في نفوسهم استبطاءه ويحبّون تعجيله للكافرين.

الاستعجال: طلب تعجيل حصول شيء، فمفعوله هو الذي يقع التعجيل به. ويتعدّى الفعل إلى أكثر من واحد بالباء فقالوا: استعجل بكذا. وقد مضى في قوله تعالى { مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } [الأنعام:57]

فضمير { تَسْتَعْجِلُوهُ } إمّا عائد إلى الله تعالى، أي فلا تستعجلوا الله بأمره. وقيل الضمير عائد إلى {أَمْرُ اللَّهِ}، وعليه تكون تعدية فعل الاستعجال إليه على نزع الخافض.

والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ النهي. ويجدر أن يكون **للتسوية**، كما ترد صيغة الأمر للتسوية، أي لا جدوى في استعجاله لأنّه لا يعجّل قبل وقته المؤجّل له.

{ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }

مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنّها المقصود من الوعيد، إذ الوعيد والزجر إنّما كانا لأجل إبطال الإشراك. فكانت جملة { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } كالمقدّمة وهذه الجملة كالمقصد.

{ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الـ (ما) مصدريّة، أي عن إشراكهم غيره معه.

{ **يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاتَّقُونِ**}[2]

كان استعجالهم بالعذاب استهزاء بالرسول ﷺ وتكذيبه، وكان ناشئا عن عقيدة الإشراك التي من أصولها استحالة إرسال الرسل من البشر.

وأتبع تحقيق مجيء العذاب بتنزيه الله عن الشريك فقفّى ذلك بتبرئة الرّسول ﷺ من الكذب فيما يبلّغه عن ربّه ووصف لهم الإرسال وصفا موجزا. وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد.

{ **الْمَلائِكَةَ** } المراد الواحد منهم، وهو جبرائيل - عليه السلام - .

الروح: الوحي. أطلق عليه اسم الروح على وجه الاستعارة لأنّ الوحي به هدى للعقول، فشبّه الوحي بالروح كما يشبّه العلم الحقّ بالحياة، وكما يشبّه الجهل بالموت قال تعالى { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ } [الأنعام:122]. ووجه تشبيه الوحي بالروح أنّ الوحي إذا وعته العقول حلّت بها الحياة المعنويّة وهو العلم، كما أنّ الروح إذا حلّ في الجسم حلّت به الحياة الحسيّة، قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا } [الشورى:52].

{ **مِنْ أَمْرِهِ** } هي شؤونه، سبحانه، ومقدّراته التي استأثر بها. وذلك وجه إضافته إلى الله، كما هنا وكما في قوله تعالى { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11]، وقوله تعالى { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الاسراء:85].

{ **عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } ردّ على فنون من تكذيبهم. فقد قالوا { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31] وقالوا { فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ } [الزخرف:53] أي كان ملكا، وقالوا { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } [الفرقان:7]. ومشيئة الله جارية على وفق حكمته.

{ **أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا** } لمّا كان هذا الخبر مسوقا للذين اتّخذوا مع الله آلهة أخرى وكان ذلك ضلالا يستحقون عليه العقاب جعل إخبارهم بضد اعتقادهم إنذارا.

{ **فَاتَّقُونِ** } أمر بالتقوى الشاملة لجميع الشريعة.

وقد أحاطت جملة { أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاتَّقُونِ } بالشريعة كلّها، لأنّ جملة { أَنَ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا } تنبيه على ما يرجع من الشريعة إلى إصلاح الاعتقاد وهو الأمر بكمال القوة العقلية. وجملة { فَاتَّقُونِ } تنبيه على الاجتناب والامتثال اللذين هما منتهى كمال القوة العملية.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [3]

استئناف بياني ناشئ عن قوله { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [1] لأنّهم إذا سمعوا ذلك ترقّبوا دليل تنزيه الله عن أن يكون له شركاء. فابتدئ بالدلالة على اختصاصه بالخلق والتقدير، وذلك دليل على أنّ ما يُخلق لا يوصف بالإلهية، كما أنبأ عنه التفريع عقب هذه الأدلة بقوله { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [17]. والاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلة وأجمع لأنّها محوية لهما، ولأنّهما من أعظم الموجودات. فلذلك ابتدئ بهما. ولكن ما فيه من إجمال المَحويّات اقتضى أن يعقّب بالاستدلال بأصناف الخلق والمخلوقات فثنّى بخلق الإنسان.

الحق: هنا ضد العبث، فهو هنا بمعنى الحكمة والجدّ. إلّا ترى إلى قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلّا بِالْحَقِّ } [الدخان:38-39]. وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً} [ص:27]. والحقّ والصدق يطلقان وصفين لكمال الشيء في نوعه.

{ **تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } تحقيقا لنتيجة الدليل، لأنّ إشراكهم هو الذي حداهم إلى إنكار نبوّة من جاء ينهاهم عن الشرك فلا جرم كان الاعتناء بإثبات الوحدانية وإبطال الشرك مقدما على إثبات صدق الرسول - عليه الصلاة والسلام - المُبدأ به في أول السورة { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } [2].

{ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ }[4]

استئناف بياني أيضا. وهو استدلال آخر على انفراده تعالى بالإلهية ووحدانيّته فيها. وذلك أنّه بعد أن استدل عليهم بخلق العوالم العليا والسفلى، وهي مشاهدة لديهم، انتقل إلى الاستدلال عليهم بخلق أنفسهم المعلوم لهم. وأيضا لما استدل على وحدانيّته بخلق أعظم الأشياء المعلومة لهم استدل عليهم أيضا بخلق أعجب الأشياء للمتأمّل، وهو الإنسان في طرفي أطواره من كونه نطفة مهينة إلى كونه عاقلا فصيحا مبينا.

{ **الْإِنْسَانَ** } التعريف للعهد الذهني، وهو تعريف الجنس، أي خلق الجنس المعلوم الذي تدعونه بالإنسان.
وقد ذكر للاعتبار بخلق الإنسان ثلاثة اعتبارات: **جنسه** المعلوم بماهيته وخواصه، و**مبدأ** خلقه وهو النطفة التي هي أمهن شيء نشأ منها أشرف نوع، و**منتهى** ما شرّفه به وهو العقل.

الخصيم: من صيغ المبالغة، أي كثير الخصام.

{ **مُبِينٌ** } خبر ثان، أي فإذا هو متكلّم مفصح عما في ضميره ومراده بالحقّ أو بالباطل.

والمراد: الخصام في إثبات الشركاء، وإبطال الوحدانية، وتكذيب من يدعون إلى التوحيد، كما دلّ عليه قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي

الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } [يس:77،78]
(**إذا**) الإتيان بحرف المفاجأة استعارة تبعيّة. استعير الحرف الدال على معنى المفاجأة لمعنى ترتّب الشيء على غير ما يظنّ أن يترتّب عليه. ولا مفاجأة بالحقيقة هنا، لأنّ الله لم يفاجأه ذلك ولا فَجَأ أحدا، ولكن المعنى أنّه بحيث لو تدبّر الناظر في خلق الإنسان لترقّب منه الاعتراف بوحدانيّة خالقه وبقدرته على إعادة خلقه، فإذا سمع منه الإشراك والمجادلة في إبطال الوحدانية وفي إنكار البعث كان كمن فجأه ذلك. ولمّا كان حرف المفاجأة يدلّ على حصول الفَجْأة للمتكلّم به تعيّن أن تكون المفاجأة استعارة تبعيّة.
فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مُفْهِما أمرين هما: التعجيب من تطور الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة، وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل، والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه. فالجملة في حد ذاتها تنويه، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب. ولو قيل: فهو خصيم أو فكان خصيما لم يحصل هذا المعنى البليغ.

{ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [5] وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ [6] وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[7].
{ **وَالْأَنْعَامَ** } يجوز أن يكون عطفا على { الإِنْسَان } [4]، أي خلق الإنسان من نطفة والأنعام أيضا مخلوقة من نطفة. فيحصل اعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان، وفيه امتنان.
ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة، فيكون نصب { الْأَنْعَامَ } بفعل مضمر يفسّره المذكور بعده على طريقة الاستغلال. فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد، فيكون امتنانا على المخاطبين، وتعريضا بهم، فإنّهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيبا. وأي كفران أعظم من أن يتقرّب بالمخلوقات إلى غير من خلقها.
وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين.
والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا } وما بعده إدماج للامتنان.
{ **الْأَنْعَامَ** }: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز. وتقدّم في سورة الأنعام. وأشهر الأنعام عند العرب الإبل، ولذلك يغلب أن يطلق لفظ الأنعام عندهم على الإبل.
والخطاب صالح لشمول المشركين، وهم المقصود ابتداء من الاستدلال، وأن يشمل جميع النّاس ولا سيما فيما تضمّنه الكلام من الامتنان.

الدفء (بكسر الدال) اسم لما يتدفأ به . وهو الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها وأشعارها، وتتخذ منها الخيام والملابس. فلمّا كانت تلك مادة النسج جعل المنسوج كأنّه مظروف في الأنعام.

{ **وَمَنَافِعُ** } عطف على { دِفْءٌ } من عطف العام على الخاص، لأنّ أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر.

{ **وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** } وهذا امتنان بنعمة تسخيرها للأكل منها والتغذّي. وتقديم المجرور للاهتمام، لأنّهم شديدو الرغبة في أكل اللحوم، وللرعاية على الفاصلة. والإتيان بالمضارع لأنّ ذلك من الأعمال المتكرّرة.

الإراحة: فعل الرواح، وهو الرجوع إلى المعاطن يقال: أراح نعمه إذا أعادها بعد السروح.

السروح: الإسامة، أي الغدو بها إلى المراعي. يقال: سرَحها (بتخفيف الراء) سَرَحا وسُرَوحا، وسرّحها (بتشديد الراء) تسريحا.

وتقديم الإراحة على التسريح لأنّ الجَمال عند الإراحة أقوى وأبهج، لأنّها تقبل حينئذ ملأى البطون حافلة الضروع مرحة بمسرّة الشبع ومحبة الرجوع إلى منازلها من معاطن ومرابض.

واستعمال المضارع لأنّ ذلك من الأحوال المتكرّرة. وفي تكررها تكرر النعمة بمناظرها.

{ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ** } الضمير عائد إلى بعض الأنعام بالقرينة. والمضارع لنفس الغاية.

الأثقال: جمع ثَقَل (بفتحتين) وهو ما يثقل على النّاس حمله بأنفسهم.

{ **إِلَى بَلَدٍ** } الذي يرتحلون إليه كالشام واليمن بالنسبة إلى أهل الحجاز، ومنهم أهل مكّة في رحلة الصيف والشتاء، والرحلة إلى الحجّ.

{ **لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ** } صفة لـ { بَلَدٍ }، وهي مفيدة معنى البعد، لأنّ بلوغ المسافر إلى بلد بمشقّة هو من شان البلد البعيد، أي لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم.

الشِقّ (بكسر الشين) في قراءة الجمهور: المشقّة: التعب الشديد. والباء للملابسة.

{ **إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تعليل لجملة {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا} ، أي خلقها لهذه المنافع لأنّه رؤوف رحيم بكم.

{ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ }[8]

{ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** }. معطوف على { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا } [5] فالتقدير: وخلق الخيل. والقول في مناط الاستدلال وما بعده من الامتنان والعبرة في كلٍّ كالقول فيما تقدّم من قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ }.

{ **لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** } ، أي خلقها الله لتكونا مراكب للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدة لعمران العالم.

{ **وَزِينَةً** } بالنصب عطفا على شبه الجملة { لِتَرْكَبُوهَا }، فجُنِّب قرنه بلام التعليل من أجل توفر شرط انتصابه على المفعولية لأجله، لأنّ فاعله وفاعل عامله واحد، { خَلَقَ } في قوله { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا }. وهذا

النصب أوضح دليل على أنّ المفعول لأجله منصوب على تقدير لام التعليل.
وقد اقتصر على منّة الركوب على الخيل والبغال والحمير والزينة، ولم يذكر الحمل عليها كما قال في شأن الأنعام، لأنّهم لم تكن من عادتهم الحمل على الخيل والبغال والحمير، فإنّ الخيل كانت تركب للغزو وللصيد، والبغال تركب للمشي والغزو، والحمير تركب للتنقل في القرى وشبهها.
وفي حديث البخاري عن ابن عباس في حجّة الوداع أنه قال:" جئت على حمار أتان ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالنّاس".
فلا يتعلّق الامتنان بنعمة غير مستعملة عند المنعم عليهم، وإن كان الشيء المنعم به قد تكون له منافع لا يقصدها المخاطبون، مثل الحرث بالإبل والخيل والبغال والحمير، وهو مما يفعله المسلمون ولا يعرف منكر عليهم. أو منافع لم يتفطّن لها المخاطبون مثل ما ظهر من منافع الأدوية في الحيوان، ممّا لم يكن معروفا للنّاس من قبل، فيدخل كل ذلك في عموم قوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} [البقرة:29].
وبهذا يعلم أن لا دليل في هذه الآية على تحريم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير لأنّ أكلها نادر الخطور بالبال لقلته، وكيف وقد أكل المسلمون لحوم الحمر في غزوة خيبر بدون أن يستأذنوا النبيء ﷺ وكانوا في حالة اضطرار، وآية سورة النحل يومئذ مقروءة منذ سنين كثيرة فلم ينكر عليهم أحد ولا أنكره النبيء ﷺ.
كما جاء في الصحيح: أنّه أتي فقيل له: أكلت الحمر، فسكت، ثم أتي فقيل: أكلت الحمر فسكت. ثم أتي فقيل: أفنيت الحمر فنادي النبيء ﷺ أنّ الله ورسوله ينهانكم عن أكل لحوم الحمر. فأهرقت القدور.
وأنّ الخيل والبغال والحمير سواء في أن الآية لا تشمل حكم أكلها. فالمصير في جواز أكلها ومنعه إلى أدلة أخرى.
فأمّا الخيل والبغال ففي جواز أكلها خلاف قوي بين أهل العلم، وجمهورهم أباحوا أكلها. وهو قول الشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد ابن الحسن والظاهري. وروي عن ابن مسعود وأسماء بنت أبي بكر وعطاء والزهري والنخعي وابن جبير. وقال مالك وأبو حنيفة: يحرم أكل لحوم الخيل. وروي عن ابن عباس، واحتج بقوله تعالى { لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً }، ولو كانت مباحة الأكل لامتنّ بأكلها كما امتن في الأنعام بقوله {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [5]. وهو دليل لا ينهض بمفرده. فيجاب عنه بما قرّرنا من جريان الكلام على مراعاة عادة المخاطبين به. وقد ثبتت أحاديث كثيرة أنّ المسلمين أكلوا لحوم الخيل في زمن رسول الله ﷺ وعلمه. ولكنّه كان نادرا في عادتهم. وعن مالك رضي الله عنه رواية بكراهة لحوم الخيل واختار ذلك القرطبي.
وأما الحمير فقد ثبت أكل المسلمين لحومها يوم خيبر. ثم نهوا عن ذلك كما في الحديث المتقدّم. واختلف في محمل ذلك، فحمله الجمهور على التحريم لذات الحمير. وحمله بعضهم على تأويل أنها كانت حمولتهم يومئذ فلو استرسلوا على أكلها لانقطعوا بذلك المكان فآبوا رجالًا ولم يستطيعوا حمل أمتعتهم. وهذا رأي فريق من

السلف. وأخذ فريق من السلف بظاهر النهي فقالوا بتحريم أكل لحوم الحمر الإنسية لأنّها مورد النهي وأبقوا الوحشية على الإباحة الأصلية. وهو قول جمهور الأئمة، مالك وأبي حنيفة والشافعي، وغيرهم.

وفي هذا إثبات حكم تعبّدي في التفرقة وهو ممّا لا ينبغي المصير إليه في الاجتهاد إلّا بنص لا يقبل التأويل كما بيّنّاه في كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية). على أنّه لا يعرف في الشريعة أن يحرم صنف إنسي لنوع من الحيوان دون وحشيّه.

وأما البغال فالجمهور على تحريمها. فأمّا من قال بحرمة أكل الخيل فلان البغال صنف مركّب من نوعين محرّمين، فتعيّن أن يكون أكله حراما. ومن قال بإباحة أكل الخيل فلتغليب تحريم أحد النوعين المركّب منهما وهو الحمير على تحليل النوع الآخر وهو الخيل. وعن عطاء أنّه رآها حلالا.

الخيل: اسم جمع لا واحد له من لفظه على الأصحّ. وقد تقدّم عند قوله { وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ } [آل عمران:14]

{ **الْبِغَالَ** } جمع بغل. وهو اسم للذكر والأنثى من نوع أمّه من الخيل وأبوه من الحمير. وهو من الأنواع النادرة والمتولّدة من نوعين. وعكسه البرذوْن. ومن خصائص البغال عقم أنثاها بحيث لا تلد.

{ **الْحَمِيرَ** }: جمع تكسير حمار وقد يجمع على أحمرة وعلى حمر. وهو غالب للذكر من النوع، وأمّا الأنثى فأتان. وقد روعي في الجمع التغليب.

{ **وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** } اعتراض في آخر الكلام أو في وسطه على ما سيأتي.

{ **وَيَخْلُقُ** } مضارع مراد به زمن الحال لا الاستقبال، فكما خلق لهم الأنعام والكراع خلق لهم ويخلق لهم خلائق أخرى لا يعلمونها الآن، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه النّاس من بعد، مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدب الأبيض. ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملا في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق.

وقيل يدخل فيه ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنّة، غير أن ذلك خاص بالمؤمنين، فالظاهر أنّه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس، المتوسلّ به إلى إقامة الحجّة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنّها إيماء إلى أنّ الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير. وإلهام الله النّاس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرّجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأنّ الكلّ من نعمته.

{ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [9]

جملة معترضة. اقتضت اعتراضها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير. فلمّا ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتقي إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانيّة، وهو سبيل الهدى، فكان تعهّد الله بهذه السبيل نعمة أعظم من تيسير المسالك الجثمانية لأنّ سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية. وهذا السبيل هي موهبة العقل الإنساني الفارق بين الحقّ والباطل، وإرسال الرسل لدعوة النّاس إلى الحقّ، وتذكيرهم بما يغفلون عنه، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقّة على خطر من التورّط في بُنيّات الطريق.

السبيل: مجاز لما يأتيه النّاس من الأعمال من حيث هي موصلة إلى دار الثواب أو دار العقاب، كما في قوله { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي } [يوسف:108]. لأنّه لمّا شُرحت دلائل التوحيد ناسب التنبيه على أنّ ذلك طريق للهدى، وأنّ من بين الطرق التي يسلكها النّاس طريق ضلال وجور.

{ وَعَلَى اللَّهِ } حرف (على) مستعار كثيرا في القرآن وكلام العرب لمعنى التعهّد بتبيين سبيل الهدى، كقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } [الليل:12].

القصد: استقامة الطريق. وقع هنا وصفا للسبيل، من قبيل الوصف بالمصدر، لأنّه يقال: طريق قاصد، أي مستقيم، وذلك أقوى في الوصف بالاستقامة، كشأن الوصف بالمصادر.

{ جَائِرٌ } وصف لـ {السَّبِيلِ} باعتبار استعماله مذكّرا. و**الجائر**: هو الحائد عن الاستقامة. وكنّي به عن طريق غير موصل إلى المقصود، أي إلى الخير، وهو المفضي إلى ضرّ، فهو جائر بسالكه. ووصفه بالجائر على طريقة المجاز العقلي. ولم يضف السبيل الجائر إلى الله لأنّ سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعا لا يشهد له العقل الذي فطر الله النّاس عليه، وقد نهى الله النّاس عن سلوكها.

{ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } تذييل.

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } [10]

استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس، من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان، الذي به قوام حياة النّاس، وللنّاس أنفسهم.

{ هُوَ الَّذِي } وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي هو لا غيره. وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر، لأنّ المخاطبين لا ينكرون ذلك ولا يدّعون له شريكا في ذلك، ولكنهم لما عبدوا أصناما لم تنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدعي أنّ الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم، فنزلوا منزلة من يدّعي

الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد، تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر.
{ **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } تقدّم معناه عند قوله { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ } [البقرة:22]. وذكر في الماء منّتين: الشراب منه، والإنبات للشجر والزرع.
الشراب: اسم للمشروب، وهو المائع الذي تشتقّه الشفتان وتُبلّغه إلى الحلق فيبلعَ دون مضغ.
{ **وَمِنْهُ شَجَرٌ** } وحرف (من) هنا للابتداء، أو للسببيّة، فلا يحسن عطف {شَجَرٌ} على {شَرَابٌ}.
الشجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة، ويطلق على مطلق العشب والكلأ تغليبا. وروعي هذا التغليب هنا لأنّه غالب مرعى أنعام أهل الحجاز لقلّة الكلأ في أرضهم، فهم يرعون الشعاري والغابات.
{ **فِيهِ تُسِيمُونَ** } ومن الدقائق البلاغية الإتيان بحرف (في) الظرفية هنا، فالإسامة فيه تكون بالأكل منه والأكل مما تحته من العشب.
الإسامة: إطلاق الإبل للسوم وهو **الرعي**. يقال: سامت الماشية فهي سائمة.

{ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [11]

وإنّما لم يعطف هذا على جملة { لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ } [10] لأنّه ليس ممّا يحصل بنزول الماء وحده بل لا بد معه زرع وغرس. وهذا الإنبات من دلائل عظيم القدرة الربّانيّة، فالغرض منه الاستدلال ممزوجا بالتذكير بالنعمة، كما دلّ عليه قوله { لَكُمْ } على وزان ما تقدّم في قوله تعالى {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} [5]. وأسند الإنبات إلى الله لأنّه الملهم لأسبابه والخالق لأصوله، تنبيها للنّاس على دفع غرورهم بقدرة أنفسهم، ولذلك قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } لكثرة ما تحت ذلك من الدقائق.
{ **الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ** } تقدّم غير مرة في سورة الأنعام.
{ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } أي وينبت لكم به من الثمرات ممّا لم يذكر هنا. والتعريف تعريف الجنس. والمراد: أجناس ثمرات الأرض التي ينبتها الماء، ولكلّ قوم من النّاس ثمرات أرضهم وجوّهم. و {مِنْ} تبعيضية قصد منها تنويع الامتنان على كلّ قوم بما نالهم من نعم الثمرات. وإنّما لم تدخل على الزرع وما عطف عليه لأنّها من الثمرات التي تنبت في كل مكان.
{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } تذييل. والتفكّر تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

{ **لَآيَةً** }: الدلالة على أنّه تعالى المبدع الحكيم. ونيطت دلالة هذه بوصف التفكير لأنّها دلالة خفيّة لحصولها بالتدريج. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنّهم قوم لا يتفكّرون.

{ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }[12]

آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان. وتقدّم ما يفسّر هذه الآية في صدر سورة يونس. وتسخير هذه الأشياء تقدّم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِلّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } [الأعراف:54]، وفي أوائل سورة الرعد وفي سورة إبراهيم.

{ **لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } نيطت الدلالات بوصف العقل لأنّ أصل العقل كاف في الاستدلال بها على الوحدانيّة والقدرة، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة. وتقدم وجه إقحام لفظ (قوم) آنفا، وأنّ الجملة تذييل.

وقرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لفعل{ **سَخَّرَ**}. وقرأ ابن عامر {وَالشَّمْس وَالْقَمَر وَالنُّجُوم} بالرفع على الابتداء ورفع {مُسَخَّرَاتٌ} على أنّه خبر عنها. فنكتة اختلاف الإعراب الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين. وقرأ حفص برفع { وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ}. ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إنّ الأول واضح والآخر خفي لقلّة من يرقب حركات النجوم.

{ **بِأَمْرِهِ** } أمر التكوين للنظام الشمسي المعروف.

{ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } [13]

الذرء: الخلق بالتناسل والتولد بالحمل والتفريخ، فليس الإنبات ذرءا، وهو شامل للأنعام والكراع، وقد مضت المنّة به، ولغيرها مثل كلاب الصيد والحراسة، وجوارح الصيد، والطيور، والوحوش المأكولة، ومن الشجر والنبات.

{ **مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ** } زيادة للتعجيب ولا دخل له في الامتنان، فهو كقوله تعالى { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} [الرعد:4]، وقوله تعالى { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌوَمِنَ النّاس وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ} [فاطر:27]. وبذلك صار هذا آية مستقلّة فلذلك ذيله بجملة {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}، ولكون محل الاستدلال هو اختلاف الألوان مع اتحاد أصل الذرء

الألوان: جمع لون. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا } [البقرة:69].
{ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } ونيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكّر لأنّه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة إذ هي مشهورة. وإقحام لفظ (قوم)، وكون الجملة تذييلا تقدّم آنفا.

{ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[14]

القول في هذا الاستدلال وإدماج الامتنان فيه كالقول فيما سبق.
وتقدّم الكلام على تسخير الفلك في البحر وتسخير الأنهار في أثناء سورة إبراهيم.
ومن تسخير البحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه. وزيد في الامتنان أنّ لحم صيده طري.
الطريّ: ضد اليابس. والمصدر: الطراوة. وفعله: طَرُوَ، بوزن خَشُنَ.
الحِلْية: ما يتحلّى به النّاس، أي يتزيّنون. وتقدّم في قوله تعالى { ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ } [الرعد:17]. وذلك اللؤلؤ والمرجان، فاللؤلؤ يوجد في بعض البحار مثل الخليج الفارسي، والمرجان يوجد في جميع البحار ويكثر ويقلّ. وسيأتي الكلام على اللؤلؤ في سورة الحجّ، وفي سورة الرحمان، ويأتي معه الكلام على المرجان.
الاستخراج: كثرة الإخراج، فالسين والتاء للتأكيد.
اللبس: جعل الثوب والعمامة والمصوغ على الجسد. يقال: لبس الخاتم، ولبس القميص. وتقدّم عند قوله تعالى { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } [الأعراف:26]. وإسناد لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور تغليب، وإلّا فإنّ غالب الحلية يلبسها النساء، عدا الخواتيم وحلية السيوف.
{ **وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ** } معترضة بين الجمل المتعاطفة مع إمكان العطف لقصد مخالفة الأسلوب للتعجيب من تسخير السير في البحر، باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية. وهو يستعمل في التعجيب كثيرا بصيغ متعدّدة نحو (ولو ترى، و أرأيت، وماذا ترى). واجتلاب فعل الرؤية يفيد الحثّ على معرفة ذلك.
{ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه** } عطف على { وَتَسْتَخْرِجُوا } ليكون من جملة النعم التي نشأت عن حكمة تسخير البحر. وأعيد حرف التعليل لأجل البعد بسبب الجملة المعترضة.
الابتغاء من فضل الله: التجارة كما في قوله { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198].
{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } عطف على بقية العلل، لأنّه من الحكم التي سخر الله بها البحر للنّاس، حملا لهم على الاعتراف لله بالعبودية ونبذهم إشراك غيره فيها. وهو تعريض بالذين أشركوا.

{ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْـهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [15] **وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }** [16].

انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان.

{ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ } لمّا كانت هذه المخلوقات مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض. ولعلّ خلقها كان متأخّرا عن خلق الأرض، إذ لعلّ الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار. وأمّا السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيها بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه. وإطلاقه على وضع السبل والعلامات تغليب.

{ رَوَاسِيَ } جمع راسٍ. وهو وصف من الرسْو (بفتح الراء وسكون السين). وهو الثبات والتمكّن في المكان قال تعالى { وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } [سبأ:13].

{ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ } تعليل لإلقاء الرواسي في الأرض. و**الميد**: الاضطراب. والضمير عائد إلى {الأرض} بقرينة قرنه بقوله تعالى { بِكُمْ }. ولما كان المقام مقام امتنان علم أنّ المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعه. فالكلام جار على حذف تقتضيه القرينة، ومثله كثير في القرآن وكلام العرب. والاضطراب يعطل مصالح النّاس ويلحق بهم آلاما.

{ وَأَنْـهَاراً } ونعمة الأنهار عظيمة، فإنّ منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم.

{ وَسُبُلاً } جمع سبيل. وهو الطريق الذي يسافر فيه برا.

{ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } معترضة، أي رجاء اهتدائكم. وهو كلام موجّه. لأنّ في تلك الأشياء دلالة على الخالق المتوحّد بالخلق.

{ وَعَلامَاتٍ } الأمارات التي ألهم الله النّاس أن يضعوها أو يتعارفوها، لتكون دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البرّ والبحر فتتبعها السابلة.

{ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } وهذه منّة بالاهتداء في الليل، لأنّ السبيل والعلامات إنّما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلا. فمواقع النجوم علامات لاهتداء النّاس السائرين ليلا. وأخصّ من يهتدي بها البحّارة، لأنّهم لا يستطيعون الإرساء في كلّ ليلة فهم مضطرّون إلى السير ليلا. وهي هداية عظيمة، ولذلك قدّم المتعلق { وَبِالنَّجْمِ } تقديما يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي { هُمْ يَهْتَدُونَ }.

وعدل عن الخطاب إلى الغيبة التفاتا يومئ إلى فريق خاص وهم السيّارة والملّاحون فإنّ هدايتهم بهذه النجوم

لا غير.

{ **وَبِالنَّجْمِ** } تعريف الجنس. والمقصود منه النجوم التي تعارفها النّاس للاهتداء بها مثل القطب. وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا } [الأنعام:97].

{ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [17] وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [18].

بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق، وثبتت المنّة وحقّ الشكر، فرّع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة، إنكارا على المشركين. فالاستفهام عن المساواة إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق. فالكاف للماثلة، وهي مورد الإنكار حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى. ومن مضمون الصلتين يعرف أي الموصولين أولى بالإلهية.

{ **كَمَنْ لا يَخْلُقُ** } وحين كان المراد الأصنام كان إطلاق (من) الغالبة في العاقل مشاكلة.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار على انتفاء التذكر، وذلك يختلف باختلاف المخاطبين. فهو إنكار على إعراض المشركين عن التذكّر في ذلك.

{ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** } عطف على { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }، وهي كالتكملة لها، لأنّها نتيجة لما تضمّنته تلك الأدلة من الامتنان كما تقدّم. وهي بمنزلة التذييل للامتنان، لأنّ فيها عموما يشمل النعم المذكورة وغيرها.

وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على النّاس بحيث لا يستطيع عدّها العادون. وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدّم نظيرها في سورة إبراهيم.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } استئناف عقّب به تغليظ الكفر والتهديد عليه، تنبيها على تمكّنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهّبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنالك { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [ابراهيم:34]، لأنّ تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً} [ابراهيم:28] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله. وأمّا هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم { لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } بوصفين هنا { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } إشارة إلى أنّ تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط الإنسان.

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [19]

عطف على { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ }. فبعد أن أثبت أنّ الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ }، انتقل هنا إلى إثبات أنّه منفرد بعموم العلم.

ولم يُقدّم لهذا الخبر استدلال ولا عُقب بالدليل، لأنّه ممّا دلّت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأنّ خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن يكون عالما بدقائق حركات تلك الأجزاء وهي بين ظاهر وخفي.

والمخاطب هنا هم المخاطبون بقوله تعالى { أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [17] وفيه تعريض بالتهديد والوعيد بأنّ الله محاسبهم على كفرهم.

وفيه إعلام بأنّ أصنامهم بخلاف ذلك كما دلّ عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي فإنّه يفيد القصر لرد دعوى الشركة.

{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [20] أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [21].

الخطاب هنا متمحّض للمشركين وهم بعض المخاطبين في الضمائر السابقة. والمقصود من هذه الجملة التصريح بما استفيد ضمنا ممّا قبلها، وهو نفي الخالقيّة ونفي العلم عن الأصنام.

{ **لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً** } الخبر الأول استفيد من جملة { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ } [17]. وعطف عليه { **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } ارتقاء في الاستدلال على انتفاء إلهيتها.

{ **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ** } الخبر الثاني استفيد من جملة { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [19] بطريقة نفي الشيء بنفي ملزومه. وهي طريقة الكناية التي هي كذكر الشيء بدليله. فنفي الحياة عن الأصنام {غَيْرُ أَحْيَاءٍ} يستلزم نفي العلم عنها، لأنّ الحياة شرط في قبول العلم، ومن كان هكذا فهو غير إله.

{ **يُخْلَقُونَ** } أسند إلى النائب لظهور الفاعل من المقام، أي وهم مخلوقون لله تعالى، فإنّهم من الحجارة التي هي من خلق الله. كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات:96].

{ **غَيْرُ أَحْيَاءٍ** } تأكيد لمضمون جملة { أَمْوَاتٌ } ، بأنّه ليس فيها شائبة حياة لأنّها حجارة. ولا يشترط في

الوصف بالأسماء السالبة (الإعدام) قبول الموصوفات بها لملكاتها، كما اصطلح عليه الحكماء، لأنّ ذلك اصطلاح منطقي دعا إليه تنظيم أصول المحاجة.

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** } إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى، لأنّ هذين هما أصل إبطال عقيدة المشركين، وتمهيد لوجه التلازم بين إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله تعالى { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } [22].

وفيه تهديد بأنّ البعث الذي أنكروه واقع وأنّهم لا يدرون متى يبغتهم، كما قال تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } [الأعراف:187].

البعث: حقيقته الإرسال من مكان إلى آخر. ويطلق على إثارة الجاثم. ومنه قولهم: بعثت البعير، إذا أثرته من مبركه. وقد غلب البعث في اصطلاح القرآن على إحضار النّاس إلى الحساب بعد الموت. فمن كان منهم ميّتا فبعثه من جدثه، ومن كان منهم حيا فصادفته ساعة انتهاء الدنيا فمات ساعتئذ فبعثه هو إحياؤه عقب الموت.

{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن الزمان. مركبة من (أي) و (آن) بمعنى أي زمن، وهي معلقة لفعل { يَشْعُرُونَ } عن العمل بالاستفهام، والمعنى: وما يشعرون بزمن بعثهم. وتقدّم في قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187].

{ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [22] لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ } [23].

استئناف نتيجة لحاصل المحاجة الماضية، أي قد ثبت بما تقدّم إبطال إلهيّة غير الله، فثبت أنّ لكم إلها واحدا لا شريك له، ولكون ما مضى كافيا في إبطال إنكارهم الوحدانيّة عُرّيت الجملة عن المؤكِّد تنزيلا لحال المشركين، بعدما سمعوا من الأدلة، منزلة من لا يُظنّ به أنّه يتردّد في ذلك. بخلاف قوله تعالى { إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} [الصافات:4]، لأنّ ذلك ابتداء كلام لم يتقدّمه دليل، كما أنّ قوله { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [البقرة:163] خطاب لأهل الكتاب.

{ **فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ** } ، وهو تفريع الأخبار عن الأخبار، أي يتفرّع على هذه القضية القاطعة بما تقدّم من الدلائل أنّ قلوبكم منكرة وأنّكم مستكبرون، وأنّ ذلك ناشئ عن عدم إيمانكم بالآخرة.

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته لأنّهم قد عرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين، كقوله { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا } [الفرقان:21]، وللإيماء إلى أنّ لهذه الصلة ارتباطا باستمرارهم على العناد. لأنّ انتفاء إيمانهم بالبعث

والحساب قد جرّأهم على نبذ دعوة الإسلام ظِهريّا، فلم يتوقّعوا مؤاخذة على نبذها.
{ **قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ** } جاحدة بما هو واقع. استعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنّه ضدّ الإقرار. فحذف متعلق { مُنْكِرَةٌ } لدلالة المقام عليه، أي منكرة للوحدانيّة. وعبّر بالجملة الاسمية للدلالة على أنّ الإنكار ثابت لهم دائم. وذلك يفيد أنّ الإنكار صار لهم سجيّة.
{ **وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** } بنيت على الاسمية، كذلك، للدلالة على تمكّن الاستكبار منهم. وقد خولف ذلك في قوله {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً } [الفرقان:21] لأنّ تلك الآية لم تتقدّمها دلائل على الوحدانية، مثل الدلائل المذكور في هذه الآية.
{ **لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.
والجَرَم (بالتحريك): أصلهُ البُدُّ. وكثر في الاستعمال حتّى صار بمعنى **حَقًّا**. وتقدّم عند قوله تعالى { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:22].
{ **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } في موضع جر بحرف جر محذوف متعلق بـ { جَرَمَ }. والتقدير: لا جرم في أنّ الله يعلم أو لا جرم من أنّه يعلم، أي لا بدّ أنّه يعلم. والجملة كناية عن الوعيد بالمؤاخذة بما يخفون وما يظهرون من الإنكار والاستكبار.
{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** } واقعة موقع التعليل والتذييل، لأنّ الذي لا يحبّ فعلا وهو قادر يجازي فاعله بالسوء. والتعريف للاستغراق، لأنّ شأن التذييل العموم. ويشمل هؤلاء المتحدّث عنهم فيكون إثبات العقاب لهم كإثبات الشيء بدليله.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [24] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } [25].

عطف على { قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ } [22] لأنّ مضمون هذه من أحوالهم المتقدّم بعضها، فإنّه ذكر استكبارهم وإنكارهم الوحدانيّة، وأتبع بمعاذيرهم الباطلة لإنكار نبوّة محمد ﷺ، وبصدّهم النّاس عن اتباع الإسلام.
والتقدير: قلوبهم منكرة ومستكبرة فلا يعترفون بالنبوّة ولا يخلّون بينك وبين من يتطلّب الهدى.
{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** } ذكْر فعل القول يقتضي صدوره عن قائل يسألهم عن أمر حدث بينهم، وليس على سبيل الفرض، وأنّهم يجيبون بما ذُكر مكرا بالدين وتظاهرا بمظهر الناصحين للمسترشدين. وقد ذكر المفسّرون أنّ قريشا لمّا أهمّهم أمر النبيء ﷺ ورأوا تأثير القرآن في نفوس النّاس، وأخذ أتباع الإسلام يكثرون، وصار الواردون إلى مكّة في موسم الحجّ وغيره يسألون النّاس عن هذا القرآن، وماذا يدعو إليه، دبّر لهم الوليد بن

المغيرة معاذير واختلاقا يختلقونه ليقنعوا السائلين به، فندب منهم ستة عشر رجلا بعثهم أيام الموسم يقعدون في عقبات مكّة وطرقها التي يرد منها النّاس، يقولون لمن سألهم لا تغتروا بهذا الذي يدّعي أنّه نبيّ فإنّه مجنون أو ساحر أو شاعر أو كاهن، وأنّ الكلام الذي يقوله أساطير من أساطير الأولين اكتتبها. وقد تقدّم ذلك في آخر سورة الحجر. وكان النضر بن الحارث يقول: " أنا أقرأ عليكم ما هو أجمل من حديث محمد أحاديث رستم وإسفنديار". وتقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } [لأنعام:93].

ومساءلة العرب عن بعث النبيء ﷺ كثيرة واقعة. وأصرحها ما رواه البخاري عن أبي ذرّ أنّه قال: " كنت رجلا من غفار فبلغنا أنّ رجلا قد خرج بمكّة يزعم أنّه نبيّ، فقلت لأخي أنيس: انطلق إلى هذا الرجل كلّمه وائتني بخبره، فانطلق فلقيه ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشرّ. فقلت: لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابا وعصا ثم أقبلت إلى مكّة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد..." إلى آخر الحديث.

{ **مَاذَا** } كلمة مركّبة من (ما) الاستفهامية واسم الإشارة. والتقدير: هذا الذي أنزل ربكم ما هو. وتقدّم عند قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ } [البقرة:215].

{ **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه ما في السؤال. والتقدير: هو أساطير الأوّلين. ويعلم من ذلك أنّه ليس منزلاً من ربّهم، ولذلك لم يقع منصوبا، لأنّه لو نصب لاقتضى التقدير: أنزل أساطير الأوّلين، وهو كلام متناقض.

الأساطير: قال المبرّد: جمع أُسطورة (بضم الهمزة) كأرجوحة. وهي مؤنثة باعتبار أنها قصة مكتوبة. وهذا الذي ذكره المبرّد أولى لأنّها أساطير في الأكثر يعني بها القصص لا كلّ كتاب مسطور. وقد تقدّم عند قوله تعالى { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].

{ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } غاية وليست بعلّة لأنّهم لمّا قالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } لم يريدوا أن يكون قولهم سببا لأنّ يحملوا أوزار الذين يضلّونهم، فاللام مستعملة مجازا في العاقبة مثل { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص: 8].

الأوزار: جمع وِزْر (بكسر الواو وسكون الزاي) وهو الثقل. واستعمل في الجرم والذنب، لأنّه يثقل فاعله عن الخلاص من الألم والعناء، فأصل ذلك استعارة بتشبيه الجرم والذنب بالوزر. وشاعت هذه الاستعارة. كما يعبّر عن الذنوب بالأثقال قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].

{ **كَامِلَةً** } تحقيقا لوفائها وشدّة ثقلها، ليسري ذلك إلى شدة ارتباكهم في تبعاتها، إذ هو المقصود من إضافة الحمل إلى الأوزار.

{ **وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ** } { **مِنْ** } للسببية، والتقدير: ويحملوا أوزارا ناشئة عن أوزار الذين يضلّونهم،

أي ناشئة لهم عن تسبّبهم في ضلال المضلَّلين (بفتح اللام). وفي الحديث الصحيح: " ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ".

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } في موضع الحال، أي يضلّون ناسا غير عالمين، يحسبون إضلالهم نصحا. والمقصود من هذا الحال تفظيع التضليل لا تقييده.

{ **إِلاّ سَاءَ مَا يَزِرُونَ** } تذييل. افتح بحرف التنبيه اهتماما بما تضمّنه للتحذير من الوقوع فيه أو للإقلاع عنه.

{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [26]

لما ذكر عاقبة إضلالهم وصدّهم السائلين عن القرآن والإسلام في الآخرة، أتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم في الدنيا من الخزي والعذاب، مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم، وأنّهم خائبون في صنعهم كما خاب من قبلهم، الذين مكروا برسلهم.

{ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } لمّا كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم هو { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]، مظهرينه بمظهر النصيحة والإرشاد وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم، سمّي ذلك مكرا بالمؤمنين، إذ المكر إلحاق الضرّ بالغير في صورة تمويهه بالنصح والنفع، فنُظّر فعلهم بمكر من قبلهم، أي من الأمم السابقة الذين مكروا بغيرهم مثل قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، قال تعالى في قوم صالح {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [النمل:50]، وقال { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [الأنعام:123].

{ **فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ** } تمثيل لحالات استئصال الأمم.

البنيان: مصدر بمعنى المفعول. أي المبني، وهو هنا مستعار للقوّة والمنعة.

{ **مِنَ الْقَوَاعِدِ** } متعلّق بـ { أَتَى } وهو بمعنى الاستئصال، فهو في معنى هدمه.

{ **الْقَوَاعِدِ** }: الأسس والأساطين التي تجعل عمدا للبناء يقام عليها السقف. وهو تخييل أو ترشيح.

{ **فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ** } **والخرور**: السقوط والهويّ، ففعل خرّ مستعار لزوال ما به المنعة.

{ **السَّقْفُ** }: حقيقته غطاء الفراغ الذي بين جدران البيت، ويكون من حجر ومن أعواد، وهو هنا مستعار لما استعير له البناء. و{ **من فَوْقِهِمْ** } تأكيد للجملة.

ومن مجموع هذه الاستعارات تتركّب الاستعارة التمثيليّة. وهي تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزة، بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم وآووا إليه فاستأصله الله من

قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا. فهذا من إبداع التمثيليّة، لأنّها تنحلّ إلى عدّة استعارات.

{ **وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } عطف على { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ }. والمعنى: أنّ العذاب المذكور حلّ بهم بغتة وهم لا يشعرون، فإنّ الأخذ فجأة أشدّ نكاية لما يصحبه من الرعب الشديد، بخلاف الشيء الوارد تدريجا فإنّ النفس تتلقاه بصبر.

{ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ } [27]

{ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ }

عطف على { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [25]، لأنّ ذلك وعيد لهم وهذا تكملة له.

الخزي: الإهانة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ } [البقرة:85].

وتقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة لأنّه يوم الأحوال الأبدية فما فيه من العذاب مهول للسامعين.

{ **أَيْنَ** } الاستفهام عن المكان مستعمل في التهكّم.

{ **شُرَكَائِيَ** } وإضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة زيادة في التوبيخ، لأنّ مظهر عظمة الله تعالى يومئذ للعيان ينافي أن يكون له شريك.

{ **الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ** } الموصول للتنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادعاء المشاركة.

المشاقّة: المشادة في الخصومة. كأنّها خصومة لا سبيل معها إلى الوفاق، إذ قد صار كل خصم في شقّ غير شقّ الآخر.

وقرأ نافع { تُشَاقُّونِ } بكسر النون على حذف ياء المتكلّم، أي تعاندونني، وذلك بإنكارهم ما أمرهم الله على لسان رسوله ﷺ. وقرأ البقية { تُشَاقُّونَ } بفتح النون وحذف المفعول للعلم، أي تعاندون من يدعوكم إلى التوحيد.

{ **فِيهِمْ** } للظرفية المجازية مع حذف المضاف، إذ المشاقة لا تكون في الذوات بل في المعاني. والتقدير: في إلهيّتهم أو في شانهم.

{ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ }

جيء بالجملة غير معطوفة لأنّها واقعة موقع الجواب لقوله { أَيْنَ شُرَكَائِيَ }، للتنبيه على أنّ الذين أوتوا العلم ابتدروا الجواب لمّا وجم المشركون فلم يحيروا جوابا، فأجاب الذين أوتوا العلم جوابا جامعا لنفي أن يكون

الشركاء المزعومون مغنين عن الذين أشركوا شيئا، وأنّ الخزي والسوء أحاطا بالكافرين. والتعبير بالماضي لتحقيق وقوع القول.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } هم الذين آتاهم الله علم الحقائق من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون، كقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} [الروم:56].

وتأكيد الجملة بحرف التوكيد وبصيغة القصر والإتيان بحرف الاستعلاء الدال على تمكّن الخزي والسوء منهم، يفيد معنى التعجّب من هول ما أعدّ لهم.

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [28] فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } [29].

فالوجه أن { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } بدل من { الَّذِينَ } في قوله تعالى { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [22] أو صفة لهم، كما يومئ إليه وصفهم في آخر الآية بالمتكبّرين في قوله تعالى {فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}.

ويجوز أن يكون { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } خبرا لمبتدأ محذوف. والتقدير: هم الذين تتوفاهم الملائكة. وحذف المسند إليه جار على الاستعمال في أمثاله من كل مسند إليه جرى فيما سلف من الكلام. أخبر عنه وحدث عن شأنه، وهو ما يعرف عند السكاكي بالحذف المتبع فيه الاستعمال.

والمقصود من هذه الصلة وصف حالة الذين يموتون على الشرك؛ فبعد أن ذكر حال حلول العذاب بمن حلّ بهم الاستئصال وما يحل بهم يوم القيامة، ذكرت حالة وفاتهم التي هي بين حالي الدنيا والآخرة، وهي حال تُعرض لجميعهم سواء منهم من أدركه الاستئصال ومن هلك قبل ذلك.

وأطبق من تصدى لربطه بما قبله من المفسرين، على جعل { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } بدلا من { الْكَافِرِينَ } في قوله تعالى {إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} [27] أو صفة له.

ظلم النفس: الشرك.

الإلقاء: مستعار إلى الإظهار المقترن بمذلّة. شبه بإلقاء السلاح على الأرض، ذلك أنهم تركوا استكبارهم وإنكارهم وأسرعوا إلى الاعتراف والخضوع لمّا ذاقوا عذاب انتزاع أرواحهم.

السَلَم (بفتح السين وفتح اللام) الاستسلام. وتقدّم الإلقاء والسلم عند قوله { وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ } النساء:90]. وتقدّم الإلقاء الحقيقي عند قوله تعالى { وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ } [15].

{ **مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ** } مقول قول محذوف دلّ عليه { أَلْقَوُا السَّلَمَ }، لأنّ إلقاء السلم أوّل مظاهره القول الدال على الخضوع. يقولون ذلك للملائكة الذين ينتزعون أرواحهم ليكفوا عنهم تعذيب الانتزاع، وهم من

اضطراب عقولهم يحسبون الملائكة إنما يجربونهم بالعذاب ليطلعوا على دخيلة أمرهم، فيحسبون أنهم إن كذبوهم راج كذبهم على الملائكة فكفوا عنهم العذاب، لذلك جحدوا أن يكونوا يعملون سوءا من قبل.

{ **بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } جواب الملائكة لهم، ولذلك افتتحت بالحرف الذي يبطل به النفي(بَلَى).

وقد جعلوا علم الله بما كانوا يعملون كناية عن تكذيبهم في قولهم { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ }، وكناية على أنّهم ما عاملوهم بالعذاب إلّا بأمر من الله تعالى العالم بهم.

وأسندوا العلم إلى الله دون أن يقولوا: إنا نعلم ما كنتم تعملون، أدبا مع الله وإشعارا بأنهم ما علموا ذلك إلّا بتعليم من الله تعالى.

{ **فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** } تفريع على إبطال نفيهم عمل السوء ظاهر، لأنّ إثبات كونهم كانوا يعملون السوء يقتضي استحقاقهم العذاب، وذلك عندما كشف لهم عن مقرّهم الأخير. ونظيره قوله { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الأنفال:50].

{ **فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** } تذييل. يحتمل أن يكون حكاية كلام الملائكة، والأظهر أنه من كلام الله، ووصفهم بالمتكبّرين يرجّح ذلك.

المثوى: المرجع. من ثوى إذا رجع، أو المقام من ثوى إذا أقام. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } [الأنعام:128]. ولم يعبّر عن جهنم بالدار كما عبر عن الجنة فيما يأتي بقوله تعالى { وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } [30]، تحقيرا لهم وأنّهم ليسوا في جهنّم بمنزلة أهل الدار بل هم متراصون في النار وهم في مثوى.

{ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [30] جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ } [31].

{ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً }

لمّا افتتحت صفة سيئات الكافرين وعواقبها بأنّهم إذا قيل لهم { مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ } [24] قالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [24]، جاءت هنا مقابلة حالهم بحال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها، فافتتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قصّة الكافرين، فجاء النظير بين القصتين في أبدع نظم.

ولم تقترن هذه الجملة بأداة الشرط كما قرنت مقابلتها بها { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ }، لأنّ قولهم {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} لمّا كان كذبا اختلقوه، قرن بأداة الشرط المقتضية تكرّر ذلك، للدلالة على إصرارهم على الكفر، بخلاف ما هنا، فإنّ الصدق مظنّة استمرار قائله عليه فليس بحاجة إلى التنبيه على تكرّره منه.

الذين اتقوا: هم المؤمنون، لأنّ الإيمان تقوى الله وخشية غضبه. والمراد بهم المؤمنون المعهودون في مكّة. والمعنى أنّ المؤمنين سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يتردّدوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة { **خَيْراً** } المنصوبة، فإنّ لفظها شامل لكلّ خير في الدنيا وكلّ خير في الآخرة، ونصبها دال على أنّهم جعلوها معمولة لـ { أَنْزَلَ } الواقع في سؤال السائلين، فدلّ النصب على أنّهم مصدّقون بأنّ القرآن منزّل من عند الله، وهذا وجه المخالفة بين الرفع في جواب المشركين حين قيل لهم {مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24] بالرفع وبين النصب في كلام المؤمنين. وقد تقدّم ذلك آنفا عند قوله تعالى { قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }.

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ }

مستأنفة ابتدائيّة، وهي كلام من الله تعالى، وليست من حكاية قول الذين اتقوا.

الذين أحسنوا: هم المتّقون، فهو من الإظهار في مقام الإضمار، أي جزاءهم حسنة لأنّهم أحسنوا.

{ **هَذِهِ الدُّنْيَا** } يجوز أن يتعلّق بفعل { أَحْسَنُوا }. ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا حالا من { حَسَنَة }. وانظر ما يأتي في نظير هذه الآية من سورة الزمر من نكتة التوسيط.

{ **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ** } أنّها خير لهم من الدنيا فإذا كانت لهم في الدنيا حسنة فلهم في الآخرة أحسن، فكما كان للذين كفروا عذاب الدنيا وعذاب جهنّم كان للذين اتقوا خير الدنيا وخير الآخرة. فهذا مقابل قوله تعالى في حقّ المشركين { ليحملوا أوزارهم كاملة } [25] وقوله تعالى { وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [26]. وحسنة الدنيا هي الحياة الطيّبة وما فتح الله لهم من زهرة الدنيا مع نعمة الإيمان. وخير الآخرة هو النعيم الدائم، قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [97].

{ **وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** } مقابل قوله تعالى في ضدّهم { فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } [29]. وقد تقدّم آنفا وجه تسمية جهنم مثوى والجنّة دارا.

{ **وَلَنِعْمَ** } فعل مدح غير متصرّف، ومرفوعه فاعل دال على جنس الممدوح، ويذكر بعده مرفوع آخر يسمى المخصوص بالمدح. والمعنى: ولنعم دار المتّقين دار الآخرة.

{ **جَنَّاتُ عَدْنٍ** } ارتفع على أنّه خبر لمبتدإ محذوف. والتقدير: هي جنّات عدن، أي دار المتقين جنّات عدن.

{ **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ** } مضمونها مكمّل لما في جملة { يَدْخُلُونَهَا } من استحضار الحالة البديعة.

{ **كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** } مستأنفة، والإتيان باسم الإشارة لتمييز الجزاء والتنويه به. وجعل الجزاء لتمييزه

وكماله بحيث يشبّه به جزاء المتقين. والتقدير: يجزي الله المتقين جزاء كذلك الجزاء الذي علمتموه. وهو تذييل، لأنّ التعريف في { الْمُتَّقِينَ } للعموم.

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }[32]

مقابل قوله في أضدادهم { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ }، فما قيل في مقابلة يقال فيه.

الطيّب: بزنة فَيْعَل، مثل قيّم وميّت، وهو مبالغة في الاتّصاف بالطيب وهو حسن الرائحة. ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النفس على وجه المجاز المشهور، فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى { حَلالاً طَيِّباً } [البقرة:168]، والمعاني والنفسيّات كقوله تعالى { سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ } [الزمر:73]. وقولهم: طبت نفسا. ومنه قوله تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } [الأعراف:58]. وفي الحديث: " إن الله طيّب لا يقبل إلّا طيّبا ". أي مالا حلالا.

{ **طَيِّبِينَ** } هنا يجمع كل هذه المعاني، أي تتوفاهم الملائكة منزّهين من الشرك مطمئني النفوس. وهذا مقابل قوله في أضدادهم { ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } [28].

{ **يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ** } حال من { الْمَلائِكَةُ }، أي يتوفّونهم مسلّمين عليهم، وهو سلام تأنيس وإكرام.

{ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } هو مقابل قولهم لأضدادهم { فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ } [29].

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [33] فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [34].

استئناف بياني ناشئ عن جملة { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26] لأنّها تثير سؤال من يسأل عن إبّان حلول العذاب على هؤلاء كما حلّ بالذين من قبلهم، فقيل: ما ينظرون إلّا أحد أمرين، هما مجيء الملائكة لقبض أرواحهم، فيحقّ عليهم الوعيد المتقدّم، أو أن يأتي أمر الله. والمراد به الاستئصال المعرّض بالتهديد في قوله { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ } [26]. والاستفهام إنكاري في معنى النفي، ولذلك جاء بعد الاستثناء.

{ **يَنْظُرُونَ** } هنا بمعنى الانتظار وهو النظرة.

والكلام موجّه إلى النبيء ﷺ تذكيرا بتحقيق الوعيد وعدم استبطائه، وتعريضا بالمشركين بالتحذير من اغترارهم بتأخّر الوعيد وحثّا لهم على المبادرة بالإيمان.

وإسناد الانتظار المذكور إليهم على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيلهم منزلة من ينتظر أحد الأمرين، لأنّ

حالهم من الإعراض عن الوعيد وعدم التفكّر في دلائل صدق الرسول ﷺ مع ظهور تلك الدلائل وإفادتها التحقّق، كحال من أيقن حلول أحد الأمرين به فهو يترقّب أحدهما، كما تقول لمن لا يأخذ حذره من العدو: ما تترقب أن تقع أسيرا. ومنه قوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ } [يونس:102]

{ **كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } تنظير بأحوال الأمم الماضية تحقيقا للغرضين. والإشارة إلى الانتظار المأخوذ من { يَنْظُرُونَ } المراد منه الإعراض والإبطاء، أي كإبطاء الذين من قبلهم، أن يأخذهم العذاب بغتة كما أخذ الذين من قبلهم، وهذا تحذير.، وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن أمّة محمد ﷺ ببركته ولإرادته انتشار دينه.

{ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } معترضة بين جملة { فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } وجملة {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا }. ووجه هذا الاعتراض أنّ التعرّض إلى ما فعله الذين من قبلهم يشير إلى ما كان من عاقبتهم وهو استئصالهم، فعقّب بقوله تعالى { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ }، أي فيما أصابهم.

{ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } ولمّا كان هذا الاعتراض مشتملا على أنّهم ظلموا أنفسهم صار تفريع { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا } عليه أو على ما قبله. وهو أسلوب من نظم الكلام عزيز. وتقدير أصله: كذلك فعل الذين من قبلهم وظلموا أنفسهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله. ففي تغيير الأسلوب المتعارف تشويق إلى الخبر، وتهويل له بأنّه ظلم أنفسهم، وأنّ الله لم يظلمهم، فيترقّب السامع خبرا مفظعا وهو { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا }.

{ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ** } إمّا بتقدير مضاف، أي أصابهم جزاؤها، أو جعلت أعمالهم السيّئة كأنّها هي التي أصابتهم لأنّها سبب ما أصابهم، فهو مجاز عقلي.

{ **حاق** }: أحاط. والحَيْق: الإحاطة. ثم خصّ استعمال الحيقَ بإحاطة الشرّ. وقد تقدّم الكلام على ذلك عند قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الأنعام:10].

{ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }[35]

عطف قصّة على قصّة لحكاية حال من أحوال شبهاتهم ومكابرتهم وباب من أبواب تكذيبهم.

وذلك أنّهم كانوا يحاولون إفحام الرسول ﷺ فقالوا له: لو شاء الله أن لا نعبد أصناما لما أقدرنا على عبادتها، ولو شاء أن لا نُحرّم ما حرمنا من نحو البحيرة والسائبة لما أقرّنا على تحريم ذلك.

وهذا ردَّه الله عليهم بتنظير أعمالهم بأعمال الأمم الذين أهلكهم الله، فلو كان الله يرضى بما عملوه لما عاقبهم بالاستئصال، فكانت عاقبتهم نزول العذاب بقوله تعالى { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، ثم بقطع المحاجّة بقوله

تعالى { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }، أي وليس من شأن الرّسل - عليهم السلام - المناظرة مع الأمّة.
ونظيره قوله { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام:148]، فسمّى قولهم هذا تكذيبا كتكذيب الذين من قبلهم، لأنّ المقصود منه التكذيب وتعضيد تكذيبهم بحجّة أساءوا الفهم فيها، فهم يحسبون أنّ الله يتولّى تحريك النّاس لأعمالهم كما يحرّك صاحب خيال الظل ومحرك اللعب أشباحه وتماثيله، وذلك جهل منهم بالفرق بين تكوين المخلوقات وبين ما يكسبونه بأنفسهم، وتخليط بين الرضى والإرادة.
{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى الإشراك وتحريم أشياء من تلقاء أنفسهم، أي كفعل هؤلاء فعل الذين من قبلهم، وهم المذكورون فيما تقدّم بقوله تعالى { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26]. والمقصود: أنهم فعلوا كفعلهم فكانت عاقبتهم ما علمتم، فلو كان فعلهم مرضيا لله لما أهلكهم، فهلا استدلوا بهلاكهم على أن الله غير راض بفعلهم، فإن دلالة الانتقام أظهر من دلالة الإملاء، لأنّ دلالة الانتقام وجودية ودلالة الإمهال عدميّة.
{ **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } قطع المحاجّة معهم وإعلامهم أنّ الرّسل - عليهم السلام - ما عليهم إلّا البلاغ، ومنهم محمد ﷺ فاحذروا أن تكون عاقبتكم عاقبة أقوام الرسل السالفين.
{ **الْبَلاغُ** } اسم مصدر الإبلاغ. و**المبين**: الموضح الصريح.
{ **هل** } الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذلك جاء الاستثناء عقبه.
والقصر المستفاد من النفي والاستثناء، قصر إضافي لقلب اعتقاد المشركين من معاملتهم الرسول ﷺ، أنّ للرّسول غرضا شخصيا فيما يدعو إليه.
وأثبت الحكم لعموم الرسل - عليهم السلام - لتكون الجملة تذييلا للمحاجّة، فتفيد ما هو أعمّ من المردود.
والكلام موجه إلى النبيء ﷺ تعليما وتسلية. ويتضمن تعريضا بإبلاغ المشركين.

{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }[36]
عطف على { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [35]. وهو تكملة لإبطال شبهة المشركين، إبطالًا بطريقة التفصيل بعد الإجمال لزيادة تقرير الحجّة، فقوله تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً } بيان لمضمون جملة { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }. وجملة { فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ } إلى آخرها بيان لمضمون جملة { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }.
والمعنى: أن الله بيّن للأمم على ألسنة الرّسل - عليهم السلام - أنّه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة الأصنام،

فمن كلّ أمّة أقوام هداهم الله فصدّقوا وآمنوا، ومنهم أقوام تمكّنت منهم الضلالة فهلكوا. ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم.

{ **الطَّاغُوتَ** } جنس ما يعبد من دون الله من الأصنام. جمعه: الطواغيت. وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } [النساء:51].

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ** } أسندت هداية بعضهم إلى الله مع أنّه أمر جميعهم بالهدى تنبيها للمشركين على إزالة شبهتهم في قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} بأن الله بيّن لهم الهدى، فاهتداء المهتدين بسبب بيانه، فهو الهادي لهم.

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** } إشارة إلى أنّ الله لمّا نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة فحقّت عليهم الضلالة ، أي ثبتت ولم ترتفع.

وفي ذلك إيماء إلى أنّ بقاء الضلالة من كسب أنفسهم، ولكن ورد في آيات أخرى أنّ الله يضلّ الضّالين، كما في قوله { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } [الأنعام:125]، وقوله عقب هذا { فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [37] على قراءة الجمهور، ليحصل من مجموع ذلك علم بأنّ الله كوّن أسبابا عديدة بعضها جاء من توالد العقول والأمزجة واقتباس بعضها من بعض، وبعضها تابع للدعوات الضالة بحيث تهيأت من اجتماع أمور شتى، لا يحصيها إلّا الله، أسباب تامة تحول بين الضال وبين الهدى. فلا جرم كانت تلك الأسباب هي سبب حقّ الضلالة عليهم، فباعتبار الأسباب المباشرة كان ضلالهم من لدن خالق تلك الأسباب وخالق نواميسها في متقادم العصور، فافهم.

{ **فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** } ثم فرّع على ذلك الأمر بالسير في الأرض لينظروا آثار الأمم فيروا منها آثار استئصال مخالف لأحوال الفناء المعتاد، ولذلك كان الاستدلال بها متوقفا على السير في الأرض.

{ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [37]

استئناف بياني، لأنّ تقسيم كل أمّة ضالة إلى مهتد منها وباق على الضلال يثير سؤإلّا في نفس النبيء صلى الله عليه وسلم عن حال هذه الأمّة: أهو جار على حال الأمم التي قبلها، أو أنّ الله يهديهم جميعا. وذلك من حرصه على خبرهم ورأفته بهم، فاعلمه الله أنّه مع حرصه على هداهم فإنّه سيبقى منهم فريق على ضلالة.

وفي الآية لطيفتان:

الأولى: التعريض بالثناء على النبيء ﷺ في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحنق في نفس من يلحقه الأذى، ولكن نفس محمد ﷺ مطهّرة من كل نقص.

الثانية: الإيماء إلى أنّ غالب أمّة الدعوة المحمدية سيكونوا مهتدين وأنّ الضُلّال منهم فئة قليلة، وهم الذين لم يقدّر الله هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقدرته من الأسباب التي هيّأت لهم البقاء في الضلال.

{ **إِنْ تَحْرِصْ** } الحرص: فرط الإرادة الملحّة في تحصيل المراد بالسعي في أسبابه.

والشرط هنا ليس لتعليق حصول مضمون الجواب على حصول مضمون الشرط، لأنّ مضمون الشرط معلوم الحصول، لأنّ علاماته ظاهرة بحيث يعلمه النّاس، وإنّما هو لتعليق العلم بمضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشرط. فالمعنى: إن كنت حريصا على هداهم حرصا مستمرّا فاعلم أنّ من أضلّه الله لا تستطيع هديه ولا تجد لهديه وسيلة ولا يهديه أحد. فالمضارع مستعمل في معنى التجدّد لا غير.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ** } جعل المسند إليه في جملة الإخبار عن استمرار ضلالهم اسم الجلالة للتهويل المشوّق إلى استطلاع الخبر. والخبر هو أنّ هُداهم لا يحصل إلّا إذا أراده الله، ولا يستطيع أحد تحصيله، لا أنت ولا غيرك، فمن قدّر الله دوام ضلاله فلا هادي له.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } ما لهم ناصر ينجيهم من العذاب، أي كما أنّهم ما لهم منقذ من الضلال الواقعين فيه ما لهم ناصر يدفع عنهم عواقب الضلال.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ }[39]

انتقال لحكاية مقالة أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلال من أدلّة تكذيبهم الرّسول ﷺ فيما يخبر به، إظهارا لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت. وذلك لم يتقدّم له ذكر في هذه السورة سوى الاستطراد بقوله { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [22].

{ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ** } القسم على نفي البعث، أرادوا به الدلالة على يقينهم بانتفائه.

{ **جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** } تقدّم عند قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [المائدة:53].

{ **لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ** } ما أقسموا عليه. و**البعث** تقدّم آنفا في قوله { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [21].

{ **بَلَى** } حرف لإبطال النفي في الخبر والاستفهام، أي بل يبعثهم الله.

{ **وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ** } انتصب { وَعْداً } على المفعول المطلق مؤكِّدا لما دلّ عليه حرف الإبطال من حصول البعث بعد الموت. ويسمّى هذا النوع من المفعول المطلق مؤكِّدا لنفسه، أي مؤكدا لمعنى فعل هو عين معنى المفعول المطلق.

{ **عَلَيْهِ** } صفة لـ { وَعْداً }، أي وعدا كالواجب عليه، في أنّه لا يقبل الخُلف. ففي الكلام استعارة مكنيّة. شبّه الوعد الذي وعده الله، بمحض إرادته واختياره، بالحقّ الواجب عليه، ورمز إليه بحرف الاستعلاء.

{ **حَقّاً** } صفة ثانية لـ {وَعْداً}. بمعنى الصدق الذي لا يتخلّف.

وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى { وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ } [براءة:111].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ** } المشركون، وهم يومئذ أكثر النّاس. ومعنى { لا يعلمون } أنّهم لا يعلمون كيفية ذلك، فيقيمون من الاستبعاد دليل استحالة.

{ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ } [39]

{ **لِيُبَيِّنَ** } تعليل لقوله تعالى { وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً } لقصد بيان حكمة جعله وعدا لازما لا يتخلّف، والله تعالى حكيم لا تجري أفعاله على خلاف الحكمة التّامة، أي جعل البعث ليبيّن للنّاس الشيء الذي يختلفون فيه من الحقّ والباطل، فيظهر حقّ المحقّ ويظهر باطل المبطل.

{ **الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ** } شمل كل معاني المحاسبة على الحقوق، لأنّ تمييز الحقوق من المظالم كلّه محل اختلاف النّاس وتنازعهم.

{ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** } عطف على هذه الحكمة العامة حكمة فرعيّة خاصة بالمردود عليهم هنا، وهي حصول العلم للذين كفروا بأنّهم كانوا كاذبين فيما اخترعوه من الشرك وتحريم الأشياء، وإنكار البعث. وفي حصول علمهم بذلك يوم البعث مثار للندامة والتحسّر على ما فرط منهم من إنكاره. وقد تقدّم بيان حكمة الجزاء في يوم البعث في أوّل سورة يونس.

{ **كَانُوا كَاذِبِينَ** } أقوى في الوصف بالكذب من (كذبوا أو كاذبون)، لما تدل عليه (كان) من الوجود زيادة على ما يقتضيه اسم الفاعل من الاتصاف، ففيه شتم صريح وتعريض بالعقاب.

{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }[40]

متّصلة بجملة { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ } [38] لبيان أنّ جهلهم بمدى قدرة الله تعالى هو الذي جرّأهم على إنكار البعث واستحالته عندهم، فهي بيان للجملة التي قبلها ولذلك فصلت.

والمعنى أنّه لا يتوقّف تكوين شيء إذا أراده الله إلّا على أن تتعلق قدرته بتكوينه. وليس إحياء الأموات إلّا من جملة الأشياء، وما البعث إلّا تكوين، فلا يخرج عن قدرته.

{ **إِنَّمَا** } أفادت قصرا هو قصر وقوع التكوين على صدور الأمر به، وهو قصر قلب لإبطال اعتقاد المشركين تعذّر إحياء الموتى ظنّا منهم أنّه لا يحصل إلّا إذا سلمت الأجساد من الفساد كما تقدّم آنفا.

{ **قَوْلُنَا لِشَيْءٍ** } تكويننا شيئا، أي تعلّق القدرة بخلق شيء.

{ **إِذَا أَرَدْنَاهُ** } إذا تعلقت به الإرادة الإلهية تعلقا تنجيزيا.

الشيء: أطلق هنا على المعدوم باعتبار إرادة وجوده، فهو من إطلاق اسم ما يؤول إليه، أو المراد بالشيء مطلق الحقيقة المعلومة وإن كانت معدومة، وإطلاق الشيء على المعدوم مستعمل.

{ **كُنْ** } توجّه القدرة إلى إيجاد المقدور. عبّر عن ذلك التوجّه بالقول { قَوْلُنَا } كما عبّر عنه بالأمر في قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس:82]. وشبّه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشبّه انفعال الممكن لأمر التكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر. وكل ذلك تقريب للنّاس بما يعقلون، وليس هو خطابا للمعدوم ولا أنّ للمعدوم سمعا يعقل به الكلام فيمتثل للآمر.

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [41] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [42].

لما ثبتت حكمة البعث بأنّها تبيين الذي اختلف فيه النّاس من هدى وضلالة، ومن ذلك أن يتبيّن أنّ الذين كفروا كانوا كاذبين وأنّ الذين آمنوا كانوا صادقين، بدلالة المضادة، وأنّهم مثابون ومكرّمون. فلما عُلم ذلك من السياق وقع التصريح به في هذه الآية. وأدمج مع ذلك وعدهم بحسن العاقبة في الدنيا، مقابلة وعيد الكافرين بسوء العاقبة فيها، الواقع بالتعريض في قوله { فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [36].

المهاجرة: متاركة الديار لغرض ما.

{ **فِي اللَّهِ** } مستعملة في التعليل، أي لأجل الله. والكلام على تقدير مضاف تقديره: هاجروا لأجل مرضاة الله.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** } إسناد الفعل إلى المجهول لظهور الفاعل من السياق وهو المشركون. والظلم يشمل أصناف الاعتداء من الأذى والتعذيب.

التبوئة: الإسكان. وأطلقت هنا على الجزاء بالحسنى على المهاجرة بطريق المضادة، لأنّ المهاجرة خروج من الديار فيضادها الإسكان.

{ **لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** } أي لنجازينهم جزاء حسنا. أي تبوئة حسنة.

وهذا الجزاء يجبر كلّ ما اشتملت عليه المهاجرة من الأضرار التي لقيها المهاجرون من مفارقة ديارهم

وأموالهم، وما لاقوه من الأذى الذي ألجأهم إلى المهاجرة من تعذيب واستهزاء ومذلّة وفتنة، فالحسنة تشتمل على تعويضهم ديارا خيرا من ديارهم، ووطنا خيرا من وطنهم، وهو المدينة، وأموالا خيرا من أموالهم، وهي ما نلوه من المغانم ومن الخراج. روي أنّ عمر رضي الله عنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له: " هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكبر". قال تعالى { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } [النور:55].

وسبب النزول الذين هاجروا إلى أرض الحبشة من المسلمين لا محالة، أو الذين هاجروا إلى المدينة، الهجرة الأولى قبل هجرة النبيء ﷺ وبقية أصحابه رضي الله عنهم، مثل مصعب بن عمير وأصحابه، إن كانت هذه الآية نازلة بعد الهجرة الأولى إلى المدينة. وكلا الاحتمالين لا ينافي كون السورة مكّيّة. ولا يقتضي تخصيص أولئك بهذا الوعد.

{ **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ** } ثم أعقب بالوعد العظيم المقصود. ومعنى { أَكْبَرُ } أنّه أهم وأنفع. والإضافة على معنى (في)، أي الأمر الذي في الآخرة.

{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } معترضة، وهي استئناف بياني ناشئ عن جملة الوعد كلّها، لأنّ ذلك الوعد العظيم بخير الدنيا والآخرة يثير في نفوس السامعين أن يسألوا كيف لم يقتد بهم من بقوا على الكفر فتقع جملة { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } بيانا لما استبهم على السائل. والتقدير: لو كانوا يعلمون ذلك لاقتدوا بهم ولكنّهم لا يعلمون. فضمير {يَعْلَمُونَ} عائد إلى { الذين كفروا } [39].

ويجوز أن يكون المعنى، لو كان المهاجرون يعلمون ما أُعدّ لهم علم مشاهدة لما حزنوا على مفارقة ديارهم ولكانت هجرتهم عن شوق إلى ما يلاقونه بعد هجرتهم، لأنّ تأثير العلم الحسّيّ على المزاج الإنسانيّ أقوى من العلم العقليّ. فليس المراد لو كانوا يعتقدون ويؤمنون، لأنّ ذلك حاصل لا يناسب موقع { لَوْ } الامتناعية. فضمير { يَعْلَمُونَ } عائد إلى { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا }. وفي هذا الوجه تتناسق الضمائر.

الصبر: تحمّل المشاق. و**التوكّل**: الاعتماد. وتقدّم الصبر عند قوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة:45]. والتوكّل عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

والتعبير في جانب الصبر بالماضي وفي جانب التوكّل بالمضارع إيماء إلى أنّ صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأنّ الله قد جعل لهم فرجا بالهجرة الواقعة والهجرة المترقّبة. فهذا بشارة لهم. وأنّ التوكّل ديدنهم لأنّهم يستقبلون أعمالًا جليلة تتمّ لهم بالتوكّل على الله في أمورهم، فهم يكرّرونه. وفي هذا بشارة بضمان النجاح. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر:10].

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } وتقديم المجرور للقصر، أي لا يتوكّلون إلّا على ربهم دون التوكّل على المشركين.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [43] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [44].

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ }

كانت الآيات السابقة جارية على حكاية تكذيب المشركين نبوءة محمد ﷺ وإنكارهم أنّه مرسل من عند الله وأنّ القرآن وحي الله إليه، وردّ مزاعمهم الباطلة بالأدلة القارعة لهم متخلّلا بما ادمج في أثنائه من معان أخرى تتعلّق بذلك، فعاد هنا إلى إبطال شبهتهم في إنكار نبوءته من أنّه بشر لا يليق بأن يكون سفيرا بين الله والنّاس، إبطالًا بقياس التمثيل بالرسل الأسبقين الذين لا تنكر قريش رسالتهم مثل نوح وإبراهيم - عليهما السلام - .

وقد غيّر أسلوب نظم الكلام هنا بتوجيه الخطاب إلى النبيء ﷺ بعد أن كان جاريا على أسلوب الغيبة، تأنيسا للنبيء ﷺ لأنّ فيما مضى من الكلام آنفا حكاية تكذيبهم إيّاه تصريحا وتعريضا، فأقبل الله على الرّسول ﷺ بالخطاب لما في هذا الكلام من تنويه بمنزلته بأنّه في منزلة الرسل الأوّلين - عليهم الصلاة والسلام -.

ثمّ أشهد على المشركين بشواهد الأمم الماضية وأقبل عليهم بالخطاب توبيخا لهم لأنّ التوبيخ يناسبه الخطاب لكونه أوقع في نفس الموبّخ، فاحتج عليهم بقوله { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ }. فهذا احتجاج بأهل الأديان السابقين.

{ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ } معترضة بين جملة { وَمَا أَرْسَلْنَا } وبين قوله تعالى {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ}. والجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الجملة مفرّعا على ما قبله.

{ الذِّكْر } : كتاب الشريعة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر:6].

{ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } إيماء إلى أنّهم يعلمون ذلك ولكنّهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء، فلذلك جيء في الشرط بحرف (إن) التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده.

{ بِالْبَيِّنَاتِ } متعلّق بمستقر صفة أو حالا من { رجالًا } وفي تعلّقه وجوه أخر ذكرها في الكشّاف، والباء للمصاحبة، أي مصحوبين بالبيّنات والزبر، فالبيّنات دلائل الصدق، من معجزات أو أدلّة عقلية. وقد اجتمع ذلك في القرآن وافترق بين الرّسل الأولين كما تفرّق منه كثير لرسولنا ﷺ.

{ الزُّبُرِ } جمع زبور وهو مشتق من الزَّبْر، أي الكتابة، ففعول بمعنى مفعول. أي الكتب التي كتب فيها ما أوحي إلى الرّسل مثل صحف إبراهيم والتوراة، وما كتبه الحواريّون من الوحي إلى عيسى - عليه السلام - وإن لم يكتبه عيسى.

{ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } عطف تقسيم بقصد التوزيع، أي بعضهم مصحوب بالبيّنات وبعضهم بالأمرين لأنّه قد

تجئ رسل بدون كتب، مثل حنظلة بن صفوان رسول أهل الرسّ، وخالد ابن سنان رسول عبس. ولم يذكر الله لنوح - عليه السلام - كتابا.

وقد تُجعل الزّبر خاصة بالكتب الوجيزة التي ليست فيها شريعة واسعة، مثل صحف إبراهيم وزبور داود - عليهما السلام -، والإنجيل كما فسّروها به في سورة فاطر.

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }

لمّا اتّضحت الحجّة بشواهد التاريخ الذي لا ينكر ذكرت النتيجة المقصودة، وهو أنّ ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم إنّما هو ذكر وليس أساطير الأولين.

الذكر: الكلام الذي شأنه أن يذكر، أي يتلى ويكرّر. وهنا ما أنزل ليقرأه النّاس ويتلوه تكرارا، ليتذكروا ما اشتمل عليه. وتقديم المتعلّق المجرور على المفعول للاهتمام بضمير المخاطب . وتقدّم عند قوله { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر:6]. أي ما كنت بدعا من الرّسل فقد أوحينا إليك الذكر.

وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله { بالبينات والزبر } إيماء إلى أنّ الكتاب المنزل على محمد ﷺ هو بيّنة وزبور معا، أي هو معجزة وكتاب شرع. وذلك من مزايا القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر، ولا معجزة أخرى. قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت:51،50].

وفي الحديث: أنّ النبيء ﷺ قال: " ما من الأنبياء نبيء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ".

{ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ } التبيين: إيضاح المعنى. والتعريف في النّاس للعموم.

{ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } والإظهار يقتضي أنّ ما صدق الموصول غير الذكر المتقدّم، إذ لو كان إياه لكان مقتضى الظاهر أن يقال لتبيّنه للنّاس. ولذا فالأحسن أن يكون المراد بـ { مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } الشرائع التي أرسل الله بها محمدا ﷺ فجعل القرآن جامعا لها ومبيّنا لها ببليغ نظمه ووفرة معانيه، فيكون في معنى قوله { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89].

وليس في هذه الآية دليل لمسائل تخصيص القرآن بالسنّة، وبيان مجمل القرآن بالسنّة، وترجيح دليل السنّة المتواترة على دليل الكتاب عند التعارض المفروضات في أصول الفقه، إذ كلّ من الكتاب والسنة هو تبيين النبيء ﷺ إذ هو واسطته.

{ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر النّاس فيه وتأمّلهم فيما يقرّبهم إلى رضى الله تعالى.

{ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [45]

بعد أن ذُكرت مساويهم ومكائدهم، وبعد تهديدهم بعذاب يوم البعث تصريحا، وبعذاب الدنيا تعريضا، فرّع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في المعاندة غير مقدّرين أن يقع ما يهدّدهم به الله على لسان رسوله ﷺ، فلا يقلعون عن تدبير المكر بالنبيء ﷺ، فكانت حالهم في استرسالهم كحال من هم آمنون بأس الله، فالاستفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالتوبيخ.

{ **الَّذِينَ مَكَرُوا** }: هم المشركون. و**المكر** تقدّم في قوله تعالى { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26].

{ **السَّيِّئَاتِ** } صفة لمصدر { مَكَرُوا } محذوفا يقدّر مناسبا لتانيث صفته. فالتقدير: مكروا المكرات السّيّئات. كما وصف المكر بالسيء في قوله تعالى { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } [فاطر:43].

الخسف: زلزال شديد تنشقّ به الأرض فتحدث بانشقاقها هوّة عظيمة تسقط فيها الديار والنّاس، ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها. وقد أصاب ذلك أهل بابل، ومكانهم يسمى خسف بابل. وأصاب قوم لوط إذ جعل الله عاليها سافلها. وبلادهم مخسوفة اليوم في بحيرة لوط من فلسطين.

{ **الْعَذَابُ** } يعمّ كلّ ما فيه تأليم يستمر زمنا، فلذلك عطف على الخسف. وإتيان العذاب إليهم: إصابته إيّاهم.

{ **مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } من مكان لا يترقّبون أن يأتيهم منه ضرّ. وهو كناية عن عذاب لا يطيقون دفعه بحسب اللزوم العرفي، و إلّا فقد جاء العذاب عادا من مكان يشعرون به، قال تعالى { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا } [الأحقاف:24]. وحلّ بقوم نوح عذاب الطوفان وهم ينظرون، وكذلك عذاب الغرق لفرعون وقومه.

{ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [46] **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}**[47].

{ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ** } الأخذ مستعار للإهلاك قال تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10].

التقلّب: السعي في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة. وأصله: الحركة إقبالًا وإدبارا، والمعنى: أن يهلكهم الله وهم شاعرون بمجيء العذاب. وهذا قسيم قوله تعالى { أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ} [45]. وفي معناه قوله تعالى { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف:98].

{ **فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ** } اعتراض، إذ لا يعجزه اجتماعهم وتعاونهم.

{ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ** } والتخوّف في اللغة يأتي مصدر تخوّف القاصر بمعنى خاف ومصدر تخوّف المتعدي بمعنى تنقّص، وهذا الثاني لغة هذيل، وهي من اللغات الفصيحة التي جاء بها القرآن.

فللآية معنيان: إمّا أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة توقّع نزول العذاب بأن يريهم مقدّماته مثل الرعد قبل الصواعق، وإمّا أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة تنقّص، بأن يكثر فيهم الموتان والفقر والقحط.

روى الزمخشري وابن عطية يزيّد أحدهما على الآخر: أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خفي عليه معنى التخوّف في هذه الآية وأراد أن يكتب إلى الأمصار، وأنّه سأل النّاس وهو على المنبر: ما تقولون فيها؟ فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا. التخوّف: التنقّص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم قال شاعرنا (أبو كبير) :

تخوف الرحل منها تامِكا قرِدا ... كما تخوف عودَ النبعة السفنُ

(وهذا البيت في وصف راحلة أثّر الرحل في سنامها فتنقص من وبره. و**التامِك**: بكسر الميم السنام المشرق. و**القرِد** بكسر الراء المتبلد الوبر، و**النبعة** قصبة شجر النبع تتخذ منه القسي. و**السفن** بالتحريك البرد).

فقال عمر - رضي الله عنه -: " أيها النّاس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم".

{ **فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تفرّع على الجمل الماضية تفريع العلّة على المعلّل. وحرف (إنّ) هنا مفيد للتعليل ومغن عن (فاء) التفريع كما بيّنه عبد القاهر، فهي مؤكّدة لما أفادته الفاء.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [48]

بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي، خلقا ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى، وذلك في أشدّ الأعراض ملازمة للذوات، ومطابقة لأشكالها وهو الظل. وقد مضى تفصيل هذا الاستدلال عند قوله تعالى { وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الرعد:15].

والاستفهام إنكاري، أي قد رأوا، والرؤية بصرية.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان للإبهام الذي في (ما) الموصولة، وإنّما كان بيانا باعتبار ما جرى عليه من الوصف بجملة { يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ }.

التفيّؤ: تفعّل من فاء الظل فيئا، أي عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس. لعلّ أصله من فاء إذا رجع.

{ **ظِلالُهُ** } وتقدّم ذكر الظلال عند قوله { وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الرعد:15].
{ **عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ** } ، أي عن جهات اليمين وجهات الشمائل. وليس المراد خصوص اليمين والشمال بل كذلك الأمام والخلف، فاختصر الكلام. وإفراد اليمين وجمع { وَالشَّمَائِلِ } تفنّن.
{ **سُجَّداً** } حال من ضمير { ظِلالُهُ } العائد إلى {مِنْ شَيْءٍ} فهو قيد للتفيّؤ، أي أنّ ذلك التفيؤ يقارنه السجود.
{ **وَهُمْ دَاخِرُونَ** } في موضع الحال من الضمير في { ظِلالُهُ } لأنّه في معنى الجمع لرجوعه إِلَى { مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ }. وجمع بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليبا لأنّ في جملة الخلائق العقلاء وهم الجنس الأهم.
الداخر: الخاضع الذليل، أي داخرون لعظمة الله تعالى.

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ [49] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [50].

لمّا ذكر في الآية السابقة السجود القسري ذكر بعده هنا سجود آخر بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار.
{ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ** } تقديم المجرور على فعله مؤذن بالحصر، أي يسجد لله لا لغيره ما في السماوات وما في الأرض، وهو تعريض بالمشركين إذ يسجدون للأصنام.
{ **ما** } دون (من) تغليبا لكثرة غير العقلاء.
{ **مَا فِي السَّمَاوَاتِ** } يشمل مخلوقات غير الملائكة، مثل الأرواح، أو يراد بالسماوات الأجواء فيراد بما فيها الطيور والفراش.
وفي ذكر أشرف المخلوقات وأقلّها، تعريض بذمّ من نزل من البشر عن مرتبة الدواب في كفران الخالق، وبمدح من شابه من البشر حال الملائكة.
{ **وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ** } الدابة ما يدب على الأرض غير الإنسان. ومعنى سجود الدواب لله أنّ الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب، وتطلّب الدفع عن نفسها من المتغلّب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقّي، ونحو ذلك من الملائمات. فحالها بذلك كحال شاكر تتيسّر تلك الملائمات لها، وإنّما تيسيرها لها ممن فطرها. وقد تصحب أحوال تنعّمها حركات تشبه إيماء الشاكر المقارب للسجود، ولعل من حركاتها ما لا يشعر به النّاس لخفائه وجهلهم بأوقاته، وإطلاق السجود على هذا مجاز. وفي جعل الدواب والملائكة معمولين لـ { يسجد } استعمال للفظ في حقيقته ومجازه.
{ **وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** } وصف للملائكة، وهو تعريض ببعد المشركين عن أوجّ تلك المرتبة الملكية.

{ **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ** } بيان لجملة { وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ }.
{ **مِنْ فَوْقِهِمْ** } فوقيّة تصرّف وملك وشرف كقوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].
{ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** }، أي يطيعون ولا تصدر منهم مخالفة.
وهنا موضع سجود للقارئ بالاتفاق. وحكمته هنا إظهار المؤمن أنّه من الفريق الممدوح، بأنّه مشابه للملائكة في السجود لله تعالى.

{ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }[51]

لمّا أُشبع القول في إبطال تعدّد الآلهة الشائع في جميع قبائل العرب، وأُتبع بإبطال الاختلاق على الرّسول ﷺ والقرآن، نُقل الكلام إلى إبطال نوع آخر من الشرك متّبع عند قبائل من العرب وهو الإشراك بإلهيّة أصلين للخير والشرّ، تقلّدته قبائل العرب المجاورة بلاد فارس والساري فيهم سلطان كسرى وعوائدهم، مثل بني بكر بن وائل وبني تميم، فقد دان منهم كثير بالمجوسيّة، أي المزدكية والمانوية في زمن كسرى أبرويش وفي زمن كسرى أنوشروان، والمجوسية تثبت عقيدةً بإلهين: إله للخير وهو النور، وإله للشر وهو الظلمة، فإله الخير لا يصدر منه إلّا الخير والأنعام، وإله الشرّ لا يصدر عنه إلّا الشرّ والآلام، وسموا إله الخير (**يَزْدان**)، وسموا إله الشر (**أَهْرُمُنْ**). وزعموا أنّ يزدان كان منفردا بالإلهية وكان لا يخلق إلّا الخير فلم يكن في العالم إلّا الخير، فخطر في نفسه مرة خاطر شر فتولّد عنه إله آخر شريك له هو إله الشرّ، وقد حكى هذا المعري في لزومياته بقوله:

فكر يَزْدانُ على غِرّة ... فصيغ من تفكيره أهْرُمُنْ

ولم يكونوا يجعلون لهذين الأصلين صورا مجسّمة، فلذلك لم يكن دينهم من عداد عبادة الطاغوت لاختصاص اسم الطاغوت بالصور والأجسام المعبودة. وهذا الدين من هذه الجهة يشبه الأديان التي لا تعبد صورا محسوسة. وسيأتي الكلام على المجوسيّة عند تفسير قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا }[الحج:170].
{ **وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ** } عطف قصة على قصة. والمعنى: أنّه دعا النّاس ونصب الأدلّة على بطلانّ اعتقاده. وهذا كقوله تعالى { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ } [الفتح:15].
{ **إِلَهَيْنِ** } صيغة التثنية أكّدت بلفظ { اثْنَيْنِ } للدلالة على أنّ الاثنينيّة مقصودة بالنهي إبطالًا لشرك مخصوص من إشراك المشركين، وهو قول المجوس بإلهين. وإذ نهوا عن اتخاذ إلهين فقد دلّ بدلالة الاقتضاء على إبطال اتخاذ آلهة كثيرة.
{ **إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } بيانا لجملة { لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ }، فالجملة مقولة لفعل { وَقَالَ اللَّهُ } لأنّ عطف البيان تابع للمبيّن، فلذلك فصلت، وبذلك أفيد بالمنطوق ما أفيد قبل بدلالة الاقتضاء.

والضمير{ **هُوَ** } عائد إلى اسم الجلالة في قوله { وَقَالَ اللَّهُ } ، أي قال الله: إنّما الله إله واحد.
والقصر قصر موصوف على صفة، أي الله مختص بصفة توحّد الإلهيّة، وهو قصر قلب لإبطال دعوى تثنية الإله.
{ **فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** } الراجح أن يكون تفريعا على جملة { لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ } فيكون { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } من مقول القول. ووقع في ضمير { فَإِيَّايَ } التفات من الغيبة إلى التكلّم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلي إلى تعيين هذا الواحد أنّه الله منزّل القرآن، تحقيقا لتقرير العقيدة الأصليّة. وفي هذا الالتفات اهتمام بالرهبة لما في الالتفات من هزّ فهم المخاطبين. وتقدّم تركيب نظيره بدون التفات في سورة البقرة.

{ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } [52]
تقديم المجرور يفيد الحصر، فدخل جميع ما في السماء والأرض في مفاد (لام) الملك، فأفاد أن ليس لغيره شيء من المخلوقات خيرها وشرّها. فانتفى أن يكون معه إله آخر، لأنّه لو كان معه إله آخر لكان له بعض المخلوقات إذ لا يعقل إله بدون مخلوقات.
{ **وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً** } فالدين يحتمل أن يكون المراد به الطاعة. من قولهم: دانت القبيلة للملك. أي أطاعته، فهو من متمّمات جملة { وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، لأنّه لما قصر الموجودات على الكون في ملكه كان حقيقا بقصر الطاعة عليه، ولذلك قدّم المجرور في هذه الجملة على فعله كما وقع في التي قبلها.
ويجوز أن يكون { الدِّينُ } بمعنى الديانة، فيكون تذييلا لجملة { وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ }، لأنّ إبطال دين الشرك يناسبه أن لا يدين النّاس إلّا بما يشرعه الله لهم، أي هو الذي يشرّع لكم الدين لا غيره من أئمة الضلال مثل عمرو بن لحيي، وزرادشت، ومزدك، وماني، قال تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [الشورى:21].
ويجوز أن يكون الدين بمعنى الجزاء كما في قوله تعالى {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:4]، فيكون إدماجا لإثبات البعث الذي ينكره أولئك أيضا. والمعنى: له ما في السماوات والأرض وإليه يرجع من في السماوات والأرض لا يرجعون إلى غيره ولا ينفعهم يومئذ أحد.
الواصب: الثابت الدائم، وهو صالح للاحتمالات الثلاثة، ويزيد أنّه تأكيد لردّ إنكارهم البعث.
{ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** } توبيخ على تقواهم غيره، وذلك أنّهم كانوا يتّقون إله الشرّ ويتقرّبون إليه ليأمنوا شرّه.

{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [53] ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [54].

لمّا أبطل في الآية السابقة وجود إلهين اثنين، أحدهما فعله الخير والآخر فعله الشرّ، أعقبه هنا بأنّ الخير والضرّ من تصرفات الله تعالى، وهو يعطي النعمة وهو كاشف الضرّ.

وهو انتقال من الاستدلال بمصنوعات الله الكائنة في ذات الإنسان وفيما يحيط به من الموجودات إلى الاستدلال بما ساق الله من النعم، فمن النّاس معرضون عن التدبّر فيها وعن شكرها وهم الكافرون، فكان في الأدلة الماضية القصد إلى الاستدلال ابتداء متبوعا بالامتنان. وتغيّر الأسلوب هنا فصار المقصود الأوّل هو الامتنان بالنعم مدمجا فيه الاعتبار بالخلق.

فالخطاب موجّه إلى الأمّة كلّها، ولذلك جاء عقبه قوله تعالى { إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ }، وابتدئ بالنعم على وجه العموم إجمالًا ثم ذكرت مهمّات منها.

{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } لما كان **{ مِنْ نِعْمَةٍ }** مفيدا للعموم كان الإخبار عنه بأنّه من عند الله مغنيا عن الإتيان بصيغة قصر. و(من) الثانية ابتدائية، أي واصلة إليكم من الله.

{ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } للتراخي الرتبي كما هو شان (ثمّ) الغالب في عطفها الجمل، لأنّ اللجأ إلى الله عند حصول الضرّ أعجب إخبارا من الإخبار بأنّ النعم كلّها من الله.

مسّ الضرّ: حلوله. استعير المسّ للحصول الخفيف، للإشارة إلى ضيق صبر الإنسان بحيث إنّه يجأر إلى الله بحصول أدنى شيء من الضرّ له. وتقدّم استعمال **المسّ** في الإصابة الخفيفة في قوله تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ } [الأنعام:17].

{ تجأرون } تصرخون بالتضرع. والمصدر: الجُؤار، بصيغة أسماء الأصوات.

والمقصود: تقرير أنّ الله تعالى هو مدبّر أسباب ما بهم من خير وشرّ، وأنّه لا إله يخلق إلّا هو، وإنّهم لا يلتجئون إلّا إليه إذا أصابهم ضرّ، وهو ضدّ النعمة.

{ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } نعمة أخرى، وهي كشف الضرّ عن النّاس.

{ ثُمَّ } للترتيب الرتبي، لأنّ مضمون الجملة المعطوفة أبعد في النظر من مضمون المعطوف عليها، فإنّ الإعراض عن المنعم بكشف الضرّ، وإشراك غيره به في العبادة أعجب حالا وأبعد حصولا من اللجأ إليه عند الشدّة.

والمقصود تسجيل كفران المشركين، وإظهار رأفة الله بالخلق بكشف الضرّ عنهم عند التجائهم إليه مع علمه

بأنّ من أولئك من يشرك به ويستمر على شركه بعد كشف الضرّ عنه.
{ **إِذَا** } الأولى مضمّنة معنى الشرط، وهي ظرف.
{ **إِذَا** } الثانية فجائية، للدلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك.

{ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [55]

{ **لِيَكْفُرُوا** } سمّى كثير من النحاة هذه اللام لام العاقبة، ومثالها عندهم قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً} [القصص:8]. وهي متعلّقة بفعل { يُشْرِكُونَ } [54] الذي هو من جواب قوله تعالى { إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ } [54]. والكفر هنا كفر النعمة، ولذلك علّق به قوله تعالى { بِمَا آتَيْنَاهُمْ }، أي من النعم. وكفر النعمة ليس هو الباعث على الإشراك فإنّ إشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضرّ عنهم، ولكن شبّهت مقارنة عودهم إلى الشرك، بعد كشف الضر عنهم، بمقارنة العلّة الباعثة على عملٍ لذلك العمل. ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريّث. فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل، وهي استعارة تبعية تمليحيّة تهكّميّة ومثلها كثير الوقوع في القرآن

الإيتاء: الإعطاء. وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة، لأنّ شأن الإعطاء أن يكون تمكينا بالمحبوب.
{ **بما آتيناهم** } عبّر بالموصول لما تؤذن به الصلة من كونه نعمة، تفظيعا لكفرانهم بها، لأنّ كفران النعمة قبيح عند جميع العقلاء.
{ **فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } فرّع عليه مخاطبتهم بأمرهم بالتمتع، أمر إمهال وقلّة اكتراث بهم، وهو في معنى التخلية.
التّمتّع: الانتفاع بالمتاع. والمتاع الشيء الذي ينتفع به انتفاعا محبوبا ويسرّ به. ويقال: تمتع بكذا واستمتع. قيل الخطاب للفريق الذين يشركون بربهم على طريقة الالتفات. والأظهر أنّه مقول لقول محذوف. لأنّه جاء مفرّعا على كلام خوطب به النّاس كلهم، فيكون المفرّع من تمام ما تفرع عليه. وذلك ينافي الالتفات الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلى مرجع ما قبله. والمعنى: فنقول تمتّعوا بالنعم التي أنتم فيها إلى أمد.
{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } تهديد بأنّهم سيعلمون عاقبة كفران النعمة بعد زوال التمتّع. وحذف المفعول لظهوره من قوله تعالى { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ } ، أي تعلمون جزاء كفركم.

{ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } [56]

عطف حالة من أحوال كفرهم لها مساس بما أنعم الله عليهم من النعمة، فهي معطوفة على جملة { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [53]. وما حُكي هنا هو تفاريع دينهم الناشئة عن إشراكهم والتي هي من تفاريع كفران نعمة ربّهم، إذ جعلوا في أموالهم حقّا للأصنام التي لم ترزقهم شيئا. وقد مرّ ذلك عند قوله تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ } [الأنعام: 136]. إلّا أنّه اقتصر هنا على ذكر ما جعلوه لشركائهم دون ما جعلوه لله لأنّ المقام هنا لتفصيل كفرانهم النعمة، بخلاف ما في سورة الأنعام فهو مقام تعداد أحوال جاهليتهم وإن كان كلّ ذلك منكرا عليهم، إلّا أن بعض الكفر أشدّ من بعض.

الجعل: التصيير والوضع. تقول: جعلت لك في مالي كذا. وجيء هنا بصيغة المضارع للدلالة على تجدّد ذلك منهم واستمراره، بخلاف قوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ } [38] بأنّه حكاية قضيّة مضت من عنادهم وجدالهم في أمر البعث.

{ لِمَا لا يَعْلَمُونَ } الأصنام، وإنّما عبّر عنها بهذه الصلة زيادة في تفظيع سخافة آرائهم، إذ يفرضون في أموالهم عطاء يعطونه لأشياء لا يعلمون حقائقها بله مبلغ ما ينالهم منها، كما قال تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} [النجم:23].

{ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } لتشنيع ظلمهم، إذ تركوا المنعم فلم يتقرّبوا إليه بما يرضيه في أموالهم مما أمرهم بالإنفاق فيه، كإعطاء المحتاج، وأنفقوا ذلك في التقرّب إلى أشياء موهومة لم ترزقهم شيئا.

{ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ } وجّه الخطاب إليهم على طريقة الالتفات لقصد التهديد. ولا مانع من الالتفات هنا لعدم وجود فاء التفريع.

وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكّد. والقسم بالتاء يختصّ بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا، كما تقدّم في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ } [يوسف: 73].

والسؤال كناية عمّا يترتب عليه من العقاب، لأنّ عقاب العادل يكون في العرف عقب سؤال المجرم عمّا اقترفه إذ لعل له ما يدفع به نفسه، فأجرى الله أمر الحساب يوم البعث على ذلك السَنن الشّريف.

{ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } كناية عن استحقاقهم العقاب، لأنّ الكذب على الله جريمة.

والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدلالة على أنّ الافتراء كان من شأنهم، وكان متجدّدا ومستمرا منهم.

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ }[57]

هذا استدلال بنعمة الله عليهم بالبنين والبنات، وهي نعمة النسل. وأدمج في هذا الاستدلال وهذا الامتنان ذكر ضرب شنيع من ضروب كفرهم، وهو زعمهم أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً } [الصافات: 158]. وهو اعتقاد قبائل كنانة وخزاعة.

الجعل هنا النسبة بالقول.

{ **سُبْحَانَهُ** } مصدر نائب عن الفعل، وهو في محل جملة معترضة وقعت جوابا عن مقالتهم السيّئة التي تضمّنها قوله { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } إذ الجعل فيه جعل القول، فقوله { سُبْحَانَهُ } مثل قولهم: **حاش لله ومعاذ لله**، أي تنزيها له عن أن يكون له ذلك.

وإنّما قدم { سُبْحَانَهُ } ليكون في أن التنزيه عن هذا الجعل لذاته، وهو نسبة البنوّة لله.

{ **وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ** } جملة في موضع الحال. زيادة في التفظيع. وتقديم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكّم. وما صدق { مَا يَشْتَهُونَ } الأبناء الذكور بقرينة مقابلته بالبنات.

{ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ [58] يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ألا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [59].

الراجح أن تكون الجملة معترضة والواو اعتراضية اقتضى الإطالة بها أنّها من تفاريع شركهم.

{ **بُشِّرَ** } التعبير عن الإعلام بازدياد الأنثى بهذا الفعل في موضعين لأنّه كذلك في نفس الأمر، إذا ازدياد المولود نعمة على الوالد لما يترقّبه من التأنّس به والانتفاع بخدمته وإعانته عند الاحتياج إليه، ولما فيه من تكثير نسل القبيلة الموجب عزّتها، وآصرة الصهر. ثم إنّ هذا مع كونه بشارة في نفس الأمر فالتعبير به يفيد تعريضا بالتهكّم بهم، إذ يعدّون البشارة مصيبة وذلك من تحريفهم الحقائق. والتعريض من أقسام الكناية والكناية تجامع الحقيقة.

{ **ظَلَّ** } من أفعال الكون أخوات كان التي تدلّ على اتصاف فاعلها بحالة لازمة، فلذلك تقتضي فاعلا مرفوعا يدعى اسما وحالا لازما له منصوب يدعى خبرا لأنّه شبيه بخبر المبتدإ. وسماها النحاة لذلك نواسخ لأنّها تعمل فيها، لولاها لكان مبتدأ وخبرا فلمّا تغيّر معها حكم الخبر سميت ناسخة لرفعه. كما سميت (إنّ) وأخواتها و (ظنّ) وأخواتها كذلك. وهو اصطلاح تقريبي وليس برشيق.

ويستعمل {ظَلّ} بمعنى صار. وهو المراد هنا.

{ **وَجْهُهُ مُسْوَدّاً** } مستعمل في لون وجه الكئيب إذ ترهقه غبرة، فشبهت بالسواد مبالغة.

الكظيم: الغضبان المملوء حنقا. وتقدّم في قوله تعالى { فَهُوَ كَظِيمٌ } [يوسف:84]، أي أصبح حنقا على امرأته. وهذا من جاهليتهم الجهلاء وظلمهم.

التواري: الاختفاء، مشتق من الوراء وهو جهة الخلف.

{ **مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ** } أي يتوارى من أجل تلك البشارة. و{ مِنْ } للابتداء المجازي المفيد معنى التعليل، لأنّه يقال: فعلت كذا من أجل كذا، قال تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ } [الأنعام: 151].

{ **أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ** } بدل اشتمال من { يَتَوَارَى}، أي يتوارى يتردد بين هذين الأمرين.

الهون: الذلّ. وتقدّم عند قوله تعالى { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ } [الأنعام: 93].

الدسّ: إخفاء الشيء بين أجزاء شيء آخر كالدفن. والمراد: الدفن في الأرض وهو الوأد. وكانوا يئدون بناتهم، بعضهم يئد بحدثان الولادة، وبعضهم يئد إذا يفعت الأنثى ومشت وتكلّمت، أي حين تظهر للنّاس لا يمكن إخفاؤها. وذلك من أفظع أعمال الجاهلية، وكانوا متمالئين عليه ويحسبونه حقّا للأب فلا ينكرها الجماعة على الفاعل.

{ **ألا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** }. سماه الله حكما وأعلن ذمّه بحرف { أَلا } لأنّه جور عظيم قد تمالأوا عليه. فأسند إلى ضمير الجماعة مع أنّ الكلام كان جاريا على فعل واحد غير معيّن، قضاء لحق هذه النكتة.

{ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[60]

جملة معترضة مرتبطة بجملة { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } [57]، فهي بمنزلة جملة {سُبْحَانَهُ} ،غير أنّ {سُبْحَانَهُ} جواب بتنزيه الله عمّا نسبوه إليه، وهذه جواب بتحقيرهم على ما يعاملون به البنات، مع نسبتهم إلى الله هذا الصنف المحقّر عندهم.

{ **لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ** } شتم لهم، على استعمال العرب عند سماع الكلام المكروه.

المثل: الحال العجيبة في الحسن والقبح، وإضافة إلى السوء للبيان.

السَوء: (بفتح السين) مصدر ساءه، إذا عمل معه ما يكره. والسُوء (بضم السين) الاسم، تقدّم في قوله تعالى { يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } [البقرة:49].

{ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى** } عطفت على { لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ } لأنّ بها تكملة إفساد قولهم وذمّ رأيهم، إذ نسبوا إلى الله الولد وهو من لوازم الاحتياج والعجز. ولمّا نسبوا إليه ذلك خصّوه بأخس الصنفين عندهم، كما قال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ } [62].

المثل: تقدّم تفصيل معانيه عند قوله تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].
{ **الْأَعْلَى** } تفضيل، وحذف المفضّل عليه لقصد العموم، أي أعلى من كل مثل في العلو بقرينة المقام.
{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تقدّم عند قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ }[61]

هذا اعتراض في أثناء التوبيخ على كفرهم الذي من شرائعه وأد البنات. فلمّا وصف جعلهم لله البنات اللاتي يأنفون منها لأنفسهم، ووصف ذلك بأنّه حكم سوء، ووصف حالهم بأنّها مثل سوء، وعرّفهم بأخصّ عقائدهم أنّهم لا يؤمنون بالآخرة، أتبع ذلك بالوعيد على أقوالهم وأفعالهم.
{ **لَوْ** } حرف امتناع لامتناع، أي حرف شرط يدل على امتناع وقوع جوابه لأجل امتناع وقوع شرطه.
فالمعنى: لو كان الله مؤاخذا الخلق على شركهم لأفناهم من الأرض وأفنى الدواب معهم. ولكنّه لم يفعل.
المؤاخذة: الأخذ المقصود منه الجزاء، فهو أخذ شديد، ولذلك صيغت له صيغة المفاعلة الدالة على الكثرة، فدلّ على أن المؤاخذة المنتفية بـ { لو } هي الأخذ العاجل المناسب للمجازاة، لأنّ شأن الجزاء في العرف أن لا يتأخّر عن وقت حصول الذنب. ولهذا جاء الاستدراك بقوله تعالى { وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ }. فموقع الاستدراك هنا أنّه تعقيب لقوله تعالى { مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ }.
الظلم: الاعتداء على الحقّ. وأعظمه الاعتداء على حقّ الخالق على مخلوقاته، وهو حق إفراده بالعبادة، ولذلك كان الظلم في القرآن إذا لم يعد إلى مفعول نحو {ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [آل عمران:117] مرادا منه أعظم الظلم، **وهو الشرك** حتّى صار ذلك حقيقة عرفيّة في مصطلح القرآن، **وهو المراد هنا من هذا الإنذار**. وأمّا الظلم الذي هو دون الإشراك بالله فغير مراد هنا، لأنّه مراتب متفاوتة فلا يقتضي عقاب الاستئصال على عمومه.
{ **النّاس** } تعريف الجنس ليشمل جميع النّاس. لأنّ ذلك أنسب بمقام الزجر.
{ **عليها** } الضمير صادق على الأرض وإن لم يجر لها ذكر في الكلام فإنّ المقام دال عليها. وذلك استعمال معروف في كلامهم كقوله تعالى { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } [ص:32] يعني الشمس، ويقولون: أصبحت باردة، يريدون الغداة، ويقول أهل المدينة: ما بين لابتيها أحد يفعل كذا، يريدون لابتي المدينة.
الدابة: خصّ في الاستعمال بالإطلاق على ما عدا الإنسان ممّا يمشي على الأرض. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ الدواب التي على الأرض مخلوقة لأجل انتفاع الإنسان، فلذلك لم يكن استعمال الإنسان إيّاها فيما تصلح

له ظلما لها، ولا قتلها لأكلها ظلما لها.

{ **وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } دلّ أن تأخيرهم متفاوت الآجال، ففي مدد تلك الآجال تبقى أقوام كثيرة تعمر بهم الأرض، فذلك سبب بقاء أمم كثيرة من المشركين ومن حولهم.

الأجل: المدّة المعيّنة لفعل ما. والمسمّى: المعيّن والمميّز، وتسمية الآجال تحديدها. وتقدّم نظير هذه عند قوله تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ } [62]

{ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ** } إشارة إلى قوله { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } [57] التي فيها إيماء إلى كراهتهم البنات كما تقدّم. وخُصت هذه بذكر الكراهية تصريحا.

وقد يكون الموصول للعموم فيشير إلى أنّهم جعلوا لله أشياء يكرهونها لأنفسهم مثل الشريك في التصرّف، وأشياء لا يرضونها لآلهتهم ونسبوها لله كما أشار إليه قوله تعالى { فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام:136]. فتكون هذه القصة أعمّ من قصة قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ }، ويكون تخصيصها بالذكر من جهتين: جهة اختلاف الاعتبار، وجهة زيادة أنواع هذا الجعل.

{ **وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ** } عطف قصة على قصة أخرى من أحوال كفرهم.

{ **تَصِفُ** } تذكر بشرح وبيان وتفصيل. وحقيقة الوصف: ذكر الصفات والحُلَي. ثم أطلق على القول المبيّن المفصّل. وقد تقدّم في قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

والمراد من هذا الكذب كل ما يقولونه من أقوال خاصتهم ودهمائهم باعتقاد أو تهكّم.

{ **أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى** } بدل من { الْكَذِبَ }، أي الحالة الحسنى.

{ **لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**} جواب عن قولهم المحكي. ومعنى لا جرم لا شكّ، أي حقّا. وتقدّم في سورة هود.

{ **وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ** } (بفتح الراء مخفّفة)على زنة اسم المفعول، أي مجعولون فَرَطا (بفتحتين) وهو **المقدّم إلى الماء ليسقي**. وقراه نافع: { مُفْرِطُونَ }(بكسر الراء المخفّفة) اسم فاعل من أفرط، إذا بلغ غاية شيء ما، أي مفرِطون في الأخذ من عذاب النار . وقراه أبو جعفر (بكسر الراء المشدّدة) من فرّط المضاعف.

والمراد: أنّهم سابقون إلى النّار معجّلون إليها، لأنّهم أشد أهل النّار استحقاقا لها، وعلى هذا الوجه يكون إطلاق الإفراط على هذا المعنى استعارة تهكّمية. وفيه مع ذكر النار في مقابلتها محسن الطباق. على أنّ قراءة نافع تحتمل التفسير بهذا أيضا لجواز أن يقال: أفرط إلى الماء إذا تقدّم له.

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[63]

استئناف ابتدائي داخل في الكلام الاعتراضي قصد منه تنظير حال المشركين المتحدّث عنهم وكفرهم في سوء أعمالهم وأحكامهم بحال الأمم الضالة من قبلهم، الذين استهواهم الشيطان من الأمم البائدة مثل عاد وثمود، والحاضرة كاليهود والنصارى.

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ } وجّه الخطاب إلى النبيء ﷺ لقصد إبلاغه إلى أسماع النّاس، فإنّ القرآن منزّل لهدي الناس، فتأكيد الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر لا إلى الموجّه إليه الخبر، لأنّ النبيء ﷺ لا يشك في ذلك. وأمّا الإرسال إلى أمم من قبلهم فلا يشك فيه المشركون.

{ تَاللَّهِ } شأن التاء المثناة أن تقع في قسم على مستغرب، ومصب القسم هنا هو المفرد بقوله تعالى { فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } لأنّ تأثير تزيين الشيطان لهم أعمالهم بعدما جاءهم من إرشاد رسلهم أمر عجيب.

{ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } التقدير: أرسلنا فزين لهم الشيطان أعمالهم. وتزيين الشيطان أعمالهم كناية عن المعاصي. والمقصود: أنّ المشركين سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم التي زيّن لهم الشيطان أعمالهم.

{ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } يجوز أن تكون مفرّعة على جملة القسم بتمامها، على أن يكون التفريع هو المقصود من جملة الاستئناف للتنظير؛ فيكون ضمير { وَلِيُّهُمُ } عائدا إلى المنظّرين بقرينة السياق. ولا مانع من اختلاف معادي ضميرين متقاربين مع القرينة.

والمعنى: فالشيطان ولي المشركين اليوم، أي متولّي أمرهم كما كان وليّ الأمم من قبلهم إذ زيّن لهم أعمالهم.

{ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [64]

عطف على جملة القسم. والمناسبة أنّ القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركت أمثالها في العرب وغيرهم. فلمّا ذكرت ضلالاتهم وشبهاتهم عقّب ذلك ببيان الحكمة في إرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن إليه، فالقرآن جاء مبيّنا للمشركين ضلالهم بيانا لا يترك للباطل

مسلكا إلى النفوس، ومفصحا عن الهدى إفصاحا لا يترك للحيرة مجالا في العقول، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة.

{ **إِلَّا لِتُبَيِّنَ** } صيغة القصر لقصد الإحاطة بالأهمّ من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها. فهو قصر ادعائي ليرغب السامعون في تلقيه وتدبّره من مؤمن وكافر كلّ بما يليق بحاله حتّى يستووا في الاهتداء.

ثم إن القصر يعرّض بتفنيد أقوال من حسبوا، من المشركين، أنّ القرآن أنزل لذكر القصص لتعليل الأنفس في الأسمار ونحوها حتّى قال مضلّهم: أنا آتيكم بأحسن مما جاء به محمد، آتيكم بقصة (رستم واسفنديار).

فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحقّ وحصول أثر ذينك الأمرين. وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى.

{ **الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ** } عبّر عن الضلال بطريقة الموصولية للإيماء إلى أنّ سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم. فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنما، وعبد بعضهم الشمس والكواكب، واتّخذت كل قبيلة لنفسها أعمالا يزعمونها دينا صحيحا. واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } للإيماء إلى أنّهم الذين كان الإيمان كالسجية لهم والعادة الراسخة التي تتقوم بها قوميّتهم.

وهاته الآية بمنزلة التذييل للعبر والحجج الناشئة عن وصف أحوال المخلوقات، ونعم الخالق على النّاس.

{ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [65]

عاد الكلام إلى دلائل الانفراد بالخلق مع ما أدمج فيه من التذكير بالنعم. فهذه منّة من المنن وعبرة من العبر وحجّة من الحجج المتفرّعة عن التذكير بنعم الله والاعتبار بعجيب صنعه.

{ **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } كان ذكر إنزال الماء في الآية السابقة { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ } [10] مسوقا مساق الاستدلال، وهو هنا مسوق مساق الامتنان بنعمة إحياء الأرض بعد موتها. وبناء الجملة على المسند الفعلي لإفادة التخصيص، أي الله لا غيره أنزل من السماء ماء. وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار، الذي هو مقتضى الظاهر، لقصد التنويه بالخبر إذ افتتح بهذا الاسم، ولأنّ دلالة الاسم العلم أوضح وأصرح. فهو مقتضى مقام تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم، لأنّ المشركين يقرّون بأنّ الله هو فاعل هذه الأشياء.

{ **فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** } إخراج ما فيه الحياة، وهو الكلأ والشجر. وموتها ضد ذلك، فتعدية فعل (أحيا) إلى الأرض تعدية مجازية. وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [البقرة:164].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } مستأنفة. والتأكيد ب { إِنَّ } ولام الابتداء لأنّ من لم يهتد بذلك إلى

الوحدانيّة ينكرون صلاحية ذلك للاستدلال. والإتيان باسم الإشارة دون الضمير ليكون محلّ الآية جميع المذكورات، من إنزال المطر وإحياء الأرض به.

السمع: مستعمل هنا في لازم معناه على سبيل الكناية، وهو سماع التدبّر والإنصاف لما تدبّروا به. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانيّة.

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ }[66]

هذه حجّة أخرى ومنّة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج فيها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله. ومناسبة ذكر هذه النعمة هنا أنّ بألبان الأنعام حياة الإنسان كما تحيا الأرض بماء السماء، وأنّ لآثار ماء السماء أثرا في تكوين ألبان الحيوان بالمرعى.

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } معطوفة على جملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [65]، وضمير الخطاب التفات من الغيبة. وتوكيدها بـ { إنّ } ولام الابتداء كتأكيد الجملة قبلها.

{ الْأَنْعَامِ } اسم جمع لكلّ جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

العبرة: ما يُتّعظ به ويُعتبر. وقد تقدّم في نهاية سورة يوسف.

{ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ } واقعة موقع البيان لجملة { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً }.

البطون: جمع بطن، وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كلّه من معدة وكبد وأمعاء.

{ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً } {من} زائدة لتوكيد التوسط.

الفرث: الفضلات التي تركها الهضم المعدي فتنحدر إلى الأمعاء فتصير فرثا.

الدم: إفراز تفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيكية إلى الشرايين والعروق ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب.

ووجه العبرة في ذلك أنّ ما تحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة، ثم الكبد، ثم غدد الضرع، مائعا يسقى وهو مفرز من بين إفراز فرث ودم.

والمعنى: أنّه إفراز ليس هو بدم لأنّه ألين من الدم، ولأنّه غير باق في عروق الضرع كبقاء الدم في العروق، فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه، وليس هو بالفضلة لأنّه إفراز طاهر نافع مغذ، وليس قذرا ضارا غير صالح للتغذية كالبول والثفل. وموقع {مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ} موقع الصفة لـ { لبنا } ، قُدّمت عليه للاهتمام بها لأنها موضع العبرة، فكان لها مزيد اهتمام، وقد صارت بالتقديم حالا.

{ **خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ** }. خلوصه نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهّمه.

وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذ أن يعرف دقائق تكوينه.

الخالص: المجرّد مما يكدّر صفاءه، فهو الصافي. و**السائغ**: السهل المرور في الحلق.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب { نَسْقِيكُمْ } (بفتح النون) مضارع سقى. وقراه ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف (بضم النون) على أنّه مضارع أسقى، وهما لغتان وقرأه أبو جعفر بمثناة فوقية مفتوحة عوضا عن النون على أنّ الضمير للأنعام.

{ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [67]

{ **وَمِنْ** } وجودها في صدر الكلام يدلّ على تقدير الفعل الذي في الجملة التي قبلها { نُسْقِيكُمْ } [66].

فالتقدير: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب. وليس متعلقا بـ { تَتَّخِذُونَ }، لأنّه يبعد المعنى عن الامتنان بلطف الله تعالى إذ جعل نفسه الساقي للنّاس. وهذا عطف منّه على منة، لأنّ مفاد فعل { نُسْقِيكُمْ } مفاد الامتنان لأنّ السقي مزيّة.

السَكَر (بفتحتين): الشراب المسكر. وهذا امتنان بما فيه لذّتهم المرغوبة لديهم والمتفشيّة فيهم، وذلك قبل تحريم الخمر لأنّ هذه الآية مكية وتحريم الخمر نزل بالمدينة فالامتنان حينئذ بمباح.

الرزق: الطعام، ووصف بـ { **حسنا** } لما فيه من المنافع، وذلك التمر والعنب.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } جعل التذييل عقب ذكر السقيين دون أن يذيّل سقي الألبان بكونه آية. والإشارة إلى جميع ما ذكر من نعمة سقي الألبان وسقي السكر وطعم الثمر. واختير وصف العقل هنا لأنّ دلالة تكوين ألبان الأنعام على حكمة الله تعالى يحتاج إلى تدبّر فيما وصفته الآية هنا، وليس هو ببديهي كدلالة المطر كما تقدم.

{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ [68] ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [69].

عطف عبرة على عبرة ومنّة على منّة. وغيّر أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شرابا، وكان ما في بطون النحل وسطا بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإنّ النحل يمتصّ ما في الثمرات والأنوار من المواد السكريّة ثم يخرجه عسلا كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى.

{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } افتتحت الجملة بفعلَ دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة { والله أنزل } [65]، لما في { أَوْحَى } من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرا عجيبا وعملا متقنا وهندسة في الجبلّة. فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلا على عظيم حكمة الله تعالى، فضلا على ما بعده من دلالة على قدرته.

الوحي: الكلام الخفي والإشارة الدالة على معنى كلامي. ومنه سمّي ما يلقيه الملك إلى الرّسول وحيا لأنّه خفي عن أسماع الناس.

وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفيّ الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظّم مرتّب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها، تشبيها بعمل المتعلّم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر، فإطلاق الوحي استعارة تمثيليّة.

{ النَّحْلِ } اسم جنس جمعي، واحده نحلة، وهو ذباب له جرم بقدر ضعفي جرم الذباب المتعارف، وأربعة أجنحة، ولون بطنه أسمر إلى الحمرة. وهو ثلاثة أصناف ذكر وأنثى وخنثى، فالذكور هي التي تحرس بيوتها ولذلك تكون محوّمة بالطيران والدوي أمام البيت وهي تلقح الإناث لقاحا به تلد الإناث إناثا.

والإناث هي المسماة اليعاسيب، وهي أضخم جرما من الذكور. ولا تكون التي تلد في البيوت إلّا أنثى واحدة، وهي قد تلد بدون لقاح ذكر، ولكنّها في هذه الحالة لا تلد إلّا ذكورا فليس في أفراخها فائدة لإنتاج الوالدات.

وأما الخنثى فهي التي تفرز العسل، وهي العواسل، وهي أصغر جرما من الذكور وهي معظم سكان بيت النحل.

{ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } أوّل مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل، فإنّها تبني بيوتا بنظام دقيق، ثم تقسّم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدّسة الأضلاع بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات، لأنّ خصائص الأشكال المسدسة إذا ضمّ بعضها إلى بعض أن

تتصل فتصير كقطعة واحدة، ثم تغشي على سطوح المسدّسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنيّة متميّعة أقرب إلى الجمود، تتكوّن في كيس دقيق جدّا تحت بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدّس المسمّى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها.

ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفى في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها.

وأشير إلى أنّها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى. وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة.

{ **مِنَ الْجِبَالِ** } وما عطف عليها بمعنى (في)، لأنّ النحل تبني لنفسها بيوتا ولا تجعل بيوتها جحور الجبال ولا أغصان الشجر ولا أعواد العريش، وليست مثل (من) التي في قوله {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً} [81].

{ **يَعْرِشُونَ** } أي ما يجعلونه عروشا، جمع عريش، وهو مجلس مرتفع على الأرض في الحائط أو الحقل يتخذ من أعواد ويسقّف أعلاه بورق ونحوه ليكون له ظل فيجلس فيه صاحبه مشرفا على ما حوله.

يقال: عرش، إذا بنى ورفع، ومنه سمّي السرير الذي يرتفع عن الأرض ليجلس عليه العظماء عرشا. وتقدم عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ } [الأنعام:141]، وقوله تعالى { وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } [الأعراف 137]. وقرأ جمهور القراء بكسر راء {يعرِشون}. وقرأه ابن عامر بضمها.

{ **ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } (ثمّ) للترتيب الرتبي، لأنّ إلهام النحل للأكل من الثمرات يترتّب عليه تكوّن العسل في بطونها، وذلك أعلى رتبة من أتخاذها البيوت لاختصاصها بالعسل دون غيرها من الحشرات التي تبني البيوت، ولأنّه أعظم فائدة للإنسان، ولأنّ منه قوّتها الذي به بقاؤها. وسمّي امتصاصها أكلا لأنّها تقتاته فليس هو بشرب.

{ **الثَّمَرَاتِ** } جمع ثمرة. وأصل الثمرة ما تخرجه الشجرة من غلة. مثل التمر والعنب، والنحل يمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فأطلق في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الأوْل.

{ **فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً** }عطفت بفاء التفريع للإشارة إلى أنّ الله أودع في طبع النحل عند الرعي التنقل من زهرة إلى زهرة ومن روضة إلى روضة، وإذا لم تجد زهرة أبعدت الانتجاع ثم إذا شبعت قصدت المبادرة بالطيران لترجع إلى بيوتها فتقذف من بطونها العسل الذي يفضل عن قوتها، فذلك السلوك مفرّع على طبيعة أكلها.

والعسل حين القذف به في خلايا الشهد يكون مائعا رقيقا، ثم يأخذ في جفاف ما فيه من رطوبة مياه الأزهار بسبب حرارة الشمع المركّب منه الشهد وحرارة بيت النحل حتّى يصير خاثرا، ويكون أبيض في الربيع وأسمر في الصيف.

السلوك: المرور وسط الشيء من طريق ونحوه. وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ }

[الحجر:12]. ويستعمل في الأكثر متعدّيا كما في آية الحجر بمعنى أسلكه، وقاصرا بمعنى مرّ كما هنا، لأنّ السبل لا تصلح لأنّ تكون مفعول (سلك) المتعدي، فانتصاب {سبل} هنا على نزع الخافض توسّعا.

{ **سُبُلَ رَبِّكِ** } وإضافة السبل إلى { ربّك } للإشارة إلى أنّ النّحل مسخّرة لسلوك تلك السبل.

{ **ذُلُلاً** } جمع ذلول، أي مذلّلة مسخّرة لذلك السلوك. وتقدّم عند قوله تعالى{ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ} [البقرة :71].

{ **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ ما تقدّم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب، فيكون مضمون الجملة بيانا لما سأل عنه. وهو أيضا موضع المنّة كما كان تمام العبرة.

وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدّد الخروج وتكرره.

{ **شَرَابٌ** } وعبّر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به، وهو محلّ المنّة، وليرتّب عليه جملة { فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ }. وسمي شرابا لأنه مائع يشرب شربا ولا يمضغ.

{ **مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ** } لأنّ له مدخلا في العبرة، كقوله تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ } [الرعد:4]، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة. وفي العسل منافع كثيرة مبيّنة في علم الطب.

{ **فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** } وجعل الشفاء مظروفا في العسل على وجه الظرفية المجازية. وإيماء إلى أنّه لا يقتضي أن يطّرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل، كما في حديث : " صدق الله وكذب بطن أخيك".

وتنكير { شِفَاءٌ } في سياق الإثبات لا يقتضي العموم، فلا يقتضي أنّه شفاء من كل داء.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } مثل الجملتين المماثلتين لها. وهو تكرير لتعداد الاستدلال، واختير وصف التفكّر هنا لأنّ الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق، ونظر عميق.

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [70]

انتقال من الاستدلال بدقائق صنع الله على وحدانيّته إلى الاستدلال بتصرّفه في الخلق، التصرّف الغالب لهم الذي لا يستطيعون دفعه، على انفراده بربوبيتهم وعلى عظيم قدرته. كما دلّ عليه تذييلها بجملة { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }. فهو خلقهم بدون اختيار منهم ثم يتوفّاهم كرها عليهم أو يردّهم إلى حالة يكرهونها فلا يستطيعون ردا لذلك ولا خلاصا منه، وبذلك يتحقّق معنى العبوديّة بأوضح مظهر.

{ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ** } ابتدئت الجملة باسم الجلالة للغرض الذي شرحناه عند قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً} [65]. وأما إعادة اسم الجلالة هنا دون الإضمار فلان مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المستدَل (بفتح الدال) على إثبات صفاته تصريحا واضحا.

وجيء بالمسند فعليا لإفادة تخصيص المسند إليه بالمسند الفعلي في الإثبات. وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً }. فهذه عبرة وهي أيضا منّة، لأنّ الخلق، وهو الإيجاد، نعمة، لشرف الوجود والإنسانيّة، وفي التوفّي أيضا نعم على المتوفى، لأنّ به تندفع آلم الهرم.

الأرذل: تفضيل في الرذالة، وهي الرداءة في صفات الاستياء.

{ **الْعُمُرِ** } مدة البقاء في الحياة، لأنّه مشتقّ من العَمْر، وهو شغل المكان، { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } [الروم:9]، فإضافة { أَرْذَلِ } إلى { الْعُمُرِ } هي من إضافة الصفة إلى الموصوف على طريقة المجاز العقلي، لأنّ الموصوف بالأرذل حقيقة هو حال الإنسان في عمره لا نفس العمر.

والهرم لا ينضبط حصوله بعدد من السنين، لأنّه يختلف باختلاف الأبدان والبلدان والصحّة والاعتلال على تفاوت الأمزجة المعتدلة، وهذه الرذالة رذالة في الصحّة لا تعلق لها بحالة النفس، فهي مما يعرض للمسلم والكافر فتسمّى أرذل العمر فيهما، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من أن يردّ إلى أرذل العمر.

{ **لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً** } ولام التعليل الداخلة على (كي) المصدرية مستعملة في معنى الصيرورة والعاقبة تشبيها للصيرورة بالعلّة، استعارة تشير إلى أنّه لا غاية للمرء في ذلك التعمير، تعريضا بالنّاس، إذ يرغبون في طول الحياة، وتنبيها على وجوب الإقصار من تلك الرغبة.

واستعارة حرف العلّة إلى معنى العاقبة مستعملة في الكلام البليغ في مقام التوبيخ أو التخطئة أو نحو ذلك.

وقد تقدّم القول قريبا في ذلك عند قوله تعالى { إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ } [55].

والمعنى: لكيلا يعلم شيئا بعد أن كان له علم، أي ليزول منه قبول العلم.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** } تذييل تنبيها على أنّ المقصود من الجملة الدلالة على عظم قدرة الله وعظم علمه. وقدّم وصف العليم لأنّ القدرة تتعلّق على وفق العلم، وبمقدار سعة العلم يكون عظم القدرة.

{ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }[71]

هذا من الاستدلال على أنّ التصرّف القاهر لله تعالى. وذلك أنّه أعقب الاستدلال بالإحياء والإماتة وما بينهما من هرم، بالاستدلال بالرزق. ولما كان الرزق حاصلا لكل موجود بني الاستدلال على التفاوت فيه.

ووجه الاستدلال به على التصرّف القاهر أنّ الرزق حاصل لجميع الخلق وأن تفاضل النّاس فيه غير جار

على رغباتهم ولا على استحقاقهم، فقد تجد أكيس النّاس وأجودهم عقلا وفهما مقترا عليه في الرزق، وبضدّه ترى أجهل النّاس وأقلّهم تدبيرا موسعا عليه في الرزق، وكلا الرجلين قد حصل به ما حصل قهرا عليه.
وذلك لأنّ الأسباب كثيرة متوالدة ومتسلسلة ومتوغّلة في الخفاء حتّى يظنّ أن أسباب الأمرين مفقودة وما هي بمفقودة ولكنها غير محاط بها. ولذلك أسند التفضيل في الرزق إلى الله تعالى لأنّ أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر، والحكيم لا يستفزّه ذلك. وتفيد وراء الاستدلال معنى الامتنان لاقتضائها حصول الرزق للجميع.
{ **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** } مقدّمة للدليل ومنّة من الممن، لأنّ التفضيل في الرزق يقتضي الإنعام بأصل الرزق. وليست الجملة مناط الاستدلال. إنما الاستدلال في التمثيل من قوله تعالى { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ }. والقول في جعل المسند إليه اسم الجلالة وبناء المسند الفعلي عليه كالقول في قوله تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ }. والمعنى: الله لا غيره رزقكم جميعا وفضل بعضكم على بعض في الرزق ولا يسعكم إلّا الإقرار بذلك له.
{ **فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } إدماج جاء على وجه التمثيل لتبيان ضلال أهل الشرك حين سوّوا بعض المخلوقات بالخالق فأشركوها في الإلهيّة فسادا في تفكيرهم. فمثّل بطلأنّ عقيدة الإشراك بالله ببعض مخلوقاته، بحالة أهل النعمة المرزوقين، لأنّهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم، فكيف يسوّون بالله عبيده في صفته العظمى وهي الإلهية.
والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف، وقرينة التمثيل والمقصد منه دلالة المقام.
الرّاد: المُعطي. كما في قول النبيء ﷺ: "والخُمُس مردود عليكم"، أي فما هم بمعطين رزقهم لعبيدهم إعطاء مشاطرة بحيث يسوّونهم بهم.
{ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** } وإسناد الملك إلى اليمين مجاز عقلي، لأنّ اليمين سبب وهمي للملك، لأنّ سبب الملك إمّا أسر وهو أثر للقتال بالسيف الذي تمسكه اليد اليمنى، وإمّا شراء ودفع الثمن يكون باليد اليمنى عرفا، فهي سبب وهمي ناشئ عن العادة.
{ **فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } أي لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه.
{ **أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** } صالحة لأنّ تكون مفرّعة على جملة { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } باعتبار ما تضمنته من الامتنان، أي تفضل الله عليكم جميعا بالرزق أفبنعمة الله تجحدون، استفهاما مستعملا في التوبيخ، بحيث أشركوا مع الذي أنعم عليهم آلهة لا حظّ لها في الإنعام عليهم. وذلك جحود النعمة كقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} [العنكبوت:17]. وعلى هذا الوجه يكون في { يَجْحَدُونَ } على قراءة الجمهور بالتحتية التفات من الخطاب إلى الغيبة. ونكتته

أنّهم لمّا كان المقصود من الاستدلال، المشركين فكانوا موضع التوبيخ، ناسب أن يعرض عن خطابهم وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض.

وقرأ أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب {تَجْحَدُونَ} بالمثناة الفوقية على مقتضى الظاهر ويكون الاستفهام مستعملا في التحذير.

وتصلح جملة { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } أن تكون مفرّعة على جملة { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ } ، فيكون التوبيخ متوجها إلى فريق من المشركين وهم الذين فضِّلوا بالرزق وهم أولو السعة منهم وسادتهم وقد كانوا أشدّ كفرا بالدين وتألّبا على للمسلمين، أي أيجحد الذين فضلوا بنعمة الله إذ أفاض عليهم النعمة فيكونوا أشد إشراكا به، كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى { يَجْحَدُونَ } في قراءة الجمهور بالتحتية جاريا على مقتضى الظاهر.

وفي قراءة أبي بكر عن عاصم بالمثناة الفوقية التفاتا من الغيبة إلى خطابهم إقبالًا عليهم بالخطاب لإدخال الروع في نفوسهم.

وقد عدي فعل { يَجْحَدُونَ } بالباء لتضمّنه معنى يكفرون.

وتقديم { بِنِعْمَةِ } على متعلقه وهو { يَجْحَدُونَ } للرعاية على الفاصلة.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } [72]

استدلال ببديع الصنع في خلق النسل إذ جعله مقارنا للتّأنّس بين الزوجين. وجعل النسل معروفا متّصلا بأصوله بما ألهم الإنسان من داعية حفظ النسب، فهي من الآيات على انفراده تعالى بالوحدانيّة كما قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم:21]. فجعلها آية تنطوي على آيات، ويتضمّن ذلك الصنع نعما كثيرة.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ } القول فيها كالقول في نظيرتيها المتقدمتين.

{ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } من نوعكم، كقوله تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]. والخطاب بضمير الجماعة المخاطبين موجّه إلى النّاس كلّهم، وغُلّب ضمير التذكير.

الأزواج: جمع زوج، وهو الشيء الذي يصير مع شيء آخر أثنين، فلذا وصف بزوجٍ المرادف لثانٍ. وقد مضى الكلام عليه في قوله تعالى {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة:35]. والوصف بالزوج يؤذن بملازمته لآخر، فلذا سمي بالزوج قرين المرأة وقرينة الرجل.

{ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً** } وجعْل البنين للإنسان نعمة، وجعل كونهم من زوجة نعمة أخرى، لأنّ بها تحقّق كونهم أبناءه، ووجود المشارك له في القيام بتدبير أمرهم في حالة ضعفهم.

الحفدة: جمع حافد، مثل كَمَلة جمع كامل. والحافد أصله المسرع في الخدمة. وأطلق على ابن الابن لأنّه يكثر أن يخدم جدّه لضعف الجدّ بسبب الكبر، فأنعم الله على الإنسان بحفظ سلسلة نسبه بسبب ضبط الحلقة الأولى منها، وهي كون أبنائه من زوجه ثم كون أبناء أبنائه من أزواجهم، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النظام المحكم البديع. وغير الإنسان من الحيوان لا يشعر بحفدته أصلا ولا يشعر بالبنوّة إلّا أنثى الحيوان مدّة قليلة قريبة من الإرضاع. والحفدة للإنسان زيادة في مسرة العائلة، قال تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود:71].

{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } معطوفة على جملة {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} وما بعدها، لمناسبة ما في الجمل المعطوف عليها من تضمّن المنّة بنعمة أفراد العائلة، فإنّ مكمّلاتها سعة الرزق، كما قال تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ }[آل عمران:15].

ثم الرزق يجوز أن يكون مرادا منه المال كما في قوله تعالى في قصة قارون { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } [القصص:82]. وهذا هو الظاهر وهو الموافق لما في الآية المذكورة آنفا.

{ **الطَّيِّبَاتِ** }: صفة لموصوف محذوف دلّ عليه فعل رزقكم، أي الأرزاق الطيّبات. و**الطيّب**: فيعل صفة مبالغة في الوصف بالطيب. والطيب: أصله النزاهة وحسن الرائحة، ثم استعمل في الملائم الخالص من النكد، قال تعالى { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل:97]. واستعمل في الصالح من نوعه كقوله تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ }، [الأعراف:58].

فالطيبات هنا الأرزاق الواسعة المحبوبة ، أو المطعومات والمشروبات اللذيذة الصالحة. وقد تقدّم ذكر الطيبات عند قوله تعالى { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } [المائدة:5]، وذكر الطيب في قوله تعالى { كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً } [البقرة:168].

{ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ** } استفهام توبيخ على إيمانهم بالباطل البيّن.

الباطل: ضدّ الحقّ لأنّ ما لا يحقّ لا يعبد بحقّ. وتقديم المجرور على متعلّقه للاهتمام بالتعريف بباطلهم.

والالتفات عن الخطاب السابق إلى الغيبيّة في قوله تعالى { أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ } يجري الكلام فيه على نحو ما تقدّم في قوله تعالى { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }.

{ **وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** } مقصد التوبيخ جليّ، وتقديم المجرور للاهتمام، وضميرالفصل { هُمْ يَكْفُرُونَ } لتأكيد الحكم بكفرانهم النعمة، لأنّ كفران النعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأنّ الكفران يتعلق بحالات القلب،

فاجتمع في الجملة تأكيدان: التأكيد الذي أفاده التقديم، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل.
{ **يؤمنون – يَكْفُرُونَ** } الإتيان بالمضارع للدلالة على التجدّد والتكرير. وفي الجمع محسن بديع الطباق.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ}[73]

مزيد من التوبيخ، فإنّ الجملتين المعطوف عليها أفادتها توبيخا على إيمانهم بالآلهة الباطل وكفرانهم بنعمة المعبود الحقّ. وهذه الجملة المعطوفة أفادت التوبيخ على شكر ما لا يستحق الشكر، فإن العبادة شكر، فهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ولا بيده نعمة. فمفاد هذه الجملة مؤكد لمفاد ما قبلها مع اختلاف الاعتبار بموجب التوبيخ في كلتيهما.
{ **مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً** } عدم القدرة على إعطائه. والملك يطلق على القدرة، كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [المائدة:17].
الرزق: هنا مصدر منصوب على المفعولية، أي لا يملك أن يرزق.
{ **مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ السماوات** } {مِنَ} ابتدائية، أي رزقا موصوفا بوروده من السماوات والأرض.
{ **شَيْئاً** } مبالغة في المنفي، أي ولا يملكون جزاء قليلا من الرزق.فهو في معنى المفعول به، كأنه قيل: لا يملك لهم شيئا من الرزق.
{ **وَلا يَسْتَطِيعُونَ** } ضمير الجمع عائد إلى { **مَا لا يَمْلِكُ** } الموصولة باعتبار دلالتها جماعة الأصنام المعبودة لهم. وأجريت عليها صيغة جمع العقلاء مجاراة لاعتقادهم أنّها تعقل وتشفع وتستجب.
وحذف مفعول { يَسْتَطِيعُونَ } لقصد التعميم، أي لا يستطيعون شيئا لأنّ تلك الأصنام حجارة لا تقدر على شيء. والاستطاعة: القدرة.

{ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون } [74]

تفريع على جميع ما سبق من الآيات والعبر والمنن، إذ قد استقام من جميعها انفراد الله تعالى بالإلهيّة، ونفي الشريك فيما خلق وأنعم، وبالأولى نفي أن يكون له ولد وأن يشبّه بالحوادث، فلا جرم استتب للمقام أن يفرّع على ذلك زجر المشركين عن تمثيلهم غير الله بالله في شيء من ذلك، وأن يمثّلوه بالموجودات.
{ **الْأَمْثَالَ** } هنا جمع مَثل (بفتحتين) بمعنى المماثل، كقولهم: شَبَه بمعنى مشابه. وضرب الأمثال شاع استعماله في تشبيه حالة بحالة وهيئة بهيئة، وهو هنا استعمال آخر.
{ **فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ** } ووجه كون الإشراك ضرب مثل لله أنّهم أثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبهوها

بالخالق. وقد كانوا يقولون عن الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والملائكة هنّ بنات الله من سروات الجنّ، فذلك ضرب مثل وتشبيه لله بالحوادث في التأثر بشفاعة الأكفاء والأعيان والاحتياج للبنين.
{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } تعليل للنهي عن تشبيه الله تعالى بالحوادث، وتنبيه على أنّ جهلهم هو الذي أوقعهم في تلك السخافات من العقائد، وأنّ الله إذ نهاهم وزجرهم عن أن يشبِّهوه بما شبَّهوه إنّما نهاهم لعلمه ببطلان اعتقادهم.
{ **وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون** } استدعاء لإعمال النظر الصحيح ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام.

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [75].
أعقب زجرهم عن أن يشبّهوا الله بخلقه أو أن يشبّهوا الخلق بربّهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثّل عبدا بسيّده في الإنفاق. فشبّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على التصرّف في نفسه ولا يملك مالا، وشبّه شأن الله تعالى في رزقه إيّاهم بحال الغنيّ المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره.
والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين، فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية، ولذلك أعقب بجملة { هَلْ يَسْتَوُونَ }.
العبد: الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشراء أو بالإرث.
{ **مَمْلُوكا** } وصف للعبد، تأكيدا للمعنى المقصود وإشعارا لما في لفظ عبد من معنى المملوكيّة المقتضية أنّه لا يتصرّف في عمله تصرف الحريّة.
{ **لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ** } صفة، أي عاجزا عن كلّ ما يقدر عليه النّاس. فهذا مثل لأصنامهم، كما قال تعالى {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ } [النحل:21- 20]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً } [العنكبوت:17].
{ **وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً** } {مِنْ} موصولة ما صدْقها **حُرٌّ**، بقرينة أنّه وقع في مقابلة عبد مملوك، وأنّه وصف بالرزق الحسن، فهو ينفق منه سرّا وجهرا، أي كيف شاء. وهذا من تصرّفات الأحرار. لأنّ العبيد لا يملكون رزقا في عرف العرب.
الرزق: هنا اسم للشيء المرزوق به.
الحسن: الذي لا يشوبه قبح في نوعه، مثل قلّة وجدان وقت الحاجة.
{ **فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ** } مفرّعة على التي قبلها دون أن تجعل صفة للرزق، للدلالة على أنّ مضمون كلتا الجملتين

مقصود لذاته كمال في موصوفه، فكونه صاحب رزق حسن كمال، وكونه يتصرف في رزقه بالإعطاء كمال آخر، وكلاهما بضد نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء.

وجعْل المسند فعلا للدلالة على التقوّي، أي ينفق إنفاقا ثابتا. وجعْل الفعل مضارعا للدلالة على التجدّد والتكرّر، أي ينفق ويزيد.

{ **سِرّاً وَجَهْراً** } حالان من ضمير { يُنْفِقُ }، وهما مصدران مؤوّلان بالصفة، أي مسرّا وجاهرا بإنفاقه. والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق، كناية عن استقلال التصرّف. وهذا مثل لغنى الله تعالى وجوده.

{ **هَلْ يَسْتَوُونَ** } بيان لجملة { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً} فبيّن غرض التشبيه بأنّ المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين. والاستفهام مستعمل في الإنكار. وجاءت صيغة الجمع لمراعاة أصحاب الهيئة المشبّهة، لأنّها أصنام كثيرة كل واحد منها مشبّه بعبد مملوك لا يقدر على شيء، فصيغة الجمع هنا تجريد للتمثيليّة، أي هل يستوي أولئك مع الإله الحقّ القادر المتصرّف. وإنّما أجري ضمير جمعهم على صيغة جمع العالم تغليبا لجانب أحد التمثيلين وهو جانب الإله القادر.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } معترضة بين الاستفهام المفيد للنفي وبين الإضراب بـ { بَلْ } الانتقالية. والمقصود من هذه الجملة أنّه تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام، فوجب أن يختصّ بالشكر.

ولما كان الحمد مظهرا من مظاهر الشكر في مظهر النطق جُعل كناية عن الشكر هنا، إذ كان الكلام على إخلال المشركين بواجب الشكر إذ أثنوا على الأصنام وتركوا الثناء على الله، جيء بهذه الجملة البليغة الدلالة المفيدة انحصار الحمد في ملك الله تعالى، وهو إمّا حصر ادعائي لأنّ الحمد إنّما يكون على نعمة، وغير الله إذا أنعم فإنّما إنعامه مظهر لنعمة الله تعالى التي جرت على يديه، كما تقدّم في صدر سورة الفاتحة، وإمّا قصر إضافي قصرَ إفراد، للردّ على المشركين إذ قسّموا حمدهم بين الله وبين آلهتهم.

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } إضراب للانتقال من الاستدلال عليهم إلى تجهيلهم في عقيدتهم.

وأسند نفي العلم إلى أكثرهم لأنّ منهم من يعلم الحقّ ويكابر استبقاء للسيادة واستجلابا لطاعة دهمائهم، فهذا ذم لأكثرهم بالصراحة، وهو ذم لأقلّهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض. وهذا نظير قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ }[الزمر [29].

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[76]

هذا تمثيل ثان للحالتين بحالتين باختلاف وجه الشبه. الأولى، حال الأبكم، وهو العجز عن الإدراك، وعن العمل، وتعذّر الفائدة منه في سائر أحواله. والثانية، حال الرجل كامل العقل والنطق في إدراكه الخير وهديه إليه.

وهذا التمثيل ضربه الله مثلا لكماله وإرشاده النّاس إلى الحق، ومثلا للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضرّ.

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز، إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية، تفنّنا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً } [75]. ومثل هذا التفنّن من مقاصد البلغاء كراهية للتكرير، لأنّ تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ.

الأبكم: الموصوف بالبَكَم (بفتح الباء والكاف) وهو الخرس في أصل الخلقة من وقت الولادة بحيث لا يَفهَم ولا يُفهِم. وزيد في وصفه أنّه زمِنٌ لا يقدر على شيء. وتقدّم عند قوله تعالى {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [البقرة:18].

الكَلّ: (بفتح الكاف) العالة على النّاس. وفي الحديث: " من ترك كلّا فعلينا "، أي من ترك عيالا فنحن نكلفهم. وأصل الكلّ: الثّقَل. ونشأت عنه معان مجازيّة اشتهرت فساوت الحقيقة.

المولى: الذي يلي أمر غيره. والمعنى: هو عالة على كافله لا يدبّر أمر نفسه.

{ **أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ** } زاد فوصفه بقلّة الجدوى، أي لا يهتدي إلى ما وجّه إليه.

{ **يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** } دلّت الصلة على أنّه حكيم عالم بالحقائق ناصح للنّاس يأمرهم بالعدل، لأنّه لا يأمر بذلك إلّا وقد علمه وتبصّر فيه. **والعدل**: الحقّ والصواب الموافق للواقع.

الصراط المستقيم: المحجّة التي لا التواء فيها. وأطلق هنا على العمل الصالح، لأنّ العمل يشبه بالسيرة والسلوك فإذا كان صالحا كان كالسلوك في طريق موصِلة للمقصود واضحة.

فالأول مثل الأصنام الجامدة التي لا تفقه وهي محتاجة إلى من يحرسها وينفض عنها الغبار والوسخ، والثاني مثل لكماله تعالى في ذاته وإفاضته الخير على عباده.

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[77]

كان ممّا حكي من مقالات كفرهم أنّهم أقسموا بالله لا يبعث الله من يموت، لأنّهم توهّموا أنّ إفناء هذا العالم العظيم وإحياء العظام وهي رميم أمر مستحيل، وأبطل الله ذلك على الفور بأنّ الله قادر على كل ما يريده.

ثم انتقل الكلام عقب ذلك إلى بسط الدلائل على الوحدانيّة والقدرة، وتسلسل البيان وتفنّنت الأغراض بالمناسبات، فكان من ذلك تهديدهم بأنّ الله لو يؤاخذ النّاس بظلمهم ما ترك على الأرض من دابة، ولكنّه يمهلهم ويؤخّرهم إلى أجل عيّنه في علمه لحكمته، وحذرهم من مفاجأته، فثنّى عِنان الكلام إلى الاعتراض بالتذكير بأنّ الله لا يخرج من قدرته أعظم فعل مما غاب عن إدراكهم، وأنّ أمر الساعة التي أنكروا إمكانها وغرّهم تأخير حلولها هي ممّا لا يخرج عن تصرّف الله ومشيئته متى شاءه. فذلك قوله تعالى { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }. بحيث لم يغادر شيئا مما حكي عنهم من كفرهم وجدالهم إلّا وقد بيّنه لهم استقصاء للأعذار لهم. ومن مقتضيات تأخير هذا أنّه يشتمل بصريحه على تعليم، وبإيمائه إلى تهديد وتحذير.

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } اللام لام الملك. وتقديم المجرور أفاد الحصر، أي له لا لغيره. ولام الملك أفادت الحصر، فيكون التقديم مفيدا تأكيد الحصر أو هو للاهتمام.

الغيب: مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي الأشياء الغائبة. وتقدّم في قوله { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3]. وهو الغائب عن أعين النّاس من الأشياء الخفيّة والعوالم التي لا تصل إلى مشاهدتها حواس المخلوقات الأرضيّة. والإخبار بأنّها ملك لله يقتضي بطريق الكناية أيضا أنّه عالم بها.

{ أَمْرُ السَّاعَةِ } شأنها العظيم. فالأمر: الشأن المهمّ، كما في قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [1].

السَّاعَةِ: عَلم بالغلبة على وقت فناء العالم، وهي من جملة غيب الأرض.

لمح البصر: اللمح هو النظر. ووجه الشبه هو كونه مقدورا بدون كلفة، لأنّ لمح البصر هو أمكن وأسرع حركات الجوارح فهو أيسر وأسرع من نقل الأرجل في المشي ومن الإشارة باليد.

ويجوز أن يكون وجه الشبه السرعة، أي سرعة الحصول عند إرادة الله، أي يحصل فجأة بدون أمارات كقوله تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } [الأعراف:187].

والمقصود: إنذارهم وتحذيرهم من أن تبغتهم الساعة ليقلعوا عمّا هم فيه من وقت الإنذار.

{ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ }، {أَوْ} للإضراب الانتقالي، إضرابا عن التشبيه الأوّل، بأنّ المشبّه أقوى في وجه الشبه من المشبّه به.

وهو كناية عن كونه في المقدورية بمنزلة الشيء القريب التناول كقوله تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [قّ:16].

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل صالح لكلا التفسيرين؛ القدرة والسرعة.

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [78]

عود إلى إكثار الدلائل على انفراد الله بالتصرّف، وإلى تعداد النعم على البشر عطفا على جملة { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} [72] بعدما فصل بين تعداد النعم بما اقتضاه الحال من التذكير والإنذار.

وقد اعتبر في هذه النّعم ما فيها من لطف الله تعالى بالنّاس ليكون من ذلك التخلّص إلى الدعوة إلى الإسلام وبيان أصول دعوته في قوله تعالى { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } [81] إلى آخره.

والمعنى: أنّه كما أخرجكم من عدم وجعل فيكم الإدراك وما يتوقّف عليه الإدراك من الحياة فكذلك ينشئكم يوم البعث بعد العدم.

وإذ كان هذا الصنع دليلا على إمكان البعث فهو أيضا باعث على شكر الله بتوحيده ونبذ الإشراك، فإنّ الإنعام يبعث العاقل على الشكر.

{ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ** } وافتتاح الكلام باسم الجلالة وجعل الخبر عنه فعلا تقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } [65].

الإخراج: الإبراز من مكان إلى آخر.

الأمّهات: جمع أمّ. وقد تقدّم عند قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } [النساء:23].

{ **لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً** } حال من الضمير في { أَخْرَجَكُمْ }. وذلك أنّ الطفل حين يولد لم يكن له علم بشيء ثم تأخذ حواسه تنقل الأشياء تدريجا، فجعل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكّر.

{ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** } أي أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل، أي كونها في النّاس حتّى بلغت مبلغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة.

{ **السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ** } أفرد { السَّمْعَ } لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا {الْأَبْصَارَ} فجي به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه، بخلاف قوله { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: 36]، لأنّ المراد الواحد لكلّ مخاطب بقوله { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ} [الإسراء: 36].
{ **الْأَفْئِدَةَ** } جمع الفؤاد، وأصله القلب. ويطلق كثيرا على العقل وهو المراد هنا. فالسمع والبصر أعظم آلات الإدراك إذ بهما إدراك أهم الجزئيّات، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضروريّة.
واقتصر عليهما من بين الحواس لأنهما أهم، ولأنّ بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحق. ثم ذكر بعدهما الأفئدة، أي العقل مقرّ الإدراك كلّه، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصوّرات المفردة.
وللعقل إدراك آخر وهو إدراك اقتران أحد المعلومين بالآخر، وهو التصديقات المنقسمة إلى:
البديهيّات: ككون نفي الشيء وإثباته من سائر الوجوه لا يجتمعان، وككون الكلّ أعظم من الجزء.
النظريات: وتسمّى الكسبيّات، وهي العلم بانتساب أحد المعلومين إلى الآخر بعد حركة العقل في الجمع بينهما أو التفريق. فالعلوم الكسبية لا يمكن اكتسابها إلّا بواسطة العلوم البديهيّة. وحصول هذه العلوم البديهية إنّما يحصل عند حدوث تصوّر موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدوث هذه التصورات إنّما هو بسبب إعانة الحواس على جزئيّاتها، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم، وكان السمع والبصر أوّل الحواس تحصيلا للتصورات وأهمّها.
{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } لأنّ هذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، أي هي سبب لرجاء شكرهم واهبها سبحانه.

{ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [79]

موقع هذه الجملة موقع التعليل والتدليل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وعلى لطفه بالمخلوقات، فإنّه لمّا ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار نبّه النّاس إلى لطف يشاهدونه أجلّى مشاهدة لأضعف الحيوان، بأنّ تسخير الجوّ للطير وخلقها صالحة لأنّ ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنياتها، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها.
فلأجل هذا الموقع لم تعطف الجملة على التي قبلها لأنّها ليس في مضمونها نعمة على البشر، ولكنّها آية على قدرة الله تعالى وعلمه، بخلاف نظيرتها { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ }[الملك:19] فإنّها عطفت على آيات دالة على قدرة. ولذلك المعنى عقّبت هذه وحدها بجملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.
{ **أَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري. معناه: إنكار انتفاء رؤيتهم الطير مسخرات في الجو بتنزيل رؤيتهم إيّاها منزلة عدم الرؤية، لانعدام فائدة الرؤية من إدراك ما يدلّ عليه المرئي من انفراد الله تعالى بالإلهية.

الرؤية: بصرية. وفعلها يتعدى بنفسه، فتعديته بحرف (إلى) لتضمين الفعل معنى (ينظروا).
التسخير: التذليل للعمل. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54].
الجَوّ: الفضاء الذي بين الأرض والسماء. وإضافته إلى السماء لأنّه يبدو متّصلا بالقبة الزرقاء.
الإمساك: الشدّ عن التفلّت. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:229].
وإمساك الله إيّاها خلقه الأجنحة لها والأذناب، وجعله الأجنحة والأذناب قابلة للبسط، وخلق عظامها أخف من عظام الدواب بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفت خفة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأنّ يخرق ما تحتها من الهواء إلّا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوست أعصاب أصلابها عند إرادتها النزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء. فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متى شاءت أو عييت. فلولا أنّ الله خلقها على تلك الحالة لما استمسكت، فسمي ذلك إمساكا على وجه الاستعارة.
{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، والتأكيد بـ { إِنَّ } مناسب لاستفهام الإنكار على الذين لم يروا تلك الآيات، فأكدت الجملة الدالة على انتفاع المؤمنين بتلك الدلالة، لأنّ الكلام موجّه للذين لم يهتدوا بتلك الدلالة، فهم بمنزلة من ينكر أنّ في ذلك دلالة للمؤمنين، لأنّ المشركين ينظرون بمرآة أنفسهم.
وبين الإنكار عليهم عدم رؤيتهم تسخير الطير وبين إثبات رؤية المؤمنين محسن الطباق. وبين نفي عدم رؤية المشركين وتأكيد إثبات رؤية المؤمنين لذلك محسن الطباق أيضا. وبين ضمير { يروا } وقوله { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } التضاد أيضا، فحصل الطباق ثلاث مرات. وهذا أبلغ طباق جاء محويا للبيان.
{ **لَآياتٍ** } وجمع الآيات لأنّ في الطير دلائل مختلفة: من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطير مناسبة للطيران في الهواء، وخلق الإلهام للطير بان يسبح في الجو، وبأن لا يسقط إلى الأرض إلّا بإرادته. وخصّت الآيات بالمؤمنين لأنّهم بخلُق الإيمان قد ألفوا إعمال تفكيرهم في الاستدلال على حقائق الأشياء، بخلاف أهل الكفر فإن خلُق الكفر مطبوع على النفرة من الاقتداء بالناصحين وعلى مكابرة الحق.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ }[80]

هذا من تعداد النعم التي ألهم الله إليها الإنسان، وهي نعمة الفكر بصنع المنازل الواقية والمرفّهة وما يشبهها من الثياب والأثاث عطفا على جملة { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً } [78]. وكلّها من الألطاف التي أعدّ الله لها عقل الإنسان وهيّأ له وسائلها.
وذلك أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجوّ من شدة برد أو حرّ ومن غوائل السباع والهوام. وهي أيضا

أصل الحضارة والتمدّن، لأنّ البلدان ومنازل القبائل تتقوّم من اجتماع البيوت.

{ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ** } القول في نظمها كالقول في التي قبلها.

{ **بُيُوتِكُمْ** } يجوز فيه ضم الباء وكسرها، وهو جمع بيت. وضم الباء هو القياس لأنّه على وزن فعول. وأمّا لغة الكسر فلمناسبة وقوع الياء التحتية بعدها، لأنّ الانتقال من حركة الضم إلى النطق بالياء ثقيل. وبالكسر قرأ الجمهور. وقرأها بالضم أبو عمرو وورش عن نافع و حفص عن عاصم.

وقد تقدّم ذكر البيت عند قوله تعالى { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً } [البقرة:125].

{ **جَعَلَ** } هنا بمعنى أوجد، فتتعدّى إلى مفعول واحد.

{ **مِنْ بُيُوتِكُمْ** } بيان للسكن، فتكون {مِنْ} بيانيّة.

السكن: اسم بمعنى المسكون. والسكنى: مصدر سكن فلان البيت. إذا جعله مقرا له، وهو مشتق من السكون، أي القرار. وأصل التركيب: والله جعل لكم بيوتكم سكنا.

{ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً** } وخُصّ بالذكر القباب والخيام لأنّ القباب من أدم والخيام من منسوج الأوبار والأصواف والأشعار، وهي ناشئة من الجلد، لأنّ الجلد هو الإهاب بما عليه، فإذا دبغ وأزيل منه الشعر فهو الأديم. وهذا امتنان خاص بالبيوت القابلة للانتقال والارتحال، والبشر كلّهم لا يعدون أن يكونوا أهل قرى أو قبائل رحلا.

{ **تَسْتَخِفُّونَهَا** } السين والتاء للوجدان، أي تجدونها خفيفة، أي خفيفة المخمل حين ترحلون، إذ يسهل نقضها من مواضعها وطيّها وحملها على الرواحل، وحين تنيخون إناخة الإقامة في الموضع المنتقل إليه فيسهل ضربها وتوثيقها في الأرض.

الظعن: (بفتح الظاء والعين وتسكن العين). وقد قرأه بالأول نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب، وبالثاني الباقون، وهو **السفر**. وأطلق **اليوم** هنا على الحين والزمن، أي **وقت سفركم**.

الأثاث: (بفتح الهمزة) اسم جمع للأشياء التي تفرش في البيوت من وسائد وبسط وزرابي، وكلّها تنسج أو تحشى بالأصواف والأشعار والأوبار.

المتاع: أعم من الأثاث، فيشمل الأعدال و الخطم و الرحائل و اللبود والعقل. فالمتاع: ما يُتمتّع به وينتفع، وهو مشتق من المتع، وهو الذهاب بالشيء. والمقصود الوعظ بأنّها أو أنّهم صائرون إلى زوال.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } [81]

هذا امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقّي من أضرار الحرّ والقُرّ في حالة الانتقال، أُعقبت به المنّة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقّي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقّي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال.

الظلال: تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ } [48].

الأكنان: جمع كِنّ - بكسر الكاف - وهو فعل بمعنى مفعول، أي مكنون فيه، وهي الغيران والكهوف. كانوا يأوون إلى الكهوف في شدّة حرّ الهجير أو عند اشتداد المطر، كما ورد في حديث الثلاثة الذين سألوا الله بأفضل أعمالهم في صحيح البخاري.

السرابيل: جمع سربال، وهو القميص يقي الجسد حرّ الشمس، كما يقيه البرد. وخصّ الحرّ هنا لأنّه أكثر أحوال بلاد المخاطبين في وقت نزولها.

{ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ } هي دروع الحديد. ولها من أسماء القميص الدرع، والسربال، والبدن.

البأس: الشدّة في الحرب. وإضافتة إلى الضمير على معنى التوزيع، أي تقي بعضكم بأس بعض، كما فسّر به قوله تعالى { وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } [الأنعام:65]، وقال تعالى {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} [الحديد:25]، وهو بأس السيوف، وقوله { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ } [الانبياء:80].

{ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } تذييل لما ذكر من النعم، والمشار إليه هو ما في النعم المذكورة من الإتمام.

{ لَعَلَّكُمْ } للرجاء، استعملت في معنى الرغبة، أي رغبة في أن تسلموا، أي تتبعوا دين الإسلام. وتقدّم تأويل معنى الرجاء في كلام الله تعالى من سورة البقرة.

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }[82]

تفريع على جملة { لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } وقع اعتراضا بين { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ } [81] وجملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً } [84]. وقد حوّل الخطاب عنهم إلى خطاب النبيء ﷺ، وهو نوع من الالتفات من أسلوب إلى أسلوب، والتفات عمن كان الكلام موجها إليه بتوجيه الكلام إلى شخص آخر.

والمقصود: تسلية النبيء ﷺ على عدم استجابتهم.

التولّي: الإعراض. وفعل { تَوَلَّوْا } هنا بصيغة الماضي، أي فإن أعرضوا عن الدعوة فلا تقصير منك ولا غضاضة عليك فإنك قد بلغت البلاغ المبين للمحجّة.

{ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ** } القصر إضافي، أي ما عليك إلّا البلاغ لا تقليب قلوبهم إلى الإسلام، كقوله تعالى { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد:40].

ونظير هذه قوله تعالى { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [المائدة:92].

{ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } [83]

استئناف بياني لأنّ تولّيهم عن الإسلام مع وفرة أسباب اتّباعه يثير سؤإلّا في نفس السامع: كيف خفيت عليهم دلائل الإسلام؟ فيجاب بأنّهم عرفوا نعمة الله ولكنّهم أعرضوا عنها إنكارا ومكابرة. ويجوز أن تجعلها حالا من ضمير { تَوَلَّوْا }. ويجوز أن تكون بدل اشتمال لجملة { تَوَلَّوْا }.

وهذه الوجوه كلها تقتضي عدم عطفها على ما قبلها. والمعنى: هم يعلمون نعمة الله المعدودة عليهم، فإنّهم منتفعون بها، ومع تحقّقهم أنّها نعمة من الله ينكرونها، أي ينكرون شكرها.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، ولما كانت كذلك زال عنها معنى المهلة الزمانية الموضوعة له، فبقي لها معنى التشريك، وصارت المهلة مهلة رتبية لأنّ إنكار نعمة الله أمر غريب.

وإنكار النعمة يستوي فيه جميع المشركين أيمّتهم ودهماؤهم، ففريق من المشركين وهم أيمّة الكفر شأنهم التعقّل والتأمّل فإنّهم عرفوا النعمة بإقرارهم بالمنعم وبما سمعوا من دلائل القرآن حتّى تردّدوا وشكوا في دين الشرك ثم ركبوا رؤوسهم وصمّموا على الشرك. ولهذا عبّر عن ذلك بالإنكار المقابل للإقرار.

{ **وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** } الظاهر أنّ الذين وصفوا بأنّهم الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم، فيحمل المراد بالغالب على دهماء المشركين، فإنّ معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النظر فهم لا يشعرون بنعمة الله، فإن نعمة الله تقتضي إفراده بالعبادة، فكان إشراكهم راسخا، بخلاف عقلائهم وأهل النظر فإنّ لهم تردّدا في نفوسهم ولكن يحملهم على الكفر حبّ السيادة في قومهم. وهم الذين قال الله تعالى فيهم { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ }[84]

الواو عاطفة جملة { يَوْمَ نَبْعَثُ } على جملة { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [82] بتقدير: واذكر يوم

نبعث من كل أمّة شهيدا. فالتذكير بذلك اليوم من البلاغ المبين. والمعنى: فإن تولّوا فإنما عليك البلاغ المبين، وسنجازي يوم نبعث من كل أمة شهيدا عليها. ذلك أنّ وصف شهيد يقتضي أنّه شاهد على المؤمنين به وعلى الكافرين، أي شهيد لأنّه بلغهم رسالة الله.

الشهيد: الشاهد. وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ } [النساء:41].

البعث: إحضاره في الموقف. وبعث شهيد من كل أمّة يفيد أنّ محمدا ﷺ شهيد على هؤلاء الكافرين كما سيجيء عقبه. وبذلك انتظم أمر العطف والتخلّص إلى وصف يوم الحساب وإلى التنويه بشأنه.

{ **ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** }، { ثُمَّ } للترتيب الرتبي، لأنّ إلجامهم عن الكلام مع تعذّر الاستعتاب أشدّ هولا من الإتيان بالشهيد عليهم. وليست للتراخي في الزمن، لأنّ عدم الإذن لهم مقارن لبعث الشهيد عليهم. والمعنى: لا يؤذن لهم بالمجادلة عن أنفسهم.

ويجوز أن يكون نفي الإذن كناية عن الطرد كما كان الإذن كناية عن الإكرام، كما في حديث جرير بن عبد الله: " ما استأذنت رسول الله منذ أسلمت إلّا أذن لي " .

الاستعتاب: أصله طلب العُتبى، والعتبى: الرضى بعد الغضب. يقال: استعتب فلان فلانا فأعتبه، إذا أرضاه، قال تعالى { وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ } [فصلت:24].

وعطف { وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } على { لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } وإن كان أخصّ منه، فهو عطف خاص على عام، للدلالة على أنّهم مأيوس من الرضى عنهم عند سائر أهل الموقف بحيث يعلمون أن لا طائل في استعتابهم، فلذلك لا يشير أحد عليهم بأن يستعتبوا. فإن جعلت { لا يُؤْذَنُ } كناية عن الطرد فالمعنى: أنّهم يطردون ولا يجدون من يشير عليهم بأن يستعتبوا.

{ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ } [85]

عطف على { ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [84].

{ **وَإِذَا رَأى** } شرطية ظرفية. وجملة { فَلا يُخَفَّفُ } جواب {إِذَا} وقرن بالفاء لتأكيد معنى الشرطية والجوابية لدفع احتمال الاستئناف.

{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } هم الذين كفروا، فالتعبير به من الإظهار في مقام الإضمار لقصد إجراء الصفات المتلبسين بها عليهم. والمعنى: فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون، ثم يساقون إلى العذاب فإذا رأوه لا يخفف عنهم، أي يسألون تخفيفه أو تأخير الإقحام فيه فلا يستجاب لهم شيء من ذلك.

{ **الْعَذَابَ** } أطلق العذاب على آلاته ومكانه.

{ **وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ** } جاء المسند إليه مخبرا عنه بالجملة الفعلية، لأنّ الإخبار بالجملة الفعلية عن الاسم يفيد

تقوّي الحكم، أي أنّ عدم تخفيف العذاب عنهم محقّق الوقوع لا طماعية في إخلافه، فحصل تأكيد هذه الجملة كما حصل تأكيد الجملة التي قبلها بالفاء.

{ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ [86] وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }[87].

{ **الَّذِينَ أَشْرَكُوا** } هم الذين ظلموا الذين يرون العذاب، وهم الذين كفروا الذين لا يؤذن لهم. وإجراء هذه الصلات الثلاث عليهم لزيادة التسجيل عليهم بأنواع إجرامهم الراجعة إلى تكذيب ما دعاهم الله إليه، وهو نكتة الإظهار في مقام الإضمار هنا.

فالإشراك المقصود هنا هو إشراكهم الأصنام في صفة الإلهيّة مع الله تعالى، فيتعيّن أن يكون المراد بالشركاء الأصنام. والمعنى: أنهم يرون الأصنام حين تقذف معهم في النار، { وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ } [البقرة:24].

{ **رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا** } إمّا من قبيل الاعتراف عن غير إرادة، فضحا لهم، كقوله تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ} [النور:24]، وإمّا من قبيل التنصّل وإلقاء التبعة على المعبودات، كأنّهم يقولون هؤلاء أغرونا بعبادتهم من قبيل قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا } [البقرة:167].

{ **فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** } الفاء للتعقيب للدلالة على المبادرة بتكذيب ما تضمّنه مقالهم، أنطق الله تلك الأصنام فكذبت ما تضمّنه مقالهم من كون الأصنام شركاء لله، أو من كون عبادتهم بإغراء منها تفضيحا لهم وحسرة عليهم.

ولمّا كان نطق الأصنام غير جار على المتعارف عبر عنه بالإلقاء المؤذن بكون القول أجراه الله على أفواه الأصنام من دون أن يكونوا ناطقين. وهو مجاز عقلي لأنّها مظهره. وأجرى عليهم ضمير جمع العقلاء في فعل (ألقوا) مشاكلة لاسم الإشارة واسم الموصول للعقلاء.

{ **إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** } بدل من {القول}. ووصفهم بالكذب متعلّق بما تضمّنه كلامهم أنّ أولئك آلهة يدعون من دون الله على نحو ما وقع في الحديث: " فيقال للنصارى:ما كنتم تعبدون، فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من ولد".

{ **وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ** } أعيد فعل {أَلْقَوْا} لاختلاف فاعل الإلقاء، لأنّ هذا عائد إلى {الَّذِينَ أَشْرَكُوا }.

السلَم (بفتح اللام): الاستسلام، أي الطاعة وترك العناد.

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } أي غاب عنهم وزايلهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الاختلاقات للأصنام من أنّها تسمع لهم ونحو ذلك.

{ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [88]

لمّا ذكر العذاب الذين هم لأقوه على كفرهم استأنف هنا بذكر زيادة العذاب لهم على الزيادة في كفرهم، بأنّهم يصدّون النّاس عن اتباع الإسلام، وهو المراد بالصدّ عن سبيل الله، أي السبيل الموصلة إلى الله. وفيه تنبيه المسلمين إلى كيدهم وإفسادهم، والتعريض بالتحذير من الوقوع في شراكهم.

زيادة العذاب: مضاعفته.

{ فَوْقَ الْعَذَابِ } تعريف الجنس المعهود حيث تقدّم ذكره في قوله { وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ } [85]، لأنّ عذاب كفرهم لمّا كان معلوما بكثرة الحديث عنه صار كالمعهود، وأمّا عذاب صدّهم النّاس فلا يخطر بالبال فكان مجهولا فناسبه التنكير.

{ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } الباء للسببيّة. والمراد: إفسادهم الراغبين في الإسلام بتسويل البقاء على الكفر، كما فعلوا مع الأعشى حين جاء مكّة راغبا في الإسلام مادحا الرسول ﷺ بقصيدة:

هل اغتمضت عيناك ليلة أرمدا

وقصّته في كتب السيرة والأدب. وكما فعلوا مع عامر بن الطفيل الدوسي فإنّه قدم مكّة فمشى إليه رجال من قريش فقالوا: يا طفيل إنّك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا وإنّما قوله كالسحر، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه. وقد ذُكر في قصة إسلام أبي ذر كيف تعرّضوا له بالأذى في المسجد الحرام حين علموا إسلامه.

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [89]

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ }.

تكرير لجملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [84]، ولمّا كان تكريرا أعيد نظير الجملة على صورة الجملة المؤكّدة مقترنة بالواو، ولأنّ في هذه الجملة زيادة وصف { مِنْ أَنْفُسِهِمْ } فحصلت مغايرة مع الجملة السابقة والمغايرة مقتضية للعطف أيضا.

ومن دواعي تكرير مضمون الجملة السابقة أنّه لبعد ما بين الجملتين بما اعترض بينهما من قوله تعالى { ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا - إلى قوله - بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [84،85].

وقد حصل من هذه الإعادة تأكيد التهديد والتسجيل.

{ نَبْعَثُ فِي } عدّي الفعل هنا بحرف (فِي) ، وعدي نظيره في الجملة السابقة بحرف (من) ليحصل التفنّن

بين المكرّرين تجديدا لنشاط السامعين.

{ **مِنْ أَنْفُسِهِمْ** } وزيد في هذه الجملة أنّ الشهيد يكون من أنفسهم للتذكير بأنّ شهادة الرّسل على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها، لأنّها شهادة شهود من قومهم لا يجد المشهود عليهم فيها مساغا للطعن.

ولم تخل أيضا، بعد التّعريض بالتحذير من صدّ الكافرين عن سبيل الله، من حسن موقع تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم إذ بعث فيهم شهيدا يشهد لهم بما ينفعهم وبما يضرّ أعداءهم.

ولما كان بعث الشهداء للأمم الماضية مرادا به بعثهم يوم القيامة عبّر عنه بالمضارع.

{ **وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ** } الراجح أن تكون معطوفة على جملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ } كلّها. فالمعنى: وجئنا بك ،لمّا أرسلناك إلى أمتك، شهيدا عليهم، أي مقدّرا أن تكون شهيدا عليهم يوم القيامة، لأنّ النبيء ﷺ لمّا كان حيا في آن نزول هذه الآية كان شهيدا في الحال والاستقبال، فاختير لفظ الماضي في { جِئْنَا } للإشارة إلى أنّه مجيء حصل من يوم بعثته.

ويعلم من ذلك أنّه يحصل يوم القيامة بطريق المساواة لبقية إخوانه الشهداء على الأمم، والمقصود من ذلك كلّه تهديد قومه وتحذيرهم. وهذا الوجه شديد المناسبة بأن يعطف عليه قوله {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [89].

وعلى هذا يكون الكلام تمّ عند قوله تعالى { مِنْ أَنْفُسِهِمْ }، فيحسن الوقف عليه لذلك.

ولم يوصف الرسول ﷺ بأنّه من أنفسهم لأنّه مبعوث إلى جميع الأمم وشهيد عليهم جميعا، وأمّا وصفه بذلك في قوله تعالى { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [التوبة:128] فذلك وصف كاشف اقتضاه مقام التذكير للمخاطبين من المنافقين الذين ضمّوا الكفر بالله كفران نعمة بعث رسول إليهم من قومهم.

{ **عَلَى هَؤُلاءِ** } ليس فيه ما يقتضي تخصيص شهادته بكونها شهادة على المتحدّث عنهم من أهل الشرك، ولكن اقتصر عليهم لأنّ الكلام جار في تهديدهم وتحذيرهم.

{ **هَؤُلاءِ** } إشارة إلى حاضر في الذهن وهم المشركون الذين أكثر الحديث عليهم. وقد تتبّعتُ مواقع أمثال اسم الإشارة هذا في القرآن فرأيته يُعنى به المشركون من أهل مكّة. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41]، وقوله تعالى { فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ } [الأنعام:89].

{ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** }

عطف على { وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً } أي أرسلناك شهيدا على المشركين وأنزلنا عليك القرآن لينتفع به المسلمون، فرسول الله ﷺ شهيد على المكذّبين ومرشد للمؤمنين.

وهذا تخلّص للشروع في تعداد النعم على المؤمنين، من نعم الإرشاد ونعم الجزاء على الامتثال وبيان بركات هذا الكتاب المنزّل لهم. وتعريف الكتاب للعهد، وهو القرآن.

{ **تِبْيَاناً** } مفعول لأجله. والتبيان مصدر دال على المبالغة في المصدريّة، ثم أريد به اسم الفاعل فحصلت

مبالغتان، وهو - بكسر التاء -، ولا يوجد مصدر بوزن تِفعال - بكسر التاء - إلّا تبيان بمعنى البيان كما هنا، وتِلقاء بمعنى اللقاء لا بمعنى المكان، وما سوى ذلك من المصادر الواردة على هذا الزنة - بفتح التاء - .

{ **لِكُلِّ شَيْءٍ** } يفيد العموم، إلّا أنّه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع؛ من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدنيّ، وتبيّن الحقوق، وما تتوقّف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانيّة، وصدق الرسول ﷺ، وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلميّة والدقائق الكونيّة، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم.

وفي خلال ذلك كلّه أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأنّ تكون بيانا لكلّ شيء على وجه العموم الحقيقي، إن سُلك في بيانها طريق التفصيل واستُنير فيها بما شرح الرّسول ﷺ وما قفّاه به أصحابه وعلماء أمّته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعدّ للطائعين وما أعدّ للمعرضين، ووصف عالم الغيب والحياة الآخرة. ففي كل ذلك بيان لكلّ شيء، يقصد بيانه للتبصّر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه. وهذا من أبدع الإعجاز.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } خصّ بالذكر الهدى والرحمة والبُشرى لأهميتها، فالهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال. والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى، والبُشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيويّة والأخرويّة.

وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم، لأنّ غيرهم لمّا أعرضوا عنه حرموا أنفسهم الانتفاع بخواصه كلّها.

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }[90]

لمّا جاء أنّ هذا القرآن تبيان لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين حسن التخلّص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي، إذ الشريعة كلّها أمر ونهي والتقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب. فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبيانا لكلّ شيء، فهي جامعة أصول التشريع.

{ **إِنَّ اللَّهَ** } حرف التوكيد للاهتمام بشأن ما حوته. وتصديرها باسم الجلالة للتشريف.

{ **يَأْمُرُ / وَيَنْهَى** } دون أن يقال: اعدلوا واجتنبوا الفحشاء، للتشويق. ونظيره ما في الحديث: " إنّ الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ".

العدل: إعطاء الحقّ إلى صاحبه. وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتيّة وحقوق المعاملات، إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته، قال تعالى { وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } [البقرة:195]، ومأمور بالعدل في المعاملة؛ وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه، ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائليّة والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال، قال تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [الأنعام:152]، وقال تعالى { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء:58].

ومن هذا تفرّعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب، وحقوق وأقضية، وشهادات، ومعاملة مع الأمم، قال تعالى { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى إلّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } [المائدة:8].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة. فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة، فهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكّة، فيصار فيها إلى ما هو مقرّر بين النّاس في أصول الشرائع وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوّة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية.

الإحسان: هو معاملة بالحسنى ممّن لا يلزمه إلى من هو أهلها. والحسَن: ما كان محبوبا عند المعامَل به ولم يكن لازما لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى مما فسّره النبيء ﷺ بقوله " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". ودون ذلك التقرّب إلى الله بالنوافل. ثمّ الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف، إلّا ما حُرم الإحسانَ بحكم الشّرع ومن أدنى مراتب الإحسان ما في الموطأ " أنّ امرأة بغيّا رأت كلبا يلهث من العطش يأكل الثرى فنزعت خفّها وأَدْلَتْه في بئر ونزعت فسقته فغفر الله لها".

وفي الحديث: " إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء فإذا قلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ".

ومن الإحسان أن يجازي المحسَنُ إليه المحسِن على إحسانه إذ ليس الجزاء بواجب.

فإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع آداب المعاشرة كلّها في العائلة والصحبة.

والعفو عن الحقوق الواجبة من الإحسان لقوله {وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:134].

وتقدّم عند قوله تعالى { وبالوالدين إحسانا } [الأنعام:151].

{ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } نوع مهمّ من جنس أنواع العدل والإحسان يكثر أن يغفل النّاس عنه ويتهاونوا بحقّه أو بفضله. فقد تقرّر في نفوس النّاس الاعتناء باجتلاب الأبعد واتّقاء شرّه، كما تقرّر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعوّد التساهل في حقوقه. ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليهم. ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحْمدة وحسن الذكر بين النّاس. ولم

يزل هذا الخلق متفشيا في النّاس حتّى في الإسلام إلى الأن. لذلك تعدّدت الآيات المذكّرة والمحذّرة من مثل قوله تعالى { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } [النساء:2]، وقوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} [الاسراء:26]، وقوله { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ } [النساء:127].

وقد كانوا في الجاهلية يقصدون بوصايا أموالهم أصحابهم من وجوه القوم، ولذلك قال تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } [البقرة:180].

وهذا راجع إلى تقويم نظام العائلة والقبيلة تهيئةً لنفوس النّاس إلى أحكام المواريث التي شُرعت فيما بعد.

ذو القربى: هو صاحب القرابة، أي من المؤتي. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [الأنعام:152].

الإيتاء: الإعطاء. والمراد: إعطاء المال، قال تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ } [البقرة:177].

{ **وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ** } وهي أصول المفاسد.

الفحشاء: اسم جامع لكلّ عمل أو قول تستفظعه النفوس لفساده، من الآثام التي تفسد نفس المرء؛ من اعتقاد باطل أو عمل مفسد للخلق، والتي تضرّ بأفراد النّاس، من قتل أو سرقة أو قذف أو غصب مال، أو تضرّ بحال المجتمع وتدخل عليه الاضطراب من حرابة أو زنى أو تقامر أو شرب خمر. فدخل في الفحشاء كلّ ما يوجب اختلال المناسب الضروري، وقد سماها الله الفواحش. وتقدم ذكر الفحشاء عند قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ} [البقرة:169]، وقوله { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ } [الأعراف:33] وهي مكّيّة.

المنكر: هو ما تستنكره النفوس المعتدلة وتكرهه الشريعة من فعل أو قول، قال تعالى { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً } [المجادلة:2]، وقال { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَر } [العنكبوت:29].

والاستنكار مراتب، منها مرتبة الحرام، ومنها مرتبة المكروه فإنّه منهي عنه. وشمل المنكر كل ما يفضي إلى الإخلال بالمناسب الحاجي، وكذلك ما يعطل المناسب التحسيني بدون ما يفضي منه إلى ضرّ.

الْبَغْيِ: نوع من الفحشاء والمنكر خصّه الله بالذكر اهتماما بالنهي عنه وسدا لذريعة وقوعه، لأنّ النفوس تنساق إليه بدافع الغضب، وتغفل عمّا يشمله من النهي من عموم الفحشاء بسب فشوّه بين النّاس. وذلك أنّ العرب كانوا أهل بأس وشجاعة وإباء، فكانوا يكثر فيهم البغي على الغير إذا لقي المعجَب بنفسه من أحد شيئا يكرهه أو معاملة يعدّها هضيمة وتقصيرا في تعظيمه. وبذلك كان يختلط على مريد البغي حسن الذبّ عمّا يسمّيه الشرف وقبح مجاوزة حدّ الجزاء.

فالبغي هو الاعتداء في المعاملة، إمّا بدون مقابلة ذنب، كالغارة التي كانت وسيلة كسب في الجاهلية، وإمّا بمجاوزة الحدّ في مقابلة الذنب، كالإفراط في المؤاخذة، ولذا قال تعالى { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [البقرة:194] وقال { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ

لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ } [الحج:60]. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الأعراف:33].
فهذه الآية جمعت أصول الشريعة في الأمر بثلاثة والنهي عن ثلاثة، بل في الأمر بشيئين وتكملة، والنهي عن شيئين وتكملة.
وفي فضل هذه الآية رويت أحاديث وأقوال شهيرة منها ما رواه أحمد بن حنبل: أنّ هذه كانت السبب في تمكّن الإيمان من عثمان ابن مظعون، فإنّها لما نزلت كان عثمان بن مظعون بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حديث الإسلام، وكان إسلامه حياء من النبيء ﷺ وقراها النبيء عليه. قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي.
وعن عثمان بن أبي العاص: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص بصره، فقال: " أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع ". وهذا يقتضي أنّ هذه الآية لم تنزل متّصلة بالآيات التي قبلها فكان وضعها في هذا الموضع صالحا لأنّ يكون بيانا لآية { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89]، ولأنّ تكون مقدّمة لما بعدها { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [91].
وعن ابن مسعود: أنّ هذه الآية أجمع آية في القرآن.
وعن قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلّا أمر الله به في هذه الآية، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلّا نهى الله عنه وقدح فيه، وإنّما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.
وروى ابن ماجه عن عليّ قال: أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب، فخرج، فوقف على مجلس قوم من شيبان بن ثعلبة في الموسم. فدعاهم إلى الإسلام وأن ينصروه، فقال مفروق بن عمرو منهم: إلام تدعونا أخا قريش، فتلا عليهم رسول الله ﷺ { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } الآية. فقال: " دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك ".
وقد روي أنّ الفقرات الشهيرة التي شهد بها الوليد بن المغيرة للقرآن من قوله: " إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وما هو بكلام بشر"، قالها عند سماع هذه الآية.
وقد اهتدى الخليفة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى ما جمعته هذه الآية من معاني الخير فلما استخلف سنة (99هـ) كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه الآية في الخطبة يوم الجمعة وتجعل تلاوتها عوضا عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات سبّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.
{ **يَعِظُكُمْ** } في موضع الحال من اسم الجلالة. و**الوعظ**: كلام يقصد منه إبعاد المخاطب به عن الفساد وتحريضه على الصلاح. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].
والخطاب للمسلمين لأنّ الموعظة من شأن من هو محتاج للكمال النفساني، ولذلك قارنها بالرجاء بـ { لعلكم تذكّرون }.

التذكّر: مراجعة المنسي المغفول عنه، أي رجاء أن تتذكّروا، أي تتذكروا بهذه الموعظة ما اشتملت عليه فإنها جامعة باقية في نفوسكم.

{ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ }[91]

لمّا أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله { يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [90]، فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنّن القرآن، وأوضح لهم أنّهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبيّن لكلّ شيء. ولا جرم ذكّرهم، هنا، الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عندما أسلموا. وهو ما بايعوا عليه النبيء ﷺ مما فيه: أن لا يعصوه في معروف. وقد كان النبيء صلى الله عليه وسلم يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكّة. وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية.

{ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ } الخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة. وإضافة العهد إلى الله لأنّهم عاهدوا النبيء ﷺ على الإسلام الذي دعاهم الله إليه، فهم قد عاهدوا الله كما قال { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } [الفتح:10]، وقال { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [الأحزاب:23].

والمقصود: تحذير الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من أن ينقضوا عهد الله.

{ إِذَا عَاهَدْتُمْ } لمجرد الظرفيّة، لأنّ المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة، فالإتيان باسم الزمان لتأكيد الوفاء. فالمعنى: أنّ من عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد. والقرينة على ذلك قوله {وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ}.

العهد: الحلف. وتقدّم في قوله تعالى { الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه } [البقرة:27]. وكذلك النقض تقدّم في تلك الآية.

نقض الأيمان: إبطال ما كانت لأجله. فالنقض إبطال المحلوف عليه لا إبطال القسم، فجعْل إبطال المحلوف عليه نقضا لليمين تهويلا وتغليظا للنقض، لأنّه نقض لحرمة اليمين.

{ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } زيادة في التحذير، وليس قيدا، إذ المقصود أيمان معلومة وهي أيمان العهد والبيعة، وليست فيها بعديّة. و{بعد} هنا بمعنى (مع)، إذ البعديّة والمعيّة أثرهما واحد هنا.

التوكيد: التوثيق. وليس هو توكيد اللفظ كما توهّمه بعضهم فهو ضدّ النقض. والمعنى: بعد ما فيها من التوكيد، وبيّنه قوله { وَقَد جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً }. والمعنى: ولا تنقضوا الأيمان بعد حلفها.

{ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً } في موقع الحال من ضمير { لا تنقضوا } ، أي لا تنقضوا الأيمان في حال

جعلكم الله كفيلا على أنفسكم إذا أقسمتم باسمه، فإنّ مدلول القسم أنّه إشهاد الله بصدق ما يقوله المقسم، فيأتي باسم الله كالإتيان بذات الشاهد. ولذلك سمّي الحلف شهادة في مواضع كثيرة، كقوله { فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } [النور:6].

الكفيل: الشاهد والضامن والرقيب على الشيء المراعى لتحقيق الغرض منه.

والمعنى: أنّ القسم باسم الله إشهاد لله وكفالة به. وقد كانوا عند العهد يحلفون ويُشهدون الكفلاء بالتنفيذ، قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وماقُـ ـدّم فيه العهود والكفلاء

{ **عَلَيْكُمْ** } متعلق بـ { جَعَلْتُمُ } لا بـ { كَفِيلاً } أي أقمتموه على أنفسكم مقام الكفيل.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** } معترضة. وهي خبر مراد منه التحذير من التساهل في التمسّك بالإيمان والإسلام بتذكيرهم أنّ الله يطّلع على ما يفعلونه، فالتوكيد بـ { إِنَّ } للاهتمام بالخبر.

وكذلك التأكيد ببناء الجملة بالمسند الفعلي. واختير الفعل المضارع في { يَعْلَمُ } وفي { تَفْعَلُونَ } لدلالته على التجدّد، أي كلما فعلوا فعلا فالله يعلمه.

ولم يذكر المفسّرون سببا لنزول هذه الآية، وليست بحاجة إلى سبب. وذكروا في الآية الآتية وهي قوله { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ } [106] أنّ آية { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إذا عاهدتم } إلى آخرها نزلت في الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان لمّا فتنهم المشركون كما سيأتي، فجعلوا بين الآيتين اتصالا.

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [92]

تشنيع لحال الذين ينقضون العهد. وعطف على { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا }. واعتمد العطف على المغايرة في المعنى بين الجملتين لما في هذه الثانية من التمثيل، وإن كانت من جهة الموقع كالتوكيد لجملة {وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ }.

{ **كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا** } نهوا عن أن يكونوا مضرب مثل معروف في العرب بالاستهزاء، وهو المرأة التي تنقض غزلها بعد شدّ فتله. فالتي نقضت غزلها امرأة اسمها (**ريطة بنت سعد التميميّة**) من بني تميم من قريش. وعبّر عنها بطريق الموصوليّة لاشتهارها بمضمون الصلة، ولأنّ القرآن لم يذكر فيه بالاسم العلم إلّا من اشتهر بأمر عظيم مثل جالوت وقارون.

وقد ذُكر من قصّتها أنّها كانت امرأة خرقاء مختلّة العقل، ولها جوار، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة

إلى الظهر، ثم تنقض ما غزلته، وهكذا تفعل كل يوم، فكان حالها إفساد ما كان نافعا محكما من عملها وإرجاعه إلى عدم الصلاح، فنهوا عن أن يكون حالهم كحالها في نقضهم عهد الله، وهو عهد الإيمان، بالرجوع إلى الكفر وأعمال الجاهلية. ووجه الشبه الرجوع إلى فساد بعد التلبّس بصلاح.

الغزل: هنا مصدر بمعنى المفعول، أي المغزول، لأنّه الذي يقبل النقض. والغزل: فتل نتف من الصوف أو الشعر لتُجعل خيوطا محكمة اتصال الأجزاء بواسطة إدارة آلة الغزل بحيث تلتف النتف المفتولة باليد فتصير خيطا غليظا طويلا بقدر الحاجة ليكون سَدًى أو لُحْمَةً للنسج.

القوة: إحكام الغزل، أي نقضته مع كونه محكم الفتل لا موجب لنقضه.

الأنكاث (بفتح الهمزة) : جمع نِكْث (بكسر النون وسكون الكاف) أي منكوث، أي منقوض، ونظيره نقض وأنقاض. والمراد بصيغة الجمع أن ما كان غزلا واحدا جعلته خيوطا عديدة. وذلك بأنّ صيّرته إلى الحالة التي كان عليها قبل الغزل وهي كونه خيوطا ذات عدد.

{ **تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ** } حال من ضمير { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ }.

الدَخَل (بفتحتين) : الفساد، أي تجعلون أيمانكم التي حلفتموها فاسدة. ومن كلام العرب: ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل، أي ما يدريك ما فيهم من فساد. والمعنى: تجعلون أيمانكم الحقيقة بان تكون معظمة وصالحة فيجعلونها فاسدة كاذبة، فيكون وصف الأيمان بالدخل حقيقة عقلية.

أو تجعلونها سبب فساد بينكم إذ تجعلونها وسيلة للغدر والمكر فيكون وصف الأيمان بالدخل مجازا عقليا.

ووجه الفساد أنّها تقتضي اطمئنان المتحالفين فإذا نقضها أحد الجانبين فقد تسبّب في الخصام والحقد. وهذا تحذير لهم وتخويف من سوء عاقبة نقض اليمين، وليس بمقتض أنّ نقضا حدث فيهم.

{ **أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ** } معمول للام جر محذوفة كما هو غالب حالها مع (أن). والمعنى التعليل. أي تنقضون الأيمان بسبب أن تكون أمّة أربى من أمة، أي أقوى وأكثر.

الأمّة: الطائفة والقبيلة. والمقصود طائفة المشركين وأحلافهم.

{ **أَرْبَى** } أزيد، وهو اسم تفضيل من الرُبُوّ بوزن العلو، أي الزيادة، يحتمل الحقيقة أعني كثرة العدد. والمجاز أعني رفاهية الحال وحسن العيش. وكلمة { أَرْبَى } تعطي هذه المعاني كلّها فلا تعدلها كلمة أخرى تصلح لجميع هذه المعاني، فوقعها هنا من مقتضى الإعجاز. والمعنى: لا يبعثكم على نقض الأيمان كون أمّة أحسن من أمة.

ومعلوم أنّ الأمّة التي هي أحسن هي المنقوض لأجلها وأنّ الأمّة المفضولة هي المنفصل عنها، أي لا يحملكم على نقض الحلف أن يكون المشركون أكثر عددا وأموالا من المسلمين، فيبعثكم ذلك على الانفصال عن جماعة المسلمين وعلى الرجوع إلى الكفّار.

{ **إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا للتعليل بما يقتضي الحكمة. وهو أنّ ذلك يبتلي الله به صدق الإيمان كقوله تعالى { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } [الأنعام:165].

والقصر، قصر موصوف على صفة. والتقدير: ما ذلك الرُبُوّ إلّا بلوى لكم.

البَلْو: الاختبار. ومعنى إسناده إلى الله الكناية عن إظهار حال المسلمين. وله نظائر في القرآن. وضمير {به} يعود إلى المصدر المنسبك من قوله { أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ }.

{ **وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** } ثم عطف عليه تأكيد أنّه سيبين لهم يوم القيامة ما يختلفون فيه من الأحوال، فتظهر الحقائق كما هي، غير مغشّاة بزخارف الشهوات ولا بمكاره مخالفة الطباع، لأنّ الآخرة دار الحقائق لا لبس فيها، فيومئذ تعلمون أنّ الإسلام هو الخير المحض وأنّ الكفر شرّ محض.

وأكد هذا الوعد بمؤكدين، القسم الذي دلّت عليه اللام ونون التوكيد. ثم في ترتّب آثاره، إذ يكون النعيم إثر الإيمان ويكون العذاب إثر الشرك، وكل ذلك بيان لما كانوا مختلفين فيه في الدنيا.

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [93]

لما أحال البيان إلى يوم القيامة زادهم إعلاما بحكمة هذا التأخير، فأعلمهم أنّه قادر على أن يبيّن لهم الحقّ من هذه الدار فيجعلهم أمّة واحدة، ولكنّه أضلّ من شاء، أي خلق فيه داعية الضلال، وهدى من شاء، أي خلق فيه داعية الهدى. وأحال الأمر هنا على المشيئة إجمالا، لتعذّر نشر مطاوي الحكمة من ذلك.

ومرجعها إلى مشيئة الله تعالى أن يخلق النّاس على هذا الاختلاف الناشئ عن اختلاف أحوال التفكير ومراتب المدارك والعقول، وذلك يتولّد من تطوّرات عظيمة تعرض للإنسان في تناسله وحضارته وغير ذلك مما أجمله قوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [التين:4-6].

وهذه المشيئة لا يطلع على كنهها إلّا الله تعالى وتظهر آثارها في فرقة المهتدين وفرقة الضالين.

{ **وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } لما كان قوله { وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } قد يغترّ به قصار الأنظار فيحسبون أنّ الضّالين والمهتدين سواء عند الله وأنّ الضّالين معذورون في ضلالهم إذ كان من أثر مشيئة الله فعقب ذلك بقوله { **وَلَتُسْأَلُنَّ** } مؤكّدا بتأكيدين كما تقدّم نظيره آنفا. أي عمّا تعملون من عمل.

السؤال: كناية عن المحاسبة، لأنّه سؤال حكيم تترتب عليه الإنارة وليس سؤال استطلاع.

{ **وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } [94]

لمّا حذّرهم من النقض الذي يؤول إلى اتخاذ أيمانهم دخَلا فيهم، وأشار بالإجمال إلى ما في ذلك من الفساد فيهم، أعاد الكرّة إلى بيان عاقبة ذلك الصنيع، إعادة تفيد التصريح بالنهي عن ذلك، وتأكيد التحذير، وتفصيل الفساد في الدنيا، وسوء العاقبة في الآخرة.

{ **وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ** } تصريح بالنهي، وتأكيد لقوله قبله { تَتَّخِذُون أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ } [92].

{ **فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } تفريع تفصيل لما أجمل في معنى الدخل. وبهذا التصدير وهذا التفريع فارقت هذه نظيرتها السابقة بالتفصيل والزيادة، فحق أن تعطف عليها لهذه المغايرة وإن كان شان الجملة المؤكّدة أن لا تعطف.

الزلل: تزلّق الرجل وتنقلها من موضعها دون إرادة صاحبها فيسقط على الأرض. وتقدّم عند قوله { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا } [البقرة:36]. وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرّض للضرّ، لأنّه يترتّب عليه السقوط أو الكسر. كما أنّ **ثبوت القدم**، تمكّن الرجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير.

ولما كان المقصود تمثيل ما يجرّه نقض الأيمان من الدخل شبهت حالهم بحال الماشي في طريق بينما كانت قدمه ثابتة إذا هي قد زلت به فصرع.

{ **بَعْدَ ثُبُوتِهَا** } زيادة، لأنّ الزلل لا يتصوّر إلّا بعد الثبوت، وذلك لتصوير اختلاف الحالين، وأنّه انحطاط من حال سعادة إلى حال شقاء، ومن حال سلامة إلى حال محنة.

الثبوت: مصدر ثبت كالثبات، وهو الرسوخ وعدم التنقّل، وخصّ المتأخّرون من الكتّاب الثبوت الذي بالواو بالمعنى المجازي وهو التحقّق، مثل ثبوت عدالة الشاهد لدى القاضي، وخصّوا الثبات الذي بالألف بالمعني الحقيقي، وهي تفرقة حسنة.

الذوق: مستعار للإحساس القويّ كقوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

السوء: ما يؤلم. والمراد: ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين أو الخائنين عهودهم.

{ **بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } أي بكونكم معرضين عن سبيل الله. وتقدّم آنفا. ذلك أنّ الآيات جاءت في الحفاظ على العهد الذي يعاهدون الله عليه، أي على التمسك بالإسلام.

سبيل الله: هو دين الإسلام.

{ **وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } هو عذاب الآخرة على الرجوع إلى الكفر أو على معصية غدر العهد.

وقد عصم الله المسلمين من الارتداد مدة مقام النبيء ﷺ، وما ارتدّ أحد إلّا بعد الهجرة حين ظهر النفاق، فكانت فلتة عبد الله بن سعد بن أبي سرح واحدة في المهاجرين، وقد تاب وقبل توبته النبيء ﷺ.

{ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [95]

وهذا نهي عن نقض عهد الإسلام لأجل ما فاتهم بدخولهم في الإسلام من منافع عند المشركين. وبهذا الاعتبار عطفت على { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } [91] وعلى { وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ } [94]، لأنّ كلّ جملة منها تلتفت إلى غرض خاص مما قد يبعث على النقض.

الثمن: العوض الذي ياخذه المعاوض. وتقدّم الكلام على نظير هذا عند قوله تعالى { وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } [البقرة:41]. وذكرنا هناك أنّ { **قَلِيلاً** } صفة كاشفة وليست مقيّدة، أي أنّ كلّ عوض يؤخذ عن نقض عهد الله هو عوض قليل ولو كان أعظم المكتسبات.

{ **إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } تعليل للنهي باعتبار وصف عوض الاشتراء المنهي عنه بالقلّة، فإنّ ما عند الله هو خير من كل ثمن وإن عظم قدره.

و(ما عند الله) هو ما ادّخره للمسلمين من خير في الدنيا وفي الآخرة، كما سننبّه عليه عند قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [97]، فخير الدنيا الموعود به أفضل مما يبذله لهم المشركون، وخير الآخرة أعظم من الكلّ، فالعنديّة هنا بمعنى الادخار لهم، كما تقول: لك عندي كذا، وليست عنديّة ملك الله تعالى كما في قوله { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } [الأنعام:59].

{ **وإنّما** } هذه مركّبة من (إن) و (ما) الموصولة، فحقّها أن تكتب (ما) مفصولة عن (إن) لأنّها ليست (ما) الكافة، ولكنها كتبت في المصحف موصولة اعتبارا لحالة النطق ولم يكن وصل أمثالها مطّردا في جميع المواضع من المصحف.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } إن كنتم تعلمون حقيقة عواقب الأشياء ولا يغرّكم العاجل. وفيه حث على التأمّل والعلم.

{ **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** } تذييل وتعليل لمضمون جملة { إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } بأنّ ما عند الله لهم خير متجدّد لا نفاد له، وأنّ ما يعطيهم المشركون محدود نافذ لأنّ خزائن النّاس صائرة إلى النفاد بالإعطاء وخزائن الله باقية.

النفاد: الانقراض. و**البقاء**: عدم الفناء.

وهذا الكلام جرى مجرى التذييل لما قبله، وأرسل إرسال المثل فيحمل على العموم، ولذلك كان ضمير

{عِنْدَكُمْ} عائدا إلى جميع النّاس بقرينة التذييل والمثل، وبقرينة المقابلة بما عند الله.

{ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } لمّا كان في نهيهم عن أخذ ما يعدهم به المشركون حمل لهم على حرمان أنفسهم من ذلك النفع العاجل وعدوا الجزاء على صبرهم.

قرأه الجمهور { وليجزين } بياء الغيبة. والضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله تعالى { بِعَهْدِ اللَّهِ }، فهو الناهي والواعد فلا جرم كان هو المجازي على امتثال أمره ونهيه. وقرأه أبن كثير وعاصم وابن ذكوان عن ابن عامر في إحدى روايتين عنه وأبو جعفر بنون العظمة فهو التفات.

{ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } الباء للسببية. و**أحسن**: صيغة تفضيل مستعملة للمبالغة في الحسن. كما في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } [يوسف:33]. أي بسبب عملهم البالغ في الحسن، وهو الدوام على الإسلام مع تجرّع ألم الفتنة من المشركين. وقد أكّد الوعد بلام القسم ونون التوكيد { وَلَنَجْزِيَنَّ }.

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [97]

لمّا كان الوعد المتقدّم { وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [96] خاصا بأولئك الذين نهوا عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا عقّب بتعميمه لكلّ من ساواهم في الثّبات على الإسلام والعمل الصالح مع التبيين للأجر، فكانت هذه الجملة بمنزلة التذييل للتي قبلها، والبيان لما تضمنته من مجمل الأجر. وكلا الاعتبارين يوجب فصلها عمّا قبلها.

{ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى } تبيين للعموم الذي دلت عليه { من } الموصولة. وفي هذا البيان دلالة على أنّ أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصّصه الدين بأحد الصنفين.

{ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } أكّد هذا الوعد كما أكّد المبيّن به. أي لنجعلنّ له حياة طيّبة. وابتدئ الوعد بإسناد الإحياء إلى ضمير الجلالة تشريفا له، كأنّه قيل: فله حياة طيّبة منا. أي طيّب ما يحصل فيها، فهذا الوصف مجاز عقلي.

ويفسّر هذا المعنى ما ورد في الصحيح عن خبّاب بن الأرت قال: " هاجرنا مع رسول الله نبتغي بذلك وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنّا من مضى لم يأكل من أجره شيئا كان منهم مُصَعب بنُ عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلّا نَمِرة كنّا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه وإذا غُطي بها رجلاه خرج رأسه، ومنّا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدُبُهَا ".

الطيّب: ما يطيب ويحسن. وضدّه الخبيث والسيّء. وهذا وعد بخيرات الدنيا. وأعظمها الرضى بما قسم لهم،

وحسن أملهم بالعاقبة والصحّة والعافية وعزة الإسلام في نفوسهم. وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس، ويعطي الله فيه عباده المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم. ومن راقب نفسه رأى شواهد هذا.

{ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** }، عقّب بوعد جزاء الآخرة، فاختص هذا بأجر الآخرة بالقرينة بخلاف نظيره المتقدّم آنفا فإنّه عام في الجزاءين.

{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [98] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [99] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [100].

{ **فَإِذَا** } موقع فاء التفريع هنا خفي ودقيق، ولذلك تصدّى بعض حذّاق المفسرين إلى البحث عنه. فقال الزمخشري في الكشاف: " إيذانا بأنّ الاستعاذة من جملة الأعمال التي يجزل عليها الثواب". وهو إبداء مناسبة ضعيفة لا تقتضي تمكن ارتباط أجزاء النظم.

وقال فخر الدين:" لمّا قال: { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أرشد إلى العمل الذي تخلص به الأعمال من الوسواس ". وهو أمكن من كلام الكشاف، ولكن فيه وهن أنّه لا وجه لتخصيص الاستعاذة بإرادة قراءة القرآن.

وقال شرف الدين الطيبي: " قوله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } متصل بالفاء بما سبق من قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [89]. وذلك لأنّه تعالى لمّا منّ على النبيء ﷺ بإنزال كتاب جامع لصفات الكمال وأنّه تبيان لكل شئ، ونبّه على أنّه تبيان لكل شيء بالكلمة الجامعة وهي قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } [90]، وعطف عليه {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [91]، وأكّده ذلك التأكّيد، قال بعد ذلك {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ}، أي إذا شرعت في قراءة هذا الكتاب الشريف الجامع الذي نبّهت على بعض ما اشتمل عليه، ونازعك فيه الشيطان بهمزه ونفثه فاستعذ بالله منه، والمقصود إرشاد الأمة ".

وهذا أحسن الوجوه وقد انقدح في فكري قبل مطالعة كلامه ثم وجدته في كلامه فحمدت الله وترحمته عليه. والمقصود بالتفريع الشروع في التنويه بالقرآن. وإظهار اسم { الْقُرْآنَ } دون أن يضمر لأجل بعد المعاد.

{ **قَرَأْتَ** } الأظهر أنّه مستعمل في إرادة الفعل، مثل قوله تعالى { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ } [المائدة:6].

{ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } عبارة مشتملة على النطق بألفاظه والتفهّم لمعانيه، وكلاهما معرّض لوسوسة الشيطان، وسوسة تتعلق بألفاظه مثل الإنساء، ووسوسة تتعلق بمعانيه مثل أن يخطئ فهما، وهذا المعنى يلائم محمل الأمر بالاستعاذة عند الشروع في القراءة.

{ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } السين للطلب، والباء لتعدية فعل الاستعاذة يقال: عاذ بحصن، وعاذ بالحرم. أي فاطلب العوذ بالله من الشيطان.

العوذ: اللجأ إلى ما يعصم ويقي من أمر مضرّ.

ومعنى طلب العوذ بالله محاولة العوذ به. ولا يتصوّر ذلك في جانب الله إلّا بالدعاء أن يعيذه.

فقد ورد في عمل النبيء ﷺ بهذا الأمر أنّه كان يقول:"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" يحاكي لفظ هذه الآية.

قال ابن عطيّة: لم يصح عن النبيء زيادة على هذا اللفظ. وما يروي من الزيادات لم يصح منه شيء.

وجاء حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: " كان رسول الله إذا قام من الليل يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ... ". فتلك استعاذة تعوّذ وليست الاستعاذة لأجل قراءة القرآن.

الشيطان: تقدّم عند قوله تعالى { إِلَى شَيَاطِينِهِمْ } [البقرة:14].

الرجيم: تقدّم عند قوله تعالى { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [الحجر:17].

والخطاب للنبيء ﷺ والمراد عمومه لأمّته بقرينة الآية اللاحقة.

وإنّما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانا بنفاسة القرآن ونزاهته، إذ هو نازل من العالم القدسيّ الملَكي، فجعل افتتاح قراءته بالتجرّد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص عن نفسه إلّا بأن يسأل الله أن يبعد الشيطان عنه، لأنّ جانب الله قدسي لا تسلك الشياطين إلى من يأوي إليه، فأرشد الله رسوله إلى سؤال ذلك وضمن له أن يعيذه منه، وأن يعيذ أمّته عوذا مناسبا، كما شرعت التسمية في الأمور ذوات البال وكما شرعت الطهارة للصلاة.

وإنّما لم تشرع لذلك كلمة (باسم الله) لأنّ المقام مقام تخلّ عن النقائص لا مقام استجلاب التيمّن والبركة، ولأنّ القرآن نفسه يمن وبركة وكمال تام.

حكم الاستعاذة

ومحمل الأمر في هذه الآية عند الجمهور على الندب لانتفاء أمارات الإيجاب فإنّه لم يثبت أنّ النبيء صلى الله عليه وسلم بيّنه. فمن العلماء من ندبه مطلقا في الصلاة وغيرها عند كل قراءة. وجعل بعضهم جميع قراءة الصلاة قراءة واحدة تكفي استعاذة واحدة في أوّلها، وهو قول جمهور هؤلاء. ومنهم من جعل قراءة كل ركعة قراءة مستقلة.

ومن العلماء من جعله مندوبا للقراءة في غير الصلاة، وهو قول مالك، وكرهها في قراءة صلاة الفريضة

وأباحها بلا ندب في قراءة صلاة النافلة. ولعلّه رأى أنّ في الصلاة كفاية في الحفظ من الشيطان.

وقيل: الأمر للوجوب، فقيل في قراءة الصلاة خاصة ونسب إلى عطاء. وقد أطلق القرآن على قرآن الصلاة في قوله تعالى { إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء:78].

وقال: الثوري بالوجوب في قراءة الصلاة وغيرها. وقال قوم: الوجوب خاص بالنبيء ﷺ والندب لبقية أمته.

ومدارك هذه الأقوال ترجع إلى تأويل الفعل في قوله تعالى { قرأت}، وتأويل الأمر في قوله تعالى {فاستعذ}، وتأويل القرآن مع ما حفّ بذلك من السنّة فعلا وتركا.

وعلى الأقوال كلّها فالاستعاذة مشروعة للشروع في القراءة أو لإرادته وليست مشروعة عند كلّ تلفّظ بألفاظ القرآن، كالنطق بآية أو آيات من القرآن في التعليم أو الموعظة، خلافا لما يفعله بعض المتحذّقين إذا ساق آية من القرآن في غير مقام القراءة أنّ يقو: كقوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسوق آية.

{ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا** } الآية تعليل للأمر بالاستعاذة وبيان لصفة الاستعاذة.

السلطان: مصدر بوزن الغفران، وهو التسلّط والتصرّف المكين.

فأمّا كونها تعليلا فلزيادة الحثّ على الامتثال للأمر بأنّ الاستعاذة تمنع تسلّط الشيطان على المستعيذ، لأنّ الله منعه من التسلّط على الذين آمنوا المتوكلين، والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكّل على الله، لأنّ اللجأ إليه توكّل عليه. وليست الاستعاذة مجرّد قول بدون استحضار نيّة العوذ بالله.

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } صفة ثانية للموصول. وقدّم المجرور على الفعل للقصر، أي لا يتوكلون إلّا على ربّهم. وجعل فعلها مضارعا لإفادة تجدّد التوكّل واستمراره. والعطف دون إعادة اسم الموصول للإشارة إلى أن الوصفين كصلة واحدة لموصول واحد، لأنّ المقصود اجتماع الصلتين. فنفي سلطان الشيطان مشروط بالأمرين: الإيمان، والتوكّل. ومن هذا تفسير لقوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر:42].

{ **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ مضمون الجملة قبلها يثير سؤال سائل يقول: فسلطانه على من؟

والقصر المستفاد من { إنّما } قصر إضافي بقرينة المقابلة، أي بدون الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

{ **يتولّونه** } يتخذونه وليّا لهم، وهم الملازمون للملل المؤسَّسة على ما يخالف الهدي الإلهي عن رغبة فيها.

ولا شك أنّ الذين يتولونه فريق غير المشركين لأنّ العطف يقتضي بظاهره المغايرة، وهم أصناف كثيرة من أهل الكتاب.

وعبّر بالمضارع للدلالة على تجدّد التولّي، أي الذين يجدّدون تولّيه، للتنبيه على أنّهم كلّما تولّوه بالميل إلى طاعته تمكّن منهم سلطانه، وأنّه إذا انقطع التولّي بالإقلاع أو التوبة انسلخ سلطانه عليهم.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** } الباء للسببية، والضمير المجرور عائد إلى الشيطان، أي صاروا مشركين بسببه. وليست هي كالباء في قوله تعالى { وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } [سورة الأعراف:33].
وجعلت الصلة جملة اسمية لدلالتها على الدوام والثبات، لأنّ الإشراك صفة مستمرّة لأنّ قرارها القلب، بخلاف المعاصي لأنّ مظاهرها الجوارح. للإشارة إلى أن سلطان الشيطان على المشركين أشد وأدوم، لأنّ سببه ثابت ودائم.
{ **بِهِ مُشْرِكُونَ** } تقديم المجرور لإفادة الحصر، أي ما أشركوا إلّا بسببه، ردا عليهم إذ يقولون { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا } [الأنعام: 148] وقولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } [35].

{ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}[101]

استمر الكلام على شأن القرآن وتنزيهه عمّا يوسوسه الشيطان في الصدّ عن متابعته.
ولمّا كان من أكبر الأغراض في هذه السورة بيان أنّ القرآن منزّل من عند الله وبيان فضله وهديه فابتدئ فيها بآية { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } [2]، ثم قفّيت بما اختلقه المشركون من الطعن فيه بعد تنقّلات جاء فيها { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]، وأتبع ذلك بتنقّلات بديعة فأعيد الكلام على القرآن وفضائله من قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ} [64] ثم قوله {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89]. وجاء في عقب ذلك بشاهد يجمع ما جاء به القرآن، وذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ } [90]، فلمّا استقر ما يقتضي تقرّر فضل القرآن في النفوس نبّه على نفاسته ويمنه بقوله { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [98]، لا جرم تهيّأ المقام لإبطال اختلاق آخر من اختلاقهم على القرآن، اختلاقا مموّها بالشبهات، كاختلاقهم السابق الذي أشير إليه بقوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]. ذلك الاختلاق هو تعمّدهم التمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفا لآيات أخرى لاختلاف المقتضى والمقام، والمغايرة باللين والشدّة، أو بالتعميم والتخصيص، ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلّق بها،
فيتّخذون من ظاهر ذلك، دون وضعه مواضعه وحمله محامله، مغامز يتشدّقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطرابا من القول، ويزعمونه شاهدا على أنّ قائله ينقل عن غيره. وبعض ذلك ناشئ عن قصور مداركهم عن إدراك مرامي القرآن وسموّ معانيه، وبعضه ناشئ عن تعمّد للتجاهل، تعلقا بظواهر الكلام يلبّسون بذلك على ضعفاء الإدراك من أتباعهم.

روي عن ابن عباس أنه قال: " كان إذا نزلت آية فيها شدّة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفّار قريش: والله ما محمد إلّا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وأنّه لا يقول هذه الأشياء إلّا من عند نفسه ".
وهذه الكلمة أحسن ما قاله المفسّرون في حاصل معنى هذه الآية.
{ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ** } المراد من التبديل مطلق التغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها.
الآية: الكلام التام من القرآن، وليس المراد المعجزة، بقرينة قوله تعالى { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ }.
ويشمل التبديل نسخ الأحكام مثل نسخ قوله تعالى { وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا } [الاسراء:110] بقوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الحجر:94]. وهذا قليل في القرآن الذي يُقرأ على المشركين لأنّ نسخ الأحكام إنّما كثر بعد الهجرة حين تكّونت الجامعة الإسلامية. وأمّا نسخ التلاوة فلم يرد من الآثار ما يقتضي وقوعه في مكّة فمن فسّر به الآية كما نُقل عن مجاهد فهو مشكل.
ويشمل التبديل أيضا التعارض بالعموم والخصوص ونحو ذلك من التعارض الذي يحمل بعضه على بعض، فيفسّر بعضه ويؤوّل بعضه بعضا، كقوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الشورى:5] مع قوله تعالى { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا } [غافر:7]، فيأخذون بعموم { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } فيجعلونه مكذّبا لخصوص { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} فيزعمونه إعراضا عن أحد الأمرين إلى الأخير منهما.
وكذلك قوله تعالى { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً } [المزمل:10] يأخذون من ظاهره أنّه أمر بمتاركتهم فإذا جاءت آيات بعد ذلك لدعوتهم وتهديدهم زعموا أنّه انتقض كلامه وبدا له ما لم يكن يبدو له من قبل.
وكذلك قوله تعالى { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الاسراء:15] مع قوله تعالى { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل: 25].
ومن هذا ما يبدو من تخالف بادئ الأمر كقوله بعد ذكر خلق الأرض { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [فصلت:11] مع قوله تعالى { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا } [النازعات:30]، فيحسبونه تناقضا لغفلتهم عن محمل { بعد ذلك}، من جعل (بعد) بمعنى (مع) وهو استعمال كثير.
فالتبديل في الآية هو التعويض ببدل، أي عوض، والتعويض لا يقتضي إبطال المعوَّض (بفتح الواو) بل يقتضي أن يجعل شئ عوضا عن شئ. وقد تقدّم شيء من هذا المعنى عند قوله تعالى { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس:15].

{ **مكان آية** } منصوب على الظرفيّة المكانية. بأن تأتي آية في الدعوة والخطاب في مكان آية أخرى أتت في مثل تلك الدعوة، فالمكان هنا مكان مجازي وهو حالة الكلام والخطاب، كما يسمّى ذلك مقاما، فيقال: هذا مقام الغضب، فلا تأت فيه بالمزح. وليس المراد مكانها من ألواح المصحف ولا بإبدالها محوها منه.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ** } معترضة بين شرط { إذا } وجوابها. والمقصود منها تعليم المسلمين، لا الردّ على المشركين، لأنّهم لو علموا أنّ الله هو المنزل للقرآن لارتفع البهتان. والمعنى: أنّه أعلم بما ينزّل من آية بدل آية، فهو أعلم بمكان الأولى ومكان الثانية ومحمل كلتيهما، وكلّ عنده بمقدار وعلى اعتبار.

{ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ** } حكاية طعنهم في النبيء ﷺ بصيغة القصر، وهو قصر إضافي، أي لست بمرسل من الله. وهذا من مجازفتهم وسرعتهم في الحكم الجائر فلم يقتصروا على أنّ تبديله افتراء، بل جعلوا الرّسول مقصورا على كونه مفتريا، لإفادة أنّ القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء.

الافتراء: أصله الاختراع، وغلب على اختراع الخبر، أي اختلاقه، فساوى الكذب في المعنى، ولذلك قد يطلق وحده كما هنا وقد يطلق مقترفا بالكذب كقوله الآتي { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [105]، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [المائدة:103].

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } و(بل) للإضراب الإبطالي على كلامهم، وهو من طريقة النقض الإجمالي في علم المناظرة. وضمير { أكثرهم } للذين قالوا إنّما أنت مفتر، أي ليس كما قالوا، ولكن أكثر القائلين ذلك لا يعلمون، أي لايفهمون وضع الكلام مواضعه وحمله محامله.

وفهم من الحكم على أكثرهم بعدم العلم أنّ قليلا منهم يعلمون أن ذلك ليس افتراء، ولكنّهم يقولون ذلك تلبيسا وبهتانا. ويجوز حمل لفظ أكثر على إرادة جميعهم كما تقدّم في هذه السورة.

{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحقّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [102]

بعد أن أبطل الله دعواهم عليه أنّه مفتر بطريقة النقض، أمر رسوله أن يبيّن لهم ماهية القرآن. وهذه نكتة الالتفات في قوله تعالى { من ربّك } الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حكاية المقول المأمور بأنّ يقوله، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: من ربي، فوقع الالتفات إلى الخطاب تأنيسا للنبيء ﷺ بزيادة توغّل الكلام معه في طريقة الخطاب. واختير اسم الربّ لما فيه من معنى العناية والتدبير.

{ **رُوحُ الْقُدُسِ** } جبريل. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } [البقرة:87]. والروح: الملك، قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } [مريم:17]، أي ملكا من ملائكتنا.

{ **الْقُدُسِ** } الطهر. وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر.

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حاتم الجود. فالمعنى: الملك المقدّس.
{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي ملابسا للحقّ، لا شائبة للباطل فيه.
{ **نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ** } فيه إبطال لقولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ }، وفي قوله تعالى { بِالْحَقِّ } إيقاظ للنّاس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنّها حقّ.
{ **لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } علّة من علل إنزال القرآن على الوصف المذكور، أي تبديل آية مكان آية، بأنّ في ذلك تثبيتا للذين آمنوا، إذ يفهمون محمل كلّ آية ويهتدون بذلك وتكون آيات البشرى بشارة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر. وفيه بيان لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي، وأنّه تثبيت لقلوبهم بصحّة اليقين وهدى وبشرى لهم.
{ **لِلْمُسْلِمِينَ** } كان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف.

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } [103]

عطف على { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ } [101]. وهذا إبطال لتلبيس آخر مما يلبّسون به على عامتهم، وذلك أن يقولوا: إنّ محمدا يتلقّى القرآن من رجل من أهل مكة. قيل: قائل ذلك الوليد بن المغيرة وغيره. أي لا يلقّنه ملك بل يعلّمه إنسان، وقد عيّنوه بما دلّ عليه قوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ }.
فقد كان في مكّة غلام رومي كان مولى لعامر بن الحضرمي اسمه جبر كان يصنع السيوف بمكّة ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثاله من عامة النصارى من دعوات الصلوت، فاتخذ زعماء المشركين من ذلك تمويها على العامة، فإنّ معظم أهل مكّة كانوا أمّيين، فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرّفة، أو يكتب حروفا يتعلّمها يحسبونه على علم، وكان النبيء ﷺ لما جانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام فقالت قريش: هذا يعلّم محمدا ما يقوله.
وقيل: غلام رومي اسمه بلعام كان عبدا بمكّة لرجل من قريش، وكان رسول الله ﷺ يقف عليه يدعوه إلى الإسلام، فقالوا: إنّ محمدا يتعلّم منه، وكان هذا العبد يقول: إنّما يقف عليّ يعلّمني الإسلام.
{ **لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** } كشف القرآن هذا اللبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولا فصلا دون طول جدال ، أي كيف يعلّمه وهو أعجمي لا يكاد يبين وهذا القرآن فصيح عربي معجز. والجملة جواب عن كلامهم، فهي مستأنفة استئنافا بيانيّا.

أَلْحَد: مثل لَحَد، أي مال عن القويم. فهو مما جاء من الأفعال مهموز بمعنى المجرّد، كقولهم: أبان بمعنى بان. فمعنى { يُلْحِدُونَ } يميلون عن الحقّ، لأنّ ذلك اختلاق معاذير.
اللسان: الكلام. سمّي الكلام باسم آلته.
الأعجمي: المنسوب إلى الأعجم، وهو الذي لا يبيّن عن مراده، من كل ناطق لا يفهمون ما يريده. ولذلك سمّوا الدواب العجماوات.
المبين: اسم فاعل من أبان، إذا صار ذا إبانة، أي زائد في الإبانة بمعنى الفصاحة والبلاغة، فحصل تمام التضاد بينه وبين { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ }.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [104]

جملة معترضة. وورود هذه الآية عقب ذكر اختلاق المتقعّرين على القرآن المرجفين بالقالة فيه بين الدهماء يومئ إلى أنّ المراد بالذين لا يؤمنون هم أولئك المردود عليهم آنفا. وهم فريق معلوم بشدّة العداوة للنبيء ﷺ وبالتصلّب في التصدّي لصرف النّاس عنه، بحيث بلغوا من الكفر غايةً ما وراءها غايةٌ، فحقّت عليهم كلمة الله أنّهم لا يؤمنون، فهؤلاء فريق غير معين يومئذ ولكنّهم مشار إليهم على وجه الإجمال وتكشف عن تعيينهم عواقب أحوالهم.
{ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ } فقد كان من الكافرين بالنبيء ﷺ أبو جهل وأبو سفيان. وكان أبو سفيان أطول مدّة في الكفر من أبي جهل، ولكن أبا جهل كان يخلط كفره بأذى النبيء ﷺ والحنق عليه. وكان أبو سفيان مقتصرا على الانتصار لدينه ولقومه ودفع المسلمين عن أن يغلبوهم، فحرم الله أبا جهل الهداية فأهلكه كافرا، وهدى أبا سفيان فأصبح من خيرة المؤمنين.
وكان الوليد بن المغيرة وعمر بن الخطاب كافرين وكان كلاهما يدفع النّاس من اتباع الإسلام ولكن الوليد كان يختلق المعاذير والمطاعن في القرآن وذلك من الكيد، وعمر كان يصرف النّاس بالغلظة علنا دون اختلاق فحرم الله الوليد بن المغيرة الاهتداء، وهدى عمر إلى الإسلام فأصبح الإسلام به عزيز الجانب.
ويشير إلى هذا المعنى الذي ذكرناه قوله تعالى {إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار} [الزمر: 3] فوصف من لا يهديه الله بوصفين الكذب وشدة الكفر.
فتبيّن أن معنى قوله تعالى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } من كان الإيمان منافيا لجبلّة طبعه لا لأميال هواه. وهذا يعلم الله أنّه لا يؤمن وأنه ليس معرّضا للإيمان فلذلك لا يهديه الله، أي لا يكوّن الهداية في قلبه.
وهذا الأسلوب عكس أسلوب قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ} [يونس:96]، وكلّ يرمي إلى معنى عظيم.

فموقع هذه الجملة من التي قبلها موقع التعليل لجميع أقوالهم المحكيّة والتذييل لخلاصة أحوالهم، ولذلك فصلت بدون عطف.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } للدلالة على حرمانهم من الخير وإلقائهم في الشرّ، لأنّهم إذا حرموا الهداية فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال، وهذا كقوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } [الحج:4]. ويشمل العذاب عذاب الدنيا، وهو عذاب القتل مثل ما أصاب أبا جهل يوم بدر.

{ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ }[105]

هذا رد لقولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } [101] بقلب ما زعموه عليهم، كما كان قوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ} [103] جوابا عن قولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ }. فبعد أن نزّه القرآن عن أن يكون مفترى والمنزّل عليه عن أن يكون مفتريا ثُني العنان لبيان من هو المفتري. وهذا من طريقة القلب في الحال.

{ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ** } ولأنهم أتوا في قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } بصيغة قصر هي أبلغ مما قالوه، قصر للمخاطب على صفة الافتراء الدائمة، إذ الجملة الاسمية تقتضي الثبات والدوام، رد عليهم بصيغة تقصرهم على الافتراء المتكرّر المتجدّد، إذ المضارع يدلّ على التجدّد.

{ **الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ** } عبّر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم فيقال: إنّما يفتري الكذب أنتم، ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، ولأنّ للصلة أثرا في افترائهم، لما تفيده الموصوليّة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. واختير في الصلة صيغة { لا يُؤْمِنُونَ } دون: لم يؤمنوا. لتكون على وزان ما عُرفوا به سابقا في قوله { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ }، ولما في المضارع من الدلالة على أنّهم مستمرّون على انتفاء الإيمان، لا يثبت لهم ضدّ ذلك.

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُون** } افتتحت باسم الإشارة، بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم، لينبّه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرهم على الكذب، لأنّ من لا يؤمن بآيات الله يتّخذ الكذب ديدنا له متجدّدا.

وجعل المسند في هذه الجملة معرفا باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتّحد بهم وصار منحصرا فيهم، أي الذين تُعرف أنهم طائفة الكاذبين. وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه.

{ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[106]

لما سبق التحذير من نقض عهد الله الذي عاهدوه، وأن لا يغرّهم ما لأمّة المشركين من السعة والرُبُو، والتحذير من زلل القدم بعد ثبوتها، وبُشِّروا بالوعد بحياة طيبة، جزاء أعمالهم الصالحة من الإشارة إلى التمسك بالقرآن والاهتداء به، وأن لا تغرّهم شُبه المشركين وفتونهم في تكذيب القرآن، عقّب ذلك بالوعيد على الكفر بعد الإيمان، فالكلام استئناف ابتدائي.

ومناسبة الانتقال أنّ المشركين كانوا يحاولون فتنة الراغبين في الإسلام والذين أسلموا. فلذلك ردّ عليهم بقوله { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ - إلى قوله - لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا } [102].

وكان الغلام الذي عنوه بقولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } قد أسلم ثم فتنه المشركون فكفر، وهو جبر مولى عامر بن الحضرمي. وكانوا راودوا نفرا من المسلمين على الارتداد، منهم: بلال، وخباب بن الأرت، وياسر وسميّة أبوا عمار بن ياسر، فثبتوا على الإسلام. وفتنوا عمارا فأظهر لهم الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وفتنوا نفرا آخرين فكفروا، وذُكر منهم: (الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أميّة بن خلف، والعاصي بن منبّه بن الحجاج). وأحسب أن هؤلاء هم الذين نزل فيهم قوله تعالى { وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاس كَعَذَابِ اللَّهِ } [العنكبوت:10]، فكان من هذه المناسبة رد لعجز الكلام على صدره.

كما ابتدئ بالتحذير تحفّظا على الصالح من الفساد، ثم أعيد الكلام بإصلاح الذين اعتراهم الفساد، وفتح باب الرخصة للمحافظين على صلاحهم بقدر الإمكان.

وإن كانت الآية لا تشير إلى نفر كفروا بعد إسلامهم، فهي مجرّد تحذير للمسلمين من العود إلى الكفر، ولذلك تكون (من) شرطية، والشرط غير مراد به معين بل هو تحذير، أي من يكفروا بالله، لأنّ الماضي في الشرط ينقلب إلى معنى المضارع، ويكون قوله { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ } جوابا.

والتحذير حاصل على كلا المعنيين.

{ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } فهو ترخيص ومعذرة لِمَا صدر من عمار بن ياسر وأمثاله إذا اشتدّ عليهم عذاب من فتنوهم.

{ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ } استثناء من عموم { مَنْ كَفَرَ }، أي إلّا من أكرهه المشركون على الكفر، أي على إظهاره فأظهره بالقول لكنّه لم يتغيّر اعتقاده.

{ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً } استدرك على الاستثناء، وهو احتراس من أن يُفهم أنّ المكره مرخّص له

أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه.

{ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } تدلّ الجملة الاسمية على الدوام والثبات، أي غضب لا مغفرة معه. وتقديم الخبر المجرور على المبتدأ للاهتمام بأمرهم، فقدّم ما يدل عليهم، ولتصحيح الإتيان بالمبتدأ نكرة حين قصد بالتنكير التعظيم، أي غضب عظيم، فاكتفى بالتنكير عن الصفة.

الإكراه: الإلجاء إلى فعل ما يُكره فعله. وإنّما يكون ذلك بفعل شيء تضيق عن تحمّله طاقة الإنسان من إيلام بالغ أو سجن أو قيد أو نحوه.

وقد رخّصت هذه الآية للمكره على إظهار الكفر، أن يظهره بشيء من مظاهره التي يطلق عليها أنّها كفر في عرف النّاس من قول أو فعل.

وقد أجمع علماء الإسلام على الأخذ بذلك في أقوال الكفر، فقالوا: فمن أكره على الكفر غير جارية عليه أحكام الكفر، لأنّ الإكراه قرينة على أنّ كفره تقيّة ومصانعة بعد أن كان مسلما. وقد رخّص الله ذلك رفقا بعباده واعتبارا للأشياء بغاياتها ومقاصدها.

وفي الحديث: أنّ ذلك وقع لعمار بن ياسر، وأنّه ذكر ذلك للنبيء ﷺ فصوّبه وقال له: **"وإن عادوا لك فعد"**. واجمع على ذلك العلماء.

وسوّى جمهور العلماء بين أقوال الكفر وأفعاله كالسجود للصنم. وقالت طائفة: إن الإكراه على أفعال الكفر لا يبيحها. ونسب إلى الأوزاعي وسحنون والحسن البصري، وهي تفرقة غير واضحة. وقد ناط الله الرخصة باطمئنان القلب بالإيمان.

وإذا كان الإكراه موجب الرخصة في إظهار الكفر فهو في غير الكفر من المعاصي أولى كشرب الخمر والزنا، وفي رفع أسباب المؤاخذة في غير الاعتداء على الغير كالإكراه على الطلاق أو البيع.

وأما في الاعتداء على النّاس من ترتب الغرم فبين مراتب الإكراه ومراتب الاعتداء المكروه عليه تفاوت، وأعلاها الإكراه على قتل نفس. وهذا يظهر أنّه لا يبيح الإقدام على القتل، لأنّ التوعّد قد لا يتحقّق وتفوت نفس القتيل.

والخلاف في طلاق المكره معلوم، والتفاصيل والتفاريع مذكورة في كتب الفروع وبعض التفاسير.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [107]

هذه الجملة واقعة موقع التعليل لمضمون قوله { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [106].

{ بِأَنَّهُمُ } الضمير عائد إلى { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ } [106]، والباء للسببية.

{ **اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ** } مبالغة في (أحبّوا). وضُمّن معنى فضّلوا بحرف (على)، أي لأنّهم قدّموا نفع الدنيا على نفع الآخرة، فهم قد استقرّ في قلوبهم أحقيّة الإسلام، وما رجعوا عنه إلّا خوف الفتنة أو رغبة في رفاهية العيش، فيكون كفرهم اشدّ من كفر المستصحبين للكفر من قبل البعثة.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** } سبب ثان للغضب والعذاب، أي وبأنّ الله حرمهم الهداية فهم موافونه على الكفر. وقد تقدّم تفسير ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ } [104].

وهو تذييل لما في صيغة { الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } من العموم الشامل للمتحدّث عنهم وغيرهم، فليس ذلك إظهارا في مقام الإضمار ولكنّه عموم بعد خصوص.

{ **الْقَوْمَ** } للدلالة على أنّ من كان هذا شأنهم فقد عرفوا به وتمكّن منهم وصار سجيّة، حتّى كأنّهم يجمعهم هذا الوصف.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [108]

مبيّنة لجملة { وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }، بأنّ حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من النظر الصادق في دلائل الوحدانيّة، ومن الوعي لدعوة الرّسول ﷺ والقرآن المنزّل عليه. ومن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبّسوا به.

الطبع: مستعار لمنع وصول الإيمان وأدلّته، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس. وقد تقدّم مفصّلا عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7].

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } تكملة للبيان، أي الغافلون الأكملون في الغفلة. والقصر قصر موصوف على صفة، وهو حقيقي ادعائي يقصد به المبالغة، لأنّهم بلغوا الغاية في الغفلة.

{ **لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } واقعة موقع النتيجة لما قبلها، لأنّ ما قبلها صار كالدليل على مضمونها، ولذلك افتتحت بكلمة نفي الشك.

{ **لا جَرَمَ** } بمعنى (لا محالة) أو (لا بدّ). وتقدّم بسط تفسيرها عند قوله تعالى { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:22]. ووقع هنا { هُمُ الْخَاسِرُونَ } لأنّ آية هود تقدّمها { أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }، فكان المقصود بيان خسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا.

والمعنى هنا: أن خسارتهم هي الخسارة، لأنّهم أضاعوا النعيم إضاعة أبدية.

{ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } [110]

عطف على { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ - إلى قوله - هُمُ الْخَاسِرُونَ } [106- 109].

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، كما هو شأنها في عطفها الجمل. وذلك أنّ مضمون هذه الجملة المعطوفة أعظم رتبة من المعطوف عليها، إذ لا أعظم من رضى الله تعالى كما قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **لِلَّذِينَ هَاجَرُوا** } المهاجرون إلى الحبشة الذين أذن لهم النبيء ﷺ بالهجرة للتخلّص من أذى المشركين. ولا يستقيم معنى الهجرة إلّا لهذه.

قال ابن إسحاق:" فلمّا رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ومن عمه أبي طالب، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتّى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا بدينهم " .

{ **هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا** } أومأ إلى حظّهم من الفضل، فسمّى عملهم هجرة. وهذا الاسم في مصطلح القرآن يدلّ على مفارقة الوطن لأجل المحافظة على الدين، كما حُكي عن إبراهيم - عليه السلام - { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } [العنكبوت:26]. وسمّى ما لقوه من المشركين فتنة.

الفتنة: العذاب والأذى الشديد المتكرّر الذي لا يترك لمن يقع به صبرا ولا رأيا. وتقدّم بيانها عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

المجاهدة: المقاومة بالجهد، أي الطاقة. والمراد هنا، دفاعهم المشركين عن أن يردّوهم إلى الكفر.

وهاتان الآيتان مكّيّتان نازلتان قبل شرع الجهاد الذي هو بمعنى قتال الكفار لنصر الدين.

الصبر: الثبات على تحمّل المكروه والمشاق.

ويدلّ على ذلك ما في صحيح البخاري: أنّ أسماء بنت عُميس، وهي ممن قدم من أرض الحبشة، دخلت على حفصة فدخل عمر عليها فقال لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحقّ برسول الله منكم، فغضبت أسماء وقالت: كلّا والله، كنتم مع النبيء يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنّا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، ونحن كنّا نؤذى ونخاف، وذلك في الله ورسوله، وأيّم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتّى أذكر ما قلت لرسول الله، فلمّا جاء النبيء ﷺ بيت حفصة قالت: أسماء: يا رسول الله إنّ عمر قال كذا وكذا، قال: " فما قلت له؟" قالت: قلت له كذا وكذا، قال: " ليس بأحقّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنّتم أهل السفينة هجرتان".

{ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } وتعريف المسند إليه الذي هو اسم (إنّ) بطريق الإضافة دون العلميّة لما

يومئ إليه إضافة لفظ (ربّ) إلى ضمير النبيء من كون المغفرة والرحمة لأصحابه كانت لأنّهم أوذوا لأجل الله ولأجل النبيء ﷺ فكان إسناد المغفرة إلى الله بعنوان كونّه ربّ مُحَمّد ﷺ حاصلا بأسلوب يدلّ على الذات العليّة وعلى الذات المحمّدية. وهذا من أدق لطائف القرآن في قرن اسم النبيء باسم الله بمناسبة هذا الإسناد بخصوصه.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } الضمير عائد إلى الهجرة المستفادة من { هَاجَرُوا } ، أو إلى المذكورات: من هجرة وفتنة وجهاد وصبر، أو إلى الفتنة المأخوذة من { فُتِنُوا }. وكل تلك الاحتمالات تشير إلى أنّ المغفرة والرحمة لهم جزاء على بعض تلك الأفعال أو كلّها.

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }[111]

يجوز أن يكون هذا استئنافا وتذييلا بتقدير: اذكر يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وقع عقب التحذير والوعيد؛ وعيدا للذين أُنذروا ووعدا للذين بُشّروا.

ويجوز أن يكون متّصلا بقوله { إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [110]، فيكون انتصاب { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ } على الظرفيّة { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }، أي يغفر لهم ويرحمهم يوم القيامة، بحيث لا يجدون أثرا لذنوبهم التي لا يخلو عنها غالب النّاس، ويجدون رحمة من الله بهم يومئذ. فهذا المعنى هو مقتضى الإتيان بهذا الظرف.

المجادلة: دفاع بالقول للتخلّص من تبعة فعل. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107].

{ **كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا** } النفس الأولى: بمعنى الذات والشخص كقوله { أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } [المائدة: 45]، والنفس الثانية ما به الشخص شخص، فالاختلاف بينهما بالاعتبار. وتقدّم في قوله { وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } [البقرة:44].

وذلك أن العرب يستشعرون للإنسان جملة مركّبة من جسد وروح فيسمّونها النفس، أي الذات، وهي ما يعبّر عنه المتكلم بضمير (أنا)، ويستشعرون للإنسان قوة باطنية بها إدراكه ويسمّونها نفسا أيضا. ومنه أخذ علماء المنطق اسم النفس الناطقة.

والمعنى: يأتي كل أحد يدافع عن ذاته، أي يدافع بأقواله ليدفع تبعات أعماله. ففاعل المجادلة وما هو في قوّة مفعوله شيء واحد. وهذا قريب من نوع وقوع الفاعل والمفعول شيئا واحد في أفعال الظن والدعاء، بكثرة مثل: أراني فاعلا كذا.

{ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }

{ **تُوَفَّى** } تُعطى شيئا وافيا، أي كاملا غير منقوص، و{ **مَا عَمِلَتْ** } مفعول ثان، وهو على حذف مضاف تقديره: جزاء ما علمت، أي من ثواب أو عقاب، وإظهار كل نفس في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل.

الظلم: الاعتداء على الحقّ. وأطلق هنا على مجاوزة الحدّ المعيّن للجزاء في الشرّ والإجحاف عنه في الخير، لأنّ الله لمّا عين الجزاء على الشرّ ووعد بالجزاء على الخير صار ذلك كالحقّ لكل فريق. والعلم بمراتب هذا التحديد مفوّض لله تعالى { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف:49].

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [112]

بعد أن توعّدهم بقوارع الوعيد بقوله { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [104] وقوله { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ - إلى قوله - لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [106 - 109]. عاد الكلام إلى تهديدهم بعذاب في الدنيا، بأنّ جعلهم مضرب مثل لقرية عُذّبت عذاب الدنيا، أو جعلهم مثلا وعظة لمن يأتي بمثل ما أتوا به من إنكار نعمة الله.

ويجوز أن يكون المعطوف عليها جملة { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ } [111]، على اعتبار تقدير (اذكر).

{ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً** }: بمعنى جعل، أي صاغ المثل وأوحى به إلى رسوله ﷺ. وصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه، مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [1]، أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال، مثل: قد قامت الصلاة.

ويجوز أن يكون { **وَضَرَبَ** } مستعملا في معنى الطلب والأمر، أي اضرب يا محمد لقومك مثلا قرية إلى آخره، كما سيجيء عند قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاء } [الزمر:29]. وإنّما صيغ في صيغة الخبر توسّلا إلى إسناده إلى الله، تشريفا له وتنويها به.

{ **قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً** } استغنى عن تعيين القرية، للتعريض بالمشركين باحتمال أن تكون القرية قريتهم أعني مكّة، بأن جعلهم مثلا للنّاس من بعدهم. ويقْوَى هذا الاحتمال إذا كانت هذه الآية قد نزلت بعد أن أصاب أهل مكّة الجوع الذي أنذروا به في قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النّاس هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الدخان: 10،11]. وهو الدخان الذي كان يراه أهل مكّة أيام القحط الذي أصابهم بدعاء النبيء ﷺ. ويؤيد هذا قوله بعد { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [113].

ولعلّ المخاطب بهذا المثل هم المسلمون الذين هاجروا من بعد ما فتنوا، أي أصحاب هجرة الحبشة، تسلية لهم مفارقة بلدهم، وبعثا لهم على أن يشكروا الله تعالى إذ أخرجهم من تلك القرية فسلموا مما أصاب أهلها وما يصيبهم.

{ **قَرْيَةً** } تقدّم معنى القرية عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259]. والمراد بالقرية أهلها إذ هم المقصود كقوله: { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف: 82].

{ **آمِنَةً** } السلامة من تسلّط العدو.

{ **مُطْمَئِنَّةً** } الدعة وهدوء البال. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260].

وقدّم الأمن على الطمأنينة إذ لا تحصل الطمأنينة بدونه.

{ **يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً** } تيسير الرزق فيها من أسباب راحة العيش، وقد كانت مكّة كذلك. قال تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ } [القصص:57].

الرزق: الأقوات. وقد تقدّم عند قوله { لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } [يوسف:37].

الرغد: الوافر الهنيء. وتقدّم عند قوله { وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا } [البقرة:35].

{ **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** } بمعنى من أمكنة كثيرة. و (كلّ) تستعمل في معنى الكثرة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا } [الأنعام:25].

الأنعُم: جمع نعمة على غير قياس.

{ **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ** } الكفر بالمُنعِم، لأنّهم أشركوا غيره في عبادته، فلم يشكروا المنعم الحقّ. وهذا يشير إلى قوله تعالى { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } [83].

{ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** } تعقيب عرفي في مثل ذلك المعقّب، لأنّه حصل بعد مضيّ زمن عليهم وهم مصرّون على كفرهم والرّسول يكرّر الدعوة وإنذارهم به. فلمّا حصل عقِب ذلك بمدّة غير طويلة، وكان جزاء على كفرهم، جُعل كالشيء المعقّب به كفرهم.

الإذاقة: حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم. وهي مستعارة هنا وفي مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى، إحساسا مكينا، كتمكّن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعا، وقد تقدّم في قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

اللباس: حقيقته الشيء الذي يلبس. وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنّه مستعار إلى ما يغشى من حالة إنسان ملازمة له كملازمة اللباس لابسه، كقوله تعالى { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ } [البقرة187].

ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين لأنّ تمام اللبسة أن يلبس المرء إزارا ودرعا.

{ **بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** } أجمل هنا، اعتمادا على سبق ما بيّنه من قوله { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ }.

{ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ }[113]

لمّا أخبر عنهم بأنّهم أذيقوا لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وكان إنّما ذكر من صنعهم أنّهم كفروا بأنعم الله. زيد هنا أنّ ما كانوا يصنعون عام لكلّ عمل لا يرضي الله، غير مخصوص بكفرهم نعمة الله، وإنّ من أشنع ما كانوا يصنعون تكذيبهم رسول الله ﷺ مع أنّه منهم. وذلك أظهر في معنى الإنعام عليهم والرفق بهم. وما من قرية أُهلكت إلّا وقد جاءها رسول من أهلها { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حتّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } [القصص: 59].

الأخذ: الإهلاك. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف:95].

وتأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق للاهتمام بهذا الخبر تنبيها للسامعين المعرّض بهم لأنّه محل الإنذار.

{ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }[114]

تفريع على الموعظة وضرب المثل، وخوطب به فريق من المسلمين كما دل عليه قوله { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ } [114،115] إلى آخره.

ولعلّ هذا موجّه إلى أهل هجرة الحبشة إذ أصبحوا آمنين عند ملك عادل في بلد يجدون فيه رزقا حلالا وهو ما يُضافون به وما يكسبونه بكدّهم، أي إذا علمتم حال القرية الممثّل بها أو المعرّض بها فاشكروا الله الذي نجّاكم من مثل ما أصاب القرية، فاشكروا الله ولا تكفروه كما كفر بنعمته أهل تلك القرية.

{ **فَكُلُوا** } الأمر للامتنان. وإدخال حرف التفريع عليه باعتبار أنّ الأمر بالأكل مقدّمة للأمر بالشكر، وهو المقصود بالتفريع. والمقصود: فاشكروا نعمة الله ولا تكفروها فيحلّ بكم ما حل بأهل القرية المضروبة مثلا.

الحلال: المأذون فيه شرعا. و**الطيب**: ما يطيب للنّاس طعمه وينفعهم قوته.

{ **وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ** } إظهار اسم الجلالة مع أن مقتضى الظاهر الإضمار لزيادة التذكير، ولتكون جملة هذا الأمر مستقلّة بدلالتها بحيث تصحّ أن تجرى مجرى المثل.

{ **إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** } إن كنتم لا تعبدون غيره كما هو مقتضى الإيمان. وتعليق ذلك بالشرط للبعث على الامتثال لإظهار صدق إيمانهم.

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [115]

بيان لمضمون { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً } [114] لتمييز الطيّب من الخبيث فإنّ المذكورات في المحرّمات هي خبائث خبثا فطريّا لأنّ بعضها مفسد لتولّد الغذاء، لما يشتمل عليه من المضرّة. وتلك هي الميتة والدم ولحم الخنزير. وبعضها مناف للفطرة، وهو ما أُهلّ به لغير الله لأنّه مناف لشكر المنعم بها، فالله خلق الأنعام والمشركون يذكرون اسم غير الله عليها.

ولإفادة بيان الحلال الطيب بهذه الجملة جيء فيها بأداة الحصر، أي ما حرم عليكم إلّا الأربع المذكورات فبقي ما عداها طيبا. وهذا بالنظر إلى الطيّب والخبث بالذات. وقد يعرض الخبث لبعض المطعومات عرضا. ومناسبة هذا التحديد في المحرّمات أنّ بعض المسلمين كانوا بأرض غربة وقد يؤكل فيها لحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وكان بعضهم ببلد يؤكل فيه الدم وما أهل به لغير الله. وقد مضى تفسير نظير هذه الآية في سورة البقرة والأنعام.

{ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [116] مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [117].

عاد الخطاب إلى المشركين، فالجملة معطوفة على جملة { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً } [112].

وفيه تعريض بتحذير المسلمين لأنّهم كانوا قريبي عهد بجاهلية فربما بقيت في نفوس بعضهم كراهية أكل ما كانوا يتعفّفون عن أكله في الجاهلية.

{ لِمَا تَصِفُ } واللام هي إحدى اللامين اللتين يتعدّى بهما فعل القول وهي التي بمعنى (عن) الداخلة على المتحدّث عنه، فهي كاللام في قوله { الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا } [آل عمران:168]، أي قالوا عن إخوانهم. وليست هي لام التقوية الداخلة على المخاطب بالقول.

{ تَصِفُ } معناه تذكر وصفا وحالا، كما في قوله تعالى { وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى } [62]. أي لا تقولوا ذلك وصفا كذبا، لأنّه تقوُّل لم يقله الذي له التحليل والتحريم وهو الله تعالى.

{ الْكَذِبَ } انتصب على المفعول المطلق لـ { تَصِفُ } ، أي وصفا كذبا.

{ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ } اسم الإشارة حكاية بالمعنى لأوصافهم أشياء بالحلّ وأشياء بالتحريم.

{ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } علّة لـ { تقولوا } باعتبار كون الافتراء حاصلا لا باعتبار كونه مقصودا للقائلين، فهي لام العاقبة وليست لام العلة. وقد تقدّم قريبا أنّ المقصد منها تنزيل الحاصل المحقّق حصوله بعد الفعل

منزلة الغرض المقصود من الفعل.

افتراء الكذب تقدّم آنفا. والذين يفترون هم المشركون الذين حرّموا أشياء.

{ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } استئناف بياني في صورة جواب عمّا يجيش بخاطر سائل يسأل عن عدم فلاحهم مع مشاهدة كثير منهم في حالة من الفلاح، فأجيب بأنّ ذلك متاع، أي نفع موّقت زائل ولهم بعده عذاب أليم.

والآية تحذّر المسلمين من أن يتقوّلوا على الله ما لم يقله.

{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[118]

لما شنّع على المشركين أنّهم حرّموا على أنفسهم ما لم يحرّمه الله، وحذّر المسلمين من تحريم أشياء على أنفسهم جريا على ما اعتاده قومهم من تحريم ما أحلّ لهم، نظّر أولئك وحذّر هؤلاء. فهذا وجه تعقيب الآية السالفة بهذه الآية.

{ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا** } تقديم المجرور للاهتمام، وللإشارة إلى أنّ ذلك حرّم عليهم ابتداء ولم يكن محرّما من شريعة إبراهيم عليه السلام التي كان عليها سلفهم، كما قال تعالى { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إلّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ } [آل عمران:93]، أي عليهم دون غيرهم فلا تحسبوا أنّ ذلك من الحنيفيّة.

{ **مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ** } المراد منه ما ذُكر في سورة الأنعام { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [146] كما روي عن الحسن وعكرمة وقتادة.

{ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** }، أي وما ظلمناهم بما حرّمنا عليهم ولكنّهم كفروا النعمة فحُرموا من نعم عظيمة.

وغير أسلوب الكلام إلى خطاب النبيء ﷺ لأنّ جانب التحذير فيه أهم من جانب التنظير.

{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [119]

لمّا ذكرت أحوال أهل الشرك وكان منها ما حرّموه على أنفسهم، وكان المسلمون قد شاركوهم أيام الجاهلية في ذلك، ووردت قوارع الذمّ لما صنعوا، كان مما يتوهّم علوقه بأذهان المسلمين أن يحسبوا أنّهم سينالهم شيء من غمص لما اقترفوه في الجاهلية، فطمأن الله نفوسهم بأنّهم لمّا تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام وأصلحوا عملهم بعد ان أفسدوا فإنّ الله قد غفر لهم مغفرة عظيمة ورحمهم رحمة واسعة.

{ رَبَّكَ } ووقع الإقبال بالخطاب على النبيء ﷺ إيماء إلى أنّ تلك المغفرة من بركات الدين الذي أرسل به.

وذكر اسم الربّ مضافا إلى ضمير النبيء للنكتة المتقدمة آنفا في قوله { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا }.

الجهالة: انتفاء العلم بما يجب. والمراد: جهالتهم بأدلّة الإسلام.

{ ثُمَّ } للترتيب الرتبي، لأنّ الجملة المعطوفة تضمّنت حكم التوبة وأنّ المغفرة والرحمة من آثارها، وذلك أهم عند المخاطبين مما سبق من وعيد، أي الذين عملوا السوء جاهلين بما يدلّ على فساد ما عملوه.

ويدخل في هذا الحكم من عمل حراما من المسلمين جاهلا بأنّه حرام وكان غير مقصّر في جهله. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } [النساء:17].

{ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } تأكيد لفظي لقوله { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ } لزيادة الاهتمام بالخبر على الاهتمام الحاصل بحرف التوكيد ولام الابتداء.

{ مِنْ بَعْدِهَا } عائد إلى الجهالة أو إلى التوبة.

ووقع الخبر بوصف الله بصفة المبالغة في المغفرة والرحمة، وهو كناية عن غفرانه لهم ورحمته إيّاهم.

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [120] **شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** [121] **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }** [122].

استئناف ابتدائي للانتقال إلى غرض التنويه بدين الإسلام. فبعد أن بشّرهم بأنّه غفر لهم ما عملوه من قبل، زادهم فضلا ببيان فضل الدين الذي اتّبعوه. وجعل الثناء على إبراهيم عليه السلام مقدّمة لذلك. والمقصود، بعد هذا التمهيد و هاته المقدّمة، هو الإفضاء إلى قوله { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123].

والأصل الأصيل الذي تفرّع عنه وعن فروعه هذا الانتقال، ما ذكر في الآية قبلها من تحريم أهل الجاهلية على أنفسهم كثيرا ممّا أنعم الله به على الناس، ونظّرهم باليهود إذ حرم الله عليهم أشياء، تشديدا عليهم، فجاء بهذا الانتقال لإفادة أنّ كلا الفريقين قد حادوا عن الحنيفيّة التي يزعمون أنهم متابعوها، وأنّ الحنيفة هي ما

جاء به الإسلام من إباحة ما في الأرض جميعا من الطيبات إلّا ما بيّن الله تحريمه في آية { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً } [الأنعام:145].

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً }

الأمة: الطائفة العظيمة من النّاس التي تجمعها جهة جامعة. وتقدم في قوله تعالى { كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً } [البقرة:213]. ووصف إبراهيم - عليه السلام – بذلك، وصفٌ بديعٌ لمعنيين:

أحدهما: أنه كان في الفضل والفتوّة والكمال بمنزلة أمّة كاملة. وهذا كقولهم: أنت الرجل كلّ الرجل.

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن النبيء ﷺ قال: " معاذٌ أمة قانتٌ لله".

الثاني: أنّه كان أمّة وحده في الدين، لأنّه لم يكن في وقت بعثته، موحّد لله غيره. فهو الذي أحيا الله به التوحيد، وبثّه في الأمم والأقطار، وبنى له معلما عظيما، وهو الكعبة، ودعا النّاس إلى حجّه لإشاعة ذكره بين الأمم، ولم يزل باقيا على العصور.

القانت: المطيع. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة:238].

الحنيف: المجانب للباطل. وقد تقدّم عند قوله { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [البقرة:135].

{ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } اعتراض لإبطال مزاعم المشركين أنّ ما هم عليه هو دين إبراهيم - عليه السلام - وقد صوّروا إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام ووضعوا الصورة في جوف الكعبة، كما جاء في حديث غزوة الفتح. فليس القول مسوقا مساق الثناء على إبراهيم، ولكنّه تنزيه له عمّا اختلقه عليه المبطلون. فوزانه وزان قوله { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [التكوير:22]. وهو كالتأكيد لوصف الحنيف بنفي ضدّه مثل { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

{ وَلَمْ يَكُ } ونفي كونه من المشركين بحرف (لَمْ) لأنّها تقلب زمن الفعل المضارع إلى الماضي، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي، وتفيد تجدد ذلك المنفي. أي أنّ إبراهيم عليه السلام لم يتلبس بالإشراك قط، وأنّه لا يتلبس بالإشراك أبدا.

{ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ } مدح لإبراهيم - عليه السلام - وتعريض بذرّيّته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله مقابل قوله { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ } [112]. وتقدّم قريبا الكلام على أنعم الله.

{ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } مستأنفة استئنافا بيانيا، لبيان سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد.

الاجتباء: الاختيار، وهو افتعال من جبى إذا جمع.

الهداية إلى الصراط المستقيم: الهداية إلى التوحيد ودين الحنيفيّة.

{ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } ضمير { آتَيْنَاهُ } التفات من الغيبة إلى التكلم تفننا في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة.

الحسنة في الدنيا: كلّ ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب بالدين، والصحة، والسلامة، وسعة الرزق الكافي، وحسن الذكر بين النّاس. وتقدّم في قوله { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } [البقرة:201].

الصلاح: تمام الاستقامة في دين الحقّ. واختير هذا الوصف إشارة إلى أنّ الله أكرمه بإجابة دعوته، إذ حكى عنه أنّه قال { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [الشعراء:83].

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [123]

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي المشير إلى أنّ مضمون الجملة المعطوفة متباعد في رتبة الرفعة على مضمون ما قبلها، تنويها جليلا بشأن النبيء ﷺ وبشريعة الإسلام، وزيادة في التنويه بإبراهيم - عليه السلام -، أي جعلناك متّبعا ملة إبراهيم، وذلك أجلّ ما أوليناكما من الكرامة. وقد بيّنت آنفا أنّ هذه الجملة هي المقصود، وأن جملة { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } تمهيد لها.

{ **أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } للتنبيه على أن اتّباع محمد ملّة إبراهيم كان بوحي من الله وإرشاد صادق، تعريضا بأنّ الذين زعموا اتّباعهم ملّة إبراهيم من العرب من قبل قد أخطأوها بشبهة، مثل أمية بن أبي الصلت، وزيد ابن عمرو بن نفيل، أو بغير شبهة مثل مزاعم قريش في دينهم.

{ **أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** } بيان وتفسير لفعل { أَوْحَيْنَا }، لأنّ فيه معنى القول دون حروفه، فاحتيج إلى تفسيره بحرف التفسير(أن).

الاتّباع: اقتفاء السير على سير آخر. وهو هنا مستعار للعمل بمثل عمل الآخر.

{ **حَنِيفاً** } انتصب على الحال من { إِبْرَاهِيمَ } فيكون زيادة تأكيد لمماثلة قبله، أي كن يا محمد حنيفا كما كان إبراهيم حنيفا. ولذلك قال النبيء ﷺ: " بعثت بالحنيفيّة السمحة ".

وهذا تفسير بكلام جامع لما أوحى الله به إلى محمد ﷺ من شرائع الإسلام مع الإعلام بأنّها مقامة على أصول ملّة إبراهيم. وليس المراد أوحينا إليك كلمة { اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنيفاً }، لأنّ النبيء ﷺ لا يعلم تفاصيل ملّة إبراهيم، فتعيّن أنّ المراد، أنّ الموحى به إليه منبجس من شريعة إبراهيم - عليه السلام- .

{ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } هو مما أوحاه الله إلى محمد ﷺ المحكي بقوله { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }.

وقد علم من هذا أن دين الإسلام منزّه عن أن تتعلّق به شوائب الإشراك لأنّه جاء كما جاء إبراهيم معلنا توحيدا لله بالإلهية ومجتثّا لوشيج الشرك. والشرائع الإلهية كلّها وإن كانت تحذّر من الإشراك فقد امتاز القرآن من بينها بسد المنافذ التي يتسلّل منها الإشراك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، وأنّه لم يترك في ذلك كلاما متشابها كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى، مثل ما جاء في التوراة من وصف اليهود بأبناء الله، وما في الأناجيل من موهِم بنوّة - عيسى عليه السلام - لله سبحانه عما يصفون.

وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبيء ﷺ في خطبة حجة الوداع: " أيّها النّاس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا، ولكنّه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقّرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم ".

ومعنى اتباع محمد ملّة إبراهيم، الواقع في كثير من آيات القرآن، أنّ دين الإسلام بني على أصول ملّة إبراهيم، وهي أصول الفطرة، والتوسّط بين الشدّة واللين، كما قال تعالى { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج:78].

فالشريعة التي تبنى تفاصيلها وتفاريعها على أصول شريعة تعتبر كأنّها تلك الشريعة. ولذلك قال المحقّقون من علمائنا: إنّ الحكم الثابت بالقياس في الإسلام يصحّ أن يقال إنّه دين الله وإن كان لا يصح أن يقال: قاله الله. وليس المراد أنّ جميع ما جاء به الإسلام قد جاء به إبراهيم - عليه السلام - إذ لا يخطر ذلك بالبال، فإنّ الإسلام شريعة قانونية سلطانية، وشرع إبراهيم شريعة قبائليّة خاصة بقوم، ولا أنّ المراد أن الله أمر النبيء محمدا ﷺ باتباع ملة إبراهيم ابتداء قبل أن يوحي إليه بشرائع دين الإسلام، لأنّ ذلك وإن كان صحيحا من جهة المعنى، وتحتمله ألفاظ الآية، لكنّه لا يستقيم، إذ لم يرد في شيء من التشريع الإسلامي ما يشير إلى أنّه نسخ لما كان عليه النبيء ﷺ من قبل.

فاتباع النبيء ملة إبراهيم كان بالقول والعمل في أصول الشريعة من إثبات التوحيد والمحاجّة له، واتباع ما تقتضيه الفطرة. وفي فروعها ممّا أوحى الله إليه من الحنيفيّة مثل الختان وخصال الفطرة والإحسان.

{ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }[124]

موقع هذه الآية ينادي على أنّها تضمّنت معنى يرتبط بملة إبراهيم وبمجيء الإسلام على أساسها.

فلمّا نفت الآية قبل هذه أن يكون إبراهيم - عليه السلام - من المشركين، ردا على مزاعم العرب المشركين أنّهم على ملّة إبراهيم، انتقل بهذه المناسبة إلى إبطال ما يشبه تلك المزاعم. وهي مزاعم اليهود أنّ ملّة اليهودية هي ملّة إبراهيم، زعما ابتدعوه حين ظهور الإسلام جحدا لفضيلة فاتتهم، وهي فضيلة بناء دينهم على أوّل دين للفطرة الكاملة حسدا من عند أنفسهم. وقد بيّنّا ذلك عند قوله تعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ } [آل عمران:65]. ولمّا كانت هذه السورة مكّيّة لم يتعرّض فيها للنصارى الذين تعرض لهم في سورة آل عمران.

{ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ** } استئنافا بيانيّا نشأ عن قوله { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123] إذ يثير سؤلًا من المخالفين: كيف يكون الإسلام من ملة إبراهيم؟ وفيه جعل يوم الجمعة اليوم المقدس. وقد جعلت

التوراة لليهود يوم التقديس يوم السبت. ولعل اليهود شغبوا بذلك على المسلمين، فكان قوله { إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ } بيانا لجواب هذا السؤال.

{ **إنّما** } للحصر، وهو قصر قلب مقصود به الرد على اليهود بالاستدلال عليهم بأنّهم ليسوا على ملة إبراهيم، لأنّ السبت جعله الله لهم شرعا جديدا بصريح كتابهم إذ لم يكن عليه سلفهم.

{ **جُعِلَ** } فرض وعين عليهم، أي فرضت عليهم أحكام السبت؛ من تحريم العمل فيه، وتحريم استخدام الخدم والدواب. وعدل عن ذكر اسم اليهود أو بني إسرائيل مع كونه أوجز إلى التعبير عنهم، بالموصول لأنّ اشتهارهم بالصلّة كاف في تعريفهم، مع ما في الموصول وصلته من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وذلك الإيماء هو المقصود هنا، لأنّ المقصود إثبات أنّ اليهود لم يكونوا على الحنيفيّة كما علمت آنفا.

{ **عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ** } وليس المعنى وقوع خلاف بينهم بأمر السبت، بل فعل {اخْتَلَفُوا} مراد به خالفوا، أي عملهم خلاف ما أمر به أنبياؤهم. فحاصل المعنى هكذا: ما فُرض عليهم السبت إلّا لأنّهم لم يكونوا على ملّة إبراهيم، إذ مما لا شك فيه عندهم أنّ ملّة إبراهيم ليس منها حرمة السبت ولا هو من شرائعها.

ولا يؤخذ من هذا أنّ ملة إبراهيم كان اليوم المقدّس فيها يوم الجمعة، لعدم ما يدلّ على ذلك.

ثم الأظهر أنّ حرمة يوم الجمعة أُدّخِرت للملّة الإسلامية لقول النبيء ﷺ: " فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه فالنّاس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد". فقوله: " فهدانا الله إليه " يدل على أنّه لم يسبق ذلك في ملّة أخرى.

فهذا وجه تفسير هذه الآية، ومحمل الفعل والضمير المجرور في قوله { اخْتَلَفُوا فِيهِ }، وما ذكره المفسّرون من وجوه لا يخلو من تكلّف وعدم طائل. وقد جعلوا ضمير { فيه } عائدا إلى { السبت }. وتأوّلوا معنى الاختلاف فيه بوجوه.

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[125]

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }

يتنزل معنى هذه الآية منزلة البيان لقوله { أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123] فإنّ المراد بما أوحي إليه من اتّباع ملّة إبراهيم هو دين الإسلام، ودين الإسلام مبني على قواعد الحنيفيّة، فلا جرم كان الرّسول ﷺ بدعوته النّاس إلى الإسلام داعيا إلى اتباع ملة إبراهيم.

{ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ** } ومخاطبة الله رسوله ﷺ بهذا الأمر في حين أنّه داع إلى الإسلام وموافق لأصول ملّة إبراهيم دليل على أنّ صيغة الأمر مستعملة في طلب الدوام.

فتضمّنت الآية تثبيت الرسول ﷺ على الدعوة، وأنّ لا يؤيّسه قول المشركين له { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } [101] وقولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [103]، وأن لا يصدّه عن الدعوة أنّه تعالى لا يهدي الذين لا يؤمنون بآيات الله.

ذلك أنّ المشركين لم يتركوا حيلة يحسبونها تثبّط النبيء ﷺ عن دعوته إلّا ألقوا بها إليه؛ من تصريح بالتكذيب، واستسخار، وتهديد، وبذاءة، واختلاق، وبهتان، كما ذلك محكي في تضاعيف القرآن.

قال القرطبي: إنّ هذه الآية نزلت بمكّة في وقت الأمر بمهادنة قريش أي في مدّة صلح الحديبية.

{ **سَبِيلِ رَبِّكَ** } طريقه. وهو مجاز لكلّ عمل من شأنه أن يبلّغ عامله إلى رضى الله تعالى.

وصار هذا المركّب علما بالغلبة على دين الإسلام، كما في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال:36].

ويطلق سبيل الله علما بالغلبة أيضا على نصرة الدين بالقتال كما في قوله تعالى { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41].

وحذف مفعول { ادع } لقصد التعميم. أو لأنّ الفعل نزل منزلة اللازم، لأنّ المقصود الدوام على الدعوة لا بيان المدعوين.

{ **بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** } الباء للملابسة. ومعنى الملابسة يقتضي أن لا تخلو دعوته إلى سبيل الله عن هاتين الخصلتين: الحكمة، والموعظة الحسنة.

الحكمة: هي المعرفة المُحكمة، أي الصائبة المجرّدة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلّا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم النّاس وفي تهذيبهم.

ولذلك عرّفوا الحكمة بأنّها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطئ في العلل والأسباب. وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال النّاس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغيّر. وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269] مفصّلا فانظره. وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء، ويرادفها الحكم.

الموعظة: القول الذي يُلين نفس المقول له لعمل الخير. وهي أخصّ من الحكمة، لأنّها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها. وتقدمت عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

{ **الْحَسَنَةِ** } ووصفها بالحسن تحريض على أن تكون ليّنة مقبولة عند الناس، أي حسنة في جنسها.

{ **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** }، و**المجادلة**: الاحتجاج لتصويب رأي أو عمل، وإبطال ما يخالفه. ولمّا كان ما

لقيه النبيء ﷺ من أذى المشركين قد يبعثه على الغلظة في المجادلة أمره الله بأن يجادلهم بالتي هي أحسن. وتقدّمت قريبا عند قوله { تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا } [111]. والمعنى: إذا ألجأتك الدعوة إلى محاجّة المشركين فحاججهم بالتي هي أحسن.

والمفضل عليه المحاجة الصادرة منهم، فإنّ المجادلة تقتضي صدور الفعل من الجانبين، فعلم أنّ المأمور به أن تكون المحاجّة الصادرة منه أشدّ حسنا من المحاجّة الصادرة منهم، كقوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [المؤمنون:96].

ولما كانت المجادلة لا تكون إلّا مع المعارضين صرّح في المجادلة بضمير جمع الغائبين المراد منه المشركون، فإن المشركين متفاوتون في كيفيات محاجّتهم، فمنهم من يحاجّ بلين، مثل ما في الحديث: " أنّ النبيء ﷺ قرأ القرآن على الوليد بن المغيرة ثم قال له: " هل ترى بما أقول بأسا" قال: لا والدماء ".

وقرأ النبيء ﷺ القرآن على عبد الله بن أبي بن سلول في مجلس قومه، فقال عبد الله بن أبي: " أيّها المرء إن كان ما تقول حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّث إيّاه، ومن لم يأتك فلا تُغتّه ولا تأته في مجلسه بما يكره منه ".

وتصدّي المشركين لمجادلة النبيء ﷺ تكرّر غير مرة. ومن ذلك ما روي عن ابن عباس: أنّه لما نزل قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الأنبياء:98]، قال عبد الله الزَبَعْرَي: لأَخْصُمَنّ محمدا، فجاءه فقال: يا محمد قد عُبد عيسى، وعُبدت الملائكة فهل هم حصب لجهنم؟ فقال النبيء ﷺ: " اقرأ ما بعد { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء:101]. أبو داود في كتاب (الناسخ والمنسوخ).

وقيّدت الموعظة بالحسنة ولم تقيّد الحكمة بمثل ذلك، لأنّ الموعظة لمّا كان المقصود منها غالبا ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيّئة أو عن توقّع ذلك منه، كانت مظنةً لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ، أرشد الله رسوله أن يتوخّى في الموعظة أن تكون حسنة، أي بإلانَة القول وترغيب الموعوظ في الخير، قال تعالى خطابا لموسى وهارون { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْيَخْشَى} [طه:43].

وفي حديث الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال: "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون".

وأمّا الحكمة فهي تعليم لمتطلّبي الكمال، من معلّم يهتم بتعليم طلابه، فلا تكون إلّا في حالة حسنة، فلا حاجة إلى التنبية على أن تكون حسنة.

والمجادلة لما كانت محاجة في فعل أو رأي لقصد الإقناع بوجه الحقّ فيه فهي لا تعدو أن تكون من الحكمة أو من الموعظة، ولكنّها جعلت قسيما لهما هنا بالنظر إلى الغرض الداعي إليها.

{ **وَجَادِلْهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين بقرينة المقام لظهور أنّ المسلمين لا يجادلون النبيء ﷺ ولكن يتلقون منه تلقي المستفيد والمسترشد. وهذا موجب تغيير الأسلوب بالنسبة إلى المجادلة إذ لم يقل: والمجادلة الحسنة. قال تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت: 46].

والآية تقتضي أنّ القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاثة من أساليب الدعوة، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعا النّاس بغير القرآن من خطبه ومواعظه وإرشاده يسلك معهم هذه الطرق الثلاثة. وذلك كلّه بحسب ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ومن أحوال المخاطبين من خاصة وعامة.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين** }

هذه الجملة تعليل للأمر بالاستمرار على الدعوة بعد الإعلام بأنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، وبعد وصف أحوال تكذيبهم وعنادهم. فلمّا كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان الحكمة في ذلك بيّنت الحكمة، بأنّ الله هو أعلم بمصير النّاس وليس ذلك لغير الله من النّاس فما عليك إلّا البلاغ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم.

{ **أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ** } قدّم العلم بمن ضلّ لأنّه المقصود من التعليل، لأنّ دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين في جانبهم بالموعظة الحسنة والمجادلة الحسنى أهمّ، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه التكميل. وفيه إيماء إلى أنّه لا يدري أن يكون بعض من أيس من إيمانه قد شرح الله صدره للإسلام بعد اليأس منه.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ** } تأكيد الخبر بضمير الفصل للاهتمام به. وأما { إِنَّ } فهي في مقام التعليل وليست لمجرّد الاهتمام، وهي قائمة مقام فاء التفريع على ما أوضحه عبد القاهر في دلائل الإعجاز، فإنّ إفادتها التأكيد هنا مستغنى عنها بوجود ضمير الفصل في الجملة المفيدة لقصر الصفة على الموصوف، فإن القصر تأكيد على تأكيد.

{ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** } إعادة ضمير الفصل للتنصيص على التقوية ، لأنّه لو قيل: وأعلم بالمهتدين، لاحتمل أن يكون معطوفا على جملة { هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ }، فأعيد ضمير الفصل لدفع هذا الاحتمال. ولم يقل: (وبالمهتدين)، تصريحا بالعلم في جانبهم ليكون صريحا في تعلّق العلم به. وهذان القصران إضافيّان، أي ربك أعلم بالضالين والمهتدين.

{ **هُوَ أَعْلَمُ** } التفضيل تفضيل على علم غيره بذلك. وفي هذا التفضيل إيماء إلى وجوب طلب كمال العلم بالهدى، وتمييز الحقّ من الباطل، وغوص النظر في ذلك، وتجنّب التسرّع في الحكم دون قوّة ظنّ بالحقّ.

والتخلق بهذه الآية هو أنّ كلّ من يقوم مقاما من مقامات الرسول ﷺ في إرشاد المسلمين أو سياستهم يجب عليه أن يكون سالكا للطرائق الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلّا

كان منصرفا عن الآداب الإسلامية وغير خليق بما هو فيه من سياسة الأمّة، وأن يخشى أن يعرّض مصالح الأمّة للتلف، فإصلاح الأمّة يتطلب إبلاغ الحقّ إليها بهذه الوسائل الثلاث. والمجتمع الإسلامي لا يخو عن متعنّت أو ملبّس، وكلاهما يلقي في طريق المصلحين شوك الشبه بقصد أو بغير قصد. فسبيل تقويمه هو المجادلة، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه.

في الموطأ أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال في خطبة خطبها في آخر عمره: " أيّها النّاس قد سُنّت لكم السنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتُركتم على الواضحة، إلّا أن تضلّوا بالنّاس يمينا وشمالا " وضرب بإحدى يديه على الأخرى.

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } [126]

عطف على { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ } [125]، أي إن كان المقام مقام الدعوة فلتكن دعوتك إيّاهم كما وصفنا، وإن كنتم أيّها المؤمنون معاقبين المشركين على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل لا بتجاوز حدّ ما لقيتم منهم. فهذه الآية متّصلة بما قبلها أتمّ اتصال، وحسبك وجود العاطف فيها.

وهذا تدرّج في رتب المعاملة، من معاملة الذين يدعون ويوعظون إلى معاملة الذين يجادلون ثم إلى معاملة الذين يجازون على أفعالهم. وبذلك حصل حسن الترتيب في أسلوب الكلام.

وهذا مختار النحاس وابن عطية وفخر الدين، وبذلك يترجّح كون هذه الآية مكّيّة مع سوابقها ابتداء من الآية الحادية والأربعين، وهو قول جابر بن زيد، كما تقدّم في أوّل السورة. واختار ابن عطية أنّ هذه الآية مكّيّة. ولعلّه اشتبه على الرواة تذكّر النبيء ﷺ الآية حين توعّد المشركين بأن يمثّل بسبعين منهم إن أظفره الله بهم. في قصّة التمثيل بحمزة يوم أحد.

والخطاب للمؤمنين ويدخل فيه النبيء ﷺ.

المعاقبة: الجزاء على فعل السوء بما يسوء فاعل السوء.

{ **بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ** } مشاكلة لـ { عاقبتم }. استعمل {عوقبتم} في معنى عوملتم به، لوقوعه بعد فعل {عاقبتم}، فهو استعارة وجه شبهها هو المشاكلة. ويجوز أن يكون { عوقبتم } حقيقة لأنّ ما يلقونه من الأذى من المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أصنامهم وتسفيه آباءهم.

{ **فعاقبوا** } الأمر للوجوب باعتبار متعلّقه، وهو{ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} فإن عدم التجاوز في العقوبة واجب.

وفي هذه الآية إيماء إلى أنّ الله يظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم، فلعلّ بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب.

{ **وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** } رغّبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين

وبالعفو عنهم، لأنّه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه { خَيْرٌ } ، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34] وقوله تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [الشورى:40].

وأكد كون الصبر خيرا بلام القسم زيادة في الحثّ عليه. وعبّر عنهم بالصابرين إظهار في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين.

{ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ }[127]

خصّ النبيء ﷺ بالأمر بالصبر للإشارة إلى أنّ مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى، أخذا بالعزيمة بعد أنّ رخصّ لهم في المعاقبة.

{ **وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** } معترضة بين المتعاطفات، أي وما يحصل صبرك إلّا بتوفيق الله إيّاك. وفي هذا إشارة إلى أنّ صبر النبيء ﷺ عظيم لأنّه لقي من أذى المشركين أشدّ مما لقيه عموم المسلمين. فصبره ليس كالمعتاد، لذلك كان حصوله بإعانة من الله.

{ **وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** } حذّره من الحزن عليهم إن لم يؤمنوا كقوله { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِين } [الشعراء:3].

{ **وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ** } ثمّ أعقبه بأن لا يضيق صدره من مكرهم. وهذه أحوال مختلفة تحصل في النفس باختلاف الحوادث المسبّبة لها، فإنّهم كانوا يعاملون النبيء مرة بالأذى علنا، ومرة بالإعراض عن الاستماع إليه وإظهار أنهم يغيظونه بعدم متابعته، وآونة بالكيد والمكر له، وهو تدبير الأذى في خفاء.

الضَيْق: (بفتح الضاد وسكون الياء) مصدر ضاق، مثل السير والقول. وبها قرأ الجمهور . وتقدّم عند قوله {وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود: 12]. والمراد ضيق النفس، يقال: فلان ضيّق الصدر، وهو **مستعار للجزع والكدر**، كما استعير ضدّه وهو السعة والاتساع للاحتمال والصبر، يقال: سعة الصدر. قال تعالى { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } [الحجر:97].

{ **فِي ضَيْقٍ** } ظرفية مجازية.

{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }[128]

تعليل للأمر بالاقتصار على قدر الجرم في العقوبة، وللترغيب في الصبر على الأذى، والعفو عن المعتدين، ولتخصيص النبيء ﷺ بالأمر بالصبر، والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى، ولصرف الكدر عن نفسه

من جراء أعمال الذين لم يؤمنوا به. علّل ذلك كلّه بأنّ الله مع الذين يتّقونه، فيقفون عند ما حدّ لهم، ومع المحسنين. **والمعية هنا مجاز في التأييد والنصر.**

وأتي في جانب التقوى بصلة فعلية ماضية للإشارة إلى لزوم حصولها وتقرّرها من قبل، لأنّها من لوازم الإيمان، لأنّ التقوى آيلة إلى أداء الواجب وهو حقّ على المكلف. ولذلك أمر فيها بالاقتصار على قدر الذنب.

وأتي في جانب الإحسان بالجملة الاسمية للإشارة إلى كون الإحسان ثابتا لهم دائما معهم، لأنّ الإحسان فضيلة، فبِصاحبه حاجة إلى رسوخه من نفسه وتمكّنه.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإسْراء

سمّيت في كثير من المصاحف سورة الإسراء. إذ قد ذكر في أوّلها الإسراء بالنبيء ﷺ، واختصّت بذكره.

وتُسمّى في عهد الصحابة سورة بني إسرائيل. ففي جامع الترمذي في أبواب الدعاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان النبيء ﷺ لا ينام حتّى يقرأ الزمر وبني إسرائيل ".

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم:" إنّهنّ من العِتاق الأوّل وهنّ من تِلادي". وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير ، والترمذي في أبواب التفسير. ووجه ذلك أنّها ذُكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها. وهو استيلاء قوم أولى بأس (الآشوريين) عليهم ثمّ استيلاء قوم آخرين وهم (الروم) عليهم.

وتُسمّى أيضا سورة (سبحان)، لأنّها افتتحت بهذه الكلمة. قاله في (بصائر ذوي التمييز).

وهي مكّيّة عند الجمهور. قيل: إلّا آيتين منها، وهما { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ - إلى قوله - قَلِيلاً } [73،74].

وقيل: إلّا أربعا، هاتين الآيتين، وقوله: { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاس } [60]، وقوله { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْق } [80]. وقيل: إلّا خمسا، هاته الأربع، وقوله { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ} [107] إلى آخر السورة. وقيل: إلّا خمس آيات غير ما تقدّم، وقيل إلّا ثمانيا من قوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ - إلى قوله - سُلْطَاناً نَصِيراً } [73- 80].

وأحسب أنّ منشأ هاته الأقوال أنّ ظاهر الأحكام التي اشتملت عليها تلك الأقوال يقتضي أنّ تلك الآي لا تناسب حالة المسلمين فيما قبل الهجرة فغلبت على ظنّ أصحاب تلك الأقوال أنّها مدنيّة. وسيأتي بيان أنّ ذلك غير متّجه عند التعرّض لتفسيرها.

ويظهر أنّها نزلت في زمن كثرت فيه جماعة المسلمين بمكّة، وأخذ التشريع المتعلّق بمعاملات جماعتهم يتطرّق إلى نفوسهم، فقد ذُكرت فيها أحكام متتالية لم تذكر أمثال عددها في سورة مكّيّة غيرها عدا سورة الأنعام، وذلك من قوله { وَقَضَى رَبُّكَ إلّا تَعْبُدُوا إلّا إِيَّاهُ - إلى قوله - كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } [23 - 38].

وقد اختلف في وقت الإسراء. والأصح أنّه كان قبل الهجرة بنحو سنة وخمسة أشهر، فإذا كانت قد نزلت عقب وقوع الإسراء بالنبيء ﷺ تكون قد نزلت في حدود سنة اثنتي عشرة بعد البعثة، وهي سنة اثنتين قبل الهجرة في منتصف السنة.

وليس افتتاحها بذكر الإسراء مقتضيا أنها نزلت عقب وقوع الإسراء. بل يجوز أنّها نزلت بعد الإسراء بمدّة.

نزلت هذه السورة بعد سورة القصص وقبل سورة يونس.
وعدّت السورة الخمسين في تعداد نزول سورة القرآن.
وعدد آيها مائة وعشر في عدّ أهل المدينة، ومكّة، والشام، والبصرة. ومائة وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة.

أغراض السورة

العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة إثبات نبوّة محمد ﷺ، وإثبات أنّ القرآن وحي من الله. وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه. وذكر أنّه معجز.
ردّ مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنّهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه.
إبطال إحالتهم أن يكون النبيء ﷺ أسري به إلى المسجد الأقصى. فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام، على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر الدينية، ورمزا إلهيا إلى أنّ الله أعطى محمدا ﷺ من الفضائل أفضل ممّا أعطى من قبله.
وأنّه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت. فمن أجل ذلك أحلّه بالمكان المقدس الذي تداولته الرّسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام، في أنّ أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى { إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى } [1]، فأحلّ الله به محمدا ﷺ بعد أن هُجِر وخُرّب، إيماء إلى أنّ أمّته تجدّد مجده.
وأنّ الله مكّنه من حرميّ النبوّة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه السورة وإنّما عمرت كنائس حوله، وأنّ بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلّط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أنّ إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمّة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.
ثم إثبات دلائل تفرّد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على إثبات الوحدانيّة.
والتذكير بالنعم التي سخّرها الله للنّاس، وما فيها من الدلائل على تفرّده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتّخاذ بنات له.
وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علّمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربّهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.
عن ابن عباس أنّه قال: " التوراة كلّها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل". وفي رواية عنه:" ثمان

عشرة آية منها كانت في ألواح موسى"، أي من قوله تعالى { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً - إلى قوله - وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [22 - 39].

ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أنّ القرآن حكى ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة.

على أن كلام ابن عباس معناه: أن ما في الألواح مذكور في تلك الآي، ولا يريد أنهما سواء، لأن تلك الآيات تزيد بأحكام، منها قوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ - إلى قوله - لِرَبِّهِ كَفُوراً} [25-27]، وقوله { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [31]، وقوله { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ - إلى قوله - ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } [34 - 39]، مع ما تخلل ذلك كلّه من تفصيل وتبيين عرّيت عنه الوصايا العشر التي كتبت في الألواح.

وإثبات البعث والجزاء.

والحثّ على إقامة الصلوات في أوقاتها.

والتحذير من نزغ الشيطان وعداوته لآدم وذرّيّته، وقصّة إبايته من السجود.

والإنذار بعذاب الآخرة.

وذكر ما عرض للأمم من أسباب الاستئصال والهلاك.

وتهديد المشركين بأنّ الله يوشك أن ينصر الإسلام على باطلهم.

وما لقي النبيء ﷺ من أذى المشركين واستعانتهم باليهود. واقتراحهم الآيات، وتحميقهم في جهلهم بآية القرآن وأنّه الحقّ.

وتخلّل ذلك من المستطردات والنذر والعظات ما فيه شفاء ورحمة، ومن الأمثال ما هو علم وحكمة.

{ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } [1]

{ **سُبْحَانَ** } الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمّن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأنّ خبرا عجيبا يستقبله السامعون دالا على عظيم القدرة من المتكلّم، ورفيع منزلة المتحدّث عنه.

فإنّ جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيها أو تنقيصا لا يليقان بجلال الله تعالى، يتعيّن أن تكون مستعملة في أكثر من التنويه، وذلك هو **التعجيب من الخبر المتحدّث به** كقولهُ { قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور:16].

ولمّا كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادرا منه كان المعنى تعجيب السامعين، لأنّ التعجيب مستحيلة حقيقته على الله، لا لأنّ ذلك لا يلتفت إليه في محامل الكلام البليغ لإمكان الرجوع إلى التمثيل، بل لأنّه لا يستقيم تعجّب المتكلم من فعل نفسه.

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة (سبحان الله) التي نحت منها السبحلة. ووقع التصرّف في صيغها بالإضمار نحو: سبحانك وسبحانه، وبالموصول نحو { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا } [يس:36] ومنه هذه الآية.

{ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى** } التعبير عن الذات العليّة بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى.

ويفيد أنّ حديث الإسراء أمر فشا بين القوم، فقد آمن به المسلمون وأكبَره المشركون.

وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد ﷺ وإثبات أنّه رسول من الله، وأنّه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قبل لهم بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعا له على غائب من الأرض، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام.

{ **أسرى** } لغة في سرى، بمعنى سار في الليل، فالهمزة هنا ليست للتعدية لأنّ التعدية حاصلة بالباء، بل أسرى فعل مفتتح بالهمزة مرادف سرى.

وللمبرّد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة والتعدية بالباء: بأنّ الثانية أبلغ لأنّها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل. وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا إذ قال { أسرى بعبده } دون سرى بعبده، وهي التلويح إلى أنّ الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايته وتوفيقه، كما قال تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48]، وقال { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة:40].

{ **ليلاً** } إشارة إلى أنّ السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، و إلّا لم يكن ذكره إلّا تأكيدا، على أنّ الإفادة كما يقولون خير من الإعادة. وفي ذلك إيماء إلى أنّه إسراء خارق للعادة لقطع المسافة التي بين مبدأ

السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضا ليتوسّل بذكر الليل إلى تنكيره المفيد للتعظيم.
أي هو ليل عظيم باعتبار جعله زمنا لذلك السرى العظيم، فقام التنكير هنا مقام ما يدل على التعظيم.
ألا ترى كيف احتيج إلى الدلالة على التعظيم بصيغة خاصة في قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [القدر:1-2] إذ وقعت ليلة القدر غير منكرة.
{ بِعَبْدِهِ } هو محمد ﷺ كما هو مصطلح القرآن، فإنّه لم يقع فيه لفظ العبد مضافا إلى ضمير الغيبة الراجع إلى تعالى إلّا مرادا به النبيء ﷺ. ولأنّ خبر الإسراء به إلى بيت المقدس قد شاع بين المسلمين وشاع إنكاره بين المشركين، فصار المراد { بعبده } معلوما. والإضافة إضافة تشريف لا إضافة تعريف، لأنّ وصف العبودية لله متحقّق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفا.
{ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } والمسجد الحرام هو الكعبة والفناء المحيط بالكعبة بمكّة المتّخذ للعبادة المتعلقة بالكعبة من طواف بها واعتكاف عندها وصلاة.
المسجد: اسم مكان السجود. وأصل **الحرام**: الأمر الممنوع، ولأنّه مشتق من الحَرْم (بفتح فسكون) وهو المنع. فوصف الشيء بالحرام يكون بمعنى أنّه ممنوع، نحو قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3]. ويكون بمعنى الممنوع من أن يعمل فيه عمل ما. ويبين بذكر المتعلق الذي يتعلق به. وقد لا يذكر متعلقة إذا دلّ عليه العرف، ومنه قولهم { الشَّهْرُ الْحَرَامُ } [البقرة:194] أي الحرام فيه القتال في عرفهم. وقد يحذف المتعلّق لقصد التكثير، فهو من الحذف للتعميم فيرجع إلى العموم العرفي، ففي نحو قوله { الْبَيْتَ الْحَرَامَ } [المائدة:2] يراد الممنوع من عدوان المعتدين، وغزو الملوك والفاتحين، وعمل الظلم والسوء فيه.
وقد بنى قريش في زمن الجاهلية بيوتهم حول المسجد الحرام. وجعل قُصي بقربه دار الندوة لقريش وكانوا يجلسون فيها حول الكعبة، فانحصر لمّا أحاطت به بيوت عشائر قريش. وكانت كلّ عشيرة تتخذ بيوتها متجاورة. ومجموع البيوت يسمى شِعبا (بكسر الشين). وكانت كلّ عشيرة تسلك إلى المسجد الحرام من منفذ دورها، ولم يكن للمسجد الحرام جدار يحفظ به. وكانت المسالك التي بين دور العشائر تسمى أبوابا لأنّها يسلك منها إلى المسجد الحرام، مثل باب بني شيبة، وباب بني هاشم، وباب بني مخزوم وهو باب الصفا لقربه منها، وباب بني سهم، وباب بني تيم. وباب الحزورة، سمي بمكان كانت به سوق لأهل مكّة تسمى الحزورة. ولا أدري هل كانت أبوابا تغلق أم كانت منافذ في الفضاء، فإنّ الباب يطلق على ما بين حاجزين. وأوّل من جعل للمسجد الحرام جدارا يحفظ به هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (17هـ).
ولقّب بالمسجد لأنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعله لإقامة الصلاة في الكعبة كما حكى الله عنه { رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ } [إبراهيم: 37]. ولمّا انقرضت الحنفيّة وترك أهل الجاهلية الصلاة تناسوا وصفه بالمسجد الحرام فصاروا يقولون: البيت الحرام. وأمّا قول عمر: إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد

الحرام، فإنّه عبر عنه باسمه في الإسلام.

فغلب عليه هذا التعريف التوصيفي فصار له علما بالغلبة في اصطلاح القرآن. ولا أعرف أنّه كان يعرف في الجاهلية بهذا الاسم، ولا على مسجد بيت المقدس في عصر تحريمه عند بني إسرائيل. وقد تقدّم وجه ذلك عند قوله تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144]، وعند قوله تعالى { أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [المائدة:2].

{ **إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** } المسجد الأقصى هو المسجد المعروف ببيت المقدس الكائن بإيلياء، وهو المسجد الذي بناه سليمان عليه الصلاة والسلام. والأقصى، أي الأبعد. والمراد بعده عن مكّة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصف كاشف اقتضاه هنا زيادة التنبيه على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقا للعادة لكونه قطع مسافة طويلة في بعض ليلة.

وبهذا الوصف الوارد له في القرآن صار مجموع الوصف والموصوف علما بالغلبة على مسجد بيت المقدس كما كان المسجد الحرام علما بالغلبة على مسجد مكّة. وأحسب أنّ هذا العلم له من مبتكرات القرآن فلم يكن العرب يصفونه بهذا الوصف ولكنّهم لمّا سمعوا هذه الآية فهموا المراد منه أنّه مسجد إيلياء. ولم يكن مسجد لدين إلهي غيرهما يومئذ.

{ **الْأَقْصَى** } وفي هذا الوصف بصيغة التفضيل، باعتبار أصل وضعها، معجزة خفيّة من معجزات القرآن، إيماء إلى أنّه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد طيبة الذي هو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه حينئذ. فتكون الآية مشيرة إلى جميع المساجد الثلاثة المفضّلة في الإسلام على جميع المساجد الإسلامية، والتي بيّنها قول النبيء ﷺ: " لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي ".

{ **مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** } وفائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته أمران:

أحدهما: التنصيص على قطع المسافة العظيمة في جزء ليلة، ليعلم أنّه من قبيل المعجزات.

ثانيهما: الإيماء إلى أنّ الله تعالى يجعل هذا الإسراء رمزا إلى أنّ الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفيّة من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرّها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكّة أيضا، فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرّعت في المسجد الأقصى. ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكّة، لأنّ كل سرى يعقبه تأويب. وبذلك حصل ردّ العجز على الصدر.

ومن هنا يظهر مناسبة نزول التشريع الاجتماعي في هذه السورة في الآيات المفتتحة بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ } ففيها { وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } وفيها { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلّا

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } وفيها { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [23 - 35]. إيماء إلى أنّ هذا الدين سيكون دينا يحكم في النّاس وتنفذّ أحكامه.

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام كما ورد ذلك عن النبيء ﷺ. ففي الصحيحين عن أبي ذر قال: " قلت: يا رسول الله أيّ مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة ". فهذا الخبر قد بيّن أنّ المسجد الأقصى من بناء إبراهيم، لأنّه حدّد بمدّة هي من مدّة حياة إبراهيم عليه السلام . وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام.

وهذا ممّا أهمل أهل الكتاب ذكره. وهو ممّا خصّ الله نبيّه بمعرفته. والتوراة تشهد له، فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر: أنّ إبراهيم لمّا دخل أرض كنعان (وهي بلاد فلسطين)نصب خيمته في الجبل شرقي بيت إيل (بيت إيل مدينة على بعد أحد عشر ميلا من أورشليم إلى الشمال وهو بلد كان اسمه عند الفلسطينيين (**لوزا**) فسماه يعقوب: بيت إيل، كما في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين) وغربي بلاد عاي (مدينة عبرانية تعرف الآن **الطيّبة**) وبنى هنالك مذبحا للربّ. وهم يطلقون المذبح على المسجد لأنّهم يذبحون القرابين في مساجدهم. قال عمر بن أبي ربيعة:

دُميةٌ عند راهب قسيس ... صوروها في مذبح المحراب

ولا شكّ أنّ مسجد إبراهيم هو الموضع الذي توخّى داود عليه السلام أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه، أو أوحى إليه الله بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد، أي الهيكل. وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم (يوسيفسوس) أنّ الجبل الذي سكنه إبراهيم بأرض كنعان اسمه (نابو) وأنّه الجبل الذي ابتنى عليه سليمان الهيكل وهو المسجد الذي به الصخرة. وقصة بناء سليمان إياه مفصلة في سفر الملوك الأول من أسفار التوراة.

وقد انتابه التخريب ثلاث مرات:

أولاها : حين خرّبه بختنصر ملك بابل سنة (578 ق م) ثم جدّده اليهود تحت حكم الفرس.

الثانية : خرّبه الرومان في مدة طيطوس بعد حروب طويلة بينه وبين اليهود وأعيد بناؤه، فأكمل تخريبه أدريانوس سنة (135م) وعفى آثاره فلم تبق منه إلّا أطلال.

الثالثة : لما تنصرت الملكة هيلانة أمّ الأمبراطور قسطنطين ملك الروم ببزنطة وصارت متصلّبة في النصرانية، وأشرب قلبها بغض اليهود بما تعتقده من قتلهم المسيح كان ممّا اعتدت عليه حين زارت أورشليم أن أمرت بتعفية أطلال هيكل سليمان وأن ينقل ما بقي من الأساطين ونحوها فتبنى بها كنيسة على قبر المسيح المزعوم عندهم في موضع توسّموا أن يكون هو موضع القبر (والمؤرخون من النصارى يشكّون في

كون ذلك المكان هو المكان الذي يُدّعى أن المسيح دفن فيه) وأن تسمّيها كنيسة القيامة، وأمرت بأن يجعل موضع المسجد الأقصى مرمى أزبال البلد وقماماته فصار موضع الصخرة مزبلة تراكمت عليها الأزبال فغطتها وانحدرت على درجها.

ولمّا فتح المسلمون بقيّة أرض الشام في زمن عمر وجاء عمر بن الخطاب ليشهد فتح مدينة إيليا، وهي المعروفة من قبل (**أورشليم**) وصارت تسمّى إيلياء (بكسر الهمزة وكسر اللام) وكذلك كان اسمها المعروف عند العرب عندما فتح المسلمون فلسطين. وإيلياء اسم نبي من بني إسرائيل كان في أوائل القرن التاسع قبل المسيح. قال الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن ولاته ... وبيت بأعلى إيلياء مشرف

انعقد الصلح بين عمر وأهل تلك المدينة وهم نصارى. قال عمر لبطريق لهم اسمه (صفرونيوس) :" دلّني على مسجد داود"، فانطلق به حتّى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على درج الباب فتجشم عمر حتّى دخل ونظر فقال: " الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داود الذي أخبرنا رسول الله ﷺ أنّه أسري به إليه". ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسون الزبل عن الصخرة حتّى ظهرت كلها، ومضى عمر إلى جهة محراب داود فصلى فيه، ثم ارتحل من بلد القدس إلى فلسطين.

ولم يبن هنالك مسجدا إلى أن كان في زمن عبد الملك بن مروان أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وعمارة المسجد الأقصى. ووكلّ على بنائها رَجاء بن حَيْوَة الكِندي أحد علماء الإسلام، فابتدأ ذلك سنة (66هـ) وكان الفراغ من ذلك في سنة (73هـ).

ولهذا فتسمية ذلك المكان بالمسجد الأقصى في القرآن تسمية قرآنية اعتبر فيها ما كان عليه من قبل، لأنّ حكم المسجديّة لا ينقطع عن أرض المسجد. فالتسمية باعتبار ما كان، وهي إشارة خفيّة إلى أنّه سيكون مسجدا بأكمل حقيقة المساجد.

واستقبله المسلمون في الصلاة من وقت وجوبها المقارن لليلة الإسراء إلى ما بعد الهجرة بستة عشر شهرا. ثم نسخ استقباله وصارت الكعبة هي القبلة الإسلامية.

وقد رأيت أنّ سائحا نصرانيا اسمه (اركولف) زار القدس سنة 670م، أي بعد خلافة عمر بأربع وثلاثين سنة، وزعم أنّه رأى مسجدا بناه عمر على شكل مربع من ألواح وجذوع أشجار ضخمة وأنّه يسع نحو ثلاثة آلاف (مقال حرّره عارف عارف في الجملة المسمّاة رسالة العلم بالمملكة الأردنية في عدد2 من السنة12 سنة 1968).

والظاهر أن نسبة المسجد الأقصى إلى عمر بن الخطاب وهم من أوهام النصارى اختلط عليهم كشف عمر موضع المسجد فظنّوه بناه. وإذا صدق (اركولف) فيما ذكر كان ذلك شيئا أحدثه مسلمو البلاد لصيانة ذلك المكان عن الامتهان.

{ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه** } صفة للمسجد الأقصى. وجئ في الصفة بالموصوليّة لقصد تشهير الموصوف بمضمون الصلة، حتّى كأن الموصوف مشتهر بالصلة عند السامعين. والمقصود: إفادة أنّه مبارك حوله. وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة في تكثير الفعل.

البركة: نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة بوفرة الثواب للمصلّين فيه بإجابة دعاء الداعين فيه. وقد تقدّم ذكر البركة عند قوله تعالى { مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96]. وقد وصف المسجد الحرام بمثل هذا في قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96].

ووجه الاقتصار على وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر هذا التبريك أنّ شهرة المسجد الحرام بالبركة، وبكونه مقام إبراهيم معلومة للعرب، وأمّا المسجد الأقصى فقد تناسى النّاس ذلك كلّه، فالعرب لا علم لهم به والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.

وكون البركة حوله كناية عن حصول البركة فيه بالأولى، لأنّها إذا حصلت حوله فقد تجاوزت ما فيه، ففيه لطيفة التلازم، ولطيفة فحوى الخطاب، ولطيفة المبالغة بالتكثير.

وأسباب بركة المسجد الأقصى كثيرة؛ منها أن واضعه إبراهيم عليه السلام ، ومنها ما لحقه من البركة بمن صلى به من الأنبياء من داود وسليمان ومن بعدهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام وإعلانه الدعوة إلى الله فيه وفيما حوله، ومنها بركة من دفن حوله من الأنبياء، فقد ثبت أن قبري داود وسليمان حول المسجد الأقصى. وأعظم تلك البركات حلول النبيء ﷺ فيه ذلك الحلول الخارق للعادة، وصلاته فيه بالأنبياء كلّهم.

{ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** } تعليل ببعض الحِكم التي لأجلها منح الله نبيّه منحة الإسراء، فإنّ للإسراء حِكما جمّة تتضح من حديث الإسراء المروي في الصحيح. وأهمّ الحكم وأجمعها إراءته من آيات الله تعالى ودلائل قدرته ورحمته. لأنّ إراءة الآيات تزيد يقين الرائي بوجودها الحاصل من قبل الرؤية. قال تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام:75].

فإن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية. قال تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260]. ولذلك لم يقل الله بعد هذا التعليل: أو لم يطمئن قلبك، لأنّ اطمئنان القلب متسع المدى لا حدّ له، فقد أنطق الله إبراهيم عن حكمة نبوءة، وقد بادر محمدا ﷺ بإراءة الآيات قبل أن يسأله إيّاها توفيرا في الفضل.

قال علي بن حزم الظاهري وأجاد:

ولكن للعيان لطيف معنى ... له سأل المعاينة الكليم

واعلم أنّ تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية لأنهم بمقدار قوّة اليقين يزيدون ارتقاء على درجة مستوى البشر والتحاقا بعلوم عالم الحقائق ومساواة في هذا المضمار لمراتب الملائكة.

{ باركنا / ولنريه من آياتنا } في تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلّم سلوك لطريقة الالتفات المتّبعة كثيرا في كلام البلغاء

والالتفات هنا امتاز بلطائف:

منها، أنّه لما استُحضرت الذات العليّة بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أنّ يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم.

ومنها، الإيماء إلى أنّ النبيء ﷺ عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.

ومنها، التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير في قوله { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، فيتبادر عود ذلك الضمير إلى غير من عاد إليه ضمير { نريه } لأنّ الشأن تناسق الضمائر، ولأنّ العود إلى الالتفات بالقرب ليس من الأحسن.

{ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الأظهر أنّ الضميرين عائدان إلى النبيء ﷺ. قاله بعض المفسّرين، واستقرّبه الطيبي، ولكن جمهرة المفسّرين على أنّه عائد إلى الله تعالى. ولعلّ احتماله للمعنيين مقصود.

وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان. واحتمالها مقصود تكثيرا لمعاني القرآن، ليأخذ كلّ منه على مقدار فهمه كما ذكرنا في المقدمة التاسعة. وأيّاما كان فموقع (إنّ) التوكيد والتعليل كما يؤذن به فصل الجملة عما قبلها.

وهي إمّا تعليل لإسناد فعل { نريه } إلى فاعله؛ وإمّا تعليل لتعليقه بمفعوله، فيفيد أن تلك الإراءة من باب الحكمة، وهي إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، فهي من إيتاء الحكمة من هو أهلها.

والتعليل على اعتبار مرجع الضمير إلى النبيء ﷺ أوقع، إذ لا حاجة إلى تعليل إسناد فعل الله تعالى، لأنّه محقق معلوم. وإنما المحتاج للتعليل هو إعطاء تلك الإراءة العجيبة لمن شك المشركون في حصولها له زمن يحسبون أنّه لا يطيقها مثله.

على أنّ الجملة مشتملة على صيغة قصر بتعريف المسند باللام وبضمير الفصل قصرا مؤكّدا، وهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا للقلب، أي هو المدرك لما سمعه وأبصره لا الكاذبُ ولا المتوهمُ كما زعم المشركون. وهذا القصر يؤيد عود الضمير إلى النبيء ﷺ لأنّه المناسب للردّ. ولا ينازع المشركون في أنّ الله سميع وبصير.

ثم إن الصفتين على تقدير كونهما للنبيء ﷺ هما على أصل اشتقاقهما للمبالغة في قوّة سمعه وبصره وقبولهما لتلقّي تلك المشاهدات المدهشة، على حدّ قوله تعالى { مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى } [النجم:17]

وقوله { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [النجم:12].
وأمّا على تقدير كونهما صفتين لله تعالى فالمناسب أن تؤوّلا بمعنى المسمع المبصر، أي القادر على إسماع عبده وإبصاره.
وقد اختلف السلف في الإسراء أكان بجسد رسول الله ﷺ من مكّة إلى بيت المقدس أم كان بروحه في رؤيا هي مشاهدة روحانية كاملة، ورؤيا الأنبياء حقّ. والجمهور قالوا: هو إسراء بالجسد في اليقظة، وقالت عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق رضي الله عنهم أنّه إسراء بروحه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي.
واستدل الجمهور بانّ الامتنان في الآية وتكذيب قريش بذلك دليلان على أنّه ما كان الإخبار به إلّا على أنّه بالجسد. واتفق الجميع على أنّ قريشا استوصفوا من النبيء ﷺ علامات في بيت المقدس وفي طريقه فوصفها لهم كما هي، ووصف لهم عيرا لقريش قافلة في طريق معين ويوم معين فوجدوه كما وصف لهم.
ففي صحيح البخاري أنّ النبيء ﷺ قال: " بينما أنا في المسجد الحرام بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل..." إلى آخر الحديث. وهذا أصحّ وأوضح ممّا روي في حديث آخر أنّ الإسراء كان من بيته أو كان من بيت أم هاني بنت أبي طالب أو من شعب أبي طالب.
والتحقيق حمْل ذلك على أنّه إسراء آخر، وهو الوارد في حديث المعراج إلى السماوات وهو غير المراد في هذه الآية. فللنبيء ﷺ كرامتان: أولاهما الإسراء وهو المذكور هنا، والأخرى المعراج وهو المذكور في حديث الصحيحين مطولا وأحاديث غيره. وقد قيل: أنّه هو المشار إليه في سورة النجم.

{ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ إلّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً } [2]

عطف على جملة {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} فهي ابتدائية. والتقدير: الله أسرى بعبده محمد وآتى موسى الكتاب. فهما منّتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر. وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد الأقصى، فإنّ أطوار المسجد الأقصى تمثّل ما تطوّر به حال بني إسرائيل في جامعتهم من أطوار الصلاح والفساد، والنهوض والركود، ليعتبر بذلك المسلمون فيقتدوا أو يحذروا.
على ما في حالة الإسراء بالنبيء ﷺ ليلا ليرى من آيات الله تعالى من المناسبة لحالة موسى عليه السلام حين أوتي النبوّة، فقد أوتي النبوّة ليلا وهو سار بأهله من أرض مدين إذ آنس من جانب الطور نارا، ولحاله أيضا حين أسرى إلى مناجاة ربّه بآيات الكتاب.
الكتاب: التوراة. والإخبار عنه بأنّه هدى مبالغة لأنّ الهدى بسبب العمل بما فيه فجعل كأنّه نفس الهدى، كقوله تعالى في القرآن: { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].
وخصّ بني إسرائيل لأنّهم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم، فالجعل هو جعل التكليف. وهم المراد

بـ(الناس) في قوله { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ } [الأنعام:91]، لأنّ النّاس قد يطلق على بعضهم، على أنّ ما هو هدى لفريق من النّاس صالح لأن ينتفع بهديه من لم يكن مخاطبا به.

الوكيل: الذي تفوّض إليه الأمور. والمراد به الربّ، لأنّه يتّكل عليه العباد في شؤونهم، أي أن لا تتخذوا شريكا تلجؤون إليه. وقد عرف إطلاق الوكيل على الله في لغة بني إسرائيل كما حكى الله عن يعقوب وأبنائه { فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [يوسف:66].

{ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ أنّه كَانَ عَبْداً شَكُوراً } [3]

يجوز أن يكون اعتراضا في آخر الحكاية. ويجوز أن يكون من تمام الجملة التفسيريّة، أي حال كونهم ذرّيّة من حملنا مع نوح عليه السلام ، أو ينتصب على النداء بتقدير النداء، أي يا ذرية من حملنا مع نوح. مقصودا به تحريضهم على شكر نعمة الله واجتناب الكفر به باتخاذ شركاء دونه.

الحمل: وضع شيء على آخر لنقله، والمراد الحمل في السفينة كما قال { حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11] أي ذرّية من أنجيناهم من الطوفان مع نوح عليه السلام.

{ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً } مفيدة تعليل النهي عن أن يتخذوا من دون الله وكيلا، لأنّ أجدادهم حملوا مع نوح بنعمة من الله عليهم لنجاتهم من الغرق، وكان نوح عبدا شكورا والذين حملوا معه كانوا شاكرين مثله أي فاقتدوا بهم ولا تكفروا نعم الله.

واعلم أن في اختيار وصفهم بأنّهم ذرّيّة من حمل مع نوح عليه السلام معاني عظيمة من التذكير والتحريض والتعريض لأن بني إسرائيل من ذرية سام بن نوح وكان سام ممن ركب السفينة.

وفيه تذكير بان الله أنجى نوحا ومن معه من الهلاك بسبب شكره وشكرهم تحريضا على الائتساء بأولئك.

وفيه تعريض بأنّهم إن أشركوا ليوشكن أن ينزل بهم عذاب واستئصال.

وفيه أن ذرية نوح كانوا شقين شق بار مطيع، وهم الذين حملهم معه في السفينة، وشق متكبر كافر وهو ولده الذي غرق، فكان نوح عليه السلام مثلا لأبي فريقين. وكان بنو إسرائيل من ذرية الفريق البار، فإن اقتدوا به نجوا وإن حادوا فقد نزعوا إلى الفريق الآخر فيوشك أن يهلكوا. وقد ذكر في هذه السورة استئصال بني إسرائيل مرّتين بسبب إفسادهم في الأرض وعلوّهم مرتين، وأنّ ذلك جزاء أهمالهم وعد الله نوحا عليه السلام حينما نجاه.

والتأكيد بحرف (إن) تنزيل لهم منزلة من يجهل ذلك، إما لتوثيق حملهم على الاقتداء به، إن كانت الجملة خطابا لبني إسرائيل من تمام الجملة التفسيرية، وإمّا لتنزيلهم منزلة من جهل ذلك حتّى تورّطوا في الفساد فاستأهلوا الاستئصال وذهاب ملكهم، لينتقل منه إلى التعريض بالمشركين من العرب بأنهم غير مقتدين بنوح

لأن مثلهم ومثل بني إسرائيل في هذا السياق واحد في جميع أحوالهم، فيكون التأكيد تعريضي.
{ **عَبْداً** } أنّه معترف لله بالعبودية غير متكبر بالإشراك.
{ **شَكُوراً** }، أي شديدا لشكر الله بامتثال أوامره. وروي أنّه كان يكثر حمد الله.
والاقتداء بصالح الآباء مجبولة عليه النفوس ومحلّ تنافس عند الأمم، بحيث يعدّ خلاف ذلك كمثير للشك في صحة الانتساب. وكان نوح عليه السلام مثلا في كمال النفس وكانت العرب تعرف ذلك وتنبعث على الاقتداء به. قال النابغة: فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

{ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً [4] فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً } [5].

عطف على { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [2]، أي آتينا موسى الكتاب هُدى، وبيّنّا لبني إسرائيل في الكتاب ما يحلّ بهم من جراء مخالفة هدي التوراة، إعلاما لهذه الأمّة بأنّ الله لم يدّخر أولئك إرشادا ونصحا.
{ **وَقَضَيْنَا** } الحكم وهو التقدير، ومعنى كونه **في الكتاب:** أنّ القضاء ذكر في الكتاب. والتعدية بحرف (إلى) لتضمين معنى (أبلغنا)، أي قضينا وأنهينا، كقوله تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْر } [الحجر:66].
فيجوز أن يكون المراد بـ (الكتاب) كتاب التوراة، ويوجد في مواضع، منها ما هو قريب ممّا في هذه الآية لكن بإجمال (انظر الإصحاح 26 / 28 / 30)، فيكون العدول عن الإضمار إلى الإظهار لمجرّد الاهتمام.
ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية. لأنّه لمّا أظهر اسم الكتاب أشعر بأنّه كتاب آخر من كتبهم، وهو الأسفار المسمّاة بكتب الأنبياء (أشعياء، وأرميا، وحزقيال، ودانيال)، وهي في الدرجة الثانية من التوراة. وكذلك كتاب النبيء ملاخي. والإفساد مرتين ذكر في كتاب أشعياء وكتاب أرمياء.
{ **لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً** } مبيّنة لجملة { وَقَضَيْنَا } وأيّا ما كان فضمائر الخطاب في هذه الجملة مانعة من أن يكون المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو كتاب الله، أي علمه.
وهذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمّتين عظيمتين: حوادث بينهم وبين البابليين، وحوادث بينهم وبين الرومانيين. فانقسمت بهذا الاعتبار إلى نوعين: نوع منهما تندرج فيه حوادثهم مع البابليين، والنوع الآخر حوادثهم مع الرومانيين، فعبر عن النوعين بمرتين، لأنّ كلّ مرّة منهما تحتوي على عدة ملاحم.
فالمرّة الأولى هي مجموع حوادث متسلسلة تسمّى في التاريخ بالأسر البابلي وهي غزوات (بختنصر) ملك

بابل وأشور بلاد أورشليم. والغزو الأوّل كان سنة (606 ق م)، أسر جماعات كثيرة من اليهود، ويسمّى الأسر الأوّل. ثم غزاهم أيضا غزوا يسمّى الأسر الثاني، وهو أعظم من الأوّل، كان سنة (598 ق م)، وأسر ملك يهوذا وجمعا غفيرا من الإسرائيلين وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان وما فيه من الآنية النفيسة.

والأسر الثالث المُبير سنة (588 ق م) غزاهم (بختنصر) وسبى كلّ شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان، وبقيت أورشليم خرابا يبابا. ثم أعادوا تعميرها كما سيأتي عند قوله { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ } [الإسراء:6].

وأمّا المرة الثانية فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلاد أورشليم. وسيأتي بيانها عند قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ } [6].

وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل مفيد أنّه إفساد من جمهورهم بحيث تعدّ الأمّة كلّها مفسدة وإن كانت لا تخلو من صالحين.

{ **وَلَتَعْلُنَّ** } مجاز في الطغيان والعصيان كقوله { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ } [القصص :4]. تشبيها للتكبّر والطغيان بالعلو على الشيء لامتلاكه، تشبيه معقول بمحسوس.

{ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** }

الوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي المَوْعود الذي هو أولى المرّتين من الإفساد والعلو.

{ **بَعَثْنَا** } البعث مستعمل في تكوين السير إلى أرض إسرائيل وتهيئة أسبابه حتّى كأنّ ذلك أمر بالمسير إليهم كما مر في قوله { لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } [الأعراف:167]، وهو بعث تكوين وتسخير لا بعث بوحي وأمر. وتعدية {بعثنا} بحرف الاستعلاء (على) لتضمينه معنى التسليط.

العباد: الأشوريون أهل بابل وهم جنود بختنصر.

{ **بَأْسٍ شَدِيدٍ** } الشوكة والشدّة في الحرب. ووصفه بالشديد لقوّته في نوعه كما في قوله تعالى { قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيد } [النمل:33]

{ **فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً** } عطف على { بعثنا } فهو من المقتضى في الكتاب.

الجوس: التخلّل في البلاد وطرقها ذهابا وإيّابا لتتبع ما فيها. وأريد به هنا تتبع المقاتلة فهو جوس مضرّة وإساءة بقرينة السياق.

{ **خِلَال** } اسم جاء على وزن الجموع ولا مفردا له، وهو وسط الشيء الذي يتخلّل منه. قال تعالى{ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ } [الروم:48].

{ **الدِيَار** } تعريف العهد، أي دياركم، وذلك أصل جعل(ال) عوضا عن المضاف إليه. وهي ديار بلد أورشليم فقد دخلها جيش بختنصر وقتل الرجال وسبى، وهدم الديار، وأحرق المدينة وهيكل سليمان بالنار.

ولفظ (الديار) يشمل هيكل سليمان لأنّه بيت عبادتهم. وأسر كلّ بني إسرائيل وبذلك خلت بلاد اليهود منهم.

{ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرا [6] إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً [7] عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً } [8].

{ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا }

عطف على { فجاسوا } [5] ومن بقية المقضي في الكتاب، وهو ماضٍ لفظا مستقبل معنًى، لأنّ (إذا) ظرف لما يستقبل. وجيء به في صيغة الماضي لتحقيق وقوع ذلك. و(**ثُمَّ**) تفيد التراخي الرتبي والزمني معا.

الردّ: الإرجاع. وجيء بالفعل ماضيا جريا على الغالب في جواب(إذا) كما جاء شرطها فعلا ماضيا { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا } [5]، أي إذا يجيء يبعث.

الكرّة: الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه.

{ **عليهم** } ظرف مستقرّ هو حال من { الكرّة } ، لأنّ رجوع بني إسرائيل إلى أورشليم كان بتغلّب ملك فارس على ملك بابل.

وذلك أنّ بني إسرائيل بعد أن قضوا نيفا وأربعين سنة في أسر البابليين وتابوا إلى الله وندموا على ما فرط منهم سلّط الله ملوك فارس على ملوك بابل الأشوريين، فإنّ الملك (**كُورش**) ملك فارس حارب البابليين وهزمهم فضعف سلطانهم، ثمّ نزل بهم (**داريوس**) ملك فارس وفتح بابل سنة (538 ق م)، وأذن لليهود في سنة (530 ق م) أن يرجعوا إلى أورشليم ويجدّدوا دولتهم. وذلك نصر انتصروه على البابليين إذ كانوا أعوانا للفرس عليهم.

والوعد بهذا النصر ورد أيضا في كتاب أشعيا (الإصحاحات: 10/ 11 / 12)، وغيرها، وفي كتاب أرميا (الإصحاح: 28 و 29)

{ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً }

هو من جملة المقضي الموعود به. ووقع في كتاب أرميا (الإصحاح:29): " هكذا قال الربّ إله إسرائيل لكلّ الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتا واسكنوا، واغرسوا جنّات، وكلوا ثمرها، خذوا نساء ولدوا بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلّوا".

{ **نَفِيراً** } تمييز لـ { أكثر} فهو تبيين لجهة الأكثرية. والنفير اسم جمع **للجماعة التي تنفر مع المرء** من قومه

وعشيرته، ومنه قول أبي جهل: " لا في العير ولا في النفير".
أي جعلناكم أكثر ممّا كنتم قبل الجلاء، وهو المناسب لمقام الامتنان. وقال جمع من المفسرين: أكثر نفيرا من أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم، أي أفنى معظم البابليين في الحروب مع الفرس حتّى صار عدد بني إسرائيل في بلاد الأسر أكثر من عدد البابليين.
{ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** } من جملة المقضي في الكتاب ممّا خوطب به بنو إسرائيل، وهو حكاية لما في كتاب أرميا (الإصحاح: 29) : " وصلّوا لأجلها إلى الربّ لأنّه بسلامها يكون لكم سلام". وفي الإصحاح (31) : " يقول الرب أزرع بيت إسرائيل وبيت يهوذا ويكون كما سهرت عليهم للاقتلاع والهدم والقرض والإهلاك، كذلك أسهر عليهم للبناء والغرس، في تلك الأيام لا يقولون: الآباء أكلوا حِصْرِما وأسنان الأبناء ضرست بل كلّ واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحِصْرِم تَضْرِس أسنانه".
{ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ** } أنّنا نردّ لكم الكرة لأجل التّوبة وتجدّد الجيل وقد أصبحتم في حالة نعمة، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسنا وإن أسأتم لأنفسكم، فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبهم فقد أحسنّا إليكم بتوبتكم فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير من قبلكم.
وإعادة فعل { أحسنتم } تنويه، ومثله قول الله { هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } [القصص:63].
وأسلوب إعادة الفعل عند إرادة تعلّق شيء به أسلوب عربي فصيح **يقصد به الاهتمام**. وقد تكرّر في القرآن، قال { وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء:130]، وقال { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان:72].
{ **وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** }، قوله { فلها } متعلّق بفعل محذوف بعد فاء الجواب، تقديره: أسأتم لها. وليس المجرور بظرف مستقر خبرا عن مبتدأ محذوف يدل عليه فعل { أسأتم } لأنّه لو كان كذلك لقال: فعليها، كقوله { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [فصلت:46].
ووجه المخالفة بين أسلوب الآيتين أنّ آية فصلت ليس فيها تجريد، إذ التقدير فيها: فعمله لنفسه وإساءته عليها، فلمّا كان المقدّر اسما كان المجرور بعده مستقرا غير حرف تعدية. وأمّا هذه آية فالفعلان (أحسنتم / أسأتم) الواقعان في الجوابين مقتضيان التجريد فجاءا على أصل تعديتهما باللام لا لقصد نفع ولا ضر.
{ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** }.
إيجاز بديع قضاء لحق التقسيم الأوّل في قوله { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا }[5]، ولِحَقِّ إفادة ترتب مجيء وعد الآخرة على الإساءة، ولو عطف بالواو كما هو مقتضى ظاهر التقسيم إلى مرّتين فاتت إفادة الترتّب والتفرّع.
{ **الآخرة** } صفة لمحذوف دلّ عليه قوله { مرتين }، أي وعد المرة الآخرة. وهذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تفريعه بالفاء. والآخرة ضدّ الأولى.

{ **لِيَسُوءُوا / وَلِيَدْخُلُوا / وَلِيُتَبِّرُوا** } اللامات للتعليل، وليست للأمر لاتفاق القراءات المشهورة على كسر اللامين الثاني والثالث، ولو كانا لامي أمر لكانا ساكنين بعد واو العطف، فيتعيّن أنّ اللام الأول لام أمر لا لام جر. والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عبادا لنا ليسوءوا وجوهكم الخ.

وليست عائدة إلى قوله { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } [5]. لأنّ الذين أساءوا ودخلوا المسجد هذه المرّة أمّة غير الذين جاسوا خلال الديار حسب شهادة التاريخ وأقوال المفسّرين.

سوء الوجوه: جَعْل المساءة عليها، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتّى تبدو على وجوهكم، لأنّ ما يخالج الإنسان من غمّ وحزن، أو فرح ومسرّة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد.

{ **وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ** } دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله { كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ } المراد منه قوله { فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَار } [5].

التتبير: الإهلاك والإفساد.

{ **مَا عَلَوْا تَتْبِيراً** } موصول هو مفعول(يتبّروا)، وعائد الصلة محذوف لأنّه متّصل منصوب، والتقدير: ما علوه، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب.

{ **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ** } لم يعدهم الله في هذه المرة إلّا بتوقّع الرحمة دون ردّ الكرّة، فكان إيماء إلى أنّهم لا ملك لهم بعد هذه المرّة. وبهذا تبيّن أنّ المشار إليه بهذه المرّة الآخرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرّد وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبيء ملاخي في الإصحاحين (3 / 4) من كتابه، وأنذرهم زكرياء ويحيى وعيسى (انجيل مرقس، الإصحاح : 3) فلم يرعوا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان.

وبيان ذلك: أنّ اليهود بعد أن عادوا إلى أورشليم وجدّدوا ملكهم ومسجدهم في زمن (داريوس) وأطلق لهم التصرّف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس، فمكثوا على ذلك مائتي سنة (من 530 إلى 330 ق م)، ثم أخذ ملكهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشليم فصاروا تحت سلطانهم إلى (سنة 166 ق م) إذ قام قائد من إسرائيل اسمه (**ميثيا**)وكان من اللاويين فانتصر لليهود وتولّى الأمر عليهم وتسلسل الملك بعده في أبنائه في زمن مليء بالفتن إلى سنة (40 ق م). دخلت المملكة تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم (**هيرودس**) ثم تمرّدوا للخروج على الرومانيين، فأرسل قيصر رومية القائد (**سيسيانوس**) مع ابنه القائد (**طيطوس**) بالجيوش في حدود سنة (40 م) فخربت أورشليم واحترق المسجد، وأسر(**طيطوس**) نيفا وتسعين ألفا من اليهود، وقتل من اليهود في تلك الحروب نحو ألف ألف، ثم استعادوا المدينة وبقي منهم شرذمة قليلة بها إلى أن وافاهم الأمبراطور الروماني(**أدريانوس**)فهدمها وخرّبها ورمى قناطير الملح على أرضها كيلا تعود صالحة للزراعة، وذلك

سنة (135م). وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرّقوا في الأرض ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلّا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب (16 هـ) صلحا مع أهلها وهي تسمى يومئذ (**أيلياء**).

{ **وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا** } يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ } عطف الترهيب على الترغيب. ويجوز أن تكون معترضة. والمعنى: بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمّنكم في البلاد التي تلجأون إليها، إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم، أي عدنا لمثل ما تقدّم من عقاب الدنيا.

{ **وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** } عطف على { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ } لإفادة أنّ ما ذكر قبله من عقاب إنّما هو عقاب دنيوي وأنّ وراءه عقاب الآخرة.

{ **لِلْكَافِرِين** } يعمّ المخاطبين وغيرهم، وفيه معنى التذييل. ويومئ هذا إلى أنّ عقابهم في الدنيا ليس مقصورا على ذنوب الكفر بل هو منوط بالإفساد في الأرض وتعدّي حدود الشريعة. وأمّا الكفر بتكذيب الرّسل فقد حصل في المرة الآخرة فإنّهم كذّبوا عيسى، وأمّا في المرة الأولى فلم تأتهم رسل ولكنهم قتلوا الأنبياء مثل أشعياء، وأرمياء، وقتل الأنبياء كفر.

الحصير: المكان الذي يحصر فيه، فلا يستطاع الخروج منه.

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً [9] وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [10].

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة وهو تأييد النبيء ﷺ بالآيات والمعجزات، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن. وأعقب ذلك بذكر ما أنزل على بني إسرائيل من الكتب للهُدى والتحذير، وما نالهم من جزاء مخالفتهم ما أمرهم الله به، ومن عدولهم عن سنن أسلافهم من عهد نوح. وفي ذلك فائدة التحذير من وقوع المسلمين فيما وقع فيه بنو إسرائيل، وهي الفائدة العظمى من ذكر قصص القرآن، وهي فائدة التاريخ.

{ **إِنَّ** } تأكيد الجملة مراعى فيه حال بعض المخاطبين وهم الذين لم يذعنوا إليه، وحال المؤمنين من الاهتمام بهذا الخبر، فالتوكيد مستعمل في معنييه **دفع الإنكار والاهتمام**، ولا تعارض بين الاعتبارين.

{ **هذا القرآن** } إشارة إلى الحاضر في أذهان النّاس من المقدار المنزّل من القرآن قبل هذه الآية. وبُيّنت الإشارة بالاسم الواقع بعدها تنويها بشأن القرآن.

وقد جاءت هذه الآية تنفيسا على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قُصّت عن بني إسرائيل وما حلّ بهم من البلاء ممّا يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأُخبروا بأنّ في القرآن

ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم ممّا سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وتلك عادة القرآن في تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه.

{ **التي هي أقوم** } صفة لمحذوف دلّ عليه { يهدي } ، أي للطريق التي هي أقوم، لأنّ الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملّة الأقوم.

الأقوم: تفضيل القَويم. والمعنى: أنّه يهدي للتي هي أقوم من هُدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله { وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ } [2]. ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمّة القرآن من الحَيْدة عن الطريق الأقوم، لأنّ القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلّا سلكه إليها تحريضا أو تحذيرا، بحيث لا يعدم المتدبّر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

{ **أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً** } والأجر الكبير فسّر بالجنّة، والعذاب الأليم بجهنّم، والأظهر أن يُحمل على عموم الأجر والعذاب، فيشمل أجر الدنيا وعذابها، وهو المناسب لما تقدّم من سعادة عيش بني إسرائيل وشقائه، فجعل اختلاف الحالين فيهما موعظة لحالي المسلمين والمشركين.

{ **وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** } المراد بهم مشركو قريش وهم أعداء المؤمنين، فلا جرم أن عذاب العدو بشارة لمن عاداه.

والاقتصار على هذين الفريقين هو مقتضى المقام لمناسبة تكذيب المشركين بالإسراء فلا غرض في الإعلام بحال أهل الكتاب.

{ وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً } [11]

موقع هذه الآية هنا غامض، وانتزاع المعنى من نظمها وألفاظها أيضا، ولم يأت فيها المفسّرون بما ينثلج له الصدر، والذي يظهر لي أنّ الآية التي قبلها لمّا اشتملت على بشارة وإنذار وكان المنذرون إذا سمعوا الوعيد والإنذار يستهزئون به { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يّس:48]، عطف هذا الكلام على ما سبق تنبيها على أنّ لذلك الوعد أجلا مسمّى.

{ **وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ** } المراد به الذي لا يؤمن بالآخرة كما في سورة مريم { وَيَقُولُ الْأِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً [66] أَوَلا يَذْكُرُ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً} [67].

وإطلاق الإنسان على الكافر كثير في القرآن. وفعل { **يدعو** } مستعمل في معنى يطلب ويبتغي.

{ **دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ** } مصدر يفيد تشبيها، أي **يستعجل الشرّ كاستعجاله الخير**، يعني يستبطئ حلول الوعيد كما يستبطئ أحد تأخّر خبر وُعد به.

{ **وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولا** } تذييل، فالإنسان هنا مراد به الجنس لأنّه المناسب للتذييل، أي وما هؤلاء الكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة إلّا من نوع الإنسان، وفي نوع الإنسان الاستعجال، كقوله تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [الكهف:54]. وهو كناية عن عدم تبصّره، وأن الله أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت الأشياء { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} [يونس:11]، ولكنه درّج لهم وصول الخير والشرّ لطفا بهم في الحالين.

عجول: صيغة مبالغة في عاجل، يقال: عجِل فهو عاجل وعجول.

وكتب في المصحف{ ويدع } بدون واو بعد العين إجراء لرسم الكلمة على حالة النطق بها في الوصل.

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } [12]

عطف على { ويدع الإنسان بالشرّ } [11]. والمناسبة أنّ جملة { ويدع الإنسان } تتضمّن أنّ تأخير الوعد لا يرفعه، وأنّ الاستعجال لا يجدي صاحبه لأنّ لكلّ شيء أجلا، ولمّا كان الأجل عبارة عن أزمان كان مشتملا على ليل ونهار متقضّيَيْن. فلما أريد التنبيه على ذلك أدمج فيه ما هو أهم في العبرة بالزمنين وهو كونهما آيتين على وجود الصانع وعظيم القدرة، وكونهما منّتين على النّاس، وكون النّاس ربما كرهوا الليل لظلمته، واستعجلوا انقضاءه بطلوع الصباح. ثم بزيادة العبرة في أنّهما ضدّان، وفي كلّ منهما آثار النعمة المختلفة وهي نعمة السير في النهار. واكتفى بعدها عن عدّ نعمة السكون في الليل لظهور ذلك بالمقابلة، وبتلك المقابلة حصلت نعمة العلم بعدد السنين والحساب، لأنّه لو كان الزمن كلّه ظلمة أو كلّه نورا لم يحصل التمييز بين أجزائه.

وفي هذا بعد ذلك كله إيماء إلى ضرب مثل للكفر والأيمان، وللضلال والهدى، ولذلك عقّب بقوله بعده { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [15]. وكل هذا الإدماج تزويد للآية بوافر المعاني شأن بلاغه القرآن وإيجازه.

{ **آيَةَ اللَّيْلِ / آيَةَ النَّهَارِ** } وإضافة آية إلى الليل وإلى النهار يجوز أن تكون بيانيّة، أي الآية التي هي الليل، والآية التي هي النهار. ويجوز أن تكون آية الليل الآية الملازمة له وهي القمر، وآية النهار الشمس.

ويكون معنى المحو أن القمر مطموس لا نور في جرمه ولكنّه يكتسب الإنارة بانعكاس شعاع الشمس على كرته، ومعنى كون آية النهار مبصرة أنّ الشمس جعل ضوءها سبب إبصار النّاس الأشياء. وهذا أدقّ معنى وأعمق في إعجاز القرآن بلاغة وعلما، فإنّ هذه حقيقة من علم الهيئة. وما أعيد لفظ (آية) إلّا لأجلها.

المحو: الطمس. وأطلق على انعدام النور، لأنّ النور يُظهر الأشياء والظلمة لا تظهر فيها الأشياء، فشبّه اختفاء الأشياء بالمحو.

{ **لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ** } علّة لخصوص آية النهار. وجاء التعليل لحكمة آية النهار خاصة دون ما يقابلها من حكمة الليل لأنّ المنّة بها أوضح، ولأنّ من التنبيه إليها يحصل التنبّه إلى ضدّها وهو حكمة السكون في الليل، كما قال { لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } [يونس:67].

{ **وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** } ثم ذكرت حكمة أخرى حاصلة من كلتا الآيتين. وهي حكمة حساب السنين، وهي في آية الليل أظهر، لأنّ جمهور البشر يضبط الشهور والسنين بالليالي، أي حساب القمر.

{ **وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** } تذييل، باعتبار ما سبق له من الإشارة إلى أنّ للشرّ والخير الموعود بهما أجلا ينتهيان إليه. والمعنى: أنّ ذلك الأجل محدود في علم الله تعالى لا يعدوه، فلا يقرّبه استعجال ولا يؤخّره استبطاء لأنّ الله قد جعل لكلّ شيء قدرا لا إبهام فيه ولا شكّ عنده.

التفصيل: التبيين والتمييز. وهو مشتقّ من الفصل بمعنى القطع، لأنّ التبيين يقتضي عدم التباس الشيء بغيره. وقد تقدّم في قوله تعالى { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود:1].

والتفصيل في الأشياء يكون في خلقها، ونظامها، وعلم الله بها، وإعلامه بها. فالتفصيل الذي في علم الله وفي خلقه ونواميس العوالم عام لكلّ شيء وهو مقتضى العموم هنا. وأمّا ما فصّله الله للنّاس من الأحكام والأخبار فذلك بعض الأشياء، ومنه قوله تعالى { يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } (الرعد:2) وقوله { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأنعام:97]. وذلك بالتبليغ على ألسنة الرّسل، وبما خلق في النّاس من إدراك العقول. ومن جملة ما فصّله للنّاس والإرشاد إلى التوحيد وصالح الأعمال والإنذار على العصيان. وفي هذا تعريض بالتهديد.

{ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً [13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [14]

لمّا كان سياق الكلام جاريا في طريق الترغيب في العمل الصالح والتحذير من الكفر والسيّئات ابتداء من قوله تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ - إلى قوله - عَذَاباً أَلِيماً }[10/9]، وما عقبه

ممّا يتعلّق بالبشارة والنذارة وما أدمج في خلال ذلك من التذكير ثم بما دلّ على أنّ علم الله محيط بكلّ شيء تفصيلا، وكان أهمّ الأشياء في هذا المقام إحاطة علمه بالأعمال كلّها، فأعقب ذكر ما فصّله الله من الأشياء بالتنبيه على تفصيل أعمال النّاس تفصيلا لا يقبل الشكّ ولا الإخفاء، وهو التفصيل المشابه للتقييد بالكتابة.

{ **وَكُلَّ إِنْسَانٍ** } عطف على قوله { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } [12] عطف خاص على عام للاهتمام بهذا الخاص. والمعنى: وكلّ إنسان قدّرنا له عمله في علمنا فهو عامل به لا محالة، وهذا من أحوال الدنيا.

الطائر: أطلق على السهم، أو القرطاس الذي يُعيّن فيه صاحب الحظّ في عطاء أو قرعة لقسمة أو أعشار جزور الميسر، يقال: اقتسموا الأرض فطار لفلان كذا، ومنه قول أم العلاء الأنصارية في حديث الهجرة : "أقتسم الأنصار المهاجرين فطار لنا عثمان بين مظعون... " وذكرت قصّة وفاته.[صحيح البخاري]

وأصل إطلاق الطائر على هذا، إمّا لأنّهم كانوا يرمون السهام المرقومة بأسماء المتقاسمين على صُبر الشيء المقسوم المعدّة للتوزيع. فكلّ من وقع السهم المرقوم باسمه على شيء أخذه. وكانوا يطلقون على رمي السهم فعل الطيران لأنّهم يجعلون للسهم ريشا في قذذه ليخفّ به اختراقه الهواء عند رميه من القوس.

فالطائر هنا أطلق على الحظّ من العمل مثل ما يطلق اسم السهم على حظ الإنسان من شيء ما.

وإمّا من زجر الطير لمعرفة بخت أو شؤم الزاجر من حالة الطير التي تعترضه في طريقه، والأكثر أن يفعلوا ذلك في أسفارهم، وشاع ذلك في الكلام فأطلق الطائر على حظ الإنسان من خير أو شرّ.

الإلزام: جعله لازما له، أي غير مفارق، يقال: لزمه إذا لم يفارقه.

{ **فِي عُنُقِهِ** } يجوز أن يكون كناية عن الملازمة والقرب، أي عمله لازم له لزوم القلادة. ومنه قول العرب تقلّدها طوق الحمامة، فلذلك خصّت بالعنق، لأنّ القلادة توضع في عنق المرأة.

ويحتمل أن يكون تمثيلا لحالة لعلّها كانت معروفة عند العرب وهي وضع علامات تعلّق في الرقاب للذين يعيّنون لعمل ما أو ليؤخذ منهم شيء. ويجوز أن يكون تمثيلا بالبعير الذي يُوسم في عنقه بسمْةٍ كيلا يختلط بغيره، أو الذي يوضع في عنقه جُلجل لكيلا يضلّ عن صاحبه.

والمعنى على الجميع، أنّ كلّ إنسان يعامل بعمله من خيرّ أو شر لا ينقص له منه شيء.

{ **وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً** } إخبار عن كون تلك الأعمال المعبّر عنها بالطائر تظهر يوم القيامة مفصّلة معيّنة لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيت للجزاء عليها.

الكتاب: ما فيه ذكر الأعمال وإحصاؤها.

{ **يَلْقَاهُ مَنْشُوراً** } والنشر ضدّ الطيّ. ومعنى { يَلْقَاهُ } يجده. وهو كناية عن سرعة اطلاعه على جميع ما عمله، بحيث إنّ الكتاب يحضر من قبل وصول صاحبه مفتوحا للمطالعة.

نشر الكتاب: إظهاره ليقرأ، قال تعالى { وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ } [التكوير:10].

{ **اقْرَأْ كِتَابَكَ** } مقول قول محذوف دل عليه السياق. والأمر مستعمل في التسخير ومكنّى به عن الإعذار لهم والاحتجاج عليهم كما دلّ عليه قوله { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً }، ولذلك كان معرفة تلك الأعمال من ذلك الكتاب حاصلة للقارئ.

القراءة: مستعملة في معرفة ما أُثبت للإنسان من الأعمال، أو في فهم النقوش المخصوصة إن كانت هنالك نقوش وهي خوارق عادات.

{ **بِنَفْسِكَ** } الباء مزيدة للتأكيد، كما في قوله { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [النساء:79].

{ **حَسِيباً** } انتصب على التمييز لنسبة الكفاية إلى النفس. والحسيب: فعيل بمعنى فاعل أي الحاسب والضابط. وكثر ورود التمييز بعد(كفى بكذا) وعدّي بـ (على) لتضمينه معنى الشهيد. وما صدق النفس هو الإنسان في قوله { وكل إنسان ألزمناه طائره } فلذلك جاء {حسيبا} بصيغة التذكير.

{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [15]

{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }

هذه الجملة بيان أو بدل اشتمال من جملة { وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه } مع توابعها. وفيه تبيين اختلاف الطائر بين نافع وضار، فطائر الهداية نفع لصاحبه وطائر الضلال ضرّ لصاحبه. ولكون الجملة كذلك فصلت ولم تعطف على التي قبلها.

{ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } واقعة موقع التعليل لمضمون { وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } لما في هذه من عموم الحكم، فإنّ عمل أحد لا يلحق نفعه ولا ضرّه بغيره.

وفي الجملة إبطال أوهام قوم يظنّون أنّ أوزارهم يحملها عنهم غيرهم. وقد روي أنّ الوليد بن المغيرة وهو من أئمة الكفر كان يقول لقريش: " اكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم". ولعلّه قال ذلك لما رأى تردّدهم في أمر الإسلام وميلهم إلى النظر في أدلّة القرآن خشية الجزاء يوم البعث، فأراد التمويه عليهم بأنّه يتحمّل ذنوبهم إن تبين أنّ محمدا على حق، وقد يروج على دهمائهم لأنّهم اعتادوا بالحملات والكفالات والرهائن، فبيّن الله للنّاس إبطال ذلك إنقاذا لهم من الاغترار بالذي يهوي بهم إلى المهالك، مع ما في هذا البيان من تعليم أصل عظيم في الدين وهو{ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }. فكانت هذه الآية أصلا عظيما في الشريعة، وتفرع عنها أحكام كثيرة.

ولمّا روى ابن عمر عن النبيء ﷺ أنّ الميت ليعذب ببكاء أهله عليه قالت عائشة رضي الله عنها:" يرحم الله

أبا عبد الرحمان، ما قال رسول الله ذلك والله يقول { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ".
وسكتت الآية عن أن لا ينتفع أحد بصالح عمل غيره اكتفاء، إذ لا داعي إلى بيانه لأنّه لا يوقع في غرور، وتُعلم المساواة بطريق لحن الخطاب أو فحواه.
وقد جاء في القرآن ما يومي إلى أنّ المتسبّب لأحد في هدي ينال من ثواب المهتدي قال تعالى { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [الفرقان:74] وفي الحديث:" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير " [مسلم].
ومن التخليط توهّم أنّ حمل الديّة في قتل الخطأ على العاقلة مناف لهذه الآية، فإنّ ذلك فرع قاعدة أخرى وهي قاعدة التعاون والمواساة وليست من حمل التبعات.
{ **تزر** } تحمل الوزر، وهو الثقل. و**الوازرة**: الحاملة، وتأنيثها باعتبار أنّها نفس لقوله قبله { يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ }.
الوزر: الإثم لتشبيهه بالحمل الثقيل لما يجرّه من التعب لصاحبه في الآخرة، كما أطلق عليه الثقل، قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].
{ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً** } وهذا استقصاء في الإعذار لأهل الضلال، زيادة على نفي مؤاخذتهم بأجرام غيرهم، ولهذا اقتصر على { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ } دون أن يقال: ولا مثيبين. لأنّ المقام مقام إعذار وقطع حجّة وليس مقام امتنان بالإرشاد.
والعذاب هنا عذاب الدنيا بقرينة السياق وقرينة ما بعده. ودلّت على ذلك آيات كثيرة، مثل قوله تعالى { وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الشعراء:209].
{ **حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً** } يؤذن بأنّ بعثة الرسول متّصلة بالعذاب شأن الغاية، وهذا اتصال عرفي بحسب ما تقتضيه البعثة من مدّة للتبليغ والاستمرار على تكذيبهم الرّسول والإمهال للمكذّبين، ولذلك يظهر أن يكون العذاب هنا عذاب الدنيا وكما يقتضيه الانتقال إلى الآية بعدها.
على أنّنا إذا اعتبرنا التوسّع في الغاية صحّ حمل التعذيب على ما يعمّ عذاب الدنيا والآخرة.
ودلّت الآية على أنّ الله لا يؤاخذ النّاس إلّا بعد أن يرشدهم، رحمة منه لهم. وهي دليل بيّن على انتفاء مؤاخذة أحد ما لم تبلغه دعوة رسول من الله إلى قومه، فهي حجة للأشعري ناهضة على الماتريدي والمعتزلة الذين اتفقوا على إيصال العقل إلى معرفة وجود الله. فوجود الله وتوحيده عندهم واجبان بالعقل فلا عذر لمن أشرك بالله وعطّل.
وتأويل المعتزلة أن يراد بالرسول العقل تطوُّحٌ عن استعمال اللغة وإغماضٌ عن كونه مفعولا لفعل {نبعث} إذ لا يقال بعث عقلا بمعنى جعل. وقد تقدّم ذلك في تفسير قوله تعالى { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء:165].

{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً}[16].

هذا تفصيل للحكم المتقدّم قصد به تهديد قادة المشركين وتحميلهم تبعة ضلال الذين أضلّوهم. وهو تفريع لتبيين أسباب حلول التعذيب بعد بعثة الرّسول أدمج فيه تهديد المضلّين. فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء على قوله { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [15] ولكنّه عطف بالواو للتنبيه على أنّه خبر مقصود لذاته باعتبار ما يتضمّنه من التحذير من الوقوع في مثل الحالة الموصوفة.

فهذه الآية تهديد للمشركين من أهل مكة وتعليم للمسلمين.

والمعنى أنّ بعثة الرسول تتضمّن أمرا بشرع، وأنّ سبب إهلاك المرسَل إليهم بعد أن يبعث إليهم الرّسول هو عدم امتثالهم لما يأمرهم الله به على لسان ذلك الرّسول.

{ **وَإِذَا أَرَدْنَا** } ومعنى إرادة الله إهلاك قرية التعلق التنجيزي لإرادته. وتلك الإرادة تتوجّه إلى المراد عند حصول أسبابه { فَفَسَقُوا فِيهَا }.

{ **أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** } المتعلّق محذوف، أي أمرناهم بما نأمرهم على لسان رسولهم فعصوا الرّسول وفسقوا في قريتهم.

واعلم أن تصدير هذه الجملة بـ (إذا) أوجب استغلاق المعنى في الربط بين جملة شرط (إذا) وجملة جوابه، لأنّ شأن (إذا) أن تكون ظرفا للمستقبل وتتضمّن معنى الشرط أي الربط بين جملتيها. فيقتضي ذلك أنّ إرادة الله تتعلق بإهلاك القرية ابتداء، فيأمر الله مترفي أهل القرية فيفسقوا فيها فيحقّ عليها القول الذي هو مظهر إرادة الله إهلاكهم، مع أنّ مجرى العقل يقتضي أن يكون فسوق أهل القرية وكفرهم هو سبب وقوع إرادة الله إهلاكهم، وأنّ الله لا تتعلّق إرادته بإهلاك قوم إلّا بعد أن يصدر منهم ما توعّدهم عليه لا العكس. وليس من شأن الله أن يريد إهلاكهم قبل أن يأتوا بما يسبّبه، ولا من الحكمة أن يسوقهم إلى ما يفضي إلى مؤاخذتهم ليحقّق سببا لإهلاكهم.

فيكون أصل نظم الكلام هكذا: وما كنا معذبين حتّى نبعث رسولا ونأمر مترفي قرية بما نأمرهم به على لسان الرسول فيفسقوا عن أمرنا فيحقّ عليهم الوعيد فنهلكهم إذا أردنا إهلاكهم .وقرينة السياق واضحة في هذا، فبنا أن نجعل الواو عاطفة فعل { أمرنا مترفيها } على { نَبْعَثَ رَسُولاً }، فإن الأفعال يعطف بعضها على بعض سواء أتحدت في اللوازم أم اختلفت.

وإنّما عدل عن نظم الكلام بهذا الأسلوب إلى الأسلوب الذي جاءت به الآية لإدماج التعريض بتهديد أهل مكة بأنهم معرضون لمثل هذا ممّا حلّ بأهل القرى التي كذّبت رسل الله.

وللمفسّرين طرائق كثيرة تزيد على ثمان لتأويل هذه الآية متعسّفة أو مدخولة، وهي متفاوتة، وأقربها قول من جعل جملة { أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا } إلخ صفة لـ { قرية } وجعل جواب (إذا) محذوفا.

المترف: اسم مفعول من أترفه إذا أعطاه التُرْفة (بضم التاء وسكون الراء) أي النعمة. والمترفون هم أهل النعمة وسعة العيش، وهم معظم أهل الشرك بمكّة. وكان معظم المؤمنين يومئذ ضعفاء قال الله { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً} [المزمل:11].

وتعليق الأمر بخصوص المترفين مع أنّ الرسل يخاطبون جميع النّاس، لأنّ عصيانهم الأمر الموجّه إليهم هو سبب فسقهم وفسق بقية قومهم، إذ هم قادة العامة وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجّه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتّبعهم الدهماء فعم الفسق أو غلب على القرية فاستحقت الهلاك.

الفسق: الخروج عن المقر وعن الطريق. والمراد به في اصطلاح القرآن **الخروج عمّا أمر الله به**، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26]

{ **الْقَوْلُ** } هو ما يبلّغه الله إلى النّاس من كلام بواسطة الرّسل، وهو قول الوعيد كما قال { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ } [الصافات:31].

التدمير: هدم البناء وإزالة أثره، وهو مستعار هنا للاستئصال إذ المقصود إهلاك أهلها ولو مع بقاء بنائهم. وتقدّم التدمير عند قوله تعالى { وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَومَهُ } [الأعراف:137].

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً }[17]

ضرب مثال لإهلاك القرى الذي وُصف سببه وكيفيّتة في الآية السابقة، لأنّه أشدّ في الكشف وأدخل في التحذير المقصود. وفي ذلك تحقيق لكون حلول العذاب بالقرى مقدّما بإرسال الرسول إلى أهل القرية، ثم بتوجيه الأوامر إلى المترفين ثم فسقهم عنها. وكان زعماء الكفرة من قوم نوح مترفين وهم الذين قالوا { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } [هود:27].

فكان مقتضى الظاهر عطف هذه الجملة بالفاء لأنّها كالفرع على الجملة قبلها ولكنّها عطفت بالواو إظهارا لاستقلالها بوقع التحذير من جهة أخرى، فكان ذلك تحريجا على خلاف مقتضى الظاهر لهذا الاعتبار.

{ **وَكَمْ** } في الأصل استفهام عن العدد، وتستعمل خبريّة دالة على عدد كثير مبهم النوع، فلذلك تحتاج إلى تمييز لنوع العدد. و{ من القرون } تمييز للإبهام الذي اقتضته (كم).

القرون: جمع قرن، وهو في الأصل المدّة الطويلة من الزمن فقد يقدّر بمائة سنة وبأربعين سنة، ويطلق على النّاس الذين يكونون في تلك المدّة كما هنا، وفي الحديث خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ، أي أهل القرن الذي أنا فيه. قال الله تعالى { وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً } [الفرقان:38].

{ **مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** } إيجاز، كأنّه قيل: من قوم نوح فمن بعدهم، وقد جعل زمن نوح مبدأ لقصص الأمم لأنّه أوّل رسول، واعتبر القصص من بعده لأنّ زمن نوح صار كالمنقطع بسبب تجديد عمران الأرض بعد الطوفان، ولأن العذاب الذي حل بقومه عذاب مهول وهو الغرق الذي أحاط بالعالم.

ووجه ذكره تذكير المشركين به، وأنّ عذاب الله لا حدّ له، والتنبيه على أنّ الضلالة تحول دون الاعتبار بالعواقب ودون الاتعاظ بما يحل بمن سبق.

والآية إقبال على خطاب النبيء ﷺ بالخصوص، لأنّ كلّ ما سبق من الوعيد والتهديد إنّما مآله إلى حمل النّاس على تصديق محمد ﷺ فيما جاء به من القرآن بعد أن لجّوا في الكفر وتفنّنوا في التكذيب، فلا جرم ختم ذلك بتطمين النبيء بأنّ الله مطّلع على ذنوب القوم. وهو تعريض بأنّه مجازيهم بذنبوهم بما يناسب فظاعتها، ولذلك جاء بفعل { كَفَى } وبوصفي {خَبِيراً بَصِيراً} المكنّى بذكرهما عن عدم إفلات شيء من ذنوبهم المرئية والمعلومة من ضمائرهم أعني أعمالهم ونواياهم.

وقدّم ما هو متعلق بالضمائر والنوايا لأنّ العقائد أصل الأعمال في الفساد والصلاح. وفي الحديث: " ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب" [متفق عليه].

{ **وَكَفَى بِرَبِّكَ** } إيماء إلى أنّ النبيء غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربّه فهو كافية وحسبه. قال تعالى {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة:137].

أو إلى أنّه في غنية عن الهم في شأنهم كقوله لنوح { فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [هود:46] فهذا إمّا تسلية له عن أذاهم، وإما صرف له عن التوجّع لهم.

وفي الخطاب تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً [18] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً}[19].

بيان لجملة { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه } [15] وهو راجع أيضا إلى جملة { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } [13] تدريجا في التبيان للنّاس بأنّ أعمالهم من كسبهم واختيارهم، فابتدئوا بأنّ الله قد ألزمهم تبعة أعمالهم بقوله { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } ثم وكّل أمرهم إليهم، وأنّ المسيء لا يضرّ بإساءته غيره ولا يحملها عنه غيره فقال { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه } [15]. ثم أعذر إليهم بأنّه لا يأخذهم على غرّة ولا يأخذهم إلّا بسوء أعمالهم بقوله { وما كنا معذبين - إلى قوله - خَبِيراً بَصِيراً } [15-17]. ثم كشف

لهم مقاصدهم من أعمالهم، وأنّهم قسمان:

قسم لم يرد إلّا الدنيا فكانت أعماله لمرضاة شهواته معتقدا أنّ الدنيا هي قصارى مراتع النفوس لا حظ لها إلّا ما حصل لها في مدّة الحياة، لأنّه لا يؤمن بالبعث فيقصر عمله على ذلك.

وقسم علم أنّ الفوز الحقّ هو فيما بعد هذه الحياة فعمل للآخرة مقتفيا ما هداه الله إليه من الأعمال بواسطة رسله. وأن الله عامل كل فريق بمقدار همّته.

{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ** } أي الدنيا بقرينة مقابلته بقوله { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ } لأنّ هذه المقابلة تقوم مقام الحصر الإضافي، إذ ليس الحصر الإضافي سوى جملتين لإثبات الشيء ونفي لخلافه. كقوله { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } [هود:15].

والمراد من التعجيل أن يعطى ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وقرينة ذلك قوله { فيها } .

{ **مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ** } لأن ما يعطاه من أرادوا العاجلة يعطاه بعضهم بالمقادير التي شاء الله إعطاءها.

المشيئة: الطواعية وانتفاء الإكراه.

الإرادة: مرادف المشيئة، فالتعبير بها بعد قوله { ما نشاء } تفنّن.

والمعنى: أنّ هذا الفريق الذي يريد الحياة الدنيا فقط قد نعطي بعضهم بعض ما يريد على حسب مشيئتنا وإرادتنا لأسباب مختلفة. ولا يخلو أحد في الدنيا من أن يكون قد عجّل له بعض ما يرغبه من لذات الدنيا.

{ **ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً** } (ثمّ) لإفادة التراخي الرتبي.

{ **يَصْلاهَا** } يقال: صلى النّار إذا أصابه حرقها.

الذم: الوصف بالمعائب التي في الموصوف.

المدحور: المطرود. يقال: دحره، والمصدر: الدحور، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُورا } [الأعراف:18].

{ **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا** } والاختلاف بين جملة { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ } وهذه الجملة بجعل الفعل مضارعا في الأولى للإيماء إلى أنّ إرادة النّاس العاجلة متكرّرة متجدّدة. وفيه تنبيه على أنّ أمور العاجلة متقضية زائلة. وجعل فعل إرادة الآخرة ماضيا لدلالة الماضي على الرسوخ، تنبيها على أنّ خير الآخرة أولى بالإرادة.

{ **وَسَعَى** } حقيقته المشي دون العدو، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنّها سبب الحصول على نعيم الآخرة، فالعامل للصالحات كأنّه يسير سيرا سريعا إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها. وإضافته إلى ضمير الآخرة من إضافة المصدر إلى مفعوله في المعنى، وهو مفعول مطلق لبيان النوع.

وفي الآية تنبيه على أنّ إرادة خير الآخرة من غير سعي غرور وأنّ إرادة كل شيء لا بد لنجاحها من السعي

في أسباب حصوله. قال عبد الله بن المبارك:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنّ السفينة لا تجري على اليبس

{ وَهُوَ مُؤْمِنٌ } حال من ضمير { وَسَعَى } وجيء بالجملة الإسميّة لدلالتها على الثبات والدوام، أي وقد كان راسخ الإيمان، وهو في معنى قوله { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [البلد:17].

{ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما سيخبر به عنهم لأجل ما وصفوا به قبل ذكر اسم الإشارة.

والسعي المشكور هو المشكور ساعيه، فوصفه به مجاز عقلي. وهو أبلغ في الإخبار عن عامله بأنّه مرضي عنه، لأنّه في معنى الكناية الراجعة إلى إثبات الشيء بواسطة إثبات ملزومه.

{ كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً }[20]

تذييل للآيتين السابقتين. وهي فذلكة للتنبيه على أنّ الله تعالى لم يترك خلقه من أثر رحمته حتّى الكفرة منهم، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدّر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة. وذلك مصداق قوله { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف:156] وقوله فيما رواه عنه نبيه ﷺ :" لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" [البخاري (7453)، ومسلم (2751)].

{ كُلّا } الّتنوين عوض عن المضاف إليه، أي كلّ الفريقين. ومجموع المعطوف والمعطوف عليه هو البدل كقول النبيء ﷺ: " اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ " [الترمذي (3805) وصححه الألباني]

{ هَؤُلاءِ } الإشارة في الموضعين إلى من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة.

الإمداد: استرسال العطاء وتعاقبه. وجعل الجديد منه مددا للسالف بحيث لا ينقطع.

{ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً } اعتراض أو تذييل، وعطاء ربك جنس العطاء،

المحظور: الممنوع، أي ما كان ممنوعا بالمرّة، بل لكل مخلوق نصيب منه.

{ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } [21]

لما كان العطاء المبذول للفريقين هو عطاء الدنيا وكان النّاس مفضّلين فيه على وجه يدركون حكمته لفت الله لذلك نظر نبيّه عليه الصلاة والسلام لفت اعتبار وتدبّر، ثم ذكّره بأنّ عطاء الآخرة أعظم عطاء، وقد فضّل الله به المؤمنين.

{ **انْظُرْ** } الأمر موجّه إلى النبيء ﷺ ترفيعا في درجات علمه، ويحصل به توجيه العبرة إلى غيره.
و حقيقته توجّه آلة الحس البصري إلى المبصر. وقد شاع في كلام العرب استعماله في النظر المصحوب بالتدبّر وتكرير مشاهدة أشياء في غرض ما، فيقوم مقام الظنّ ويستعمل استعماله بهذا الاعتبار، ولذلك شاع إطلاق النظر في علم الكلام على الفكر المؤدي إلى علم أو ظنّ، وهو هنا كذلك. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [النساء:50].
{ **كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** } اسم الاستفهام مستعمل في التنبيه. والمراد: التفضيل في عطاء الدنيا، لأنّه الذي يدركه التأمّل والنظر. والمقصود من هذا التنظير التنبيه إلى أنّ عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال. ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتّحد، وقد يفضل المسلم فيه الكافر، ويفضل الكافر المسلم، ويفضل بعض المسلمين بعضا، وبعض الكفرة بعضا، وكفاك بذلك هاديا إلى أنّ مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ولا ممّا يساق إلى النفوس الخيّرة.
{ **وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** } ونصب { دَرَجَاتٍ – تَفْضِيلاً } على التمييز، والمفضّل عليه هو عطاء الدنيا.
الدرجات: مستعارة لعظمة الشرف.
التفضيل: إعطاء الفضل، وهو الجدّة والنعمة. وفي الحديث: " قيلَ: يا رسولَ اللهِ، ذهَبَ أهلُ الدُّثورِ بالأُجورِ، يُصلُّونَ كما نُصلِّي، ويَصومونَ كما نَصومُ، **ويَتصدَّقونَ بفُضولِ أموالِهم**، فقال: أوليس قد جعَلَ اللهُ لكم ما تَصدَّقونَ، إنَّ بكلِّ تَسبيحةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَكبيرةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَهليلةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَحميدةٍ صَدَقةً، وأمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقةٌ، ونَهْيٌ عنِ المُنكَرِ صَدَقةٌ، وفي بُضْعِ أحَدِكم صَدَقةٌ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، يَأْتي أحَدُنا شَهوتَه ويكونُ له فيها أجْرٌ؟ فقال: أرَأَيْتم لو وضَعَها في الحَرامِ أليس كان يكونُ عليه وِزرٌ، أوِ الوِزرُ؟ قالوا: بَلى، قال: فكذلك إذا وضَعَها في الحَلالِ، يكونُ له الأجْر.[مسلم (1006)]

{ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً } [22]

تذييل هو فذلكة لاختلاف أحوال المسلمين والمشركين، فإنّ خلاصة أسباب الفوز ترك الشرك، لأنّ ذلك هو مبدأ الإقبال على العمل الصالح، فهو أوّل خطوات السعي لمريد الآخرة، لأنّ الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول، قال الله تعالى في ذكر آلهة المشركين { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود:101].
والخطاب للنبي ﷺ تبع لخطاب قوله { انْظُرْ }، والمقصود إسماع الخطاب غيره بقرينة تحقّق أنّ النبيء قائم بنبذ الشرك ومُنْحٍ على الذين يعبدون مع الله إلها آخر.
{ **تقعد** } مستعار لمعنى المكث والدوام. أريد بهذه الاستعارة تجريد معنى النهي إلى أنّه نهي تعريض

بالمشركين لأنّهم متلبّسون بالذم والخذلان.

المذموم: المذكور بالسوء والعيب.

المخذول: الذي أسلمه ناصره.

فأمّا ذمّه فمن ذوي العقول، إذ أعظم سخرية أن يتّخذ المرء حجرا أو عودا ربا له ويعبده، كما قال إبراهيم عليه السلام { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95]، وذمّه من الله على لسان الشرائع.

وأمّا خذلانه فلأنّه اتخذ لنفسه وليّا لا يغني عنه شيئا { إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} [فاطر:14]، وقال إبراهيم عليه السلام { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً } [مريم:42]، وخذلانه من الله لأنّه لا يتولى من لا يتولاه قال { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد:11]، وقال { وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ } [غافر:50].

{ وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً [23] وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [24].

{ وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } . عطف على الكلام السابق عطف غرض على غرض تخلّصا إلى أعمدة من شريعة الإسلام بمناسبة الفذلكة المتقدّمة تنبيها على أنّ إصلاح الأعمال متفرّع على نبذ الشرك كما قال تعالى { فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [البلد:13-17]. وهذه الآيات أوّل تفصيل للشريعة وقع بمكّة،

وما ذكر في هذه الآيات مقصود به تعليم المسلمين، ولذلك اختلف أسلوبه عن أسلوب نظيره في سورة الأنعام الذي وجه فيه الخطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم. فمن الاختلاف بين الأسلوبين أنّ هذه الآية افتتحت بفعل القضاء المقتضي الإلزام، وهو مناسب لخطاب أمّة تمتثل أمر ربّها، وافتتح خطاب سورة الأنعام بـ { تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ }[151].

ومنها أنّ هذه الآية جعلت المقضي هو توحيد الله بالعبادة، لأنّه المناسب لحال المسلمين فحذّرهم من عبادة غير الله. وآية الأنعام جعلت المحرّم فيها هو الإشراك بالله في الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك إذ لا عبادة لهم. وأنّ هذه الآية فُصّل فيها حكم البرّ بالوالدين وحكم القتل وحكم الإنفاق ولم يُفصّل ما في الأنعام.

وكان ما ذكر في هذه الآيات خمسة عشر تشريعا هي أصول التشريع الراجع إلى نظام المجتمع.

وأحسب أن هذه الآيات اشتهرت بين النّاس في مكة وتناقلها العرب في الآفاق، فلذلك ألمّ الأعشى ببعضها في

قصيدته المروية التي أعدّها لمدح النبيء ﷺ حين جاء يريد الإيمان فصدّته قريش عن ذلك، وهي القصيدة الدالية التي يقول فيها:

أجدّك لم تسمع وَصاة محمد ... نبئ الإله حين أوصى وأشهدا

فإيّاك والميتات لا تأكلّنها ... ولا تأخذنّ سهما حديدا لتفصدا

وذا النصب المنصوب لا تنسكنّه ... ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه ... لفاقته ولا الأسير المقيدا

ولا تسخرنّ من بائس ذي ضرارة ... ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

ولا تقربنّ جارة إن سِرَّها ... عليك حرام فأنكحن أو تأبَّدا

{ **وَقَضَى رَبُّكَ** } افتتحت هذه الأحكام والوصايا بفعل القضاء اهتماما به وأنّه ممّا أمر الله به أمرا جازما وحكما لازما، وليس هو بمعنى التقدير كقوله { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ } [4] لظهور أنّ المذكورات هنا ممّا يقع ولا يقع.

{ **ربّك** } الخطاب للنبيء ﷺ كالذي في قوله قبل { من عطاء ربك } [20]، والقرينة ظاهرة. ويجوز أن يكون لغير معيّن فيعمّ الأمّة والمآل واحد.

{ **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ** } جيء بخطاب الجماعة لأنّ النهي يتعلّق بجميع النّاس وهو تعريض بالمشركين.

وابتدئ التشريع بالنهي عن عبادة غير الله لأنّ ذلك هو أصل الإصلاح، لأنّ إصلاح التفكير مقدّم على إصلاح العمل، إذ لا يساق العقل إلى طلب الصالحات إلّا إذ كان صالحا. عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ "[متفق عليه].وقد فصّلت ذلك في كتابي (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام).

{ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً [23] وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [24]

هذا أصل ثان من أصول الشريعة وهو برّ الوالدين.

{ **إِحْسَاناً** } انتصب على المفعولية المطلقة مصدر نائبا عن فعله. أي وقضى إحسانا بالوالدين.

{ **وَبِالْوَالِدَيْنِ** } متعلق بـ { إِحْسَاناً }، والباء فيه للتعدية يقال: أحسن بفلان كما يقال: أحسن إليه، و تقدّم عند قوله تعالى { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي } [يوسف:100]. وتقديمه على متعلّقة للاهتمام به.

وعطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين على ما هو في معنى الأمر بعبادة الله، لأنّ الله هو الخالق فاستحقّ العبادة لأنّه أوجد النّاس، ولأنّها أعظم الشكر على أعظم منّة، فالخالق مستحقّ العبادة لغناه عن الإحسان.

ولمّا جعل الله الأبوين مظهر إيجاد النّاس أمر بالإحسان إليهما. ولأنّ الله جبل الوالدين على الشفقة على ولدهما، فأمر الولد بمجازاة ذلك بالإحسان، كما سيأتي { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}.

وشمل الإحسان كل ما يصدق فيه هذا الجنس، من الأقوال والأفعال والبذل والمواساة.

{ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً** } بيان لجملة {إِحْسَاناً } ، و { **إمّا** } مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة المهيّئة لنون التوكيد، أي إن يبلغ أحد الوالدين أو كلاهما حدّ الكبر وهما عندك، أي في كفالتك فوطِّئ لهما خُلُقك وليّن جانبك.

والخطاب لغير معيّن فيعمّ كلّ مخاطب، وليس خطابا للنبيء ﷺ إذ لم يكن له أبوان يومئذ. وإيثار ضمير المفرد هنا دون ضمير الجمع لأنّه خطاب يختصّ بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين فكان الإفراد أنسب به، وإنّ كان الإفراد والجمع سواء في المقصود، لأنّ خطاب غير المعيّن يساوي خطاب الجمع.

وخصّ هذه الحالة بالبيان لأنها مظنّة انتفاء الإحسان بما يلقى الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤونهما ومن سوء الخلق منهما.

{ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا** } ووجه تعدّد الفاعل مظهرا دون جعله بضمير التثنية، بأن يقال: إمّا يبلغان عندك الكبر، الاهتمام بتخصيص كلّ حالة من أحوال الوالدين بالذكر.

وأكّد فعل الشرط بنون التوكيد لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ومضمون الشرط في الوجود.

{ **عندك** } الخطاب لكلّ من يصلح لسماع الكلام فيعمّ كل مخاطب.

{ **فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ** } اسم فعل مضارع معناه أتضجّر. وفيه لغات كثيرة أشهرها كلّها ضم الهمزة وتشديد الفاء. وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما { أُفٍّ } خاصة، وإنّما المقصود النهي عن الأذى الذي أقلّه الأذى باللسان بأوجز كلمة، وبأنّها غير دالة على أكثر من حصول الضجر لقائلها دون شتم أو ذمّ، فيفهم منه النهي ممّا هو أشدّ أذى بطريق فحوى الخطاب بالأولى.

{ **وَلا تَنْهَرْهُمَا** } ثمّ عطف عليه النهي عن نهرهما لئلا يحسب أنّ ذلك تأديب لصلاحهما وليس بالأذى.

النهر: الزجر، يقال: نهره وانتهره.

{ **وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً** } ثم أمر بإكرام القول لهما. والكريم من كل شيء: الرفيع في نوعه. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [لأنفال:4]. وبهذا الأمر انقطع العذر بحيث إذا رأى الولد أن ينصح لأحد أبويه أو أن يحذّره ممّا قد يضرّ به أدى إليه ذلك بقول ليّن حسن الوقع.

{ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** } ثمّ ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعا يبلغ حدّ الذلّ لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد، لأنّ الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما. والقصد من ذلك التخلّق بشكره على

إنعامهما السابقة عليه. وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلّل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشدّ منه إذ يخفض جناحه متذللا. ففي التركيب استعارة مكنية والجناح تخييل، ومجموع هذه الاستعارة تمثيل. وقد تقدّم في قوله { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر:88].

{ مِنَ الرَّحْمَةِ } التعريف عوض عن المضاف إليه، أي من رحمتك إيّاهما. و(من) ابتدائية، أي الذلّ الناشئ عن الرحمة لا عن الخوف أو عن المداهنة. والمقصود اعتياد النفس على التخلّق بالرحمة باستحضار وجوب معاملته إيّاهما بها حتّى يصير له خلقا.

وهذه أحكام عامة في الوالدين وإن كانا مشركين، ولا يطاعان في معصية ولا كفر كما في آية سورة العنكبوت. عن أبي هريرة: " جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَن أحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قالَ: أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أبُوكَ" [البخاري:5971]. وهو ظاهر في ترجيح جانب الأمّ لأنّ سؤال السائل دل على أنّه يسأل عن حسن معاملته لأبويه. وللعلماء أقوال:

أحدها: ترجيح الأمّ على الأب، وإلى هذا ذهب الليث بن سعد، والمحاسبي، وأبو حنيفة. وهو ظاهر قول مالك، فقد حكى القرافي في (الفرق 23) عن مختصر الجامع أنّ رجلا سأل مالكا فقال: إنّ أبي في بلد السودان وقد كتب إليّ أن أقدم عليه وأمّي تمنعني من ذلك؟ فقال مالك: أطع أباك ولا تعص أمّك. وذكر القرافي في المسألة السابعة من ذلك الفرق أنّ مالكا أراد منع الابن من الخروج إلى السودان بغير إذن الأمّ.

الثاني: قول الشافعية أنّ الأبوين سواء في البرّ. وهذا القول يقتضي وجوب طلب الترجيح إذا أمرا ابنهما بأمرين متضادين.

وحكى القرطبي عن المحاسبي في كتاب (الرعاية) أنّه قال: لا خلاف بين العلماء في أنّ للأمّ ثلاثة أرباع البرّ وللأب الربع. وحكى القرطبي عن الليث أنّ للأم ثلثي البر وللأب الثلث، بناء على اختلاف رواية الحديث المذكور أنّه قال: ثم أبوك بعد المرّة الثانية أو بعد المرّة الثالثة.

والوجه عندي أنّ تحديد ذلك بالمقدار حوالة على ما لا ينضبط وأنّ محمل الحديث مع اختلاف روايتيه على أنّ الأمّ أرجح على الإجمال.

{ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } أمْر بالدعاء لهما برحمة الله إيّاهما، وهي الرحمة التي لا يستطيع الولد إيصالها إلى أبويه إلّا بالابتهال إلى الله تعالى. وفي حديث أبي هريرة: " إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له " [مسلم: 1631] .

وفي الآية إيماء إلى أنّ الدعاء لهما مستجاب لأنّ الله أذن فيه. والحديث المذكور مؤيّد ذلك إذ جعل دعاء الولد عملا لأبويه. وحكم هذا الدعاء خاص بالأبوين المؤمنين بأدلة أخرى دلّت على التخصيص كقوله { مَا

كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِين } [التوبة:113].
{ **كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا** } الكاف للتشبيه المجازي يعبّر عنه النحاة بمعنى التعليل في الكاف، ومثاله قوله تعالى {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ } [البقرة:198]، أي ارحمهما رحمة تكافئ ما ربياني صغيرا.
والرحمة حفظ للوجود من اجتناب انتهاكه وهو مقتضى الشكر، فجمع الشكر على ذلك كلّه بالدعاء لهما بالرحمة. والأمر يقتضي الوجوب. وأمّا مواقع الدعاء لهما فلا تنضبط وهو بحسب حال كل امرئ في أوقات ابتهاله. وعن سفيان بن عيينة إذا دعا لهما في كل تشهد فقد امتثل.
ومقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم ينحلّ إلى مقصدين:
المقصد الأوّل : نفساني وهو تربية نفوس الأمّة على الاعتراف بالجميل لصانعه، وهو الشكر، تخلّقا بأخلاق الباري تعالى في اسمه الشكور، فكما أمر بشكر الله على نعمة الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصوري ونعمة التربية والرحمة. وفي الأمر بشكر الفضائل تنويه بها وتنبيه على المنافسة في إسدائها.
المقصد الثاني: عمراني، وهو أن تكون أواصر العائلة قويّة العرى مشدودة الوثوق فأمر بما يحقّق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة، وهو حسن المعاشرة ليربّي في نفوسهم من التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية في الأم، ثم عاطفة الأبوّة المنبعثة عن إحساس بعضه غريزي ضعيف وبعضه عقلي قوي حتّى أنّ أثر ذلك الإحساس ليساوي بمجموعه أثر عاطفة الأم الغريزية أو يفوقها في حالة كبر الابن. ثم وزّع الإسلام ما دعا إليه من ذلك بين بقيّة مراتب القرابة على حسب الدنو في القرب النسبي بما شرعه من صلة الرحم، وقد عزّز الله قابلية الانسياق إلى تلك الشرعة في النفوس.
وفي حديث أبي هريرة : " خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ منه قامَتِ الرَّحِمُ، فأخَذَتْ بحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فقالَ له: مَهْ، قالَتْ: هذا مَقامُ العائِذِ بكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قالَ: ألا تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَن وصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَن قَطَعَكِ، قالَتْ: بَلَى يا رَبِّ، قالَ: فَذاكِ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: 22] " [البخاري: 4830 – مسلم: 2554].
وفي هذا التكوين لأواصر القرابة صلاح عظيم للأمّة تظهر آثاره في مواساة بعضهم بعضا، وفي اتحاد بعضهم مع بعض، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات:13]. وزاده الإسلام توثيقا بما في تضاعيف الشريعة من تأكيد شدّ أواصر القرابة أكثر ممّا حاوله كل دين سلف. وقد بينا ذلك في بابه من كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية).

{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً } [25]

تذييل لآية الأمر بالإحسان بالوالدين وما فصّل به، وما يقتضيه الأمر من اختلاف أحوال المأمورين بهذا الأمر قبل وروده بين موافق لمقتضاه ومفرّط فيه، ومن اختلاف أحوالهم بعد وروده من محافظ على الامتثال، ومقصّر عن قصد أو عن بادرة غفلة. فلذلك ذيّله بأنّه المطّلع على النفوس والنوايا، فوعد الولد بالمغفرة له إن هو أدّى ما أمره الله به لوالديه وافيا كاملا.

{ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ } يشمل جميع أحوال النفوس وخاصة حالة التفريط وبوادر المخالفة. وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه.

{ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ } أي ممتثلين لما أمرتم به. وغيّر أسلوب الضمير فعاد إلى ضمير جمع المخاطبين لأنّ هذا يشترك فيه النّاس كلّهم فضمير الجمع أنسب به.

{ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً } ولمّا شمل الصلاح الصلاح الكامل والصلاح المشوب بالتقصير ذيّله بوصف الأوابين المفيد بعمومه معنى الرجوع إلى الله، أي الرجوع إلى أمره وما يرضيه، ففهم من الكلام معنى احتباك بطريق المقابلة. والتقدير: إن تكونوا صالحين أوّابين إلى الله فإنّه كان للصالحين محسنا وللأوابين غفورا.

وهذا يعم المخاطبين وغيرهم، وبهذا العموم كان تذييلا.

وقد جمعت هذه الآية مع إيجازها تيسيرا بعد تعسير مشوبا بتضييق وتحذير ليكون المسلم على نفسه رقيبا.

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً [26] **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً }** [27].

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ }

القرابة كلّها متشعّبة عن الأبوّة فلا جرم انتقل من الكلام على حقوق الأبوين إلى الكلام على حقوق القرابة.

{ حَقَّهُ } للقرابة حقّان: حقّ الصلة، وحقّ المواساة. والخطاب لغير معين.

والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ } [25] إلى الخطاب بالإفراد بقوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى } تفنّن لتجنّب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدّة مرّات، والمخاطب غير معيّن فهو في معنى الجمع.

الإيتاء: الإعطاء وهو حقيقة في إعطاء الأشياء، ومجاز شائع في التمكّن من الأمور المعنويّة كحسن المعاملة والنصرة. ومنه قول النبيء ﷺ: " لا حَسَدَ إِلّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسَلَّطَه على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، ورجل آتاه الله حِكْمَةً، فهو يقضي بها ويُعَلِّمَها " [البخاري: 1409 / مسلم:816].

وإطلاق الإيتاء هنا صالح للمعنيين كما هي طريقة القرآن في توفير المعاني وإيجاز الألفاظ.

وقد بيّنت أدلة شرعية حقوق ذي القربى ومراتبها: من واجبة، مثل بعض النفقة على بعض القرابة مبيّنة شروطها عند الفقهاء، ومن غير واجبة مثل الإحسان.

وليس لهاته تعلّق بحقوق قرابة النبيء ﷺ لأنّ حقوقهم في المال تقرّرت بعد الهجرة لمّا فرضت الزكاة وشرعت المغانم والأفياء وقسمتها. ولذلك حمل جمهور العلماء هذه الآية على حقوق قرابة النسب بين النّاس.

وعن عليّ زين العابدين أنّها تشمل قرابة النبيء ﷺ.

{ **الْقُرْبَى** } تعريف الجنس، أي القربى منك، وهو الذي يعبّر عنه بأنّ (ال)عوض عن المضاف إليه.

{ **وَالْمِسْكِينَ** } وبمناسبة ذكر إيتاء ذي القربى عطف عليه من يماثله في استحقاق المواساة. وحقّ المسكين هو الصدقة. قال تعالى { وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18]. وقد بيّنت آيات وأحاديث كثيرة حقوق المساكين وأعظمها آية الزكاة ومراتب الصدقات الواجبة وغيرها.

{ **وَابْنَ السَّبِيلِ** } هو المسافر يمر بحيّ من الأحياء، فله على الحيّ الذي يمرّ به حقّ ضيافته.

وحقوق الأضياف جاءت في كلام النبيء ﷺ كقوله: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحلّ له أن يثوي عنده حتّى يحرجه " [البخاري:6135] . وكانت ضيافة ابن السبيل من أصول الحنيفيّة ممّا سنّه إبراهيم عليه السلام.

وقد جعل لابن السبيل نصيب الزكاة.

فأمّا **إيتاء ذي القربى** فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعيا لاتحاد المنبت القريب وشدًّا لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة. وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبّها عن حوزتها.

وأمّا **إيتاء المسكين** فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أنّ ذلك المسكين لا يعدوا أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية.

وأمّا **إيتاء ابن السبيل** فلإكمال نظام المجتمع، لأنّ المارّ به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلا ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلّل من إضرار الجوع والفقر أو الحرّ.

{ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً [26] إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً } [27].

لمّا ذكر البذل المحمود وكان ضدّه معروفا عند العرب أعقبه بذكره للمناسبة.

وليس قوله { وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } متعلّقا بقوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ }، لأنّ التبذير لا يوصف به بذل المال في حقّه ولو كان أكثر من حاجة المعطَى (بالفتح)، بل هي معطوفة على جملة { ألّا تعبدوا إلّا إياه } لأنّها من جملة ما قضى الله به، وهي معترضة بين جملة { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } وجملة { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ } [28] فتضمّنت وصيّة سادسة ممّا قضى الله به.

التبذير: تفريق المال في غير وجهه، وهو مرادف الإسراف، فإنفاقه في الفساد تبذير، ولو كان المقدار قليلا،

وإنفاقه في المباح إذا بلغ حد السرف تبذير، وإنفاقه في وجوه البرّ والصلاح ليس بتبذير. وقد قال بعضهم لمن رآه ينفق في وجوه الخير: لا خير في السرف، فأجابه المنفق: لا سرف في الخير، فكان فيه من بديع الفصاحة محسن العكس.

ووجه النهي عن التبذير هو أنّ المال جعل عوضا لاقتناء ما يحتاج إليه المرء في حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات. وكان نظام القصد في إنفاقه ضامن كفايته في غالب الأحوال بحيث إذا أنفق في وجهه على ذلك الترتيب بين الضروري والحاجي والتحسيني أمن صاحبه من الخصاصة فيما هو إليه أشد احتياجا، وتجاوز هذا الحدّ فيه يسمى تبذيرا بالنسبة إلى أصحاب الأموال ذات الكفاف، وأمّا أهل الوفر والثروة فأحسن ما يبذل فيه وفر المال هو اكتساب الزلفى عند الله، قال تعالى { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41]، واكتساب المحمدة بين قومه. وقديما قال المثل العربي" نعم العون على المروءة الجِدة ". وقال آخر " اللهم هب لي حمدا، وهب لي مجدا، فإنه لا حمد إلّا بفعال، ولا فعال إلّا بمال ".

والمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمّة عُدة لها وقوّة لابتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها حتّى تكون مرهوبه الجانب مرموقة بعين الاعتبار غير محتاجة إلى من قد يستغلّ حاجتها فيبتزّ منافعها ويدخلها تحت نير سلطانه. ولهذا أضاف الله تعالى الأموال إلى ضمير المخاطبين في قوله { وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً } [النساء:5] ولم يقل أموالهم مع أنّها أموال السفهاء، لقوله بعده { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } [النساء:6] فأضافها إليهم حين صاروا رشداء. وما منع السفهاء من التصرف في أموالهم إلّا خشية التبذير. ولذلك لو تصرّف السفيه في شيء من ماله تصرّف السداد والصلاح لمضى.

{ **تَبْذِيراً** } المفعول المطلق لتأكيد النهي كأنّه قيل: لا تبذر، لا تبذر.

{ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ** } تعليل للمبالغة في النهي عن التبذير.

{ **الْمُبَذِّرِينَ** } تعريف الجنس، أي الذين عرفوا بهذه الحقيقة، كالتعريف في قوله { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

الإخوان جمع أخ، وهو هنا مستعار للملازم غير المفارق لأنّ ذلك شأن الأخ، كقولهم: أخو العلم، أي ملازمه والمتصف به، وأخو السفر لمن يكثر الأسفار. والمعنى: أنّهم من أتباع الشياطين وحلفائهم.

{ **كَانُوا** } تأكيد، أنّ تلك الأخوّة صفة راسخة فيهم. وكفى بحقيقة الشيطان كراهة في النفوس واستقباحا.

ومعنى ذلك: أنّ التبذير يدعو إليه الشيطان لأنّه إمّا إنفاق في الفساد وإمّا إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات فيعطل الإنفاق في الخير وكل ذلك يرضي الشيطان

وهذا تحذير من التبذير، فإنّ التبذير إذا فعله المرء اعتاده فأدمن عليه فصار له خلقا لا يفارقه شأن الأخلاق الذميمة أن يسهل تعلّقها بالنفوس كما ورد في الحديث إنّ المرء لا يزال يكذب حتّى يكتب عند الله كذابا.

{ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً** } وهذا تحذير شديد من أن يفضي التبذير بصاحبه إلى الكفر تدريجا بسبب التخلّق بالطبائع الشيطانية، فيذهب بتدهور في مهاوي الضلالة حتّى يبلغ به إلى الكفر، كما قال تعالى { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام:121].

ويجوز حمل الكفر هنا على كفر النعمة فيكون أقرب درجات إلى حال التخلق بالتبذير، لأنّ التبذير صرف المال في غير ما أمر الله به فهو كفر لنعمة الله بالمال. فالتخلّق به يفضي إلى التخلّق والاعتياد لكفران النعم.

وعلى الوجهين فالكلام جار على ما يعرف في المنطق بقياس المساواة، إذ كان المبذر مؤاخيا للشيطان وكان الشيطان كفورا، فكان المبذر كفورا بالمآل أو بالدرجة القريبة.

وقد كان التبذير من خُلُق أهل الجاهلية، ولذلك يتمدّحون بصفة المتلاف والمهلك المال، فكان عندهم الميسر من أسباب الإتلاف، فحذر الله المؤمنين من التلبس بصفات أهل الكفر، وهي من المذام، وأدّبهم بآداب الحكمة والكمال.

{ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً } [28]

عطف على قوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ } [26] لأنّه من تمامه.

والخطاب لغير معيّن ليعمّ كل مخاطب. والمقصود بالخطاب النبيء ﷺ لأنّه على وزان نظم قوله { وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23]، فإن المواجهة بـ { رَبُّكَ } في القرآن جاءت غالبا لخطاب النبيء صلى الله عليه وسلم. ويعدله ما روي أنّ النبيء كان إذا سأله أحد مالا ولم يكن عنده ما يُعطيه يُعرض عنه حياء فنبّهه الله إلى أدب أكمل من الذي تعهّده من قبل ويحصل من ذلك تعليم لسائر الأمّة.

{ **عنهم** } الضمير عائد إلى ذي القربى والمسكين وابن السبيل.

الإعراض: أصله ضدّ الإقبال مشتقّ من العُرض (بضم العين) أي الجانب، فأعرض بمعنى أعطى جانبه كقوله { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } [83]. وهو هنا مجاز في عدم الإيتاء أو كناية عنه لأنّ الإمساك يلازمه الإعراض، أي إن سألك أحدهم عطاء فلم تجبه إليه فقل لهم قولا ميسورا.

الميسور: مفعول من اليُسر، وهو السهولة، وفعله مبني للمجهول. يقال: يُسِر الأمرُ (بضم الياء وكسر السين) كما يقال: سُعِد الرجل ونُحِس. والمعنى جُعل يسيرا غير عسير، وكذلك يقال: عسير.

القول الميسور: الليّن الحسن المقبول عندهم، شبّه المقبول بالميسور في قبول النفس إيّاه لأنّ غير المقبول عسير. أمر الله بإرفاق عدم الإعطاء لعدم الموجدة بقول لين حسن بالاعتذار والوعد عند الموجدة، لئلا يحمل الإعراض على قلّة الاكتراث والشحّ.

وقد شرط الإعراض بشرطين: أن يكون إعراضا لابتغاء رزق من الله، أي إعراضا لعدم الجدة لا اعراضا لبخل عنهم، وأن يكون معه قول لين في الاعتذار.
{ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ } حال من ضمير { تُعْرِضَنَّ } مصدر بالوصف، أي مبتغيا رحمة من ربّك.
والرحمة هنا هي الرزق الذي يتأتّى منه العطاء بقرينة السياق. وفيه إشارة إلى أنّ الرزق سبب للرحمة لأنّه إذا أعطاه مستحقّه أثيب عليه، وهذا إدماج. وعلم منه أنّه اعتذار صادق وليس تعللا.
وفي ضمن هذا الشرط تأديب للمؤمن إن كان فاقدا ما يبلغ به إلى فعل الخير أن يرجو من الله تيسير أسبابه، وأن لا يحمله الشحّ على السرور بفقد الرزق للراحة من البذل، بحيث لا يعدم البذل الآن إلّا وهو راج أن يسهل له في المستقبل حرصا على فضيلته، وأنّه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلّا في حال رجاء حصول نعمة فإن حصلت أعطاهم.

{ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً }[29]
عود إلى بيان التبذير والشحّ، فالجملة عطف على جملة { وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } [26].ولولا تخلّل الفصل بينهما بقوله { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ } [28] لكانت هذه الجملة غير مقترنة بواو العطف، لأنّ شأن البيان أن لا يعطف على المبين، وأيضا على أنّ في عطفها اهتماما بها بجعلها مستقلّة بالقصد، لأنّها مشتملة على زيادة على البيان، بما فيها من النهي عن البخل المقابل للتبذير. والخطاب لغير معين.
وقد أتت هذه الآية تعليما بمعرفة حقيقة من الحقائق الدقيقة فكانت من الحكمة. وجاء نظمها على سبيل التمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة .
فأمّا الحكمة فإذا بيّنت أنّ المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط، وهذه الأوساط هي حدود المحامد بين المذام من كل حقيقة لها طرفان. وقد تقرّر في حكمة الأخلاق أنّ لكل خلق طرفين ووسطا، فالطرفان إفراطٌ وتفريطٌ وكلاهما مقر مفاسد للمصدر وللمورد، وأنّ الوسط هو العدل.
فالإنفاق والبذل حقيقة أحد طرفيها الشحّ وهو مفسدةٌ للمحاويج ولصاحب المال، إذ يجرّ إليه كراهية النّاس إيّاه وكراهيته إيّاهم. والطرف الآخر التبذير والإسراف، وفيه مفاسد لذي المال وعشيرته لأنّه يصرف ماله عن مستحقّه إلى مصارف غير جديرة بالصرف، والوسط هو وضع المال في مواضعه وهو الحدّ الذي عبر عنه في الآية بنفي حالين بين (لا) و(لا).
وأمّا البلاغة فبتمثيل الشحّ والإمساك بغلّ اليد إلى العُنق، وهو تمثيل مبني على تخيّل اليد مصدرا للبذل والعطاء، وتخيّل بسطها وغلّها شحا، وهو تخيّل معروف لدى البلغاء والشعراء.
ومن ثَمَّ قالوا: له يد على فلان، أي نعمة وفضل، فجاء التمثيل في الآية مبنيّا على التصرّف في ذلك المعنى

بتمثيل الذي يشحّ بالمال بالذي غلت يده إلى عنقه، أي شُدَّت بالغُل، وهو القيد من السير يشدّ به الأسير.
وبضدّه مُثِّل المسرف بباسط يده غاية البسط ونهايته وهو المفاد من قوله { **كُلَّ الْبَسْطِ** } أي البسط كلّه الذي لا بسط بعده، وهو معنى النهاية. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ - إلى قوله - بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } [المائدة:64].
{ **فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** } جواب لكلا النّهيين على التوزيع بطريقة النشر المرتّب، فالملوم يرجع إلى النهي عن الشحّ، والمحسور يرجع إلى النهي عن التبذير، فإنّ الشحيح ملوم مذموم. وقد قيل:

إنّ البــخـيـل مـلـوم حـيـثـمـا كـانـا

وقال زهير:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذمم

المحسور: المنهوك القوى. يقال: بعير حسير، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوّة، ومنه قوله تعالى { يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ }[الملك:4]،والمعنى: غير قادر على إقامة شؤونك.

{ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ أنّه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [30]

موقع هذه الجملة موقع اعتراض بالتعليل لما تقدّم من الأمر بإيتاء ذي القربى والمساكين، والنهي عن التبذير، وعن الإمساك المفيد الأمر بالقصد، بأنّ هذا واجب النّاس في أموالهم وواجبهم نحو قرابتهم وضعفاء عشائرهم، فعليهم أن يمتثلوا ما أمرهم الله من ذلك. وليس الشحّ بمبق مال الشحيح لنفسه، ولا التبذير بمغن من يبذّر فيهم المال فإنّ الله قدّر لكلّ نفس رزقها.
فيجوز أن يكون الكلام جاريا على سنن الخطاب السابق لغير معيّن. ويجوز أن يكون قد حُوِّل الكلام إلى خطاب النبيء ﷺ، فوُجِّه بالخطاب إلى النبيء لأنّه الأولى بعلم هذه الحقائق العالية، وإنّ كانت أمّته مقصودة بالخطاب تبعا له، فتكون هذه الوصايا مخلّلة بالإقبال على خطاب النبيء ﷺ.
{ **وَيَقْدِرُ** } ضدّ { يَبْسُطُ } وقد تقدّم عند قوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26].
{ **إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** } تعليل لجملة { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ } إلى آخرها، أي هو يفعل ذلك لأنّه عليم بأحوال عباده وما يليق بكلّ منهم بحسب ما جُبلت عليه نفوسهم، وما يحفّ بهم من أحوال النظم العالمية التي اقتضتها الحكمة الإلهية المودعة في هذا العالم.
الخبير: العالم بالأخبار. و**البصير**: العالم بالمبصرات. وهذان الاسمان الجليلان يرجعان إلى معنى بعض تعلق العلم الإلهي.

{ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } [31].

عطف جملة حكم على جملة حكم للنهي عن فعل ينشأ عن اليأس من رزق الله. وهذه الوصيّة السابعة من الأحكام المذكورة في آية { وَقَضَى رَبُّكَ } (23). وغيّر أسلوب الإضمار من الإفراد إلى الجمع لأنّ المنهي عنه هنا من أحوال الجاهلية زجرا لهم عن هذه الخطيئة الذميمة. وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في سورة الأنعام[151]، ولكن بين الآيتين فرقا في النظم من وجهين:

الوجه الأول: أنّه قيل هنا { خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } وقيل في آية الأنعام { مِنْ إِمْلاقٍ }. ويقتضي ذلك أنّ الذين كانوا يئدون بناتهم يئدونهن لغرضين: إمّا لأنّهم فقراء لا يستطيعون إنفاق البنت ولا يرجون منها إن كبرت إعانة على الكسب فهم يئدونها لذلك، فذلك مورد قوله في الأنعام { مِنْ إِمْلاقٍ } فإنّ (من) التعليلية تقتضي أنّ الإملاق سبب قتلهن فيقتضي أنّ الإملاق موجود حين القتل.

وإمّا أن يكون الحامل على ذلك ليس فقر الأب ولكن خشية عروض الفقر له أو عروض الفقر للبنت بموت أبيها، إذ كانوا في جاهليتهم لا يورّثون البنات، فيكون الدافع للوأد هو توقّع الإملاق، كما قال إسحاق بن خلف، شاعر إسلامي قديم:

إذا تذكرت بنتي حين تندبني ... فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم
أحاذر الفقر يوما أن يلمّ بها ... فيهتك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزال على الحُرم
أخشى فظاظة عمّ أو جفاء أخ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

فلتحذير المسلمين من آثار هذه الخواطر ذكّروا بتحريم الوأد وما في معناه. وقد كان ذلك في جملة ما تؤخذ عليه بيعة النساء المؤمنات كما في آية سورة الممتحنة.

الوجه الثاني : فمن أجل هذا الاعتبار في الفرق للوجه الأول قيل هنالك {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } بتقديم ضمير الآباء على ضمير الأولاد، لأنّ الإملاق الدافع للوأد المحكي به في آية الأنعام هو إملاق الآباء فقدّم الإخبار بأنّ الله هو رازقهم وكمّل بأنّه رازق بناتهم.

وأمّا الإملاق المحكي في هذه الآية فهو الإملاق المخشي وقوعه. والأكثر أنّه توقع إملاق البنات كما رأيت في الأبيات، فلذلك قدّم الإعلام بأنّ الله رازق الأبناء وكمّل بأنّه رازق آبائهم. وهذا من نكت القرآن.

الإملاق: الافتقار. وتقدّم الكلام على الوأد عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ } [الأنعام: 137]

{ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ } (معترضة بين المتعاطفات وجملة { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } تأكيد للنهي وتحذير من الوقوع في المنهي.

{ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ** } المراد خصوص البنات لأنّهنّ اللاتي كانوا يقتلونهنّ وأدا، ولكن عبّر عنهنّ بلفظ الأولاد في هذه الآية ونظائرها لأنّ البنت يقال لها: ولد. وجرى الضمير على اعتبار لفظ { نَرْزُقُهُمْ }.

الخِطء (بكسر الخاء وسكون الطاء) مصدر خطئ بوزن فرح، إذا أصاب إثما، ولا يكون الإثم إلّا عن عمد، قال تعالى { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } [القصص:8].

وأمّا الخَطَأ (بفتح الخاء والطاء) فهو ضدّ العمد. وفعله: أخطأ واسم الفاعل مخطئ، قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب:5] وهذه التفرقة هي سرّ العربية وعليها المحقّقون.

وأكد بـ { إِنَّ } لتحقيقه، ردّا على أهل الجاهلية إذ كانوا يزعمون أنّ وأد البنات من السداد، ويقولون: دفن البنات من المكرمات. وأكد أيضا بفعل (كان) للإشعار بأنّ كونه إثمًا أمرًا استقر.

{ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى أنّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً } [32].

الوصية الثامنة من الوصايا الإلهية بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ } [23].

عطف هذا النهي على النهي عن وأد البنات إيماء إلى أنّهم كانوا يعدّون من أعذارهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشئ عن الفقر الرامي بهن في مهاوي العهر، ولأنّ في الزنى إضاعة نسب النسل بحيث لا يعرف للنسل مرجع يأوي إليه، وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

وجرى الإضمار فيه بصيغة الجمع كما جرى في قوله { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [31] لمثل ما وجّه به تغيير الأسلوب هنالك، فإنّ المنهي عنه هنا كان من غالب أحوال أهل الجاهلية.

{ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى** } القرب المنهي عنه هو أقل الملابسة. وهو كناية عن شدّة النهي عن ملابسة الزنا.

الزنى: في اصطلاح الإسلام مجامعة الرجل امرأة غير زوجته له ولا مملوكة غير ذات الزوج.

وفي الجاهلية الزنى: مجامعة الرجل امرأة حرّة غير زوج له، وأمّا مجامعة الأمّة غير المملوكة للرجل فهو البغاء.

{ **أنّه كَانَ فَاحِشَةً** } تعليل للنهي عن ملابسته تعليلا مبالغا فيه من جهات بوصفه بالفاحشة الدال على فعلة بالغة الحد الأقصى في القبح، وبتأكيد ذلك بحرف التوكيد، وبإقحام فعل (كان) المؤذن بأنّ خبره وصف راسخ مستقر. والمراد أنّ ذلك وصف ثابت له في نفسه سواء علمه النّاس أم لم يعلموه إلّا بعد نزول الآية.

{ **وَسَاءَ سَبِيلاً** } أتبع ذلك بفعل الذم.

السبيل: الطريق. وهو مستعار هنا للفعل الذي يلازمه المرء ويكون له دأبا، استعارة مبنيّة على استعارة السير للعمل كقوله تعالى { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } [طه:21]. وقد تقدّم نظيرها في قوله { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلا } [النساء:22].

وعناية الإسلام بتحريم الزنى لأنّ فيه إضاعة النسب وتعريض النسل للإهمال إن كان الزنى بغير متزوّجة وهو خلل عظيم في المجتمع، ولأنّ فيه إفساد النساء على أزواجهنّ والأبكار على أوليائهنّ، ولأنّ فيه تعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض النّاس عن تزوّجها، وطلاق زوجها إيّاها، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل.

فالزنى مئنّة لإضاعة الانساب ومظنّة للتقاتل فكان جديرا بالتحريم. ومن تأمّل ونظر جزم بما يشتمل عليه الزنى من المفاسد ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية، فقُبحه ثابت لذاته، ولكنّ العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلمّا أيقظهم التحريم لم يبق للنّاس عذر.

وقد زعم بعض المفسّرين أنّ هذه الآية مدنية، كما تقدّم في صدر السورة، ولا وجه لذلك الزعم. وقد أشرنا إلى إبطال ذلك في أول السورة.

{ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أنّه كَانَ مَنْصُوراً } [33].

معلومة حالة العرب في الجاهلية من التسرّع إلى قتل النفوس، فكان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلّية للشريعة الإسلامية. ولذلك كان النهي عن قتل النفس من أهمّ الوصايا التي أوصى بها الإسلام أتباعه في هذه الآيات الجامعة. وهذه هي الوصية التاسعة.

{ **النَّفْسَ** } هنا الذات كقوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } [النساء:29]، وقوله { أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعاً } [لمائدة:32]. وتطلق النفس على الروح الإنساني، وهي النفس الناطقة.

القتل: الإماتة بفعل فاعل، أي إزالة الحياة عن الذات.

{ **الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** } حذف العائد من الصلة إلى الموصول لأنّه ضمير منصوب بفعل الصلة وحذفه كثير. والتقدير: حرّمها الله. وعلق التحريم بعين النفس، والمقصود تحريم قتلها.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } أي الذي يشهد الحق أن نفسا معيّنة استحقت الإعدام من المجتمع، وهذا مجمل يفسّره في وقت النزول ما هو معروف من أحكام القود على وجه الإجمال. ولمّا كانت هذه الآيات سيقت مساق التشريع للأمّة وإشعارا بأن سيكون في الأمّة قضاء وحكم فيما يستقبل أبقي مجملا حتّى تفسّره الأحكام المستأنفة من بعد، مثل آية { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً - إلى قوله - وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} [النساء:92 / 93].

الحق: بمعنى العدل، أو بمعنى الاستحقاق، أي حقّ القتل، كما في الحديث: " إذا قالوها (أي لا إله إلّا الله)

عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها " .

ولمّا كان الخطاب بالنهي لجميع الأمّة، كما دّل عليه الفعل في سياق النهي، كان تعيين الحقّ المبيح لقتل النفس موكولا إلى من لهم تعيين الحقوق. ولمّا كانت هذه الآية نازلة قبل الهجرة فتعيين الحقّ يجري على ما هو متعارف بين القبائل، وهو ما سيذكر في قوله تعالى عقب هذا { وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً }.

{ **وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أنّه كَانَ مَنْصُوراً** } وحين كان المسلمون وقت نزول هذه الآية مختلطين في مكّة بالمشركين ولم يكن المشركون أهلا للثقة بهم في الطاعة للشرائع العادلة، وكان قد يعرض أن يعتدي أحد المشركين على أحد المسلمين بالقتل ظلما أمر الله المسلمين بأنّ المظلوم لا يظلم، أي قد جعل لولي المقتول تصرفا في القاتل بالقود أو الديّة.

السلطان: مصدر من السلطة كالغفران، والمراد به ما استقرّ في عوائدهم من حكم القود. فالمراد بالجعل ما أرشد الله إليه أهل الجاهلية من عادة القود.

والقود من جملة المستثنى بقوله { إِلَّا بِالْحَقِّ } ، لأنّ القود من القاتل الظالم هو قتل للنفس بالحقّ. وهذه حالة خصّها الله بالذكر لكثرة وقوع العدوان في بقيّة أيام الجاهلية، فأمر الله المسلمين بقبول القود. وهذا مبدأ صلاح عظيم في المجتمع الإسلامي، وهو حمل أهله على اتباع الحقّ والعدل حتّى لا يكون الفساد من طرفين فيتفاقم أمره. فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالا سيّئا يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية بل عليهم أن يتّبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود، ولذلك قال { فلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ }.

السرف: الزيادة على ما يقتضيه الحقّ، وليس خاصا بالمال كما يفهم من كلام أهل اللغة. فالسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل، إمّا مع القاتل، وإمّا قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل، فقد كانوا يقتنعون عند العجز عن القاتل بقتل رجل من قبيلة القاتل. وكانوا يتكايلون الدماء، أي يجعلون كيلها متفاوتا بحسب شرف القتيل.

{ **يُسْرِفْ** } الضمير بياء الغيبة، في قراءة الجمهور، يعود إلى الولي مظنّة السرف في القتل.

{ **إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً** } استئناف، حذّرهم الله من السرف في القتل، وذكّرهم بأنّه جعل للولي سلطانا على القاتل. وقد أكد ذلك بحرف التوكيد وبإقحام (كان) الدال على أن الخبر مستقر الثبوت. وفيه إيماء إلى أنّ من تجاوز حدّ العدل إلى السرف في القتل لا ينصر.

ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه الخفي الإتيان بلفظ (سلطان) هنا الظاهر في معنى المصدر، أي السلطة والحق، والصالح لإرادة إقامة السلطان. ففيه إيماء إلى أنّ الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، إذ لم يكن للمسلمين يوم نزول الآية سلطان.

وهذا الحكم منوط بالقتل الحادث بين الأشخاص وهو قتل العدوان، فأما القتل الذي هو لحماية البيضة والذبّ عن الحوزة، وهو الجهاد، فله أحكام أخرى.

ولما رأى بعض المفسرين أنّ الحكم الذي تضمنته هذه الآية لا يناسب إلّا أحوال المسلمين استبعد أن تكون الآية نازلة بمكة فزعم أنّها مدنية، وقد بيّنّا وجه مناسبتها وأبطلنا أن تكون مكية في صدر هذه السورة.

{ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } [34]

{ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ }

الوصية العاشرة، وهي من أهم الوصايا التي أوصى الله بها في هذه الآيات، لأنّ العرب في الجاهلية كانوا يستحلّون أموال اليتامى لضعفهم عن التفطّن لمن يأكل أموالهم وقلّة نصيرهم لإيصال حقوقهم، فحذّر الله المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم من أثرٍ من تلك الجاهلية. وقد تقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة الأنعام.

والقول في الإتيان بضمير الجماعة المخاطبين كالقول في سابقيه لأنّ المنهي عنه من أحوال أهل الجاهلية.

{ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً }

الوصية الحادية عشرة. أمروا بالوفاء بالعهد. والتعريف في { **الْعَهْدَ** } للجنس المفيد للاستغراق يشمل العهد الذي عاهدوا عليه النبيء ﷺ. وهو البيعة على الإيمان والنصر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [النحل:91]، وقوله { وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا } [الأنعام:151].

وهذا التشريع من أصول حرمة الأمّة في نظر الأمم والثقة بها للانزواء تحت سلطانها. وقد مضى القول فيه في سورة الأنعام. والجملة معطوفة على التي قبلها.

{ **إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً** } تعليل للأمر، أي للإيجاب الذي اقتضاه، وإعادة لفظ { الْعَهْدَ } في مقام إضماره للاهتمام به، ولتكون هذه الجملة مستقلة فتسري مسرى المثل.

{ **مَسْؤُولاً** } حذف المتعلّق لظهوره، أي مسئولا عنه، أي يسألكم الله عنه يوم القيامة.

{ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }[35]

هذان حكمان هما الثاني عشر والثالث عشر من الوصايا التي قضى الله بها. وتقدّم نظيره في سورة الأنعام.

وزيادة الظرف في هذه الآية وهو { إِذَا كِلْتُمْ} دون ذكر نظيره في آية الأنعام لما في (إذا) من معنى الشرطيّة، فتقتضي تجدّد ما تضمّنه الأمر في جميع أزمنة حصول مضمون شرط (إذا) الظرفية الشرطية للتنبيه على عدم التسامح في شيء من نقص الكيل عند كل مباشرة له. ذلك أنّ هذا خطاب للمسلمين بخلاف آية الأنعام فإنّ مضمونها تعريض بالمشركين في سوء شرائعهم، وكانت هنا أجدر بالمبالغة في التشريع.

{ إِذَا كِلْتُمْ } يدلّ على أنّ فاعله مباشر الكيل، فهو الذي يدفع الشيء المكيل، وهو بمنزلة البائع، ويقال للذي يقبض الشيء المكيل: مكتال. وهو من أخوات باع وابتاع، وشرى واشترى، ورهن وارتهن.

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين:2 - 3].

{ بِالْقِسْطَاسِ } بضم القاف في قراءة الجمهور. وقرأه بالكسر حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف. وهما لغتان فيه، وهو اسم للميزان أي آلة الوزن، واسم للعدل. قيل: هو معرب من الرومية مركّب من كلمتين قسط، أي عدل، وطاس وهو كفة الميزان. وفي صحيح البخاري: "وقال مجاهد: القسطاس: العدل بالرومية". ومعنى العدل والميزان صالحان هنا، لكن التي في الأنعام جاء فيها { بِالْقِسْطِ } فهو العدل لأنّها سيقت مساق التذكير للمشركين بما هم عليه من المفاسد فناسب أن يذكّروا بالعدل ليعلموا أنّ ما يفعلونه ظلم. والباء هنالك للملابسة. وهذه الآية جاءت خطابا للمسلمين فكانت أجدر باللفظ الصالح لمعنى آلة الوزن، لأنّ شأن التشريع بيان تحديد العمل، مع كونه يومئ إلى معنى العدل على استعمال المشترك في معنييه. فالباء هنا ظاهرة في معنى الاستعانة والآلة، ومفيدة للملابسة أيضا.

المستقيم: السويّ، مشتق من القَوام (بفتح القاف) وهو اعتدال الذات. يقال: قوّمته فاستقام. ووصف الميزان به ظاهر. وأمّا العدل فهو وصف له كاشف، لأنّ العدل كلّه استقامة.

{ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } مستأنفة. والإشارة إلى المذكور وهو الكيل والوزن المستفاد من فعلي { كِلْتُمْ } و{ زِنُوا }.

{ خَيْرٌ } تفضيل، أي خير من التطفيف، أي خير لكم، تفضيلا لخير الآخرة الحاصل من ثواب الامتثال على خير الدنيا الحاصل من الاستفضال الذي يطفّفه المطفّف، وهو أيضا أفضل منه في الدنيا لأنّ انشراح النفس الحاصل للمرء من الإنصاف في الحقّ أفضل من الارتياح الحاصل له باستفضال شيء من المال.

التأويل: تفعيل من الأَوْل. وهو الرجوع. يقال: أوّله إذا أرجعه، أي أحسن إرجاعا، إذا أرجعه المتأمل إلى مراجعه وعواقبه.

ومعنى كون ذلك أحسن تأويلا: أنّ النظر إذا جال في منافع التطفيف في الكيل والوزن وفي مضار الإيفاء فيهما ثم عاد فجال في مضار التطفيف ومنافع الإيفاء استقر وآل إلى أنّ الإيفاء بهما خير من التطفيف، لأنّ التطفيف يعود على المطفّف باقتناء جزء قليل من المال ويُكسبه الكراهيّة والذمّ عند النّاس وغضب الله والسحت في ماله مع احتقار نفسه في نفسه، والإيفاء بعكس ذلك يُكسبه ميل النّاس إليه ورضى الله عنه ورضاه عن نفسه والبركة في ماله. فهو أحسن تأويلا.

وتقدم ذكر التأويل بمعانيه في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير.

{ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [36]

القفو: الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا اتبعه، وهو مشتقّ من اسم القفا، وهو ما وراء العنق. واستعير هذا الفعل هنا للعمل.

{ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظنّ به. ويندرج تحت هذا أنواع كثيرة:

*/ منها خلّة من خلال الجاهلية، وهي الطعن في أنساب النّاس، فكانوا يرمون النساء برجال ليسوا بأزواجهنّ ويليطون بعض الأولاد بغير آبائهم بهتانا، أو سوء ظنّ إذا راوا بعدا في الشبه بين الابن وأبيه أو رأوا شبهه برجل آخر من الحيّ أو رأوا لونا مخالفا للون الأب أو الأم، تخرّصا وجهلا بأسباب التشكّل، وجهلا بالشبه الناشئ عن الرحم. وقد جاء أعرابي إلى النبيء ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت ولدا أسود، يريد أن ينتفي منه، فقال له النبيء هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانهن؟ قال: وُرْق. قال: وهل فيها من جمل أسود؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعلّه عرق نزعه. فقال النبيء ﷺ فلعل ابنك نزعه عرق . ونهاه عن الانتفاء منه. فهذا كان شائعا في مجتمعات الجاهلية فنهى الله المسلمين عن ذلك.

*/ ومنها القذف بالزنى وغيره من المساوي بدون مشاهدة، وربما رموا الجيرة من الرجال والنساء بذلك. وكذلك كان عملهم إذا غاب زوج المرأة لم يلبثوا أن يلصقوا بها تهمة ببعض جيرتها، وكذلك يصنعون إذا تزوّج منهم شيخ مسنّ امرأة شابة أو نصفا فولدت له ألصقوا الولد ببعض الجيرة. ولذلك لمّا قال النبيء ﷺ يوما سلوني أكثر الحاضرون أن يسأل الرجل فيقول: من أبي؟ فيقول: أبوك فلان.

وكان العرب في الجاهلية يطعنون في نسب أسامة بن زيد من أبيه زيد بن حارثة لأنّ أسامة كان أسود اللون وكان زيد أبوه أبيض أزهر، وقد أثبت النبيء ﷺ أن أسامة بن زيد بن حارثة. فهذا خلق باطل كان متفشّيا في الجاهليّة نهى الله المسلمين عن سوء أثره.

*/ ومنها تجنب الكذب. قال قتادة: لا تقف: لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، ولا سمعتُ وأنت لم تسمع، وعلمتُ وأنت لم تعلم.

*/ ومنها شهادة الزور وشملها هذا النهي، وبذلك فسّر محمد ابن الحنفية وجماعة.
{ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** } يشهد لإرادة جميع هذه المعاني. فموقع الجملة موقع تعليل، أي أنّك أيّها الإنسان ستُسأل عمّا تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك.
وهذا أدب خلقي عظيم، وهو أيضا إصلاح عقليّ جليل يعلّم الأمّة التفرقة بين مراتب الخواطر العقليّة، بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم. ثم هو أيضا إصلاح اجتماعيّ جليل يجنّب الأمّة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جرّاء الاستناد إلى أدلّة موهومة.
وقد صيغت جملة { كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } على هذا النظم بتقديم (كلّ) الدالة على الإحاطة من أوّل الأمر. وأتى باسم الإشارة دون الضمير بأن يقال: (كلّها كان عنه مسئولا)، لما في الإشارة من زيادة التمييز.
وأقحم فعل (كان) لدلالته على رسوخ الخبر كما تقدّم غير مرة.
{ **عَنْه** }ُجار ومجرور في موضع النائب عن الفاعل لاسم المفعول، وقدّم عليه للاهتمام، وللرعي على الفاصلة. والتقدير: كان مسئولا عنه، كما تقول: كان مسؤولا زيد.
{ **مَسْؤُولاً** } كناية عن المؤاخذة بالتقصير وتجاوز الحق، كقول كعب:
وقيل إنك منسوب ومسؤول
أي مؤاخذ بما اقترفت من هجو النبيء ﷺ والمسلمين. وهو في الآية كناية بمرتبة أخرى عن مؤاخذة صاحب السمع والبصر والفؤاد بكذبه على حواسه. وليس هو بمجاز عقلي. وهذا المعنى كقوله { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24].
أي يُسأل السمع: هل سمعت؟ فيقول: لم أسمع، فيؤاخذ صاحبه بأن أسند إليه ما لم يبلّغه إيّاه وهكذا.
{ **أُولَئِكَ** } الاسم الإشارة يعود إلى السمع والبصر والفؤاد وهو من استعمال اسم الإشارة الغالب استعماله للعامل في غير العاقل تنزيلا لتلك الحواس منزلة العقلاء لأنّها جديرة بذلك إذ هي طريق العقل والعقل نفسه.
على أنّ استعمال (أولئك) لغير العقلاء استعمال مشهور، قيل هو استعمال حقيقي أو لأن هذا المجاز غلب حتّى ساوى الحقيقة، قال تعالى { مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الإسراء: 102].
والمقصود سؤال أصحابها، وهو من نكت بلاغة القرآن.

{ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً }[37]

الوصية الخامسة عشرة. نهيٌ عن خصلة من خصال الجاهلية، وهي خصلة الكبرياء، وكان أهل الجاهلية يتعمّدونها. والخطاب لغير معيّن ليعم كلّ مخاطب، وليس خطابا للنبيء ﷺ إذ لا يناسب ما بعده.
المرح (بفتح الميم وفتح الراء) : شدّة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق.

{ **مَرَحاً** } مصدر وقع حالا من ضمير { تَمْشِ } . ومجيء المصدر حالا كمجيئه صفة يراد منه المبالغة في الاتصاف. وتأويله باسم الفاعل، أي لا تمش مشية المارح، وهي المشية الدالة على كبرياء الماشي بتمايل وتبختر. ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا مبيّنا لفعل { تَمْشِ } لأن للمشي أنواعا، منها: ما يدل على أنّ صاحبه ذو مرح. فإسناد المرح إلى المشي مجاز عقلي.

{ **إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** } استئناف ناشئ عن النهي بتوجيه خطاب ثان في هذا المعنى على سبيل التهكّم، أي أنّك أيّها الماشي مرحا لا تخرق بمشيك أديم الأرض، ولا تبلغ بتطاولك في مشيك طول الجبال، فماذا يغريك بهذه المشية.

الخرق: قطع الشيء والفصل بين الأديم، فخرق الأرض تمزيق قشر التراب.

وعن عمر بن الخطاب: أنّه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال له:" إنّ البخترة مِشية تُكره إلّا في سبيل الله" يعني لأنها يُرهَب بها العدو إظهارا للقوة على أعداء الدين في الجهاد.

{ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } [38]

تذييل للجمل المتقدّمة ابتداء من قوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إلّا تَعْبُدُوا إلّا إيَّاهُ } [23] باعتبار ما اشتملت عليه من التحذيرات والنواهي. فكلّ جملة فيها أمر هي مقتضية نهيا عن ضدّه، وكلّ جملة فيها نهي هي مقتضية شيئا منهيّا عنه، فقوله { أَلَّا تَعْبُدُوا إلّا إيَّاهُ } يقتضي عبادة مذمومة منهيّا عنها، وقوله { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } يقتضي إساءة منهيّا عنها، وعلى هذا القياس.

وقرأ الجمهور{ سيّئة } بفتح الهمزة بعد المثناة التحتية وبهاء تأنيث في آخره، وهي ضدّ الحسنة.

وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { كَانَ سَيِّئُهُ } بضم الهمزة وبهاء ضمير في آخره .

والضمير عائد إلى { كُلُّ ذَلِكَ }، و{ كُلُّ ذَلِكَ } هو نفس السيّء. فإضافة (سيء) إلى ضميره إضافة بيانيّة تفيد قوّة صفة السيّء حتّى كأنّه شيئان يضاف أحدهما إلى الآخر. وهذه نكتة الإضافة البيانيّة كلّما وقعت، أي كان ما نهى عنه من ذلك مكروها عند الله.

{ **مَكْرُوهاً** } ينبغي أن يكون خبرا ثانيا لـ (كان) لأنّه المناسب للقراءتين.

{ ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [39]

{ ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ }

عدل عن مخاطبة الأمّة بضمائر جمع المخاطبين وضمائر المخاطب غير المعيّن إلى خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم ردّا إلى ما سبق في أوّل هذه الآيات من قوله { وَقَضَى رَبُّكَ } [23].

وهو تذييل معترض بين جمل النهي. وفي هذا التذييل تنبيه على أنّ ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرة هو من الحكمة، تحريضا على اتباع ما فيها وأنّه خير كثير. وفيه امتنان على النبيء ﷺ بأنّ الله أوحى إليه، فذلك وجه قوله { ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ } تنبيها على أنّ مثل ذلك لا يصل إليه الأمّيّون لولا الوحي من الله.

الحكمة: معرفة الحقائق على ما هي عليه دون غلط ولا اشتباه، وتطلق على الكلام الدال عليها، وتقدّم في قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269].

{ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً }

عطف على جمل النهي المتقدّمة، وهذا تأكيد لمضمون جملة { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23]، أعيد لقصد الاهتمام بأمر التوحيد بتكرير مضمونه وبما رتّب عليه من الوعيد بأن يجازى بالخلود في النّار مهانا.

والخطاب لغير معين على طريقة المنهيّات قبله، وبقرينة قوله عقبه { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ } [40].

الإلقاء: رمي الجسم من أعلى إلى أسفل، وهو يؤذن بالإهانة.

الملوم: الذي ينكر عليه ما فعله.

المدحور: المطرود، أي المطرود من جانب الله، أي مغضوب عليه ومبعد من رحمته في الآخرة.

{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } [40]

تفريع على مقدّر يدلّ على تقديره المفرع عليه. والتقدير: أفضّلكم الله فأعطاكم البنين وجعل لنفسه البنات.

ومناسبته لما قبله أنّ نسبة البنات إلى الله ادّعاء آلهة تنتسب إلى الله بالبنوّة. إذ عبد فريق من العرب الملائكة كما عبدوا الأصنام، واعتلّوا لعبادتهم بأنّ الملائكة بنات الله تعالى كما حكى عنهم في قوله { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً - إلى قوله - وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:19- 20].

فلمّا نهوا عن أن يجعلوا مع الله إلها آخر خصّص بالتحذير عبادة الملائكة، لئلّا يتوهّموا أنّ عبادة الملائكة ليست كعبادة الأصنام، لأنّ الملائكة بنات الله ليتوهّموا أنّ الله يرضى بأن يعبدوا أبناءه.

وقد جاء إبطال عبادة الملائكة بإبطال أصلها في معتقدهم، وهو أنّهم بنات الله.

{ **أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ** } إلى آخرها متفرّعة على جملة { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } [39] تفريعا على النهي كما بيّناه، باعتبار أنّ المنهي عنه مشتمل عمومه على هذا النوع الخاص الجديد بتخصيصه بالإنكار وهو شبيه ببدل البعض. فالفاء للتفريع وحقّها أن تقع في أوّل جملتها ولكن أخّرها أنّ للاستفهام الصدر في أسلوب الكلام العربي، وهذا هو الوجه الحسن في موقع حروف العطف مع همزة الاستفهام.

الإصفاء: جعل الشيء صفْوا، أي خالصا. وأصله: أفأصفى لكم.

{ **بِالْبَنِينَ** } الباء إمّا مزيدة لتوكيد لصوق فعل (أصفى) بمفعوله. وأصله: أفأصفى لكم ربكم البنين، كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6]. أو ضمّن أصفى معنى آثر فتكون الباء للتعدية دالة على معنى الاختصاص بمجرورها.

أي قصر البنين عليكم دونه، أي جعل لكم البنين خالصة لا يساويكم هو بأمثالهم. وجعل لنفسه الإناث التي تكرهونها. وفساد ذلك ظاهر بأدنى نظر فإذا تبيّن فساده على هذا الوضع فقد تبيّن انتفاء وقوعه إذ هو غير لائق بجلال الله تعالى. وتقدّم هذا عند قوله { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } [النحل :57]، وقوله تعالى { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً } [النساء:117].

{ **إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً** } تقرير لمعنى الإنكار وبيان له، أي تقولون: اتخذ الله الملائكة بنات. وأكّد فعل (تقولون) بمصدره تأكيدا لمعنى الإنكار. وجعله مجرّد قول لأنّه لو تأمّله قائله أدنى تأمّل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلا.

العظيم: القويّ. والمراد هنا أنّه عظيم في الفساد والبطلان بقرينة سياق الإنكار. ولا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً } [41]

لمّا ذكر فظاعة قولهم بأنّ الملائكة بنات الله أعقب ذلك بأنّ في القرآن هديا كافيا، ولكنّهم يزدادون نفورا من تدبّره. فالجملة معترضة. والضمير عائد إلى الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله.

التصريف: أصله تعدّد الصرف، وهو النقل من جهة إلى أخرى. ومنه تصريف الرياح، وهو هنا كناية عن التبيين بمختلف البيان و متنوّعه. وتقدّم في قوله { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } [الأنعام:46]. وحذف مفعول {صرفنا} لأنّ الفعل نزل منزلة اللازم فلم يقدّر له مفعول، أي، بيّنّا البيان، أي ليذكّروا ببيانه.

{ **لِيَذَّكَّرُوا** } أصله يتذكّروا، فأدغم التاء في الذال لتقارب مخرجيهما، وقد تقدّم في أول سورة يونس، وهو من الذُّكر المضموم الذال الذي هو ضدّ النسيان. والضمير عائد إلى معلوم من المقام دلّ عليه قوله { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ } [40] فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، أو من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين.

{ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً } في موضع الحال، وهو حال مقصود منه التعجيب من حال ضلالتهم، إذ كانوا يزدادون نفورا من كلام فُصِّل وبُيِّن لتذكيرهم. وشأن التفصيل أن يفيد الطمأنينة للمقصود.
النفور: هروب الوحشيّ والدابة بجزع وخشية من الأذى. واستعير هنا لإعراضهم تنزيلا لهم منزلة الدواب والأنعام.

{ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42]

عود إلى إبطال تعدّد الآلهة زيادة في استئصال عقائد المشركين من عروقها، فالجملة استئناف ابتدائي بعد جملة { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [39]. والمخاطب بالأمر بالقول هو النبيء ﷺ لدمغهم بالحجّة المقنعة بفساد قولهم.
{ قُلْ } للاهتمام، تخصيصا لهذا بالتبليغ وإن كان جميع القرآن مأمورا بتبليغه.
{ كَمَا يَقُولُونَ } معترضة للتنبيه على أنّ تعدّد الآلهة لا تَحقّق له وإنّما هو مجرّد قول عار عن المطابقة لما في نفس الأمر.
ابتغاء السبيل: طلب طريق الوصول إلى الشيء، أي توخّيه والاجتهاد لإصابته، وهو هنا مجاز في توخّي وسيلة الشيء. وقد جاء في حديث موسى والخضر عليهما السلام أنّ موسى سأل السبيل إلى لقيا الخضر.
{ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } و(إذن) دالة على الجواب والجزاء فهي مؤكدة لمعنى الجواب الذي تدل عليه اللام المقترنة بجواب (لو) الامتناعية الدالة على امتناع حصول جوابها لأجل امتناع وقوع شرطها، وزائدة بأنّها تفيد أنّ الجواب جزاء عن الكلام المجاب.
فالمقصود الاستدلال على انتفاء إلهية الأصنام والملائكة الذين جعلوهم آلهة. وهذا الاستدلال يحتمل معنيين مآلهما واحد:
المعنى الأول: أن يكون المراد بالسبيل سبيل السعي إلى الغلبة والقهر، أي لطلبوا مغالبة ذي العرش وهو الله تعالى. وهذا كقوله تعالى { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [المؤمنون:91]. ووجه الملازمة التي بني عليها الدليل أنّ من شأن أهل السلطان في العرف والعادة أن يتطلّبوا توسعة سلطانهم ويسعى بعضهم إلى بعض بالغزو ويتألّبوا على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه.
وتمام الدليل محذوف للإيجاز يدلّ عليه ما يستلزمه ابتغاء السبيل على هذا المعنى من التدافع والتغالب. وذلك المفضي إلى اختلال العالم لاشتغال مدبّريه بالمقاتلة والمدافعة على نحو ما يوجد في ميثلوجيا اليونان من تغالب الأرباب وكيد بعضهم لبعض، فيكون هذا في معنى قوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الانبياء:22]. وهو الدليل المسمّى ببرهان التمانع في علم أصول الدين.

فالسبيل على هذا المعنى مجاز عن التمكّن والظفر بالمطلوب. والابتغاء على هذا ابتغاء عن عداوة وكراهة. وقوله { كَمَا يَقُولُونَ } على هذا الوجه تنبيه على خطئهم، وهو من استعمال الموصول في التنبيه على الخطأ.

المعنى الثاني: أن يكون المراد بالسبيل سبيل الوصول إلى ذي العرش، وهو الله تعالى، وصول الخضوع والاستعطاف والتقرّب، أي لطلبوا ما يوصلهم إلى مرضاته كقوله { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } [57].

ووجه الاستدلال أنّكم جعلتموهم آلهة وقلتم ما نعبدهم إلّا ليكونوا شفعاءنا عند الله، فلو كانوا آلهة كما وصفتم إلهيتهم لكانوا لا غنى لهم عن الخضوع إلى الله، وذلك كاف لكم بفساد قولكم، إذ الإلهيّة تقتضي عدم الاحتياج فكان مآل قولكم إنّهم عباد لله مكرمون عنده، وهذا كاف في تفطّنكم لفساد القول بإلهيتهم.

والابتغاء على هذا ابتغاء محبة ورغبة، كقوله { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً } [المزمل:19].

والسبيل على هذا المعنى مجاز عن التوسل إليه والسعي إلى مرضاته.

وقوله { كَمَا تَقُولُونَ } على هذا المعنى تفيد للكون في قوله { لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ } أي لو كان معه آلهة حال كونهم كما تقولون، أي كما تصفون إلهيتهم من قولكم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18].

{ **ذِي الْعَرْشِ** } استحضار الذات العليّة بوصف دون اسمه العلم لما تتضمنه الإضافة إلى العرش من الشأن الجليل الذي هو مثار حسد الآلهة إيّاه وطمعهم في انتزاع ملكه على المعنى الأول، أو الذي هو مطمع الآلهة الابتغاء من سعة ما عنده على المعنى الثاني.

وقرأ الجمهور{ كَمَا تَقُولُونَ } بتاء الخطاب على الغالب في حكاية القول المأمور بتبليغه أن يحكى كما يقول المبلغ حين إبلاغه. وقراه ابن كثير وحفص بياء الغيبة على الوجه الآخر في حكاية القول المأمور بإبلاغه للغير أن يحكى بالمعنى، لأنّ في حال خطاب الآمر المأمور بالتبليغ يكون المبلَّغ له غائبا وإنّما يصير مخاطبا عند التبليغ فإذا لوحظ حاله هذا عبر عنه بطريق الغيبة كما في قوله تعالى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ } [آل عمران:12] ـ بالتاء وبالياء ـ ، أو على أن قوله { كَمَا يَقُولُونَ } اعتراض بين شرط (لو) وجوابه.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً** } [43].

إنشاء تنزيه لله تعالى عما ادّعوه من وجود شركاء له في الإلهيّة. وهذا من المقول اعتراض بين أجزاء المقول، وهو مستأنف لأنّه نتيجة لبطلان قولهم: إن مع الله آلهة، بما نهضت به الحجّة عليهم من قوله { إذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42]. وقد تقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

{ **عُلُوّاً** } مفعول مطلق عامله { تَعَالَى }، منصوب على المفعولية المطلقة المبيّنة للنوع. جيء به على غير قياس فعله للدلالة على أنّ التعالي هو الاتصاف بالعلو بحقّ لا بمجرد الادعاء كقوله سبحانه { مَا هَذَا إِلّا بَشَرٌ

مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ} [المؤمنون:24]، أي يدّعي الفضل ولا فضل له .

{ **كَبِيراً** } الكامل في نوعه. وأصل الكبير صفة مشبّهة: الموصوف بالكبر. والكبر: ضخامة جسم الشيء في متناول الناس، أي تعالى أكمل علوّ لا يشوبه شيء من جنس ما نسبوه إليه، لأنّ المنافاة بين استحقاق ذاته وبين نسبة الشريك له والصاحبة والولد بلغت في قوّة الظهور إلى حيث لا تحتاج إلى زيادة، لأنّ وجوب الوجود والبقاء ينافي آثار الاحتياج والعجز.

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أنّه كَانَ حَلِيماً غَفُوراً }[44]

الجملة حال من الضمير في { سبحانه }، أي نسبّحه في حال أنّه { يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ }.

{ **لَهُ** } لام تعدية { يسبح } المضمّن معنى يشهد بتنزيهه، أو هي اللام المسمّاة لام التبيين، كالتي في قوله تعالى { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح:1]. وفي قولهم: حمدت الله لك.

ولمّا أسند التسبيح إلى كثير من الأشياء التي لا تنطق دلّ على أنّه مستعمل في الدلالة على التنزيه بدلالة الحال، وهو معنى قوله { وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } حيث أعرضوا عن النظر فيها فلم يهتدوا إلى ما يحفّ بها من الدلالة على تنزيهه عن كل ما نسبوه من الأحوال المنافية للإلهية.

{ **وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ** } يجوز أن يكون الخطاب للمشركين جريا على أسلوب الخطاب السابق في قوله { إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } [40]، لأنّ الذين لم يفقهوا دلالة الموجودات على تنزيه الله تعالى هم الذين لم يثبتوا له التنزيه عن النقائص التي شهدت الموجودات - حيثما توجّه إليها النظر- بتنزيهه عنها، فلم يحرم من الاهتداء إلى شهادتها إلّا الذين لم يقلعوا عن اعتقاد أضدادها. فأمّا المسلمون فقد اهتدوا إلى ذلك التسبيح بما أرشدهم إليه القرآن من النظر في الموجودات، وإن تفاوتت مقادير الاهتداء على تفاوت القرائح والفهوم.

ويجوز أن يكون الخطاب لجميع النّاس باعتبار انتفاء تمام العلم بذلك التسبيح.

ولعلّ إيثار فعل { لا تَفْقَهُونَ } دون أن يقول: لا تعلمون، للإشارة إلى أنّ المنفي علم دقيق.

وقرأ الجمهور { يسبح } بياء الغائب وقرأه عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وخلف بتاء جماعة مؤنث، والوجهان جائزان في جموع غير العاقل وغير حقيقي التأنيث.

{ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** } استئناف يفيد التعريض بأنّ مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا لولا أنّ الله عاملهم بالحلم والإمهال. وفي ذلك تعريض بالحث على الإقلاع عن مقالتهم ليغفر الله لهم.

{ **كَانَ** } للدلالة على أنّ الحلم والغفران صفتان له محققتان.

{ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً** } [45].

عطف جملة على جملة وقصّة على قصّة، فإنّه لمّا نوّه بالقرآن في قوله تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [9]، ثم أعقب بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة وجوامع الأعمال وما تخلّل ذلك من المواعظ والعبر عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنبيها للمشركين على وجوب إقلاعهم عن عبثهم وعنادهم، وتأمينا للنبيء ﷺ من مكرهم به وإضمارهم إضراره، وقد كانت قراءته القرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام.

{ **حِجَاباً** } حقيقته الساتر الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه. وهو هنا مستعار للصرْفة التي يصرف الله بها أعداء النبيء ﷺ عن الإضرار به، وللإعراض الذي يعرضون به عن استماع القرآن وفهمه. وجعل الله الحجاب المذكور إيجاد ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمّون ولا يفعلون، من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصمّمون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهّمون. وذلك خلق يسري إلى النفوس تدريجيا تغرسه في النفوس، بادئ الأمر، شهوة الإعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير مَلَكَةً في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغيره.

{ **مَسْتُوراً** } مبالغة في حقيقة جنسه، أي حجابا بالغا الغاية في حجب ما يحجبه هو حتّى كأنّه مستور بساتر آخر، فذلك في قوّة أن يقال: جعلنا حجابا فوق حجاب. مثل قوله { وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً } [الفرقان:22]. أو أريد أنّه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة، فهو حجاب لا تراه الأعين ولكنها ترى آثار أمثاله. وقد ثبت في أخبار كثيرة أن نفرا هموا الإضرار بالنبيء ﷺ فما منهم إلّا وقد حدث له ما حال بينه وبين همّه وكفى الله نبيه شرهم، قال تعالى { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ } [البقرة:137]، وهي معروفة في أخبار السيرة.

وفي الجميع بين { حِجَاباً } و{ مَسْتُوراً } من البديع الطباق.

{ **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** } [46].

عطف جعل على جعل. والتصريح بإعادة فعل الجعل يؤذن بأنّ هذا جعل آخر فيرجّح أن يكون جعل الحجاب المستور جعل الصرفة عن الإضرار، ويكون هذا جعل عدم التدبّر في القرآن خلقة في نفوسهم.

والقول في نظم هذه الآية ومعانيها تقدّم في نظيرها في سورة الأنعام.

لمّا كان الإخبار عنهم قبل هذا يقتضي أنّهم لا يفقهون معاني القرآن أتبع ذلك بأنّهم يُعرِضون عن فهم ما فيه خير لهم، فإذا سمعوا ما يبطل إلهية أصنامهم فهموا ذلك فولوا على أدبارهم نفورا، أي زادهم ذلك الفهم ضلالا كما حرمهم عدم الفهم هديا، فحالهم متناقض. فهم لا يسمعون ما يحقّ أن يُسمع، ويسمعون ما يهوَوْن أن يسمعوه ليزدادوا به كفرا.

{ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ** } يحتمل أنّ المعنى: إذا ذكرت ربك بتوحيده بالإلهية، وهو المناسب لنفورهم وتولّيهم، لأنّهم إنّما ينكرون انفراد الله تعالى بالإلهيّة، فتكون دلالة { وَحْدَهُ } على هذا المعنى بمعونة المقام وفعل { ذَكَرْتَ }. أي ذكرته موصوفا بالوحدانية.

{ **وَحْدَهُ** } تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ } [لأعراف:70]

التولية: الرجوع من حيث أتى.

{ **عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** } تقدّم القول فيه في قوله تعالى { وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ } [المائدة:21].

{ **نُفُوراً** } يجوز أن يكون جمع نافر مثل سجود وشهود. ووزن فعول يطّرد في جمع فاعل فيكون اسم الفاعل على صيغة المصدر، فيكون نفورا على هذا منصوبا على الحال من ضمير { ولوا }.

ويجوز جعله مصدرا منصوبا على المفعولية لأجله، أي ولوا بسبب نفورهم من القرآن.

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلاً مَسْحُوراً } [47].

كان المشركون يحيطون بالنبيء ﷺ في المسجد الحرام إذا قرأ القرآن يستمعون لما يقوله ليتلقّفوا ما في القرآن ممّا ينكرونه، مثل توحيد الله، وإثبات البعث بعد الموت، فيعجّب بعضهم بعضا من ذلك. فكان الإخبار عنهم بأنّهم جُعلت في قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر، وأنّهم يولّون على أدبارهم نفورا إذا ذكر الله وحده، يثير في نفس السامع سؤالا عن سبب تجمّعهم لاستماع قراءة النبيء ﷺ، فكانت هذه الآية جوابا عن ذلك السؤال. فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا.

{ **نَحْنُ** } افتتاح الجملة بضمير الجلالة لإظهار العناية بمضمونها. والمعنى: أن الله يعلم علما حقّا داعي استماعهم.

{ **أَعْلَمُ** } اسم تفضيل مستعمل في معنى قوّة العلم وتفصيله. وليس المراد أنّ الله أشدّ علما من غيره إذ لا يقتضيه المقام.

{ **بِمَا يَسْتَمِعُونَ** } الباء لتعدية اسم التفضيل إلى متعلّقه لأنّه قاصر عن التعدية إلى المفعول. واسم التفضيل

المشتق من العلم ومن الجهل يعدى بالباء وفي سوى ذينك يعدى باللام، يقال: هو أعطى للدراهم.

{ **يَسْتَمِعُونَ بِهِ** } الباء للملابسة. والضمير المجرور بالباء عائد إلى ما الموصولة، أي نحن أعلم بالشيء الذي يلابسهم حين يستمعون إليك.

{ **إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى** }

النجوى: اسم مصدر المناجاة، وهي المحادثة سرّا. وتقدّم في قوله تعالى { لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ } [النساء: 114]. وأخبر عنهم بالمصدر للمبالغة في كثرة تناجيهم عند استماع القرآن تشاغلا عنه.

أي نحن أعلم بالذي يستمعونه، ونحن أعلم بنجواهم.

{ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** } بدل من { وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } بدل بعض من كلّ، لأنّ نجواهم غير منحصرة في هذا القول. وإنّما خصّ هذا القول بالذكر لأنّه أشدّ غرابة من بقية آفاكهم، للبون الواضح بين حال النبيء ﷺ وبين حال المسحور.

{ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ** } وقع إظهار في مقام الإضمار، دون: إذ يقولون، للدلالة على أنّ باعث قولهم ذلك هو الظلم، أي الشرك، فإنّ الشرك ظلم، أي ولولا شركهم لما مثّل عاقل حالة النبيء الكاملة بحالة المسحور.

ويجوز أن يراد الظلم أيضا الاعتداء، أي الاعتداء على النبيء ﷺ كذبا.

{ **انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** } [48].

جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ونظائرها كثيرة في القرآن. والتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنّه بلغ من الوضوح أن يكون منظورا. والاستفهام بـ (كيف) للتعجيب من حالة تمثيلهم للنبيء ﷺ بالمسحور ونحوه.

{ **ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ** } أصل ضرب وضع الشيء وتثبيته، يقال: ضرب خيمة، ويطلق على صوغ الشيء على حجم مخصوص، يقال: ضرب دنانير، وهو هنا **مستعار للإبراز والبيان**، تشبيها للشيء المبرز المبيَّن بالشيء المثبت. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً } [البقرة:26].

{ **لَكَ** } اللام للتعليل والأجل، أي ضربوا الأمثال لأجل تمثيلك، أي مثّلوك. يقال: ضربت لك مثلا بكذا. وأصله مثّلتك بكذا، قال تعالى { فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } [النحل:74]، وقال { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [يس:13]، أي اجعلهم مثلا لحالهم.

{ **الْأَمْثَال** } جمع هنا، وإن كان المحكي عنهم أنّهم مثّلوه بالمسحور، وهو مثل واحد، لأنّ المقصود التعجيب من هذا المثل ومن غيره فيما يصدر عنهم من قولهم: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، هو ساحر، هو مسحور، وسمّيت أمثالا باعتبار حالهم لأنّهم تحيّروا فيما يصفونه به للنّاس لئلا يعتقدوه نبيّا.

{ **فَضَلُّوا** } فرّع ضلالهم على ضرب أمثالهم لأنّ ما ضربوه من الأمثال كلّه باطل وضلال وقوّة في الكفر.

أي فظهر ضلالهم في ذلك كقوله { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [القمر:9].
ويجوز أن يراد بالضلال هنا أصل معناه، وهو الحيرة في الطريق وعدم الاهتداء، أي ضربوا لك أشباها كثيرة لأنّهم تحيّروا فيما يعتذرون به عن شأنك العظيم.
{ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** } تفريع على { فَضَلُّوا }، تفريع لتوغّلهم في الحيرة على ضلالهم في ضرب تلك الأمثال.
السبيل: الطريق، واستطاعته استطاعة الظفر به، فيجوز أن يراد بالسبيل سبيل الهدى على الوجه الأوّل في تفسير الضلال، ويجوز أن يكون تمثيلا لحال ضلالهم بحال الذي وقف في فيفاء لا يدري من أية جهة يسلك إلى المقصود، على الوجه الثاني في تفسير الضلال. والمعنى على هذا الوجه أنّهم تحيّروا كيف يصفون حالك للنّاس لتوقّعهم أنّ النّاس يكذّبونهم، فلذلك جعلوا ينتقلون من صفة إلى صفة لاستشعارهم أن ما يصفونه به باطل لا يطابقه الواقع.

{ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [49].

{ **وَقَالُوا** } يجوز أن تكون جملة معطوفة على جملة { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ } [42] باعتبار ما تشتمل عليه من قوله { كَمَا يَقُولُونَ } لقصد استئصال ضلالة أخرى من ضلالاتهم بالحجّة الدامغة.
ويجوز أن تكون عطفا على جملة { إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلاً مَسْحُوراً } [47] التي مضمونها مظروف للنجوى، فيكون هذا القول ممّا تناجوا به بينهم، ثم يجهرون بإعلانه ويعدّونه حجّتهم على التكذيب.
{ **أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً** } تقديم الظرف للاهتمام به لأن مضمونه هو دليل الاستحالة في ظنّهم، فالإنكار متسلط على جملة { أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ }. وأصل تركيب الجملة: أإنا لمبعوثون إذا كنا عظاما ورفاتا.
البعث: الإرسال. وأطلق هنا على إحياء الموتى، لأنّ الميّت يشبه الماكث في عدم مبارحة مكانه.
العظام: جمع عظم، وهو ما منه تركيب الجسد للإنسان والدواب.
الرفات: الأشياء المرفوتة، أي المفتتة. يقال: رفت الشيء إذا كسّره كِسرًا دقيقة.
{ **خَلْقاً جَدِيداً** } حال من ضمير (مبعوثون) وذكر الحال لتصوير استحالة البعث بعد الفناء لأنّ البعث هو الإحياء، فإحياء العظام والرفات محال عندهم، وكونهم خلقا جديدا أدخل في الاستحالة.

{ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً [50] أَوْ خَلْقاً ممّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبا [51] يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً } [52].

جواب عن قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }. أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيبهم بذلك.

وقرينة ذلك مقابلة فعل { كُنَّا } في مقالهم بقوله { كُونُوا } ، ومقابلة { عِظَاماً وَرُفَاتاً } في مقالهم بقوله {حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً }، مقابلة أجسام واهية بأجسام صلبة. ومعنى الجواب أنّ وهن الجسم مساو لصلابته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى على تكييفه كيف يشاء.

لهذا كانت الجملة غير معطوفة، جريا على طريقة المحاورات التي بيّنتها عند قوله تعالى { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } [البقرة:30].

واعلم أن ارتباط رد مقالتهم بقوله { كُونُوا حِجَارَةً ... } غامض، لأنّهم إنّما استبعدوا أو أحالوا إرجاع الحياة إلى أجسام تفرّقت أجزاؤها وانخرم هيكلها، ولم يعلّلوا الإحالة بأنّها صارت أجساما ضعيفة، فيردّ عليهم بأنّها لو كانت من أقوى الأجسام لأعيدت لها الحياة. فبنا أن نبيّن وجه الارتباط بين الردّ على مقالتهم وبين مقالتهم المردودة، وفي ذلك ثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: أن تكون صيغة الأمر في قوله { كونوا } **مستعملة في معنى التسوية**، ويكون دليلا على جواب محذوف تقديره: إنّكم مبعوثون سواء كنتم عظاما و رفاتا أو كنتم حجارة أو حديدا، تنبيها على أنّ قدرة الله تعالى لا يتعاصى عليها شيء. وذلك إدماج يجعل الجملة في معنى التذييل.

الوجه الثاني: أن تكون صيغة الأمر في قوله { كُونُوا } **مستعملة في الفرض**، أي لو فرض أن يكون الأجساد من الأجسام الصلبة وقيل لكم: إنكم مبعوثون بعد الموت لأحلتم ذلك واستبعدتم إعادة الحياة فيها.

وعلى كلا الوجهين يكون قوله { ممّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ } نهاية الكلام، ويكون قوله { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا } مفرّعا على جملة { وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا } [49] تفريعا على الاستئناف، وتكون الفاء للاستئناف وهي بمعنى الواو على خلاف في مجيئها للاستئناف، والكلام انتقال لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

الوجه الثالث: أن يكون قوله { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً } **كلاما مستأنفا ليس جوابا** على قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً } [49]، وتكون صيغة الأمر { كُونُوا } مستعملة في التسوية. وفي هذا الوجه يكون قوله { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا } متصلا بقوله { كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً }، ومفرعا على كلام محذوف يدلّ عليه قوله { كُونُوا حِجَارَةً }، أي فلو كانوا كذلك لقالوا: من يعيدنا، أي لانتقلوا في مدارج السفسطة من إحالة الإعادة إلى ادعاء عدم وجود قادر على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم.

وبهذه الوجوه يلتئم نظم الآية وينكشف ما فيه من غموض.

الحديد: تراب معدني، أي لا يوجد إلّا في مغاور الأرض، وهو تراب غليظ مختلف الغلظ، ثقيل أدكن اللون، وهو إما محتّت الأجزاء وإما مُورِقها، أي مثل الورق. وأصنافه ثمانية عشر باعتبار اختلاف تركيب أجزائه، وتتفاوت ألوان هذه الأصناف، وأشرف أصنافه الخالص، وهو السالم في جميع أجزائه من المواد الغريبة. وهذا نادر الوجود وأشهر ألوانه الأحمر، ويقسّم باعتبار صلابته إلى صنفين أصليين يسمّيان الذكر والأنثى، فالصلب هو الذكر واللين الأنثى. وكان العرب يصفون السيف الصلب القاطع بالذكر. وإذا صهر الحديد بالنار تمازجت أجزاؤه وتميع وصار كالحلواء، فمنه ما يكون حديد صب ومنه ما يكون حديد تطريق، ومنه فولاذ. وكل صنف من أصنافه صالح لما يناسب سبكه منه على اختلاف الحاجة فيها إلى شدّة الصلابة مثل السيوف والدروع.

ومن خصائص الحديد أن يعلوه الصدأ، وهو كالوسخ أخضر ثم يستحيل تدريجا إلى أكسيد (كلمة كيمياوية تدلّ على تعلّق أجزاء الأكسجين بجسم فتفسده) وإذا لم يتعهّد الحديد بالصقل والزيت أخذ الصدأ في نخر سطحه. وهذا المعدن يوجد في غالب البلاد. وأكثر وجوده في بلاد الحبشة وفي صحراء مصر. ووُجدت في البلاد التونسية معادن من الحديد.

وكان استعمال الحديد من العصور القديمة، فإن الطور الثاني من أطور التاريخ يعرف بالعصر الحديدي، أي الذي كان البشر يستعمل فيه آلات متّخذة من الحديد، وذلك من أثر صنعة الحديد، وذلك قبل عصر تدوين التاريخ. والعصر الذي قبله يعرف بالعصر الحجري.

وقد اتصلت بتعيين الزمن الذي ابتدئ فيه صنع الحديد أساطير واهية لا ينضبط بها تاريخه. والمقطوع به أنّ الحديد مستعمل عند البشر قبل ابتداء كتابة التاريخ، ولكونه يأكله الصدأ عند تعرّضه للهواء والرطوبة لم يبق من آلاته القديمة إلّا شيء قليل.

وقد وجدت في (طيبة) ومدافن الفراعنة في (منفيس) بمصر صور على الآثار مرسوم عليها: صور خزائن شاحذين مُداهم وقد صبغوها في الصور باللون الأزرق لون الفولاذ، وذلك في القرن [21 ق م]. وقد ذكر في التوراة وفي الحديث قصّة الذبيح، وقصة اختتان إبراهيم بالقدوم. ولم يذكر أنّ السكين ولا القدوم كانتا من حجر الصوان، فالأظهر أنّه بآلة الحديد. ومن الحديد تتخذ السلاسل للقيد، والمقامع للضرب، وسيأتي قوله تعالى { وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ } [الحج:21].

الخلق: بمعنى المخلوق، أي أو خلقا آخر ممّا يعظم في نفوسكم عن قبوله الحياة، ويستحيل عندكم على الله إحياؤه مثل الفولاذ والنحاس.

{ ممّا **يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ** } صفة { خَلقاً }: يعظم، وهو عِظَمٌ مجازي بمعنى القويّ في نوعه وصفاته.

الصدور: العقول، أي ممّا تعدّونه عظيما لا يتغيّر. وفي الكلام حذف، والتقدير: كونوا أشياء أبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات.

{ **فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا** } التفريع في على جملة { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً }. جعل سؤالهم هنا عن المُعيد لا عن أصل الإعادة لأنّ البحث عن المُعيد أدخل في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة، فهو بمنزلة الجواب بالتسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع، فإنّهم نفوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التسليم الجدلي، لأنّ التسليم الجدلي أقوى، في معارضة الدعوى، من المنع.

{ **مَنْ يُعِيدُنَا** } الاستفهام تهكّمي.

{ **قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } لمّا كان قولهم هذا محقّق الوقوع في المستقبل أمر النبيء بأن يجيبهم، عندما يقولونه، جواب تعيين لمن يعيدهم إبطالا للازم التهكّم، وهو الاستحالة في نظرهم، إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم، لأنّ ذلك أجدر على طريقة الأسلوب الحكيم لزيادة المحاجة، كقوله في محاجة موسى لفرعون { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ إِلَّا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [الشعراء:25-26].

{ **الَّذِي فَطَرَكُمْ** } جيء بالمسند إليه موصولا لقصد ما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأنّ الذي فطرهم أوّل مرة قادر على إعادة خلقهم، كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27] فإنّه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المرة الأولى قادر أن يخلقكم مرة ثانية.

الانغاض: التحريك من أعلى إلى أسفل والعكس. وهو تحريك الاستهزاء.

{ **وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ** } استفهموا عن وقته استفهام تهكّم أيضا. فأمر الرسول بأن يجيبهم جوابا حقّا إبطالا للازم التهكّم، كما تقدّم في نظيره آنفا. وضمير { **هُوَ** } عائد إلى العود المأخوذ من قوله { يُعِيدُنَا }.

{ **قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبا** } للرجاء على لسان الرسول ﷺ: والمعنى لا يبعد أن يكون قريبا.

{ **يَوْمَ** } بدل من الضمير المستتر في { يَكُونَ }. وفتحته فتحة بناء لأنّه أضيف إلى الجملة الفعلية. ويجوز أن يكون ظرفا لـ { يَكُونَ }، أي يكون يوم يدعوكم، وفتحته فتحة نصب على الظرفية.

{ **يَدْعُوكُمْ** } يجوز أن يحمل على حقيقته، أي دعاء الله النّاس بواسطة الملائكة الذين يسوقون النّاس إلى المحشر. ويجوز أن يحمل على الأمر التكويني بإحيائهم، فأطلق عليه الدعاء، لأنّ الدعاء يستلزم إحياء المدعو وحصول حضوره، فهو مجاز في الإحياء والتسخير لحضور الحساب.

{ **فَتَسْتَجِيبُونَ** } مستعارة لمطاوعة معنى { يَدْعُوكُمْ } ، أي فتحيون وتمثلون للحساب. وليس للعظام والرفات إدراك واستماع ولا ثمّ استجابة، لأنّها فرع السماع، وإنّما هو تصوير لسرعة الإحياء والإحضار وسرعة الانبعاث والحضور للحساب. وضمائر الخطاب على هذا خطاب للكفار القائلين { مَنْ يُعِيدُنَا - مَتَى هُوَ }.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للملابسة، فهي في معنى الحال، أي حامدين، فهم إذا بعثوا خلق فيهم إدراك الحقائق علموا

أنّ الحق لله. ويجوز أن يكون { بِحَمْدِهِ } متعلّقا بمحذوف على أنّه من كلام النبيء ﷺ. والتقدير: انطق بحمده، أي احمد الله على ظهور صدق ما أنبأتكم به، ويكون اعتراضا بين المتعاطفات.

{ **وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً** } عطف على { فَتَسْتَجِيبُونَ }، أي وتحسبون أنّكم ما لبثتم في الأرض إلّا قليلا.

والمراد: التعجيب من هذه الحالة، ولذلك جاء في بعض آيات أخرى سؤال المولى حين يُبعثون عن مدّة لبثهم تعجيبا من حالهم، قال تعالى { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون:112- 114]، وقال { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ } [البقرة:259].

وهذا التعجيب تنديم للمشركين وتأييد للمؤمنين. والمراد هنا: أنّهم ظنّوا ظنّا خاطئا، وهو محلّ التعجيب.

وأمّا قوله في الآية الأخرى { قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فمعناه: أنّه وإن طال فهو قليل بالنسبة لأيام الله.

{ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً } [53].

لما أعقب ما أمر النبيء ﷺ بتبليغه إلى المشركين من أقوال تعظهم من قوله تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ } [42] وقوله { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً } [50] وقوله { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً } [51] ثُنِّيَ العنان إلى الأمر بإبلاغ المؤمنين تأديبا ينفعهم في هذا المقام، على عادة القرآن في تلوين الأغراض وتقريب بعضها ببعض أضدادها، استقصاء لأصناف الهُدى ومختلف أساليبه، ونفع مختلف النّاس.

ولمّا كان ما سبق من حكاية أقوال المشركين تُنبئ عن ضلال اعتقادٍ نُقل الكلام إلى أمر المؤمنين بأن يقولوا أقوالا تعرب عن حسن النيّة وعن نفوس زكيّة. وأوتوا في ذلك كلمة جامعة وهي { يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }.

{ **الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } صفة لمحذوف يدلّ عليه فعل { يَقُولُوا } . تقديره: بالتي هي أحسن. وليس المراد مقالة واحدة. واسم التفضيل مستعمل في قوّة الحسن. ونظيره قوله { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125].

فهذه الآية شديدة الاتصال بالتي قبلها وليست بحاجة إلى تطلّب سبب لنزولها. وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه. وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل: أنّ النبيء ﷺ أمره بأعمال تدخله الجنّة ثم قال له:" ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا. قال: قلت: يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكبّ النّاس في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلّا حصائد ألسنتهم ".

والمقصد الأهمّ من هذا التأديب تأديب الأمّة في معاملة بعضهم بعضا بحسن المعاملة وإلانة القول. لأنّ القول ينمّ عن المقاصد بقرينة قوله { إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ } . ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتنابا لما تثيره المشادة والغلظة من ازدياد مكابرة المشركين وتصلّبهم، فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوّهم. قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأنّه وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34]. والمسلمون في مكّة يومئذ طائفة قليلة وقد صرف الله عنهم ضرّ أعدائهم بتصاريف من لطفه ليكونوا آمنين. فأمرهم أن لا يكونوا سببا في إفساد تلك الحالة.

{ **لِعِبَادِي** } المؤمنون كما هو المعروف من اصطلاح القرآن في هذا العنوان.

وروي أنّ قول التي هي أحسن أن يقولوا للمشركين: يهديكم الله. يرحمكم الله، أي بالإيمان. وعن الكلبي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية.

{ **يَقُولُوا** } مجزوم على حذف لام الأمر وهو وارد كثيرا بعد الأمر بالقول. والتقدير: قل لهم: قولوا التي هي أحسن. فيكون كناية على أنّ الامتثال شأنهم فإذا أمروا امتثلوا. وقد تقدّم نظيره في قوله { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ } [إبراهيم:31].

النزغ: أصله الطعن السريع. واستعمل هنا في الإفساد السريع الأثر. وتقدّم في قوله تعالى { مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي } [يوسف:100].

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ** } تعليل للأمر بقول التي هي أحسن. والمقصود من التعليل أنّ لا يستخفّوا بفاسد الأقوال، فإنّها تثير مفاسد من عمل الشيطان.

{ **بَيْنَهُمْ** } ولمّا كان الضمير عائدا إلى عبادي كان المعنى التحذير من إلقاء الشيطان العداوة بين المؤمنين تحقيقا لمقصد الشريعة من بثّ الأخوّة الإسلامية.

روى الواحدي: أنّ عمر بن الخطاب شتمه أعرابي من المشركين فشتمه عمر وهمّ بقتله فكاد أن يثير فتنة فنزلت هذه الآية. وأياما كان سبب النزول فهو لا يقيّد إطلاق صيغة الأمر للمسلمين بأن يقولوا التي أحسن في كل حال.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً** } تعليل لجملة { يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ }.وعلّة العلّة علّة.

{ **كَانَ** } للدلالة على أنّ صفة العداوة أمر مستقرّ في خِلقته قد جُبل عليه. وعداوته للإنسان متقرّرة من وقت نشأة آدم عليه الصلاة والسلام، وأنّه يسوّل للمسلمين أن يغلظوا على الكفار بوهمهم أنّ ذلك نصر للدين ليوقعهم في الفتنة، فإنّ أعظم كيد الشيطان أن يوقع المؤمن في الشرّ وهو يوهمه أنّه يعمل خيرا.

{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } [54].

هذا الكلام متّصل بقوله { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ - إلى قوله - فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } [48]. فإنّ ذلك ينطوي على ما هو شأن نجواهم من التصميم على العناد والإصرار على الكفر. وذلك يسوء النبيء ﷺ ويحزنه أن لا يهتدوا. فوجَّه هذا الكلام إليه تسلية له. ويدلّ لذلك تعقيبه بقوله { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً }.

{ رَبُّكُمْ } أوتي بالمسند إليه بلفظ الربّ مضافا إلى ضمير المؤمنين الشامل للرّسول، تذكيرا بأنّ الاصطفاء للخير شأن من معنى الربوبيّة التي هي تدبير شؤون المربوبين بما يليق بحالهم، ليكون لإيقاع المسند على المسند إليه بعد ذلك بقوله { أَعْلَمُ بِكُمْ } وقع بديع، لأنّ الذي هو الربّ هو الذي يكون أعلم بدخائل النفوس وقابليّتها للاصطفاء.

{ أَعْلَمُ بِكُمْ } أعلم بحالكم، لأنّ الحالة هي المناسبة لتعلّق العلم.

{ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ } مبيّنة للمقصود من جملة {أَعْلَمُ بِكُمْ }. الكناية عن مشيئة هديه إيّاهم الذي هو سبب الرحمة. أو مشيئة تركهم وشأنهم. وهذا أحسن ما تفسّر به هذه الآية ويبيّن موقعها، وما قيل غيره أراه لا يلتئم.

والرحمة والتعذيب مكنًّى بهما عن الاهتداء والضلال، بقرينة مقارنته لقوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } الذي هو كالمقدّمة. وسلك سبيل الكناية بهما لإفادة فائدتين: صريحهما وكنايتهما، ولإظهار أنّه لا يُسأل عما يفعل، لأنّه أعلم بما يليق بأحوال مخلوقاته. فلمّا ناط الرحمة بأسبابها والعذاب بأسبابه، بحكمته وعدله، علم أن معنى مشيئته الرحمة أو التعذيب هو مشيئة إيجاد أسبابهما.

{ أَوْ } للتقسيم، لأنّ الرحمة والتعذيب لا يجتمعان.

{ إِنْ يَشَأْ - إِنْ يَشَأْ } ذكر شرط المشيئة هنا فائدته التعليم بأنّه تعالى لا مُكره له، فجمعت الآية الإشارة إلى صفة العلم والحكمة وإلى صفة الإرادة والاختيار. وإعادة شرط المشيئة في الجملة المعطوفة لتأكيد تسلط المشيئة على الحالتين.

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } زيادة لبيان أنّ الهداية والضلال من جعل الله تعالى، وأنّ النبيء غير مسؤول عن استمرار من استمر في الضلالة، إزالة للحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم، أي ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان وإنما أرسلناك داعيا.

الوكيل على الشيء: هو المسؤول به. والمعنى: أرسلناك نذيرا وداعيا لهم وما أرسلناك عليهم وكيلا، فيفيد معنى القصر لأنّ كونه داعيا ونذيرا معلوم بالمشاهدة، فإذا نفي عنه أن يكون وكيلا وملجئا آل إلى معنى: ما أنت إلّا نذير.

{ **عَلَيْهِمْ** } الضمير عائد إلى المشركين. وهو متعلّق بـ { وَكِيلاً } . وقدم على متعلّقه للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [55]

تماثل القرينتين في فاصلتي هذه الآية من كلمة { وَالْأَرْضِ } وكلمة { عَلَى بَعْضٍ }. يدلّ دلالة واضحة على أنّهما كلام مرتبط بعضه ببعض، وأن ليس قوله { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } تكملة لآية {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } [54].

{ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ** } تغيير أسلوب الخطاب بعد قوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } [54] إيماء إلى أنّ الغرض من هذه الجملة عائد إلى شأن من شؤون النبيء ﷺ التي لها مزيد اختصاص به، تقفية على إبطال أقوال المشركين في شؤون الصفات الإلهية. بإبطال أقوالهم في أحوال النبيء بغرورهم أنّه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم، وقالوا: أبعث الله يتيم أبي طالب رسولا، أبعث الله بشرا رسولا. فأبكتهم الله بهذا الرد.

{ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } كالمقدمة لقوله { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ }. أعاد تذكيرهم بأنّ الله أعلم منهم بالجدير بالرسالة بحسب ما أعدّه الله فيه من الصفات القابلة لذلك، كما قال تعالى عنهم { قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حتّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124].

وكان الحكم في هذه المقدّمة على عموم الموجودات لتكون بمنزلة الكلّيّة التي يؤخذ كل حكم لجزئيّاتها، لأنّ المقصود بالإبطال من أقوال المشركين جامع لصور كثيرة من أحوال الموجودات من البشر والملائكة وأحوالهم، لأنّ بعض المشركين أحالوا إرسال رسولا من البشر. وبعضهم أحالوا إرسال رسول ليس من عظمائهم، وبعضهم أحالوا إرسال من لا يأتي بمثل ما جاء به موسى عليه السلام . وذلك يثير أحوالا جمّة من العصور والرجال والأمم أحياء وأمواتا. فلا جرم كان للتعميم موقع عظيم في قوله { بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

وهو أيضا كالمقدّمة لجملة { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ }، مشيرا إلى أنّ تفاضل الأنبياء ناشئ على ما أودعه الله فيهم من موجبات التفاضل. وهذا إيجاز تضمّن إثبات النبوّة وتقرّرها فيما مضى ممّا لا قِبل لهم بإنكاره، وتعدد الأنبياء، ممّا يجعل محمدا ﷺ ليس بدعا من الرّسل.

فعلم أنّ طعنهم في نبوة محمد ﷺ طعن مكابرة وحسد. كما قال تعالى في شأن اليهود { أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً} [النساء:54].

{ **وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً** } وتخصيص داود عليه السلام بالذكر عقب هذه القضيّة العامة وجهه صاحب الكشاف ومن تبعه بأنّ فائدة التلميح إلى أنّ محمدا ﷺ أفضل الأنبياء وأمته أفضل الأمم لأنّ في الزبور أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون. وهذا حسن.

وأنا أرى أن يكون وجه هذا التخصيص الإيماء إلى أن كثيرا من الأحوال المرموقة في نظر الجاهلين وقاصري الأنظار، بنظر الغضاضة، هي أحوال لا تعوق أصحابها عن الصعود في مدارج الكمال التي اصطفاها الله لها، وأن التفضيل بالنبوّة والرسالة لا ينشأ عن عظمة سابقة، فإنّ داود عليه السلام كان راعيا من رعاة الغنم في بني إسرائيل. وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل أن يختار داود لمحاربة جالوت الكنعاني، فلمّا قتل داود جالوت آتاه الله النبّوة وصيّره ملكا لإسرائيل، فهو النبيء الذي تجلّى فيه اصطفاء الله تعالى لمن لم يكن ذا عظمة وسيادة.

وذكر إيتائه الزبور هو محلّ التعريض للمشركين بأنّ المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون، عليهم لأنّ ذلك مكتوب في الزبور كما تقدّم آنفا. وقد أوتي داود الزبور ولم يؤت أحد من أنبياء بني إسرائيل كتابا بعد موسى عليه السلام.

داود: تقدّم ذكره في سورة الأنعام وفي آخر سورة النساء.

الزبور: اسم لجموع أقوال داود عليه السلام التي بعضها ممّا أوحاه إليه وبعضها ممّا ألهمه من دعوات ومناجاة وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم. وتقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163].

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً }[56]

لم أر لهذه الآية تفسيرا يُثْلَج له الصدر، والحيرة بادية على أقوال المفسّرين في معناها وانتظام موقعها مع سابقها، ولا حاجة إلى استقراء كلماتهم. ومرجعها إلى طريقتين في محمل { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ } إحداهما في تفسير الطبري وابن عطية عن ابن مسعود والحسن. وثانيتهما في تفسير القرطبي والفخر غير معزوّة لقائل.

والذي أرى في تفسيرها أن الآية معترضة بين جملة { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ } وجملة { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} [57]. وذلك أنّه لمّا جرى ذكر الأفضلين من الأنبياء في أثناء آية الردّ على المشركين مقالتهم في اصطفاء محمد ﷺ للرسالة واصطفاء أتباعه لولايته ودينه، وهي آية { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [55] إلى آخرها، جاءت المناسبة لردّ مقالة أخرى من مقالاتهم الباطلة وهي اعتذارهم عن عبادة الأصنام بأنّهم ما يعبدونهم إلّا ليقرّبوهم إلى الله زلفى، فجعلوهم عبادا مقرّبين ووسائل لهم إلى الله.

فلمّا جرى ذكر المقرّبين حقّا انتُهزت مناسبة ذكرهم لتكون مخلصًا إلى إبطال ما ادّعوه من وسيلة أصنامهم على عادة إرشاد القرآن من اغتنام مناسبات الموعظة. وذلك من أسلوب الخطباء.

فبعد أن أبطل أن يكون مع الله آلهة ببرهان العقل عاد إلى إبطال إلهيتهم المزعومة ببرهان الحسّ، وهو مشاهدة أنّها لا تغني عنهم كشف الضرّ.

{ **فَلا يَمْلِكُونَ** } بمعنى الاستطاعة والقدرة كما في قوله { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [المائدة: 17].

والمقصود من ذلك بيان البون بين الدعاء الحقّ والدعاء الباطل. ومن نظائر هذا المعنى في القرآن قوله تعالى { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [الأعراف:196-197]

الكشف: مستعار للإزالة.

التحويل: نقل الشيء من مكان إلى مكان، أي لا يستطيعون إزالة الضرّ عن الجميع، ولا إزالته عن واحد إلى غيره.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً } [57]

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ** } الإشارة إلى النبيين لزيادة تمييزهم.

والمعنى: أولئك الذين إن دعوا يُستجب لهم ويُكسف عنهم الضرّ، وليسوا كالذين تدعونهم فلا يملكون كشف الضرّ عنكم بأنفسهم ولا بشفاعتهم عند الله، كما رأيتم من أنّهم لم يغنوا عنكم من الضر كشفا ولا صرفا.

الوسيلة: المرتبة العالية القريبة من عظيم كالمَلك.

{ **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** } يجوز أن يكون بدلا من ضمير { يَبْتَغُونَ } بدل بعض، وتكون(أي) موصولة. والمعنى: الذي هو أقرب من رضى الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه، أي يزداد عملا للازدياد من رضى الله عنه واصطفائه.

ويجوز أن يكون بدلا من جملة { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ }، و(أي) استفهامية، أي يبتغون معرفة جواب: أيّهم أقرب عند الله.

أقرب: اسم تفضيل، ومتعلّقه محذوف دلّ عليه السياق. والتقدير: أيّهم أقرب إلى ربّهم.

{ **وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** } وذكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة للإشارة إلى أنّهم في موقف الأدب مع ربّهم فلا يزيدهم القرب من رضاه إلّا إجلالا له وخوفا من غضبه. وهو تعريض بالمشركين الذين ركبوا رؤوسهم وتوغّلوا في الغرور فزعموا أنّ شركاءهم شفعاؤهم عند الله.

{ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً** } تذييل. ومعنى {كَانَ مَحْذُوراً} أن حقيقته تقتضي حذر الموفّقين، إذ هو جدير بذلك.

{ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً } [58]

ولمّا عرَّض بالتهديد للمشركين في قوله { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً }[57]، وتحدّاهم بقوله { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً }[56]، جاء بصريح التهديد على مسمع منهم بأنّ كلّ قرية مثل قريتهم في الشرك لا يعدوها عذاب الاستيصال، وهو يأتي على القرية وأهلها، أو عذاب الانتقام بالسيف والذلّ والأسر والخوف والجوع وهو يأتي على أهل القرية، مثل صرعى بدر، كلّ ذلك في الدنيا.

فالمراد: القرى الكافر أهلها لقوله تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود:117]، وقوله { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص:59].

وحذف الصفة في مثل هذا معروف كقوله تعالى {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً} [الكهف:79] أي كل سفينة صالحة، بقرينة قوله { فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } [الكهف:79].

فلوا سلّمنا أنّ هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنة الله في مصير كل حادث إلى الفناء لما سلّمنا أنّ في ذكر ذلك هنا فائدة.

{ **وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ** } و(من) مزيدة بعد (إن) النافية لتأكيد استغراق مدخولها باعتبار الصفة المقدّرة، أي جميع القرى الكافرة كيلا يحسب أهل مكّة عدم شمولهم.

{ **قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } التقييد زيادة في الإنذار والوعيد، كقوله { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه: 127].

{ **كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** }، **الكتاب**: مستعار لعلم الله وسابق تقديره، فتعريفه للعهد، أو أريد به الكتب المنزلة على الأنبياء، فتعريفه للجنس فيشمل القرآن وغيره.

المسطور: المكتوب، يقال: سَطَر الكتاب إذا كتبه سطورا، قال تعالى { وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم:1].

{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً } [59].

{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا }

هذا كشف شبهة أخرى من شبه تكذيبهم إذ كانوا يسألون النبيء أن يأتيهم بآيات على حسب اقتراحهم، ويقولون: لو كان صادقا وهو يطلب منّا أن نؤمن به لجاءنا بالآيات التي سألناه. غرورا بأنفسهم أنّ الله يتنازل لمباراتهم.

والجملة معطوفة على جملة { وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا }[58]، أي إنّما أمهلنا المتمرّدين على الكفر إلى أجل نزول العذاب ولم نجبهم إلى ما طلبوا من الآيات لعدم جدوى إرسال الآيات للأوّلين من قبلهم في الكفر على حسب اقتراحهم فكذّبوا بالآيات.

{ وَمَا مَنَعَنَا } حقيقة المنع: كفّ الفاعل عن فعل يريد فعله أو يسعى في فعله. وهذا محال عن الله تعالى إذ لا مُكره للقادر المختار. فالمنع هنا مستعار للصرف عن الفعل وعدم إيقاعه دون محاولة إتيانه.

{ أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ } يجوز أن يكون حقيقة فيكون مفعول { أَنْ نُرْسِلَ } محذوفا دل عليه الفعل. والتقدير: أن نرسل رسولنا. فالباء في قوله { بالآيات } للمصاحبة، أي مصاحبا للآيات التي اقترحها المشركون.

ويجوز أن يكون الإرسال مستعارا لإظهار الآيات وإيجادها، فتكون الباء مزيدة لتأكيد تعلّق فعل { نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ }، وتكون { بِالْآيَاتِ } مفعولا في المعنى كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } إسناد المنع إلى تكذيب الأولين بالآيات مجاز عقلي لأنّ التكذيب سبب الصرف.

والمعنى: أنّنا نعلم أنّهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من قبلهم من الكفرة لمّا جاءتهم أمثال تلك الآيات.

فعلم النّاس أنّ الإصرار على الكفر سجيّة للمشرك لا يقلعها إظهار الآيات، فلو آمن الأوّلون عندما أُظهرت لهم الآيات لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانهم موقوفا على إيجاد الآيات التي سألوها. قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس: 96 - 97].

والأظهر أن هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين لئلا يفتنهم الشيطان، وتسلية للنبيء ﷺ لحرصه على إيمان قومه، فلعلّه يتمنى أن يجيبهم الله لما سألوا من الآيات، ولحزنه من أن يظنّوه كاذبا.

{ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ } في محلّ الحال من ضمير الجلالة، أي وقد أتينا ثمودا آية كما سألوا فزادوا كفرا بسببها حتّى عُجّل لهم العذاب.

{ مُبْصِرَةً } واضحة الدلالة، فهو اسم فاعل أبصر المتعدّي إلى مفعول، أي جعل غيره مبصرا وذا بصيرة. فالمعنى: أنّها مفيدة البصيرة، أي اليقين. أي تجعل من رآها ذا بصيرة وتفيده أنها آية. ومنه قوله تعالى { فَلَمَّا

جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [النمل:13].
وخُصَّ بالذكر ثمود وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب، ولأنّ آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكّة يبصرها صادرهم ووارده في رحلاتهم بين مكّة والشام.
{ **فَظَلَمُوا بِهَا** } يجوز أن يكون استُعمل الظلم بمعنى الكفر لأنّه ظلم النفس، وتكون الباء للتعدية لأنّ فعل الكفر يعدّى إلى المكفور بالباء. ويجوز أن يكون الظلم مضمَّنا معنى الجحد، أي كابروا في كونها آية، كقوله تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل:14]. ويجوز بقاء الظلم على حقيقته، وهي الاعتداء بدون حقّ، والباء صلة لتوكيد التعدية مثل الباء في { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6] ، أي ظلموا الناقة حين عقروها وهي لم تجن عليهم، فكان عقرها ظلما. والاعتداء على العجماوات ظلم إذا كان غير مأذون فيه شرعا كالصيد.
{ **وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً** }
هذا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش، تشير إلى أنّ الله تعالى أراد الإبقاء عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم.
وتلك مكرمة للنبيء ﷺ فلو أرسل الله لهم الآيات كما سألوا، مع أن جبلّتهم العناد، لأصرّوا على الكفر فحقّت عليهم سنة الله التي قد خلت في عباده، وهي الاستئصال عقب إظهار الآيات، لأنّ إظهار الآيات تخويف من العذاب، والله أراد الإبقاء على هذه الأمّة { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال:33]، فعوّضنا تخويفهم بدلا عن إرسال الآيات التي اقترحوها.
التخويف: جعل المرء خائفا.
{ **إِلَّا تَخْوِيفاً** } لقصر الإرسال بالآيات على علّة التخويف، وهو قصر إضافي، أي لا مباراة بين الرّسل وأقوامهم أو لا طمعا في إيمان الأقوام فقد علمنا أنّهم لا يؤمنون.

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاس وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَاناً كَبِيراً } [60].

{ **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ** } هذه تسلية للنبيء ﷺ على حزنه من تكذيب قومه إيّاه، ومن إمهال عتاة أعداء الدين الذين فتنوا المؤمنين، فذكّره الله بوعده نصره. والجملة يجوز أن تكون معطوفة على جملة { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ } ويجوز أن تكون معترضة.

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ } متعلقة بفعل محذوف، أي اذكر إذ قلنا لك كلاما هو وعد بالصبر، أي اذكر لهم ذلك وأعده على أسماعهم، أو هو فعل (اذكر) على أنّه مشتق من الذُّكر (بضم الذال) وهو إعادة الخبر إلى القوة العقلية الذاكرة.

{ رَبَّكَ } أومأ جعْل المسند إليه لفظ الرب مضافا إلى ضمير الرسول أنّ هذا القول مسوق مساق التكرمة للنبيء وتصبيره، وأنّه بمحلّ عناية الله به إذ هو ربّه وهو ناصره، قال تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

{ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } والإحاطة لمّا عدي فعلها هنا إلى ذات النّاس لا إلى حال من أحوالهم تعيّن أنّها مستعملة في معنى الغلبة، كما في قوله تعالى { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } [يونس:22]. وعبّر بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع إحاطة الله بالنّاس في المستقبل القريب. والمعنى: فلا تحزن لافترائهم وتطاولهم فسننتقم منهم.

{ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ } عطف على { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ } وما بينهما معترضات.

{ الرُّؤْيا } أشهر استعمالها في رؤيا النوم، وتستعمل في رؤية العين كما نقل عن ابن عباس في هذه الآية.

قال: هي رؤيا عين أريها النبيء ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، رواه الترمذي وقال: إنّه قول عائشة ومعاوية وسبعة من التابعين، سماهم الترمذي.

وتأوّلها جماعة أنّها ما رآه ليلة أسري به إذ رأى بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين، ورأى عيرهم واردة في مكان معيّن من الطريق ووصف لهم حال رجال فيها فكان كما وصف. ويؤيد هذا الوجه قوله { الَّتِي أَرَيْنَاكَ } فإنّه وصف للرؤيا ليعلم أنّها رؤية عين.

وقيل: رأى أنّه يدخل مكّة في سنة الحديبية فردّه المشركون فلم يدخلها فافتتن بعض من أسلموا فلمّا كان العام المقبل دخلها. وقيل: هي رؤيا مصارع صناديد قريش في بدر أريها النبيء ﷺ قبل ذلك أي بمكّة. وعلى هذين القولين فهي رؤيا نوم ورؤيا الأنبياء وحي.

الفتنة: اضطراب الرأي واختلال نظام العيش، وتطلق على العذاب المكرّر الذي لا يطاق. قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [البروج:10]، وقال { يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ } [الذريات:13]. فيكون المعنى على أوّل القولين في الرؤيا أنّها المرئي وهو عذابهم بالسيف فتنة لهم.

{ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ } عطف على الرؤيا، أي ما جعلنا ذكر الشجرة الملعونه في القرآن إلّا فتنة للنّاس. وهذا إشارة إلى قوله { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كأنّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ } [الصافات:64-66]. وقوله { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ }[الدخان:43- 44] وقوله { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ } [الواقعة:51-52].

روي أنّ أبا جهل قال: " زعم صاحبكم أنّ نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول بأنّ في النار شجرة لا تحرقها النار". وجهلوا أنّ الله يخلق في النار شجرة لا تأكلها النار. وهذا مروي عن ابن عباس وأصحابه في أسباب النزول للواحدي وتفسير الطبري.

ويجوز أن يكون المعنى: أن إيجادها فتنة. أي عذاب مكرّر.

الملعونة: أي المذمومة في القرآن. وقيل أنّها موضوعة في مكان اللعنة وهي الإبعاد من الرحمة، لأنّها مخلوقة في موضع العذاب. وفي الكشّاف: قيل تقول العرب لكلّ طعام ضار: ملعون.

{ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً }.

عطف على { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } [59] الدال على أنّهم متصلّبون في كفرهم مكابرون معاندون. وهذه زيادة في تسلية النبيء ﷺ حتّى لا يأسف من أنّ الله لم يرهم آيات. لأنّ النبيء ﷺ حريص على إيمانهم.

{ نُخَوِّفُهُمْ } جئ بصيغة المضارع للإشارة إلى تخويف حاضر، فإنّ الله خوفهم بالقحط والجوع حتّى رأوا الدخان بين السماء والأرض وسألوا الله كشفه، فقال { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } [الدخان:15] فذلك وغيره من التخويف الذي سبق فلم يزدهم إلّا طغيانا. فالظاهر أن هذه الآية نزلت في مدة حصول بعض المخوّفات.

الكبير: مستعار لمعنى الشديد القوي في نوع الطغيان. وتقدّم عند قوله { قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ } [البقرة:217].

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً [61] قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً }[62].

عطف على { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } [60]، أي واذكر إذ قلنا للملائكة. والمقصود من هذا تذكير النبيء ﷺ بما لقي الأنبياء قبله من معاندة الأعداء والحسدة من عهد آدم حين حسده إبليس على فضله. وأنّهم لا يعدمون مع ذلك معترفين بفضلهم وهم خيرة زمانهم كما كانت الملائكة نحو آدم عليه السلام ، وأنّ كِلا الفريقين في كل عصر يمُتّ إلى أحد الفريقين الذي في عهد آدم، فلفريق الملائكة المؤمنون ولفريق الشيطان الكافرون. كما أومأ إليه قوله تعالى {قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ} [63] ، ففي ذلك تسلية للنبيء ﷺ.

وذكر النبيء ذلك موعظة للنّاس بحال الفريقين لينظر العاقل أين يضع نفسه.

وتفسير قصّة آدم وبيان كلماتها مضى في سورة البقرة وما بعدها.

{ قَالَ أَأَسْجُدُ } الاستفهام للإنكار، أي لا يكون. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ استثناء إبليس من حكم

السجود لم يفد أكثر من عدم السجود.

{ **طِيناً** } حال من اسم الموصول، فيفيد معنى أنّك خلقته من الطين. لأنّ ذلك أشدّ في تحقيره في نظر إبليس.

{ **قَالَ أَرَأَيْتَكَ** } بدل اشتمال من جملة { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } باعتبار ما تشتمل عليه من احتقار آدم وتغليط الإرادة من تفضيله. فقد أعيد إنكار التفضيل بقوله { أَرَأَيْتَكَ } المفيد الإنكار.

و{ أَرَأَيْتَكَ } تركيب يُفتتح بها الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به. ومعناه: أخبرني عما رأيت، وهو مركب من همزة استفهام، و(رأى) التي بمعنى علم، و(تاء) المخاطب المفرد المرفوع، ثم يزاد على ضمير الخطاب (كاف) خطاب تشبه ضمير الخطاب المنصوب بحسب المخاطب واحدا أو متعددا. يقال: أرأيتك وأرأيتكم كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ } [الأنعام:40].

{ **هَذَا الَّذِي** } واسم الإشارة مستعمل في التحقير، كقوله تعالى {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} [الانبياء:36].

والمعنى: أخبرني عن نيّتك أهذا الذي كرّمته عليّ بلا وجه.

{ **لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَلِيلاً** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وهي جملة قَسَمية، واللام موطنة للقسم المحذوف مع الشرط، والخبر مستعمل في الدعاء فهو في معنى قوله { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [صٓ:79].

وهذا الكلام صدر من إبليس إعرابا عمّا في ضميره. وإنّما شرط التأخير إلى يوم القيامة ليعمّ بإغوائه جميع أجيال ذرّيّة آدم فلا يكون جيل آمنا من إغوائه.

وإنما اقتصر على إغواء ذرية آدم ولم يذكر إغواء آدم، وهو أولى بالذكر، إذ آدم هو أصل عداوة الشيطان الناشئة عن الحسد من تفضيله عليه، إمّا لأنّ هذا الكلام قاله بعد أن أغوى آدم وأُخرج من الجنّة فقد شفى غليله منه وبقيت العداوة مسترسلة في ذرية آدم، قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ } [فاطر:6].

الاحتناك: وضع الراكب اللجام في حنك الفرس ليركبه ويسيّره، فهو هنا تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مراده من الإفساد والإغواء بتسيير الفرس على حبّ ما يريد راكبه.

{ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً [63] وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً } [64].

جواب من الله تعالى عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة، ولذلك فصلت على طريقة المحاورات.

{ **اذْهَبْ** } ليس مرادا به الانصراف بل هو مستعمل في الاستمرار على العمل، أي امض لشأنك الذي نويته.

وصيغة الأمر مستعملة في التسوية.

{ **فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ** } تفريع على التسوية والزجر كقوله تعالى { قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ } [طه: 97].

الجزاء: مصدر جزاه على عمل، أي أعطاه عن عمله عوضا. وهو هنا بمعنى اسم المفعول.

الموفور: اسم مفعول من وفّره إذا كثّره.

{ **جَزَاءً** } أعيد للتأكيد، اهتماما وفصاحة، ولأنه أحسن في جريان وصف (الموفور) على موصوف متصل به دون فصل. وأصل الكلام: فإن جهنم جزاؤكم موفورا. فانتصاب {جَزَاءً} على الحال الموطئة، و{مَوْفُوراً} صفة له، وهو الحال في المعنى، أي جزاء غير منقوص.

الاستفزاز: طلب الفزّ، وهو الخفّة والانزعاج وترك التثاقل. والسين والتاء للطلب والحثّ الذي هو أصل معنى السين والتاء، أي استخفّهم وأزعجهم.

الصوت: يطلق على الكلام كثيرا، لأن الكلام صوت من الفم، واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس النّاس. ويجوز أن يكون مستعملا هنا تمثيلا لحالة إبليس بحال قائد الجيش فيكون متصلا بقوله { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ } كما سيأتي.

الإجلاب: جمع الجيش وسوقه، مشتق من الجَلَبة بفتحتين، وهي الصياح، لأنّ قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادى فيهم للنفير أو للغارة والهجوم.

الخيل: اسم جمع الفرس. والمراد به عند ذكر ما يدل على الجيش الفرسان. ومنه قول النبيء ﷺ: " يا خيلَ الله اركبي". وهو تمثيل لحال صرف قوّته ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجّالته.

والباء في { بِخَيْلِكَ } إما لتأكيد لصوق الفعل لمفعوله فهي لمجرد التأكيد. وإما لتضمين فعل { أَجْلِبْ } معنى (اغزهم)، فيكون الفعل مضمّنا معنى الفعل اللازم وتكون الباء للمصاحبة.

{ **وَرَجِلِكَ** } اسم جمع الرجال كصحب. وقد كانت جيوش العرب مؤلفة من رجّالة يقاتلون بالسيوف ومن كتائب فرسان يقاتلون بنضح النبال، فإذا التحموا اجتلدوا بالسيوف جميعا.

وقرأ حفص عن عاصم { وَرَجِلِكَ } (بكسر الجيم) ، وهو لغة في رجُل (مضموم الجيم)، وهو الواحد من الرجال. والمراد الجنس. والمعنى: بخيلك ورجالك، أي الفرسان والمشاة.

{ **وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ** }

المشاركة في الأموال: أنّ يكون للشيطان نصيب في أموالهم وهي إنعامهم وزروعهم إذ سوّل لهم أن يجعلوا نصيبا في النتاج والحرث للأصنام. وهي من مصارف الشيطان، لأنّ الشيطان هو المسوّل للنّاس باتخاذها، قال { وَجَعَلُوا لِلَّهِ ممّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا } [الأنعام:136].

مشاركة الأولاد: هي أن يكون للشيطان نصيب في أحوال أولادهم مثل تسويله لهم أن يئدوا أولادهم وأن يستولدوهم من الزنى، وأنّ يسمّوهم بعبدة الأصنام، كقولهم: عبد العزى، وعبد اللات، وزيد مناة.
{ **وَعِدْهُمْ** } أعطهم المواعيد بحصول ما يرغبونه، كما يسوّل لهم بأنّهم إن جعلوا أولادهم للأصنام سلم الآباء من الثكل والأولاد من الأمراض، ويسوّل لهم أنّ الأصنام تشفع لهم عند الله في الدنيا، وتضمن لهم النصر على الأعداء، كما قال أبو سفيان يوم أحد: أعلُ هُبل . ومنه وعدهم بأنّهم لا يخشون عذابا بعد الموت لإنكار البعث، ووعد العصاة بحصول اللذات المطلوبة من المعاصي مثل الزنى والسرقة والخمر والمقامرة.
وحذف مفعول { وَعِدْهُمْ } للتعميم في الموعود به. والمقام دال على أنّ المقصود أن يعدهم بما يرغبون.
{ **وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً** } اعتراض.
الغرور: إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن. وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196]، وقوله { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112].
والمعنى: أنّ ما سوّله لهم الشيطان في حصول المرغوب إمّا باطل لا يقع، مثل ما يسوّله للنّاس من العقائد الفاسدة، وكونه غرورا لأنّه إظهار لما يقع في صورة الواقع فهو تلبيس، وإمّا حاصل لكنه مكروه غير محمود بالعاقبة، مثل ما يسوّله للنّاس من قضاء دواعي الغضب والشهوة ومحبّة العاجل دون تفكير في الآجل، وكل ذلك لا يخلو عن مقارنة الأمر المكروه أو كونه آيلا إليه بالإضرار. وقد بسط هذا الغزالي في كتاب الغرور من كتاب (إحياء علوم الدين).
وإظهار اسم الشيطان دون أن يؤتى بضميره المستتر لأنّ هذا الاعتراض جملة مستقلّة فلو كان فيها ضمير عائد إلى ما في جملة أخرى لكان في النثر شبه عيب التضمين في الشعر، ولأن هذه الجملة جارية مجرى المثل فلا يحسن اشتمالها على ضمير ليس من أجزائها.

{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً } [65]

من تمام الكلام المحكي بـ { قَالَ اذْهَبْ } [63]. وهي جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا. فإنّ مفهوم { فَمَنْ تَبِعَكَ } و{ مَنِ اسْتَطَعْتَ } من قبيل مفهوم الصفة فيفيد أنّ فريقا من ذرّية آدم لا يتبع إبليس فلا يحتنكه.
وهذا المفهوم يفيد أنّ الله قد عصم أو حفظ هذا الفريق من الشيطان. فوقعت الإشارة إلى تعيين هذا الفريق بالوصف وبالسبب؛
فأمّا الوصف ففي قوله { **عِبَادِي** } المفيد أنّهم تمحّضوا لعبودية الله تعالى كما تدلّ عليه الإضافة، فعلم أنّ من عبدوا الأصنام والجنّ وأعرضوا عن عبودية الله تعالى ليسوا من أولئك.
وأمّا السبب ففي قوله { **وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** } المفيد أنّهم توكّلوا على الله واستعاذوا به من الشيطان، فكان خير

وكيل لهم إذ حاطهم من الشيطان وحفظهم منه.

{ **لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } السلطان المنفي هو الحكم المستمرّ بحيث يكونون رعيّته ومن جنده. وأمّا غيرهم فقد يستهويهم الشيطان ولكنّهم لا يلبثون أن يثوبوا إلى الصالحات، وكفاك من ذلك دوام توحيدهم لله، وتصديقهم رسوله، واعتبارهم أنفسهم عبادا لله متطلبين شكر نعمته، فشتان بينهم وبين أهل الشرك. وقد تقدّم معنى هذا عند قوله تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل: 99 - 100].

فالمؤمن لا يتولّى الشيطان أبدا ولكنّه قد ينخدع لوسواسه، وهو مع ذلك يلعنه فيما أوقعه فيه من الكبائر، وبمقدار ذلك الانخداع يقترب من سلطانه. وهذا معنى قول النبيء ﷺ في خطبة حجة الوداع: " إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنّه قد رضي بما دون ذلك ممّا تحقّرون من أعمالكم ".

{ **وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** } يجوز أن تكون تكملة لتوبيخ الشيطان، فيكون كاف الخطاب ضمير الشيطان تسجيلا عليه بأنّه عبد الله. ويجوز أن تكون معترضة في آخر الكلام فتكون كاف الخطاب ضمير النبيء ﷺ، تقريبا للنبيء بالإضافة إلى ضمير الله. ومآل المعنى على الوجهين واحد وإن اختلف الاعتبار.

{ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أنّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } [66]

استئناف ابتدائي وهو عود إلى تقرير أدلّة الانفراد بالتصريف في العالم المشوبة بما فيها من نعم على الخلق، والدالة بذلك الشوب على إتقان الصنع ومحكم التدبير لنظام هذا العالم وسيادة الإنسان فيه وعليه. ويشبه أن يكون هذا الكلام عودا إلى قوله { وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ } [11]، كما تقدّم هنالك فراجعه.

فلمّا جرى الكلام على الإنذار والتحذير أعقب هنا بالاستدلال على صحّة الإنذار والتحذير.

والخطاب لجماعة المشركين كما يقتضيه قوله عقبه { فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ } [67]، أي أعرضتم عن دعائه ودعوتم الأصنام.

{ **رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ** } افتتحت الجملة بالمسند إليه معرّفا بالإضافة ومستحضرا بصفة الربوبيّة لاستدعاء إقبال السامعين على الخبر المؤذن بأهميّته، حيث افتتح بما يترقّب منه خبر عظيم لكونه من شؤون الإله الحقّ وخالق الخلق ومدبّر شؤونهم تدبير اللطيف الرحيم، فيوجب إقبال السامع بشراشره إن مؤمنا متذكّرا أو مشركا ناظرا متدبّرا. وجيء بالجملة الاسمية لدلالتها على الدوام والثبات.

وبتعريف طرفيها للدلالة على الانحصار، أي ربكم هو الذي يزجي لكم الفلك لا غيره ممن تعبدونه باطلا، وهو الذي لا يزال يفعل ذلك لكم.

يزجي: يسوق سوقا بطيئا. شبّه تسخير الفلك للسير في الماء بإزجاء الدابة المثقلة بالحمل.
الفلك: هنا جمع لا مفرد.
البحر: الماء الكثير فيشمل الأنهار، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164].
الابتغاء: الطلب. و**الفضل**: الرزق، أي للتجارة. وتقدّم عند قوله تعالى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198]. وهذا امتنان على النّاس كلّهم، مناسب لعموم الدعوة، لأنّ أهل مكّة ما كانوا ينتفعون بركوب البحر وإنّما ينتفع بذلك عرب اليمن وعرب العراق والنّاس غيرهم.
{ **إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً** } تعليل وتنبيه لموقع الامتنان ليرفضوا عبادة غيره ممّا لا أثر له في هذه المنة.

{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً } [67]

بعد أن ألزمهم الحجّة على حقّ إلهية الله تعالى بما هو من خصائص صنعه باعترافهم، أعقبه بدليل آخر من أحوالهم المتضمّنة إقرارهم بانفراده بالتصرّف، ثم بالتعجيب من مناقضة أنفسهم عند زوال اضطرارهم.
{ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ** } خبر مستعمل في التقرير وإلزام الحجّة إذ لا يخبر أحد عن فعله إخبارا حقيقيا.
{ **فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ** } خبر مستعمل في التعجيب والتوبيخ.
ضرّ البحر: هو الإشراف على الغرق، لأنّه يزعج النفوس خوفا، فهو ضرّ لها.
{ **ضَلَّ** } من الضلال، وهو سلوك طريق غير موصلة للمقصود خطأ.
{ **مَنْ تَدْعُونَ** } العدول إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من عمل اللسان ليتأتي الإيجاز، أي من يتكرّر دعاؤكم إيّاهم، كما يدلّ عليه المضارع. فالمعنى غاب وانصرف ذكر الذين عادتكم دعاؤهم، فتعيّن أنّ ضلالهم هو ضلال ذكر أسمائهم، وهذا إيجاز بديع.
{ **إِلَّا إِيَّاهُ** } الاستثناء من عموم الموصول، لأنّ اسم الله ممّا يجري على ألسنتهم في الدعاء تارة كما تجري أسماء الأصنام، فالاستثناء متّصل.
ويجوز أن يكون اسم الموصول في قوله { مَنْ تَدْعُونَ } خاصا بأصنامهم لأنّهم يكثر دعاؤهم إيّاها دون اسم الله تعالى، كما هو مقتضى التجدّد فإذا اشتدّ بهم الضرّ دعوا الله كما قال تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت:65]. ويكون الاستثناء منقطعا. ولعلّ هذا الوجه أرجح لأنّه أنسب بقوله { أَعْرَضْتُمْ }.

الإعراض: الترك، أي تركتم دعاء الله، بقرينة الجمع بين مقتضى المضارع من إعادة التجدّد وبين مقتضى الاستثناء من انحصار الدعاء في الكون باسمه تعالى.

{ **إِلَى الْبَرِّ** } عدي بحرف (إلى) لتضمين { نَجَّاكُمْ } معنى أبلغكم وأوصلكم.

{ **وَكَانَ الْأِنْسَانُ كَفُوراً** } اعتراض وتذييل لزيادة التعجّب منهم ومن أمثالهم.

الكفور: صيغة مبالغة. أي كثير الكفر. والكفر ضدّ الشكر.

{ **الْأِنْسَانُ** } تعريف الجنس وهو مفيد للاستغراق. فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقا عرفيّا بحمله على غالب نوع الإنسان، وهم أهل الإشراك، وهم أكثر النّاس يومئذ، فتكون صيغة المبالغة من قوله {كَفُوراً} راجعة إلى قوّة صفة الكفران أو عدم الشكر، فإنّ أعلاه إشراك غير المنعم مع المنعم في نعمة لا حظّ له فيها. ويجوز أن يكون الاستغراق حقيقيا، أي كان نوع الإنسان كفورا، أي غير خال من الكفران، فتكون صيغة المبالغة راجعة إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها. وكثرة كفران الإنسان هي تكرّر إعراضه عن الشكر في موضع الشكر، ضلالا أو سهوا، أو غفلة لإسناده النعم إلى أسبابها المقارنة دون منعمها، ولفرضه منعمين وهميين لا حظ لهم في الإنعام.

{ **وَكَانَ** } إشارة إلى أنّ الكفران مستقر في جبلّة هذا الإنسان. لأنّ الإنسان قلّما يشعر بما وراء عالم الحس، فإنّ الحواس تشغله بمدركاتها عن التفكّر فيما عدا ذلك من المعاني المستقرّة في الحافظة والمستنبطة بالفكر. ولمّا كان الشكر على النعمة متوقفا على تذكر النعمة كانت شواغله عن تذكر النعم الماضية مغطية عليها، ولأنّ مدركات الحواس منها الملائم للنفس وهو الغالب، ومنها المنافر لها. فالإنسان إذا أدرك الملائم لم يشعر بقدرة عنده لكثرة تكرره حتّى صار عادة فذهل عما فيه من نفع، فإذا أدرك المنافر استذكر فقدان الملائم فضج وضجر. وهو معنى قوله تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْأِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51]. ومن أجل ذلك كان من آداب النفس في الشريعة تذكيرها بنعم الله، قال تعالى {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } [ابراهيم:5] ليقوم ذكر النعمة مقام معاهدتها.

{ **أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً** [68] **أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً** } [69].

تفريع على جملة { أَعْرَضْتُمْ } [67]، وما بينهما اعتراض. وفرّع الاستفهام التوبيخي على إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر.

الخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال. وتقدّم في قوله { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ } [النحل:45].

وفي هذا تنبيه على أنّ السلامة في البرّ نعمة عظيمة تنسونها فلو حدث لكم خسف لهلكتم هلاكا لا نجاة لكم منه بخلاف هول البحر. ولكن لمّا كانت السلامة في البرّ غير مدرك قدرها قلّ أن تشعر النفوس بنعمتها، وتشعر بخطر هول البحر، فينبغي التدرّب على تذكّر نعمة السلامة من الضرّ.

{ **أَفَأَمِنْتُمْ** } الاستفهام إنكاري وتوبيخي.

الجانب: هو الشقّ. وجعل البرّ جانبا لإرادة الشقّ الذي ينجيهم إليه، وهو الشاطئ الذي يرسون عليه، إشارة إلى إمكان حصول الخوف لهم بمجرد حلولهم بالبرّ بحيث يخسف بهم ذلك الشاطئ، أي أنّ البرّ والبحر في قدرة الله تعالى سيّان، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في البرّ والبحر.

الحاصب: الرامي بالحصباء، وهي الحجارة. يقال: حصبه، وهو هنا صفة، أي يرسل عليكم عارضا حاصبا، تشبيها له بالذي يرمي الحصباء، أي مطر حجارة، أي برد يشبه الحجارة.

الوكيل: الموكّل إليه القيام بمهم مُوَكِّله، والمدافع عن حقّ مُوَكِّله، أي لا تجدوا لأنفسكم من يجادلنا عنكم أو يطالبنا بما ألحقناه بكم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب. وهذا المعنى مناسب لما يقع في البرّ من الحدثان.

{ **أَمْ أَمِنْتُمْ** } عاطفة الاستفهام، وهي للإضراب الانتقالي، أي بل أمنتم، فالاستفهام مقدّر مع (أم) لأنّها خاصة به. أي: أو هل كنتم آمنين من العود إلى ركوب البحر مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح.

{ **أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ** } أن يوجد فيكم الدواعي إلى العود تهيئة لإغراقكم وإرادة للانتقام منكم. كما يدلّ عليه السياق وتفريع { فَيُرْسِلَ } عليه.

التارة: المرّة المتكرّرة، قيل عينه همزة ثم خفّفت لكثرة الاستعمال. مثل: فأس وفاس، وكأس وكاس.

القاصف: التي تقصف، أي تكسر. وأصل القصف: الكسر. وغلب وصف الريح به، فعومل معاملة الصفات المختصّة بالمؤنث فلم يلحقوه علامة التأنيث، مثل {عَاصِفٌ} في قوله { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22]. والمعنى: فيرسل عليكم ريحا قاصفا، أي تقصف الفلك، أي تعطبه بحيث يغرق، ولذلك قال { فَيُغْرِقَكُمْ }.

{ **بما كفرتم** } الباء للسببيّة. و(ما) مصدريّة، أي بكفركم، أي شرككم.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي كشأنها في عطفها الجمل. وهو ارتقاء في التهديد بعدم وجود منقذ لهم، بعد تهديدهم بالغرق لأنّ الغريق قد يجد منقذا.

التبيع: مبالغة في التابع، أي المتتبّع غيره المطالب لاقتضاء شيء منه. أي لا تجدوا من يطالب لكم بثأر. وضمير(به) عائد إمّا إلى الإغراق المفهوم من { يُغْرِقَكُمْ } ،وإمّا إلى المذكور من إرسال القاصف وغيره.

{ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** } [70].

اعتراض جاء بمناسبة العبرة والمنّة على المشركين، فاعترض بذكر نعمته على جميع النّاس فأشبه التذييل.

{ **بَنِي آدَمَ** } جميع النوع، فالأوصاف المثبتة هنا إنّما هي أحكام للنوع من حيث هو، كما هو شأن الأحكام التي تسند إلى الجماعات.

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيّبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات.

فأمّا منّة التكريم فهي مزيّة خصّ بها الله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضيّة.

{ **كَرَّمْنَا** } جعله كريما، أي نفيسا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، فإنّ جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضرّه ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها، والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلو عن المعارف والصنائع وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته.

{ **وَحَمَلْنَاهُمْ** } الوضع على المركب من الرواحل. فالراكب محمول على المركوب. وأصله في ركوب البرّ، وذلك بأنّ سخّر لهم الرواحل وألهمهم استعمالها.

وأمّا الحمل في البحر فهو الحصول في داخل السفينة. وإطلاق الحمل على ذلك استعارة من الحمل على الراحلة وشاعت حتّى صارت كالحقيقة، قال تعالى { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11].

ومعنى حمل الله النّاس في البحر: إلهامه إيّاهم استعمال السفن والقلوع والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل.

{ **وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } لأنّ الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم ما يشاء ممّا يروق له، وجعل في الطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من الطعومات أكثر جدًّا ممّا يتناوله غيره من الحيوان.

{ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** } المراد به التفضيل المشاهد لأنّه موضع الامتنان. وذلك الذي جِماعه تمكين الإنسان من التسلّط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته.

والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنّه فضّله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم. هذا هو التفضيل المراد.

وأما نسبة التفاضل بين نوع الإنسان وأنواع من الموجودات الخفي عنا كالملائكة والجنّ فليست هنا وإنّما

تعرف بأدلة توقيفية من قبل الشريعة.

{ **تَفْضِيلاً** } الإتيان بالمفعول المطلق لإفادة ما في التنكير من التعظيم أي تفضيلا كبيرا.

{ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً [71] وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } [72].

انتقال من غرض التهديد بعاجل العذاب في الدنيا الذي في قوله { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ - إلى قوله - ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً } [66 - 69] إلى ذكر حال النّاس في الآخرة تبشيرا وإنذارا. فالكلام استئناف ابتدائي، والمناسبة ما علمت.

{ **يَوْمَ** } تخلّص من ذكر التفضيل إلى ذكر اليوم الذي تظهر فيه فوائد التفضيل، فترجّح أنّه ابتداء مستأنف استئنافا ابتدائيا، ففتحة { يَوْمَ } إمّا فتحة إعراب على أنّه مفعول به لفعل شائع الحذف في ابتداء العبر القرآنيّة وهو فعل (اذكر) فيكون { يَوْمَ } هنا اسم زمان مفعولا للفعل المقدّر وليس ظرفا.

وإمّا أن تكون فتحته فتحةَ بناء لإضافته اسم الزمان إلى الفعل، وهو إمّا في محل رفع بالابتداء، وخبره جملة { فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ }. وإمّا ظرف لفعل محذوف دلّ عليه التقسيم الذي بعده.

{ **نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ** } أن يُدعى يا أمّة فلان ويا أتباع فلان، مثل: يا أمّة محمد، يا أمّة موسى، يا أمّة عيسى، ومثل: يا عبدة العزى، يا عبدة بعل ، يا عبدة نسر.

{ **بِإِمَامِهِمْ** } الباء لتعدية فعل { نَدْعُو } لأنّه يتعدى بالباء، يقال: دعوته بكنيته وتداعوا بشعارهم.

الإمام: ما يؤتمّ به، أي يعمل على مثل عمله أو سيرته. والمراد به هنا مبيّن الدّين، من دين حقٍّ للأمم المؤمنة ومن دين كفرٍ وباطلٍ للأمم الضالة.

وفائدة ندائهم بمتبوعيهم التعجّل بالمسرّة لاتباع الهداة، وبالمساءة لاتباع الغواة، لأنّهم إذا دعوا بذلك رأوا متبوعيهم في المقامات المناسبة لهم فعلموا مصيرهم.

{ **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** } تفريع التفصيل لما أجمله قوله { نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } أي كتاب أعماله بيمينه. وإيتاء الكتاب باليمين إلهام صاحبه إلى تناوله باليمين. وتلك علامة عناية بالمأخوذ، لأنّ اليمين يأخذ بها من يعزم عملا عظيما قال تعالى { لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ } [الحاقة:45]، وقال النبيء ﷺ:" من تصدّق بصدقة من كسب طيبا، ولا يقبل الله طيبا، تلقّاها الرحمان بيمينه وكلتا يديه يمين ".

وأمّا أهل الشقاوة فيؤتَون كتبهم بشمائلهم،كما في قوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ } [الحاقة:25].

{ **فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } والإتيان باسم الإشارة بعد فاء جواب (أمّا) للتنبيه على أنّهم دون غيرهم يقرؤون كتابهم، لأنّ في اطلاعهم على ما فيه من فعل الخير والجزاء عليه مسرّة لهم. وأمّا الفريق الآخر فسكت عن قراءة كتابهم هنا وورد في الآية التي قبلها في هذه السورة { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [13 – 14].

{ **وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } الظلم مستعمل هنا في معنى النقص كما في قوله تعالى { كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتتَ أُكُلَهَا وَلَمِ تظْلِمَ مِنْهُ شَيْئًا } [الكهف:33]. لأنّ غالب الظلم يكون بانتزاع بعض ما عند المظلوم.

الفتيل: شبه الخيط يكون في شق النواة. وهو مثَل للشيء الحقير التافه.

{ **وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً** } ولمّا كان القسيم المعطوف عليه هم من أوتوا كتابهم باليمين عُلم أنّ المعطوف بضدّ ذلك يؤتى كتابه بالشمال، فاستغنى عن ذكر ذلك وأوتي له بصلة أخرى وهي كونه أعمى.

{ **فِي هَذِهِ** } الإشارة إلى معلوم من المقام وهو الدنيا، وله نظائر في القرآن.

والمراد بالعمى في الدنيا الضلالة في الدين، وهي استعارة. والمراد بالعمى في الآخرة ما ينشأ عن العمى من الحيرة و اضطراب البال.

{ **وَأَضَلُّ سَبِيلاً** } قائم مقام صيغة التفضيل في (العمى). وعدل عن لفظ: أشدّ ونحوه ما يتوسّل به إلى التفضيل عند تعذّر اشتقاق صيغة (أفعل) ليتأتى ذكر السبيل. لما في الضلال عن السبيل من تمثيل حال العمى وإيضاحه، لأنّ ضلال فاقد البصر عن الطريق في حال السير أشدّ وقعا في الإضرار منه وهو قابع بمكانه، فعدل عن اللفظ الوجيز إلى التركيب المطنب لما في الإطناب من تمثيل الحال وإيضاحه وإفظاعه وهو إطناب بديع.

فالمعنى: وأضل سبيلا منه في الدنيا. ووجه كون ضلاله في الآخرة أشدّ، أنّ ضلاله في الدنيا كان في مكنته أن ينجو منه بطلب ما يرشده إلى السبيل الموصل من هدي الرسول والقرآن. وأمّا ضلاله في الآخرة فهو ضلال لا خلاص منه وهو مقارن للعذاب الدائم. فلا جرم كان ضلاله في الآخرة أدخل في حقيقة الضلال وماهيته.

{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً } [73].

حكاية فنّ من أفنين ضلالهم وعماهم في الدنيا، فالجملة عطف على جملة { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى } [72]. وهو انتقال من وصف حالهم وإبطال مقالهم في تكذيب النبيء ﷺ إلى ذكر حال آخر من حال معارضتهم وإعراضهم، وهي حال طمعهم في أن يستنزلوا النبيء ﷺ لأن يقول قولًا فيه حسن ذكر

لألهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه.
وضمائر الغيبة مراد منها كفار قريش، أي متولُّو تدبير أمورهم.
وغير الأسلوب من خطابهم إلى الإقبال على خطاب النبيء ﷺ لتغيّر المقام، من مقام استدلال إلى مقام امتنان.
{**وَإِنْ كَادُوا** } (إن) مخفّفة من (إنّ) المشدّدة واسمها ضمير شأن محذوف، واللام في { لَيَفْتِنُونَكَ } هي اللام الفارقة بين (إن) المخففة من الثقيلة وبين (إن) النافية فلا تقتضي تأكيدا للجملة.
{ **لَيَفْتِنُونَكَ** } الفتن والفتون: معاملة يلحق منها ضرّ واضطراب النفس في أنواع من المعاملة يعسر دفعها، من تغلّب على القوّة وعلى الفكر، وتقدّم في قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].
{ **عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } عدّي { يَفْتِنُونَكَ } بحرف (عن) لتضمينه معنى فعل كان الفتن لأجله، وهو ما فيه معنى(يصرفونك). والذي أوحي إليه هو القرآن.
هذا هو الوجه في تفسير الآية بما تعطيه معاني تراكيبها مع ملاحظة ما تقتضيه أدلّة عصمة الرسول ﷺ من أن تتطرق إليه خواطر إجابة المشركين لما يطمعون.
وللمفسرين بضعة محامل أخرى لهذه الآية استقصاها القرطبي، فمنها ما ليس له حظ من القبول لوهن سنده وعدم انطباقه على معاني الآية، ومنها ما هو ضعيف السند وتتحمله الآية بتكلّف. ومرجع ذلك إلى أنّ المشركين راودوا النبيء ﷺ أن لا يسوّيهم مع من يعدّونهم منحطّين عنهم من المؤمنين المستضعفين عندهم مثل: بلال، وعمار بن ياسر، وخباب، وصهيب، وأنّهم وعدوا النبيء إن هو فعل ذلك بأن يجلسوا إليه ويستمعوا القرآن حين لا يكون فيه تنقيص آلهتهم، وأنّ رسول الله همّ بأن يظهر لهم بعض اللين رغبة في إقبالهم على سماع القرآن لعلّهم يهتدون. فيكون المراد من { الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } بعض الذي أوحينا إليك، وهو ما فيه فضل المؤمنين مثل قوله { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52] أو ما فيه تنقيص الأصنام.
وإذ قد ملئت بها كتب التفسير لم يكن بدّ من تأويل الآية بأمثل ما يناسب تلك الأخبار لئلا تكون فتنة للناظرين فنقول: إنّ رغبة النبيء ﷺ في اقترابهم من الإسلام وفي تأمين المسلمين، أجالت في خاطره أن يجيبهم إلى بعض ما دعوه إليه ممّا يرجع إلى تخفيف الإغلاظ عليهم أو أنظارهم، أو إرضاء بعض أصحابه بالتخلي عن مجلسه حين يحضره صناديد المشركين وهو يعلم أنّهم ينتدبون إلى ذلك لمصلحة الدين أو نحو ذلك ممّا فيه مصلحة لنشر الدين، وليس فيه فوات شيء على المسلمين.
أي كادوا يصرفونك عن بعض ما أوحيناه إليك ممّا هو مخالف لما سألوه.
{ **الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } الموصول للعهد لما هو معلوم عند النبيء ﷺ بحسب ما سأله المشركون من مخالفته.

فهذه الآية مسوقة مَساق المنّ على النبيء بعصمة الله إيّاه من الخطأ في الاجتهاد، ومَساق إظهار ملل المشركين من أمر الدعوة الإسلامية وتخوّفهم من عواقبها. وفي ذلك تثبيت للنبيء وللمؤمنين وتأييس للمشركين بأنّ ذلك لن يكون.

{ **لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ** } متعلق بـ { يَفْتِنُونَكَ } ، واللام للعلّة، أي يفعلون ذلك إضمارا منهم وطمعا في أن يفتري علينا غيره، أي غير ممّا أوحي إليك. وهذا طمع من المشركين أن يستدرجوا النبيء من سؤال إلى آخر، فهو راجع إلى نيّاتهم. وليس في الكلام ما يقتضي أنّ النبيء ﷺ همّ بذلك، كما فهمه بعض المفسرين. إذ لام التعليل لا تقتضي أكثر من غرض فاعل الفعل المعلّل ولا تقتضي غرض المفعول ولا علمه.

{ **وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً** } عطف على { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ }. ووجه عطفها بالواو دون الاقتصار على حرف الجزاء لأنّه باعتبار كونه من أحوالهم التي حاوروا النبيء ﷺ فيها وألحوا عليه ناسب أن يعطف على جملة أحوالهم. والتقدير: فلو صرفوك عن بعض ما أوحينا إليك لاتخذوك خليلا.

الخليل: الصديق. وتقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } [النساء:125].

{ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً [74] إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } [75]

يجوز أن يكون هذا كلاما مستقلّا غير متّصل بقوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } [73] بناء على ما نحوناه في تفسير الآية السابقة. وهذه منّة أخرى ومقام آخر من مقام رسول الله ﷺ تجاه المشركين.

ويجوز أن يكون من تكملة ما قبله فيكون الركون إليهم ركونا فيما سألوه منه على نحو ما ساقه المفسرون من الأخبار المتقدّمة.

{ **لَوْلا**} حرف امتناع لوجود، أي يقتضي امتناع جوابه لوجود شرطه.

{ **ثَبَّتْنَاكَ** } والتثبيت جعل الشيء ثابتا، أي متمكّنا من مكانه غير مقلقل ولا مقلوع. وهو مستعار للبقاء على حاله غير متغير. وتقدّم عند قوله تعالى { وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [البقرة:265].

وعدّي التثبيت إلى ضمير النبيء الدال على ذاته. والمراد تثبيت فهمه ورأيه. وهذا من الحكم على الذات.

والمراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، مثل { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } [النساء:23]. فالمعنى: ولولا أن ثبتنا رأيك فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين لقاربت أن تركن إليهم.

{ **لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً** } يجوز أن تكون اللام لام جواب لولا ، وهي ملازمة لجوابها لتحقيق الربط بينه وبين الشرط. والمعنى على الوجه الأول في موقع هذه الآية: أنّ الركون مجمل في أشياء هي

مظنّة الركون ولكن الركون منتف من أصله لأجل التثبيت بالعصمة كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أوحي إليه بصرف الله إياهم عن تنفيذ فتنتهم.

والمعنى على الوجه الثاني: ولولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد وأريناك أنّ مصلحة الشدّة في الدين والتنويه بأتباعه، ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا، لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين، ولو كان المسلمون راضين بالغضاضة من أنفسهم استئلافا للمشركين، فإنّ إظهار الهوادة في أمر الدين تُطمع المشركين في الترقّي إلى سؤال ما هو أبعد مدى ممّا سألوه، فمصلحة ملازمة موقف الحزم معهم أرجح من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم، أي فلا فائدة من ذلك. ولولا ذلك كله لقد كدت تركن إليهم قليلا، أي تميل إليهم.

الركون: الميل بالركن، أي بالجانب من الجسد واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب. وتقدّم في قوله { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } [هود :113] كما استعمل ضدّه في المخالفة في قوله تعالى { وإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْأِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ }.

فركون النبيء ﷺ إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع لأنّ الآية قد نفته بأربعة أمور، وهي: لولا الامتناعية. وفعل المقاربة المقتضي أنّه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه، والتحقير المستفاد من {شَيْئاً} ، والتقليل المستفاد من {قَلِيلاً }.

{ إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ }

{ **إِذاً** } الثانية جزاء لـ { كِدْتَ تَرْكَنُ } ولكونها جزاء فصلت عن العطف إذ لا مقتضى له.

والمعنى: لو تركن إليهم لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات.

الضِعف (بكسر الضاد): مماثل مقدار شيء ذي مقدار. وأطلق هنا على القويّ الشديد لعدم حمل الضعف على حقيقته إذ ليس ثمّ علم بمقدار العذاب يراد تضعيفه كقوله { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ } في سورة الأعراف.

وإضافة الضعف إلى الحياة وإلى الممات على معنى (في). فالتقدير: لأذقناك ضعفا في الحياة وضعفا في الممات، فضعف عذاب الحياة هو تراكم المصائب والأرزاء في مدة الحياة، وضعف عذاب الممات أن يموت مكمودا مستذلّا.

ويشبه أن يكون قوله { وَضِعْفَ الْمَمَاتِ } في استمرار ضعف الحياة، فيكون المعنى: لأذقناك ضعف الحياة حتّى الممات. فليس المراد من ضعف الممات عذاب الآخرة لأنّ النبيء ﷺ لو ركن إليهم شيئا قليلا لكان ذلك عن اجتهاد واجتلابا لمصلحة الدين في نظره، فلا يكون على الاجتهاد عقاب في الآخرة إذ العقاب الأخروي لا يكون إلّا على مخالفة في التكليف، وقد سوغ الله لنبيه الاجتهاد وجعل للمخطئ في اجتهاده أجرا كما قُرّر في تفسير قوله تعالى { لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [الأنفال:68].

وأمّا مصائب الدنيا وأرزاؤها فهي مسبّبة على أسباب من الأغلاط والأخطاء فلا يؤثر في التفادي منها حسن

النيّة إن كان صاحبها قد أخطأ وجه الصواب، فتدبر في هذه المعاني تدبر ذوي الألباب. ولهذا خولف التعبير المعتاد استعماله لعذاب الآخرة. وعبّر هنا بـ { ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ }.

{ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } معطوفة على جملة { لَأَذَقْنَاكَ }.

النصير: الناصر المخلّص من الغلبة أو الذي يثأر للمغلوب، أي لا تجد لنفسك من ينتصر لك.

{ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلّا قَلِيلاً [76] سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً }]77[.

عطف على جملة { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } [3] تعدادا لسيّئات أعمالهم. والضمائر متّحدة.

الاستفزاز: الحمل على الترحّل، وهو استفعال من فزَّ بمعنى بارح المكان، أي كادوا أن يسعوا أن تكون خارجا من مكّة. وتقدّم معنى هذا الفعل عند قوله { وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ } [64]. والمعنى: كادوا أن يخرجوك من بلدك. وذلك بأن همّوا بأن يخرجوه كرها ثم صرفهم الله عن ذلك، لأنّهم ارتأوا بعد زمان أن يبقوه بينهم حتّى يقتلوه.

{ مِنَ الْأَرْضِ } تعريف للعهد، أي من أرضك وهي مكّة.

{ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا } تعليل للاستفزاز، أي استفزازا لقصد الإخراج.

{ وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلّا قَلِيلاً } عطف على جملة { وَإِنْ كَادُوا } . أو هي اعتراض في آخر الكلام، فتكون الواو للاعتراض و(إذا) ظرفا لقوله { لا يَلْبَثُونَ } وهي (إذا) الملازمة الإضافة إلى الجملة.

ويجوز أن يكون (إذا) حرف جواب وجزاء لكلام سابق، وهي التي نونها حرف من الكلمة ولكن كثرت كتابتها بألف في صورة الاسم المنون. والتقير: وإذا أخرجوك أو وإذا خرجت لا يلبثون خلفك إلّا قليلا.

وقرأ الجمهور { خَلْفَكَ } أريد به بعدك. وأصل الخلف الوراء فاستعمل مجازا في البعدية، أي لا يلبثون بعدك. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { خِلافَكَ } وهو لغة في خلف. وتقدّم عند قوله تعالى { بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ } [التوبة:81].

اللبث: الاستقرار في المكان، أي لا يستقرّون في مكّة بل يخرجون منها فلا يرجعون. وقد خرج رسول الله ﷺ بعد ذلك مهاجرا وكانوا السبب في خروجه فكأنّهم أخرجوه، فلم يلبث الذين تسببوا في إخراجه وألّبوا عليه قومهم بعده إلّا قليلا ثم خرجوا إلى وقعة بدر فلقوا حتفهم هنالك فلم يرجعوا وحقّ عليهم الوعيد، وأبقى الله عامّتهم ودهماءهم لضعف كيدهم فأراد الله أن يدخلوا في الإسلام بعد ذلك.

وفي الآية إيماء إلى أنّ الرسول سيخرج من مكّة وأن مخرجيه، أي المتسببين في خروجه، لا يلبثون بعده بمكة إلّا قليلا.

{ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا }

السنّة: العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها. وتقدّم القول في أنّها اسم جامد أو اسم مصدر عند قوله { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:136]، أي عادة الله في كل رسول أخرجه قومه أن لا يبقوا بعده، خرج هود من ديار عاد إلى مكّة، وخرج صالح من ديار ثمود، وخرج إبراهيم ولوط، وهلكت أقوامهم.

والتقدير: سَنَنَّا ذلك لمن أرسلنا قبلك من رسلنا، أي لأجلهم. وإنّما سنّ الله هذه السنّة لرسله لأنّ تآمر الأقوام على إخراجهم يستدعي حكمة الله تعالى لأن تتعلق إرادته بأمره إيّاهم بالهجرة لئلا يبقوا مرموقين بعين الغضاضة بين قومهم وأجوارهم بشبه ما كان يسمّى بالخلع عند العرب.

{ وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } اعتراض لتكملة البيان. والمعنى: أنّ ذلك كائن لا محالة لأنّنا أجريناه على الأمم السالفة ولأنّ عادتنا لا تتحول.

{ وَلا تَجِدُ } مبالغة في الانتفاء كما في قوله { وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف:117].

التحويل: تغيير الحال وهو التبديل.

{ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [78].

كان شرع الصلوات الخمس للأمّة ليلة الإسراء، كما ثبت في الحديث الصحيح، ولكنّه كان غير مثبت في التشريع المتواتر إنّما أبلغه النبيء أصحابه فيوشك أن لا يعلمه غيرهم ممن يأتي من المسلمين. وأيضا فقد عيّنت الآية أوقاتا للصلوات بعد تقرّر فرضها، فلذلك جاءت هذه الآية في هذه السورة التي نزلت عقب حادث الإسراء جمعا للتشريع الذي شرّع للأمّة أيّامئذ المبتدأ بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23].

فالجملة استئناف ابتدائي. ومناسبة موقعها عقب ما قبلها أنّ الله لمّا امتنّ على النبيء ﷺ بالعصمة وبالنصر ذكّره بشكر النعمة بأن أمره بأعظم عبادة يعبده بها، وبالزيادة منها طلبا لازدياد النعمة عليه، كما دلّ عليه قوله في آخر الآية { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [79].

فالخطاب بالأمر للنبيء ﷺ، ولكن قد تقرّر من اصطلاح القرآن أنّ خطاب النبيء بتشريع تدخل فيه أمّته إلّا إذا دلّ دليل على اختصاصه بذلك الحكم، وقد علم المسلمون ذلك وشاع بينهم بحيث ما كانوا يسألون عند اختصاص حكم إلّا في مقام الاحتمال القويّ، كمن سأله: ألنا هذه أم للأبد؟ فقال: بل للأبد.

الإقامة: مجاز في المواظبة والإدامة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:3].

{ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } اللام لام التوقيت. وهي بمعنى(عند).

الدلوك: من أحوال الشمس. فورد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس فرضي في طريق مسيرها اليومي. وورد بمعنى: ميل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس وهو وقت العصر. وورد بمعنى غروبها. فصار لفظ الدلوك مشتركا في المعاني الثلاثة.

الغسق: الظلمة، وهي انقطاع بقايا شعاع الشمس حين يماثل سواد أفق الغروب سواد بقية الأفق وهو وقت غيبوبة الشفق. وذلك وقت العشاء. ويسمى العتمة، أي الظلمة.

وقد جمعت الآية أوقاتا أربعة، فالدلوك يجمع ثلاثة أوقات باستعمال المشترك في معانيه. والقرينة واضحة. وفهم من حرف (إلى) الذي للانتهاء أن في تلك الأوقات صلوات لأنّ الغاية كانت لفعل { أَقِمِ الصَّلَاةَ } فالغاية تقتضي تكرر إقامة الصلاة. وليس المراد غاية الصلاة واحدة جعل وقتها متسعا. وقد زاد عمل النبيء ﷺ بيانا للآية.

وأمّا مقدار الاتساع فيعرف من أدلة أخرى وفيه خلاف بين الفقهاء. فكلمة (دلوك) لا تعادلها كلمة أخرى. وقد ثبت في حديث أبي مسعود الأنصاري في الموطأ: أنّ أوّل الوقت هو المقصود. وثبت في حديث عطاء بن يسار مرسلا في الموطأ وموصولا عن أنس ابن مالك عند ابن عبد البر وغيره: أنّ للصبح وقتا له ابتداء ونهاية. وهو أيضا ثابت لكل صلاة بآثار كثيرة عدا المغرب فقد سكت عنها الأثر، فتردّدت أنظار الفقهاء فيها بين وقوف عند المروي وبين قياس وقتها على أوقات غيرها. وهذا الثاني أرجح، لأنّ امتداد وقت الصلاة توسعة على المصلّي وهي تناسب تيسير الدين.

{ **إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** } جعل الغسق نهاية للأوقات، فعلم أنّ المراد أوّل الغسق كما هو الشان المتعارف في الغاية بحرف (إلى) فعلم أن ابتداء الغسق وقت صلاة، وهذا جمع بديع.

{ **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ** } عطف على { الصَّلَاةَ } .والتقدير: وأقم قرآن الفجر، أي الصلاة به. كذا قدّر القراء وجمهور المفسرين ليعلم أنّ لكل صلاة من تلك الصلوات قرآنا كقوله { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } [المزمل:20]،أي صلوا به نافلة الليل.

وخُصَّ ذكر ذلك بصلاة الفجر دون غيرها لأنّها يُجهر بالقرآن في جميع ركوعها، ولأنّ سنّتها أن يُقرأ بسور من طوال المفصّل، فاستماع القرآن للمأمومين أكثر فيها وقراءته للإمام والفذ أكثر أيضا.

ويجوز أن يكون عطف جملة والكلام على الإغراء، والتقدير: والزم قرآن الفجر، قاله الزجاج. فيُعلم أنّ قراءة القرآن في كلّ صلاة حتم.

وهذا مجمل في كيفيّة الصلوات. ومقادير ما تشتمل عليه من القرآن بيّنته السنّة المتواترة والعرف في معرفة أوقات النهار والليل.

{ **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودا** } استئناف بياني لوجه تخصيص صلاة الصبح باسم القرآن، بأنّ صلاة الفجر

مشهودة، أي محضورة. وفُسّر ذلك بأنّها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، كما ورد في الحديث: "وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح". وذلك زيادة في فضلها وبركتها.

{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [79]

{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ } قدّم المجرور المتعلّق بـ (تهجد) على متعلّقه اهتماما به وتحريضا عليه. وبتقديمه اكتسب معنى الشرط والجزاء فجعل متعلقه بمنزلة الجزاء فأدخلت عليه فاء الجزاء. وهو استعمال فصيح.

ومنه قوله تعالى { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين:26]، وقول النبيء ﷺ: " ففيهما فجاهد ".

التهجّد: الصلاة في أثناء الليل. وهو اسم مشتق من الهجود. وهو النوم فمادة (التفعّل) للإزالة مثل التحرّج.

{ **بِهِ** } الضمير للقرآن المذكور في قوله { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } [78]، والباء للسببيّة.

النافلة: الزيادة من الأمر المحبوب.

{ **لَكَ** } متعلقة بـ { نَافِلَةً } وهي لام العلة. أي نافلة لأجلك. وفي هذا دليل على أنّ الأمر بالتهجّد خاصّ بالنبيء ﷺ فالأمر للوجوب. وبذلك انتظم في عداد الصلوات الواجبة، فبعضها واجب عليه وعلى الأمّة، وبعضها واجب عليه خاصة. ويعلم منه أنّه مرغّب فيه كما صرّحت به آية { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ - إلى قوله - فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ } [المزمل:20].

وفي هذا الإيجاب عليه زيادة تشريف له. ولهذا أعقب بوعد أن يبعثه الله مقاما محمودا.

{ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } تعليل لتخصيصه بإيجاب التهجّد عليه.

{ **عَسَى** } الرجاء من الله تعالى وعد. فالمعنى: ليبعثك ربك مقاما محمودا.

المقام: محلّ القيام. والمراد به المكان المعدود لأمر عظيم، لأنّه من شأنه أن يقوم النّاس فيه ولا يجلسوا. وإلا فهو المجلس.

{ **مَحْمُوداً** } وصف المقام بالمحمود وصف مجازي. والمحمود من يقوم فيه. أي يحمد أثره فيه. وذلك لغنائه عن أصحاب ذلك المقام. ولذلك فسر المقام المحمود **بالشفاعة العظمى**.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر:" أن النّاس يصيرون يوم القيامة جُثاً (بضم الجيم وتخفيف المثلّثة، أي جماعات) كلّ أمة تتبع نبيّها يقولون: يا فلان اشفع! حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيء فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود". وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله : { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } قال: هي الشفاعة ". قال: هذا حديث حسن صحيح .

وقد ورد وصف الشفاعة في صحيح البخاري مفصّلا. وذلك مقام يحمده فيه كلّ أهل المحشر.

{ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً} [80]

لمّا وعده بأن يقيمه مقاما محمودا ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حاله في كل مقام يقومه. وفي هذا التلقين إشارة إلهية أنّ الله تعالى مخرجه من مكّة إلى مهاجَر. والظاهر أنّ هذه الآية نزلت قبيل العقبة الأولى التي كانت مقدّمة للهجرة إلى المدينة.

{ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ } والمُدخَل والمُخرَج أصله اسم مكان الإدخال والإخراج. اختير هنا الاسم المشتقّ من الفعل المتعدّى للإشارة إلى أنّ المطلوب دخول وخروج ميسّران من الله تعالى وواقعان بإذنه. وذلك دعاء بكلّ دخول وخروج مباركين لتتمّ بين المسؤول وبين الموعود به، وهو المقام المحمود. وهذا السؤال يعمّ كل مكان يدخل إليه ومكان يخرج منه.

الصدق: هنا الكمال وما يحمد في نوعه، لأنّ ما ليس بمحمود فهو كالكاذب لأنّه يخلف ظنّ المتلبّس به.

{ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً } سؤال التأييد والنصر في تلك المداخل والمخارج وغيرها من الأقطار النائية والأعمال القائم بها غيره من أتباعه وأعدائه، بنصر أتباعه وخذل أعدائه.

السلطان: اسم مصدر يطلق على السلطة وعلى الحجّة وعلى الملك. وهو في هذا المقام كلمة جامعة، على طريقة استعمال المشترك في معانيه أو هو من عموم المشترك، تشمل أن يجعل له الله تأييدا وحجّة وغلبة وملكا عظيما، وقد آتاه الله ذلك كلّه.

النصير: مبالغة في الناصر، أي سلطانا ينصرني. وإذا قد كان العمل القائم به النبيء هو الدعوة إلى الإسلام كان نصره تأييدا له فيما هو قائم به، فصار هذا الوصف تقييدا للسلطان، بأنّه لم يسأل سلطانا للاستعلاء على النّاس، وإنّما سأل سلطانا لنصره فيما يطلب النصرة وهو التبليغ وبثّ الإسلام في النّاس.

{ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } [81]

أعقب تلقينه الدعاء بسداد أعماله وتأييده فيها بأن لقّنه هذا الإعلان المُنبئ بحصول إجابة الدعوة المُلْهَمَة بإبراز وعده بظهور أمره في صورة الخبر عن شيء مضى.

ولمّا كانت دعوة الرّسول هي لإقامة الحقّ وإبطال الباطل كان الوعد بظهور الحقّ وعدا بظهور أمر الرسول وفوزه على أعدائه. واستحفظه الله هذه الكلمة الجليلة إلى أن ألقاها يوم فتح مكّة على مسامع من كانوا أعداءه فإنّه لمّا دخل الكعبة ووجد فيها وحولها الأصنام جعل يشير إليها بقضيب ويقول { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } فتسقط تلك الأنصاب على وجوهها.

ومجيء الحقّ مستعمل في إدراك النّاس إيّاه وعملهم به وانتصار القائم به على معاضديه تشبيها للشيء الظاهر بالشيء الذي كان غائبا فورد جائيا.

{ **زَهَقَ** } اضمحل بعد وجوده. ومصدره الزُّهُوق والزَّهَق. وزهوق الباطل مجاز في تركه أصحابه فكأنّه كان مقيما بينهم ففارقهم. والمعنى: استقر وشاع الحقّ الذي يدعوا إليه النبيء وانقضّ الباطل الذي كان النبيء ﷺ ينهى عنه.

{ **إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً** } تذييل للجملة التي قبله لما فيه من عموم يشمل كلّ باطل في كلّ زمان. وإذا كان هذا شأن الباطل كان الثبات والانتصار شأن الحقّ، لأنّه ضدّ الباطل فإذا انتفى الباطل ثبت الحقّ.

{ **كان** } دلّ على أنّ الزهوق شنشنة الباطل، وشأنه في كل زمان أنّه يظهر ثم يضمحل، كما تقدّم في قوله تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً } [يونس:2].

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلّا خَسَاراً } [82]

عطف على { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81]، على ما في تلك الجملة والجمل التي سبقتها من معنى التأييد للنبيء ﷺ ومن الإغاظة للمشركين، ابتداء من قوله {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [73]. فإنّه بعد أن امتنّ عليه بأن أيّده بالعصمة من الركون إليهم، وتبشيره بالنصرة عليهم وبالخلاص من كيدهم، وبعد أن هدّدهم بأنّهم صائرون قريبا إلى هلاك وأن دينهم صائر إلى الاضمحلال، أعلن له ولهم في هذه الآية أنّ ما منه غيظهم وحنقهم، وهو القرآن الذي طمعوا أن يسألوا النبيء أن يبدّله بقرآن ليس فيه ذكر أصنامهم بسوء، أنّه لا يزال متجدّدا مستمرّا، فيه شفاء للرّسول وأتباعه وخسارة للظالمين.

ولأنّ القرآن مصدر الحقّ ومُدحِض الباطل أعقب قوله { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81] بقوله { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ}. ولهذا اختير للإخبار عن التنزيل الفعل المضارع المشتقّ من فعل المضاعف للدلالة على التجديد والتكرير والتكثير، وهو وعد بأنّه يستمر هذا التنزيل زمنا طويلا.

{ **مَا هُوَ شِفَاءٌ** } مفعول {نُنَزِّلُ}. والشفاء حقيقته زوال الداء، ويُستعمل مجازا في زوال ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع من العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة والأخلاق الذميمة تشبيها له ببرء السقم، كقول عنترة:

ولقد شفى نفسي وابرأ سُقمها ... قيلُ الفوارس: وَيْكَ عنترَ قَدِّمِ

والمعنى: أنّ القرآن كلّه شفاء ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين، لأنّ كلّ آية من القرآن من أمره ونهيه ومواعظه وقصصه وأمثاله ووعده ووعيده، كلّ آية من ذلك مشتملة على هدي وصلاح حال للمؤمنين المتبعينه. ومشتملة بضدّ ذلك على ما يزيد غيظ المستمرّين على الظلم. أي الشرك. فيزدادون بالغيظ كراهية للقرآن فيزدادون بذلك خسارا بزيادة آثامهم واستمرارهم على فاسد أخلاقهم وبعد ما بينهم وبين الإيمان. وهذا

كقوله { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة:124- 125].

وفي الآية دليل على أنّ في القرآن آيات يُشتفى بها من الأدواء والآلام ورد تعيينها في الأخبار الصحيحة فشملتها الآية بطريقة استعمال المشترك في معنييه. وهذا ممّا بينا تأصيله في المقدمة التاسعة.

{ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْأِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُساً }[83]

لمّا كان القرآن نعمة عظيمة للنّاس، وكان إعراض المشركين عنه حرمانا عظيما لهم من خيرات كثيرة، أعقب ذلك ببيان السبب النفساني الذي يوقع العقلاء في مهواة هذا الحرمان، وذلك بالاشتغال بما هم فيه من نعمة. كما أشار إليه قوله { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11] وقوله { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196-197].

فهذه الجملة مضمونها مقصود بذاته استفيد بيانها بوقوعها عقب التي قبلها.

{ **الْأِنْسَانِ** } تعريف الجنس، وهو يفيد الاستغراق وهو استغراق عرفي، أي أكثر أفراد الإنسان، لأنّ أكثر النّاس يومئذ كفّار وأكثر العرب مشركون. فالمعنى: إذا أنعمنا على المشركين أعرضوا وإذا مسّهم الشرّ يئسوا. وهذا مقابل حال أهل الإيمان الذين كان القرآن شفاء لأنفسهم وشكر النعمة من شيمهم والصبر على الضر من خلقهم.

الإنعام: إعطاء النعمة. وليس المراد النعم الكاملة من الإيمان والتوفيق، كما في قوله { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة:7].وقوله { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ } [النساء:69].

الإعراض: الصدّ وضدّ الإقبال. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

النأي: البعد. وتقدّم في قوله تعالى { وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ } [الأنعام:26].

الجانب: الجنب. وهو الجهة من الجسد التي فيها اليد. وهما جانبان: يمين ويسار.

{ **وَنَأَى بِجَانِبِهِ** } صدّ عن العبادة والشكر. وهذا غير المفاد من معنى { أَعْرَضَ } فليس تأكيدا له. وحذف المتعلّق لدلالة المقام عليه من قوله { أَنْعَمْنَا عَلَى الْأِنْسَانِ } ،أي أعرض عنّا وأجفل منّا، أي من عبادتنا وأمرنا ونهينا.

وقرأ الجمهور { وَنَأَى } بهمزة بعد النون وألف بعد الهمزة. وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر {وناء} بألف بعد النون ثم همزة. وقيل: ناء في هذه القراءة بمعنى ثقل، أي عن الشكر، أي في معنى قوله تعالى { وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ } [لأعراف: 176].

{ **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً** } احتراس من أن يتوهّم السامع من التقييد بقوله { وَإِذَا أَنْعَمْنَا } أنّه إذا زالت

عنه النعمة صلح حاله، فبيّن أنّ حاله ملازم لنكران الجميل في السرّاء والضرّاء، فإذا زالت النعمة عنه لم يقلع عن الشرك والكفر ويتب إلى الله ولكنّه ييأس من الخير ويبقى حَنِقا ضيّق الصدر لا يعرف كيف يتدارك أمره. ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51] كما سيأتي.

{ **كَانَ يَؤُوساً** } دلّ على قوّة يأسه إذ صيغ له مثال المبالغة. وأقحم معه فعل (كان) الدال على رسوخ الفعل، تعجيبا من حاله في وقت مسّ الضرّ إيّاه، لأنّها حالة أدعى إلى الفكرة في وسائل دفعه، بخلاف حالة الإعراض في وقت النعمة فإنّها حالة لا يستغرب فيها الازدهاء لما هو فيه من النعمة.

{ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً } [84].

هذا تذييل، وهو تنهية للغرض الذي ابتدئ من قوله { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [66] الراجع إلى التذكير بنعم الله تعالى على النّاس في خلال الاستدلال على أنّه المتصرّف الوحيد، وإلى التحذير من عواقب كفران النعم. وإذ قد ذكر في خلال ذلك فريقان في قوله { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } [71]، وقوله { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلّا خَسَاراً } [82].

{ **كُلٌّ** } تنوين عوض عن المضاف إليه، أي كلّ أحد ممّا شمله عموم قوله { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى } [72] وقوله { وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلّا خَسَاراً } [82] وقوله { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ } [83].

الشاكلة: الطريقة والسيرة التي اعتادها صاحبها ونشأ عليها. وأصلها شاكلة الطريق، وهي الشعبة التي تتشعب منه. وهذه الجملة في الآية تجري مجرى المثل.

{ **فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً** } تفريع. وهو كلام جامع لتعليم النّاس بعموم علم الله، والترغيب للمؤمنين، والإنذار للمشركين مع تشكيكهم في دينهم لعلّهم ينظرون، كقوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً } [سبأ:24].

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلّا قَلِيلاً } [85]

وقع هذه الآية بين الآي التي معها يقتضي نظمه أنّ مرجع ضمير { يَسْأَلُونَكَ } هو مرجع الضمائر المتقدّمة، فالسائلون عن الروح هم قريش. وقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل عنه، فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}. وظاهر هذا أنّهم سألوه عن الروح خاصة وأنّ الآية نزلت بسبب سؤالهم. وحينئذ فلا إشكال في إفراد هذا

السؤال في هذه الآية على هذه الرواية. وبذلك يكون موقع هذه الآية بين الآيات التي قبلها والتي بعدها مسببا على نزولها بين نزول تلك الآيات.

واعلم أنّه كان بين قريش وبين أهل يثرب صلات كثيرة من مصاهرة وتجارة وصحبة. وكان لكل يثربي صاحب بمكّة ينزل عنده إذا قدم الآخر بلده، كما كان بين أميّة بن خلف وسعد بن معاذ. وقصّتهما مذكورة في حديث غزوة بدر من صحيح البخاري.

روى ابن إسحاق أنّ قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بيثرب يسألانهم عن أمر النبيء ﷺ فقال اليهود لهما: سلوه عن ثلاثة. وذكروا لهم أهل الكهف وذا القرنين وعن الروح كما سيأتي في سورة الكهف. فسألته قريش عنها فأجاب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين بما في سورة الكهف، وأجاب عن الروح بما في هذه السورة. وهذه الرواية تثير إشكالا في وجه فصل جواب سؤال الروح عن المسألتين الأخريين بذكر جواب مسألة الروح في سورة الإسراء وهي متقدمة في النزول على سورة الكهف. ويدفع الإشكال أنّه يجوز أن يكون السؤال عن الروح وقع منفردا أوّل مرة ثم جمع مع المسألتين الأخريين ثاني مرة.

ويجوز أن تكون آية سؤال الروح ممّا ألحق بسورة الإسراء كما سنبينه في سورة الكهف. والجمهور على أنّ الجميع نزل بمكّة، قال الطبري عن عطاء ابن يسار نزل قوله { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلّا قَلِيلاً } بمكّة.

وأمّا ما روي في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنّه قال: " بينما أنا مع النبيء في حرث بالمدينة إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح. فسألوه عن الروح فأمسك النبيء ﷺ فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنّه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ }. فالجمع بينه وبين حديث ابن عباس المتقدّم: أنّ اليهود لمّا سألوا النبيء ﷺ قد ظنّ النبيء أنّهم أقرب من قريش إلى فهم الروح فانتظر أن ينزل عليه الوحي بما يجيبهم به أبين ممّا أجاب به قريشا، فكرّر الله تعالى إنزال الآية التي نزلت بمكّة أو أمره أن يتلوها عليهم ليعلم أنّهم وقريشا سواء في العجز عن إدراك هذه الحقيقة، أو أنّ الجواب لا يتغيّر.

هذا، والذي يترجّح عندي: أنّ فيما ذكره أهل السير تخليطا، وأن قريشا استقوا من اليهود شيئا ومن النصارى شيئا فقد كانت لقريش مخالطة مع نصارى الشام في رحلتهم الصيفية إلى الشام، لأنّ قصة أهل الكهف لم تكن من أمور بني إسرائيل وإنّما هي من شؤون النصارى. بناء على أنّ أهل الكهف كانوا نصارى كما سيأتي في سورة الكهف، وكذلك قصة ذي القرنين، إن كان المراد به الاسكندر المقدوني، لأنّها ممّا عني به النصارى لارتباط فتوحاته بتأريخ بلاد الروم، فتعيّن أنّ اليهود ما لقّنوا قريشا إلّا السؤال عن الروح.

وبهذا يتّضح السبب في إفراد السؤال عن الروح في هذه السورة وذكر القصتين الأخريين في سورة الكهف. على أنّه يجوز أن يتكرّر السؤال في مناسبات وذلك شان الذين معارفهم محدودة فهم يلقونها في كل مجلس.

الروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوّم في الجسد الإنساني حين يكون جنينا بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يوما وهذا الإطلاق هو الذي في قوله تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [صّ:72]. وهذا يسمى أيضا بالنفس كقوله { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } [الفجر:27].

ويطلق لفظ (الروح) على الملك الذي ينزل بالوحي على الرّسل. وهو جبريل عليه السلام، منه قوله تعالى {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ } [الشعراء:193- 194].

واختلف المفسّرون في الروح المسؤول عنه هنا ما هو من هذه الثلاثة؟ فالجمهور قالوا: المسؤول عنه هو الروح بالمعنى الأوّل، لأنّه الأمر المشكل الذي لم تتضح حقيقته، وأمّا الروح بالمعنيين الآخرين فيشبه أن يكون السؤال عنه سؤالا عن معنى مصطلح قرآني. وقد ثبت أنّ اليهود سألوا عن الروح بالمعنى الأوّل لأنّه هو الوارد في أوّل كتابهم وهو سفر التكوين من التوراة، لقوله في الإصحاح الأول: " وروح الله يرفّ على وجه المياه ". وليس الروح بالمعنيين الآخرين بوارد في كتبهم.

فالروح وبيان ماهيتها، قد شغلت الفلاسفة وحكماء المتشرّعين، لظهور أنّ في الجسد الحيّ شيئا زائدا على الجسم، به يكون الإنسان مدركا وبزواله يصير الجسم مسلوب الإرادة والإدراك، فعلم بالضرورة أنّ في الجسم شيئا زائدا على الأعضاء الظاهرة والباطنة غير مشاهد إذ قد ظهر بالتشريح أن جسم الميت لم يفقد شيئا من الأعضاء الباطنة التي كانت له في حال الحياة.

وإذ قد كانت عقول النّاس قاصرة عن فهم حقيقة الروح وكيفية اتصالها بالبدن وكيفية انتزاعها منه وفي مصيرها بعد ذلك الانتزاع، أجيبوا بأنّ الروح من أمر الله. أي أنّه كائن عظيم من الكائنات المشرّفة عند الله ولكنّه ممّا استأثر الله بعلمه.

{ **مِنْ أَمْرِ رَبِّي** } فلفظ (أمر) يحتمل أن يكون مرادف الشيء. فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله. فإضافة { أمر } إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي أمر اختص بالله اختصاص علم.

وروى ابن العربي في الأحكام عن ابن وهب عن مالك أنّه قال:" لم يأته في ذلك جواب ". أي أنّ قوله { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } ليس جوابا ببيان ما سألوا عنه ولكنه صرف عن استعلامه وإعلام لهم بأنّ هذا من العلم الذي لم يؤتوه. والاحتمالات كلّها مرادة، وهي كلمة جامعة.

{ **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** } يجوز أن تكون ممّا أمر الله رسوله أن يقوله للسائلين، فيكون الخطاب لقريش أو لليهود الذين لقّنوهم، ويجوز أن يكون تذييلا أو اعتراضا فيكون الخطاب لكل من يصلح للخطاب. والمراد بالعلم هنا المعلوم، أي ما شأنه أن يعلم أو من معلومات الله. ووصفه بالقليل بالنسبة إلى ما من شأنه أن يعلم من الموجودات والحقائق.

وإذ قد جرى ذكر الروح في هذه الآية وصرف السائلون عن مرادهم لغرض صحيح اقتضاه حالهم وحال زمانهم ومكانهم، فما علينا أن نتعرض لمحاولة تعرّف حقيقة الروح بوجه الإجمال فقد تهيأ لأهل العلم من وسائل المعرفة ما تغيّرت به الحالة التي اقتضت صرف السائلين في هذه الآية بعض التغير، وقد تتوفر تغيرات في المستقبل تزيد أهل العلم استعدادا لتجلّي بعض ماهية الروح، فلذلك لا نجاري الذين قالوا: إن حقيقة الروح يجب الإمساك عن بيانها لأنّ النبيء ﷺ أمسك عنها فلا ينبغي الخوض في شأن الروح بأكثر من كونها موجودة. فقد رأى جمهور العلماء من المتكلمين والفقهاء منهم أبو بكر بن العربي في (العواصم)، والنووي في(شرح مسلم): أن هذه الآية لا تصدّ العلماء عن البحث عن الروح لأنّها نزلت لطائفة معيّنة من اليهود ولم يقصد بها المسلمون.

{ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً [86] إِلّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } [87].

هذا متّصل بقوله { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ } [82]، أفضت إليه المناسبة، فإنّه لمّا تضمن قوله { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [85] تلقين كلمة علم جامعة، وتضمّن أنّ الأمّة أوتيت علما ومنعت علما. وأنّ علم النبوءة من أعظم ما أوتيته، أعقب ذلك بالتنبيه إلى الشكر على نعمة العلم دفعا لغرور النفس، لأنّ العلم بالأشياء يكسبها إعجابا بتميّزها عمن دونها فيه. فأوقظت إلى أنّ الذي منح العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبيء ﷺ لأنّ علمه أعظم علم، فإذا كان وجود علمه خاضعا لمشيئة الله فما الظنّ بعلم غيره، تعريضا لبقيّة العلماء. فالكلام صريحُه تحذير، وهو كناية عن الامتنان كما دلّ عليه قوله بعده { إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً}.

{ لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } جواب القسم. بمعنى لنذهبنّه، أي عنك، وهو أبلغ من نذهبه. وما صدق الموصول القرآن.

{ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً } (ثمّ) للترتيب الرتبي، لأنّ نفي الطمع في استرجاع المسلوب أشدّ على النفس من سلبه، فذكره أدخل في التنبيه على الشكر والتحذير من الغرور.

الوكيل: من يوكل إليه المهم. والمراد به هنا المدافع عنك والشفيع لك. ولما فيه من معنى الغلبة عدّي بـ (على)، ولما فيه من معنى التعهّد والمطالبة عدّي إلى المردود بالباء. أي متعهّدا بالذي أوحينا إليك.

{ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ } استثناء منقطع، فحرف الاستثناء فيه بمعنى الاستدراك. وهو استدراك على ما اقتضاه فعل الشرط من توقّع ذلك، أي لكن رحمة من ربّك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك، فهو باق.

وهذا إيماء إلى بقاء القرآن وحفظه، قال تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9].

{ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } موقع التعليل للاستثناء المنقطع، لأنّ فضله كان عليك كبيرا فلا يحرمك فضل الذي أوحاه إليك.

{ كَانَ } لتوكيد الجملة، زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع.

{ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }[88]

استئناف للزيادة في الامتنان. وهو استئناف بياني لمضمون جملة { إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } [87].

وافتتاحه بـ (قل) للاهتمام به. وهذا تنويه بشرف القرآن، فكان هذا التنويه امتنانا على الذين آمنوا به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحدّيا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلّا خسارا.

{ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ } الاتفاق واتحاد الرأي، أي لو تواردت عقول الإنس والجنّ على أن يأتي كلّ واحد منهم بمثل هذا القرآن لما أتوا بمثله. فهو اجتماع الرأي لا اجتماع التعاون، كما تدلّ عليه المبالغة في قوله بعده { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }.

وذكر الجنّ مع الإنس لقصد التعميم، كما يقال:" لو اجتمع أهل السماوات والأرض". وأيضا لأنّ المتحدّين بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أنّ الجنّ يقدرون على الأعمال العظيمة.

{ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ } المراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع. وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي.

{ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } جواب القسم الموطأ له باللام.

{ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }في موقع الحال من ضمير {لا يَأْتُونَ }. و(لو) وصلية، وهي تفيد أنّ ما بعدها مظنّة أن لا يشمله ما قبلها. وقد تقدّم معناها عند قوله { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

الظهير: المعين.

وهذه الآية مفحمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إلّا كُفُوراً } [89]

لمّا تحدّى الله بلغاء المشركين بالإعجاز تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام، مدمجا في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثل. وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال.

وتقدّم ذكر المثل عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:126].

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا } معطوفة على { قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ } مشاركة لها في حكمها المتقدّم بيانه زيادة في الامتنان والتعجيز. وتأكيدها بلام القسم وحرف التحقيق لردّ أفكار المشركين أنّه من عند الله، فمورد التأكيد هو فعل {صَرَّفْنَا} الدال على أنّه من عند الله.

التصريف: تقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا } [41]. وزيد في هذه الآية قيد {للنّاس} دون الآية السابقة لأنّ هذه الآية واردة في مقام التحدّي والإعجاز، فكان النّاس مقصودين به قصدا أصليّا مؤمنهم وكافرهم، بخلاف الآية المتقدّمة فإنّها في مقام توبيخ المشركين خاصة فكانوا معلومين.

{ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ } ووجه تقديم أحد المتعلّقين بفعل {صَرَّفْنَا} على الآخر: أنّ ذكر النّاس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقا لتحدّيهم والحجّة عليهم، وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة، إلّا أنّ الاعتبارات الطارئة تقدّم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية، لأنّ الاعتبارات الأصلية لتقرّرها في النفوس تصير متعارفة فتكون الاعتبارات الطارئة أعزّ منالا. ومن هذا باب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

{ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } ذكر في هذه الآية متعلّق التصريف بخلاف الآية السابقة، لأنّ ذكر ذلك أدخل في الإعجاز، فإنّ كثرة أغراض الكلام أشدّ تعجيزا لمن يروم معارضته عن أن يأتي بمثله، إذ قد يقدر بليغ من البلغاء على غرض من الأغراض ولا يقدر على غرض آخر، فعجزهم عن معارضة سورة من القرآن مع كثرة أغراضه عجز بيّن من جهتين، لأنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو في بعض الأغراض.

{ مِنْ كُلِّ } (من) للتبعيض، و(كلّ) تفيد العموم، فالقرآن مشتمل على أبعاض من جميع أنواع المثل.

{ مَثَلٍ } التنوين للتعظيم والتشريف، أي من كل مثل شريف. والمراد: شرفه في المقصود من التمثيل.

{ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إلّا كُفُوراً } وحذف مفعول { أبى } للقرينة، أي أبى العمل به.

{ إِلَّا كُفُوراً } تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، لما فيه من الإطماع بأنّ إبايتهم غير مطّردة، ثم يأتي المستثنى مؤكّدا لمعنى المستثنى منه، إذ الكفور أخصّ من المفعول الذي حذف للقرينة.

الكُفور (بضم الكاف):المجحود، أي جحدوا بما في القرآن من هدى وعاندوا.

{ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً [90] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً [91] أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [92] أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولاً } [93].

عطف على جملة { فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً } [99]. أي كفروا بالقرآن وطلبوا بمعجزات أخرى.

وضمير الجمع عائد إلى أكثر النّاس الذين أبوا إلّا كفورا، باعتبار صدور هذا القول بينهم وهم راضون به ومتمالئون عليه متى علموه، فلا يلزم أن يكون كلّ واحد منهم قال هذا القول كلّه، بل يكون بعضهم قائلا جميعه أو بعضهم قائلا بعضه.

ولما اشتمل قولهم على ضمائر الخطاب تعيّن أنّ بعضهم خاطب به النبيء ﷺ مباشرة، إمّا في مقام واحد وإمّا في مقامات. وقد ذكر ابن إسحاق: أنّ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، وناسا معهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وبعثوا إلى النبيء ﷺ أن يأتيهم. فأسرع إليهم حرصا على هداهم، فعاتبوه على تسفيه أحلامهم والطعن في دينهم، وعرضوا عليه ما يشاء من مال أو تسويد. وأجابهم بأنّه رسول من الله إليهم لا يبغي غير نصحهم، فلمّا رأوا منه الثبات انتقلوا إلى طلب بعض ما حكاه الله عنهم في هذه الآية.

وروي أنّ الذي سأل ما حكي بقوله تعالى { أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ } [93] إلى آخره، هو عبد الله بن أبي أميّة المخزومي.

{ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ } لن نصدّقك أنك رسول الله إلينا. **والإيمان**: التصديق. يقال: آمنه، أي صدّقه. وكثر أن يعدّى إلى المفعول بـ (اللام)، قال تعالى { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } [يوسف:17] وقال {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} [العنكبوت:26]. وهذه اللام من قبيل ما سمّاه في (مغني اللبيب) لام التبيين. وغفل عن التمثيل لها بهذه الآية ونحوها.

التفجير: مصدر فجّر بالتشديد مبالغة غي الفجر، وهو الشق باتساع. ومنه سمّي فجر الصباح فجرا لأنّ الضوء يشق الظلمة شقا طويلا عريضا، فالتفجير أشدّ من مطلق الفجر وهو تشقيق شديد باعتبار اتساعه. ولذلك ناسب الينبوع هنا والنهر في قوله تعالى { وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً } [الكهف:33].

وقرأه الجمهور { تُفَجِّرَ } ـ بضم التاء وتشديد الجيم ـ على أنّه مضارع (فجّر)المضاعف. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { تَفْجُرَ } ـ بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة ـ على أنّه مضارع فجر

كنصر، فلا التفات فيها للمبالغة لأن الينبوع يدل على المقصود أو يعبّر عن مختلف أقوالهم الدالة على التصميم في الامتناع.

{ **مِنَ الْأَرْضِ** } أرض مكّة، فالتعريف للعهد، ووجه تخصيصها أنّ أرضها قليلة المياه بعيدة عن الجنّات.

الينبوع: اسم للعين الكثيرة النبع التي لا ينضب ماؤها. وصيغة يفعول صيغة مبالغة غير قياسية. والينبوع مشتقة من مادة النبع.

{ **أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً** } الجنّة والنخيل والعنب والأنهار تقدّمت في قوله { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البقرة:266].

المقترح هو تفجير الماء في الأرض القاحلة. وإنّما ذكروا وجود الجنّة تمهيدا لتفجير أنهار خلالها فكأنّهم قالوا: حتّى تفجر لنا ينبوعا يسقي النّاس كلّهم، أو تفجّر أنهارا تسقي جنّة واحدة تكون تلك الجنّة وأنهارها لك. فنحن مقتنعون بحصول ذلك لا بغية الانتفاع منه. وهذا كقولهم { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [93].

{ **تَفْجِيراً** } المفعول المطلق للدلالة على التكثير، لأنّ { تَفْجُرَ } قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعيّن أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى { وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [106]، وهو المناسب لقوله { خلالها }، لأنّ الجنّة تتخلّلها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعّب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدلّ لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة { فَتُفَجِّرَ } هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من لطائف معاني القراءات المروية عن النبيء ﷺ فهي من أفانين إعجاز القرآن.

{ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً** } انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرّتهم. أي فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرّتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلّهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء. وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي { كَمَا زَعَمْتَ } إنباء بأنّ ذلك لا يصدّق به أحد. وعنوا به قوله تعالى { إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ } [سبأ: 9] وبقوله { وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ } [الطور:44]، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب.

الكسف (بكسر الكاف وفتح السين): ـ جمع كسفة، وهي القطعة من الشيء مثل سدرة وسدر. وكذلك قرأه نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وقرأه الباقون بسكون السين بمعنى المفعول، أي المكسوف بمعنى المقطوع.

{ **زَعَمْتَ** } الزعم: القول المستبعد أو المحال.

{ **أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** }

القبيل: الجماعة من جنس واحد. وهو منصوب على الحال من الملائكة، أي هم قبيل خاص غير معروف،

كأنّهم قالوا: أو تأتي بفريق من جنس الملائكة.
الزخرف: الذهب.
{ **أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ** } وإنّما عدّي بحرف (في) الظرفية للإشارة إلى أنّ الرقيّ تدرّج في السماوات، كمن يصعد في المرقاة والسلم.
{ **وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ** } ثم تفنّنوا في الاقتراح فسألوه إن رقي أن يُرسل إليهم بكتاب ينزل من السماء يقرءونه، فيه شهادة بأنّه بلغ السماء. قيل: قائل ذلك عبد الله بن أبي أمية، قال: حتّى تأتينا بكتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون لك.
ولعلّهم إنّما أرادوا أن ينزّل عليهم من السماء كتابا كاملا دفعة واحدة، فيكونوا قد ألحدوا بتنجيم القرآن، توهما بأنّ تنجيمه لا يناسب كونه منزلا من عند الله، لأنّ التنجيم عندهم يقتضي التأمّل والتصنّع في تأليفه. ولذلك يكثر في القرآن بيان حكمة تنجيمه.
{ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلّا بَشَراً رَسُولاً** } لمّا كان اقتراحهم اقتراح ملاجّة وعناد، أمره الله بأن يجيبهم بما يدلّ على التعجب من كلامهم بكلمة { سُبْحَانَ رَبِّي } التي تستعمل في التعجّب كما تقدّم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي لست ربّا متصرّفا أخلق ما يطلب مني.

{ **وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إلّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً** [94] **قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً** } [95].
بعد أن عدت أشكال عنادهم ومظاهر تكذيبهم أعقبت ببيان العلّة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهّمهم استحالة أن يبعث الله للناس برسالة بشرا مثلهم. فذلك التوهّم هو مثار ما يأتونه من المعاذير. فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كلّ آية. ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضا رد بالخصوص لقولهم { أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً } [92].
{ **إِلّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً** } يقتضي بصريحه أنّهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه. ولذلك جعل قولهم ذلك مانعا من أن يؤمنوا لأنّ اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.
{ **النّاس** } الظاهر حمل التعريف على الاستغراق. أي ما منع جميع النّاس أن يؤمنوا إلّا ذلك التوهّم الباطل لأنّ الله حكى مثل ذلك عن كل أمّة كذبت رسولها:

فقال حكاية عن قوم نوح { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [المؤمنون:24].

وحكي مثله عن هود { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ ممّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ ممّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ } [المؤمنون:33 - 34].

وعن قوم صالح { مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [الشعراء:154].

وعن قوم شعيب { وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [الشعراء:186].

وحكي عن قوم فرعون { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } [المؤمنون:47].

وقال في قوم محمد ﷺ { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ } [قّ:2].

{ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً } وإذا شمل العموم كفّار قريش أمر الرسول بأن يجيبهم عن هذا الشبهة، فاختص الله رسوله محمدا ﷺ باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصا لم يلقنه من سبق من الرسل، فإنّهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار الله تعالى على أقوالهم: فقال عن نوح { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء:117-118]. وقال مثله عن هود وصالح، وقال عن موسى وهارون { فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ } [المؤمنون:48].

فقد ادخر الله لرسوله قواطع الأدلة على إبطال الشرك وشبه الظلال بما يناسب كونه خاتم الرسل، ولهذا قال في خطبة حجة الوداع: " إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنّه قد رضي أن يطاع فيما دون ذلك ممّا تحقّرون من أعمالكم ".

والمعنى : أن الله يرسل الرسول للقوم من نوعهم للتمكّن من المخالطة لأنّ اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة، قال تعالى { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً } [الأنعام:9]،أي في صورة رجل ليمكن التخاطب بينه وبين الناس.

{ **مُطْمَئِنِّينَ** } المطمئن: الساكن. وأريد به هنا المتمكّن غير المضطرب، أي مشي قرار في الأرض، أي لو كان في الأرض ملائكة قاطنون على الأرض غير نازلين برسالة للرسل أنزلنا عليهم ملكا. ولما كان المشي والاطمئنان في الأرض من صفة الإنسان آل المعنى إلى: لو كنتم ملائكة لنزلنا عليكم من السماء ملكا فلما كنتم بشرا أرسلنا إليكم بشرا مثلكم.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [96]

بعد أن خصّ الله محمدا ﷺ بتلقين الحجّة القاطعة للضلالة أردف ذلك بتلقينه أيضا ما لقّنه الرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله وتحكيمه في أعدائه.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ } تسلية للرّسول ﷺ وتثبيتا لنفسه وتعهدا له بالفصل بينه وبينهم كما قال نوح وهود { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [المؤمنون:26]،وغيرهما من الرسل قال قريبا من ذلك.

وفي هذا رد لمجموع مقترحاتهم المتقدّمة على وجه الإجمال.

{ كَفَى } والمفعول محذوف، تقديره: كفاني.

الشهيد: الشاهد، وهو المخبر بالأمر الواقع كما وقع. وأريد بالشهيد هنا الشهيد للمُحقّ على المُبطل، فهو كناية عن النصير والحاكم، لأنّ الشهادة سبب الحكم. والقرينة قوله { بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ }.

والباء الداخلة على اسم الجلالة زائدة لتأكيد لصوق فعل { كَفَى } بفاعله. وأصله: كفى الله شهيدا.

{ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } تعليل للاكتفاء به تعالى.

الخبير: العليم. وأريد به العليم بالنوايا والحقائق.

البصير: العليم بالذوات والمشاهدات من أحوالها. والمقصود من اتباعه به إحاطة العلم وشموله.

{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً }[97]

{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ }

يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى } [94] جمعا بين المانع الظاهر المعتاد من الهدى وبين المانع الحقيقي وهو حرمان التوفيق من الله تعالى.

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [96] ارتقاء في التسلية، أي لا يحزنك عدم اهتدائهم فإنّ الله حرمهم الاهتداء لمّا أخذوا بالعناد قبل التدبر في حقيقة الرسالة.

والمراد بالهدى الهدى إلى الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

{ الْمُهْتَدِ } تعريف العهد الذهني، فالمعرف مساو للنكرة، فكأنه قيل: فهو مهتد. وفائدة الإخبار عنه بأنّه مهتد التوطئة إلى ذكر مقابله وهو { وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ }.

ويجوز أن تجعل التعريف تعريف الجنس فيفيد قصر الهداية على الذي هداه الله قصرا إضافيا، أي دون من تريد أنت هداه وأضله الله. ولا يحتمل أن يكون المعنى على القصر الادعائي الذي هو بمعنى الكمال، لأنّ

الهدى المراد هنا هدي واحد وهو الهدي إلى الإيمان.

وحذفت ياء { الْمُهْتَدِ } في رسم المصحف لأنهم وقفوا عليها بدون ياء على لغة من يقف على الاسم المنقوص غير المنون بحذف الياء، وهي لغة فصيحة غير جارية على القياس ولكنها أوثرت من جهة التخفيف لثقل صيغة اسم الفاعل مع ثقل حرف العلة في آخر الكلمة. ورسمت بدون ياء لأنّ شأن أواخر الكلم أن ترسم بمراعاة حال الوقف. وأمّا في حال النطق في الوصل فقرأها نافع وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل وهو الوجه، ولذلك كتبوا الياء في مصاحفهم باللون الأحمر وجعلوها أدق من بقية الحروف المرسومة في المصحف تفرقة بينها وبين ما رسمه الصحابة كتاب المصحف. والباقون حذفوا الياء في النطق في الوصل إجراء للوصل مجرى الوقف. وذلك وإن كان نادرا في غير الشعر إلّا أن الفصحاء يجرون الفواصل مجرى القوافي. واعتبروا الفاصلة كل جملة تم بها الكلام، كما دلّ عليه تمثيل سيبويه في كتابة الفاصلة بقوله تعالى {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ } [الفجر:4] وقوله { قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } [الكهف:64].

{ **فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ** } الخطاب للنبيء ﷺ لأنّ هذا الكلام مسوق لتسليته على عدم استجابتهم له. فنفي وجدان الأولياء كناية عن نفي وجود الأولياء لهم.

الأولياء: الأنصار، أي لن تجد لهم أنصارا يخلّصونهم من جزاء الضلال، وهو العذاب. ويجوز أن يكون الأولياء بمعنى متولّي شأنهم، أي لن تجد لهم من يصلح حالهم فينقلهم من الضلال.

وجمع الأولياء باعتبار مقابلة الجمع بالجمع، أي لن تجد لكل واحد وليا ولا لجماعته وليا.

{ **مِنْ دُونِهِ** } أي غيره.

{ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً** }

ذكر المقصود من نفي الولي أو المآل له بذكر صورة عقابهم.

الحشر: جمع النّاس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد. ولمّا كان ذلك يستدعي مشيهم عدي الحشر بحرف (على) لتضمينه معنى (يمشون). وقد فهم النّاس ذلك من الآية فسألوا النبيء ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم".

وهذا جزاء مناسب للجرم، لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق ووسموا الحق بسمات الضلال.

{ **عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً** } جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن، وجزاء امتناعهم من سماع الحق، كما قال تعالى عنهم { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ممّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت: من الآية 5]. وقال عنهم { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراًقَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 125- 126].

المأوى: محل الأوْي، أي النزول بالمأوى، أي المنزل والمقرّ.

{ **خَبَتْ** } خبت النار خُبُوًّا وخَبْوًا: نقص لهيبها.

السعير: لهب النّار، وهو مشتق من سعَّر النّار إذا هيّج وقودها. وقد جرى الوصف فيه على التذكير تبعا لتذكير اللهب. والمعنى: زدناهم لهبا فيها.

{ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً}[98].

استئناف بياني لأنّ العقاب الفظيع المحكي يثير في نفوس السامعين السؤال عن سبب تركّب هذه الهيئة من تلك الصورة المفظّعة، فالجواب بأنّ ذلك بسبب الكفر بالآيات وإنكار المعاد.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى ما تقدّم من قوله { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } [97].

الجزاء: العوض عن عمل.

{ **بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا** } الباء للسببية.

{ **وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً** } الظاهر أنّها عطف على جملة { بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا} ، فذكر وجه اجتماع تلك العقوبات لهم. وذكر سببان:

أحدهما: الكفر بالآيات ويندرج فيه صنوف من الجرائم تفصيلا وجمعا تناسبها العقوبة التي في قوله {نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم }.

ثانيهما: إنكارهم البعث المناسب له أن يعاقبوا عقابا يناسب ما أنكروه من تجدد الحياة بعد المصير رفاتا، فإنّ رفات الإحراق أشد اضمحلالا من رفات العظام في التراب.

{ **أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً / أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** } الاستفهام إنكاري.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً } [99].

عطف على جملة { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ } باعتبار ما تضمّنته الجملة المعطوف عليها من الردع عن قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً} [98]. فبعد زجرهم عن إنكارهم البعث بأسلوب التهديد عطف عليه إبطال اعتقادهم بطريق الاستدلال بقياس التمثيل في الإمكان. فكان تمثيل خلق أجسام من أجزاء بالية بخلق أشياء أعظم منها من عدم أوغل في الفناء، دليلا يقطع دعواهم.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري مشوب بتعجّب من انتفاء علمهم لأنّهم لمّا جرت عقائدهم على استبعاد البعث

كانوا بحال من لم تظهر له دلائل قدرة الله تعالى، فيؤول الكلام إلى إثبات أنّهم علموا ذلك في نفس الأمر.
والرؤية مستعملة في الاعتقاد لأنّها عدّيت إلى كون الله قادرا. وذلك ليس من المبصرات. والمعنى: أو لم يعلموا أنّ الله قادر على أن يخلق مثلهم.

{ **عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** } والمثل: المماثل، أي قادر على أن يخلق ناسا أمثالهم، لأنّ الكلام في إثبات إعادة أجسام المردود عليهم لا في أنّ الله قادر على أن يخلق خلقا آخر. ويكون في الآية إيماء إلى أنّ البعث إعادة أجسام أخرى عن عدم، فيُخلق لكلّ ميّت جسد جديد على مثال جسده الذي كان في الدنيا وتُوضع فيه الروح التي كانت له.

ولعلمائنا طرق في إعادة الأجسام عند البعث فقيل: تكون الإعادة عن عدم، وقيل تكون عن جميع ما تفرق من الأجسام. وقيل: ينبت من عجْب ذنب كل شخص جسد جديد مماثل لجسده كما تنبت من النواة شجرة مماثلة للشجرة التي أثمرت ثمرة تلك النواة.

{ **اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ** } وصف اسم الجلالة بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو الإنكار عليهم، لأنّ خلق السماوات والأرض أمر مشاهد معلوم، وكونه من فعل الله لا ينازعون فيه.

{ **وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ** } معطوفة على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا } لتأويلها بمعنى قد رأوا ذلك لو كان لهم عقول، أي تحقّقوا أنّ الله قادر على إعادة الخلق وقد جعل لهم أجلا لا ريب فيه.

الأجل: الزمان المجعول غاية يُبلغ إليها في حال من الأحوال. وشاع إطلاقه على امتداد الحياة، وهو المدّة المقدرة لكلّ حي بحسب ما أودع الله فيه من سلامة آلات الجسم، وما علمه الله من العوارض التي تعرض له فتخرم بعض تلك السلامة أو تقويها.

والأجل هنا محتمل لإرادة الوقت الذي جُعل لوقوع البعث في علم الله تعالى.

ووجه كون هذا الجعل لهم لأنّهم الذين أنكروا البعث، والمعنى: وجعل لهم ولغيرهم أجلا.

{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } أنّه لا ينبغي أن يكون فيه ريب، وأنّ ريب المرتابين فيه مكابرة أو إعراض عن النظر، فهو من باب قوله { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ **فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً** } [99] تفريع على الجملتين باعتبار ما تضمنتاه من الإنكار والتعجيب. أي علموا أنّ الذي خلق السماوات والأرض قادر على إعادة الأجسام ومع علمهم أبوا إلّا كفورا. فالتفريع من تمام الإنكار عليهم والتعجيب من حالهم.

{ **إِلَّا كُفُوراً** } واستثناء الكفور من الإباية تأكيد للشيء بما يشبه ضدّه.

الكفور: جحود النعمة، وتقدّم آنفا. واختير (الكفور) تنبيها على أنّهم كفروا بما يجب اعتقاده، وكفروا نعمة المنعم عليهم فعبدوا غير المنعم.

{ **قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً**}[100].

اعتراض ناشئ عن بعض مقترحاتهم التي توهّموا عدم حصولها، دليلا على انتفاء إرسال بشير، فالكلام استئناف لتكملة ردّ شبهاتهم. وهذا ردّ لما تضمّنه قولهم { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً - إلى قوله – تَفْجِيراً } [91]، وقولهم { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [93] من تعذّر حصول ذلك لعظيم قيمته.

ومعنى الردّ: أنّ هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله، لو شاء أن يظهره لكم.

وأدمج في هذا الردّ بيان ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير، وتذكيرهم بأنّ الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها. ويصلح لأن يكون هذا خطابا للنّاس كلّهم مؤمنهم وكافرهم كلّ على قدر نصيبه.

{ **قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ** } وشأن (لو) أن يليها الفعل ماضيا في الأكثر أو مضارعا في اعتبارات، فهي مختصّة بالدخول على الأفعال، فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنّما يفعلون ذلك لقصد بليغ : إمّا لقصد التقوّي والتأكيد، وإمّا للانتقال من التقوّي إلى الاختصاص، وهذا الاعتبار هو الذي يتعيّن التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عمر لأبي عبيدة: " لو غيرك قالها ".

والمعنى: لو أنتم أختصصتم بملك خزائن رحمة الله لما أنفقتم على الفقراء شيئا. وذلك أشدّ في التقريع وفي الامتنان بتخييل أنّ إنعام غيره كالعدم. واختير الفعل المضارع لأنّ المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل.

{ **لَأَمْسَكْتُمْ** } هنا منزّل منزلة اللازم فلا يقدّر له مفعول، لأنّ المقصود: إذن لاتّصفتم بالإمساك، أي البخل.

يقال: فلان ممسك، أي بخيل. ولا يراد أنّه ممسك شيئا معيّنا.

{ **إِذاً** } أكّد جواب (لو) وفيه تقوية معنى الجوابية، ولأنّ في (إذن) معنى الجزاء كما تقدّم آنفا عند قوله { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42].

{ **وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً** } حالية أو اعتراضية في آخر الكلام، وهي تفيد تذييلا لأنّها عامة الحكم.

القتور: شديد البخل، مشتقّ من القتر وهو التضييق في الإنفاق.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً [101] **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً** } [102].

بقي قولهم { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [92] غير مردود عليهم، لأنّ له مخالفة لبقيّة ما اقترحوه بأنّه اقتراح آية عذاب ورعب، فهو من قبيل آيات موسى عليه السلام التسع. فكان ذكر ما آتاه الله موسى من الآيات وعدم إجداء ذلك في فرعون وقومه تنظيرا لما سأله المشركون.

والمقصود: أنّنا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بيّنات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحرا، ففي ذلك مثل للمكابرين كلّهم، وما قريش إلّا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسلية للرسول.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** } وهي: بياض يده كلّما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حيّة، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز وهو الدمل، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات، وهي مذكورة في سورة الأعراف.

وبهذا القول حصلت الحجّة على المشركين الذين يقترحون الآيات.

ثم لم يزل الاعتناء في هذه السورة بالمقارنة بين رسالة محمد ﷺ ورسالة موسى عليه السلام إقامة للحجّة على المشركين الذين كذّبوا بالرسالة بعلّة أنّ الذي جاءهم بشر، وللحجّة على أهل الكتاب الذين ظاهروا المشركين ولقّنوهم شبه الإلحاد في الرسالة المحمدية ليصفو لهم الجو في بلاد العرب.

{ **فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ** } الخطاب للنبيء ﷺ. والمراد: سؤال الاحتجاج بهم على المشركين لا سؤال الاسترشاد كما هو بيّن. وفيه تعريض بهم بأنّهم ساووا المشركين في إنكار نبوّة محمد ﷺ ومظاهرتهم المشركين بالدسّ وتلقين الشبه، تذكيرا لهم بردّ فرعون وقومه.

{ **فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً** } ظاهره أنّ معناه متأثّرا بالسحر، أي سحرك السحرة وأفسدوا عقلك. وهذا قول قاله فرعون في مقام غير الذي قال له فيه { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ } [الشعراء:35]، والذي قال فيه { إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الشعراء:34]، فيكون إعراضا عن الاشتغال بالآيات وإقبالا على تطلّع حال موسى. ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنه { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ } [الشعراء:25]. وكل تلك الأقوال صدرت من فرعون في مقامات محاوراته مع موسى عليه السلام فحكي في كل آية شيء منها.

{ **إِنِّي لَأَظُنُّكَ** } وكان فرعون تعلّق ظنّه بحقيقة ما أظهر من الآيات فرجح عنده أنّها سحر، أو تعلّق ظنّه بحقيقة حال موسى فرجح عنده أنّه أصابه سحر، لأنّ الظن دون اليقين، وقد يستعمل الظن بمعنى اليقين.

{ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ** } أكّد كلام موسى بلام القسم وحرف التحقيق تحقيقا لحصول علم فرعون بذلك. وإنّما أيقن موسى بأنّ فرعون قد علم بذلك، إمّا بوحي من الله أعلمه به، وإمّا برأي مصيب.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى الآيات التسع، جيء لها باسم إشارة العاقل، وهو استعمال مشهور. ومنه قوله تعالى {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [36]. والأكثر أن يشار بـ (أولاء) إلى العاقل.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } عبّر عن الله بطريق إضافة وصف الربّ للسماوات والأرض تذكيرا بأنّ الذي خلق السماوات والأرض هو القادر على أن يخلق مثل هذه الخوارق.

البصائر: الحجج المفيدة للبصيرة، أي العلم، فكأنّها نفس البصيرة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ } [الأعراف:203].

{ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً** } وإنّما جعله موسى ظنّا تأدّبا مع الله تعالى، أو لأنّه علم ذلك باستقراء تام أفاده هلاك المعاندين للرسل، ولكنه لم يدر لعل فرعون يقلع عن ذلك وكان عنده احتمالا ضعيفا، فلذلك جعل توقّع هلاك فرعون ظنّا. ويجوز أن يكون الظنّ هنا مستعملا بمعنى اليقين كما تقدّم آنفا.

المثبور: الذي أصابه الثبور وهو الهلاك. وهذا نذارة وتهديد لفرعون بقرب هلاكه.

{ **فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً** [103] **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً** } [104].

أكملت قصّة المثل بما فيه تعريض بتمثيل الحالين، إنذارا للمشركين بأنّ عاقبة مكرهم وكيدهم ومحاولاتهم صائرة إلى ما صار إليه مكر فرعون وكيده.

فقد أضمر المشركون إخراج النبيء ﷺ والمسلمين من مكّة، فمثّلت إرادتهم بإرادة فرعون إخراج موسى وبني إسرائيل من مصر، قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً } [76].

الاستفزاز: الاستخفاف، وهو كناية عن الإبعاد وتقدّم عند قوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ } [76].

{ **وَمَنْ مَعَهُ** } جنده الذين خرجوا معه يتبعون بني إسرائيل.

والأرض الأولى هي المعهودة وهي أرض مصر، والأرض الثانية أرض الشام وهي المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيم إيّاها.

{ **وَعْدُ الْآخِرَةِ** } ما وعد الله به الخلائق على ألسنة الرّسل من البعث والحشر.

اللفيف: الجماعات المختلطون من أصناف شتّى.

المعنى: حكمنا بينهم في الدنيا بغرق الكفرة وتمليك المؤمنين، وسنحكم بينهم يوم القيامة.

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً }[105]

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ }

عود إلى التنويه بشأن القرآن متّصل بقوله { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إِلَّا كُفُوراً } [89].

وقد وُصِف القرآن بصفتين عظيمتين كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم وتنبيه للتدبّر فيهما.

{ **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** } ذكر فعل النزول مرتين، وذكر له في كل مرة متعلّق متماثل اللفظ لكنّه مختلف المعنى، فعلق إنزال الله إيّاه بأنّه بالحق فكان **معنى الحق الأوّل الثابت الذي لا ريب فيه** ولا كذب، فهو كقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2] وهو ردّ لتكذيب المشركين أن يكون القرآن وحيا من عند الله.

وعلق نزول القرآن، أي بلوغه للنّاس بأنّه بالحقّ فكان **معنى الحق الثاني مقابل الباطل**، أي مشتملا على الحق الذي به قوام صلاح النّاس وفوزهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81]، وقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } [النساء:105].

وضمائر الغيبة عائدة إلى القرآن المعروف من المقام.

والباء في الموضعين للمصاحبة، لأنّه مشتمل على الحقّ والهدى، والمصاحبة تشبه الظرفية. ولولا اختلاف معنى الباءين في الآية لكان قوله { وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } مجرد تأكيد.

وتقديم المجرور في الموضعين على عامله للقصر ردا على المنكرين الذين ادّعوا أنّه أساطير الأولين أو سحر مبين أو نحو ذلك.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً** } معترضة بين جملة { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ } وجملة { وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ } [106]، أي وفي ذلك الحقّ نفع وضرّ، فأنت به مبشّر للمؤمنين ونذير للكافرين.

{ **إِلَّا** } القصر للردّ على الذين سألوه أشياء من تصرّفات الله تعالى والذين ظنّوا أن لا يكون الرسول بشرا.

{ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [106]

عطف على جملة { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ }.

{ **وَقُرْآناً** } انتصب على الحال من الضمير المنصوب في { فَرَقْنَاهُ } مقدّمة على صاحبها تنويها بكونه قرآنا، أي كونه كتابا مقروءا. فإنّ اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة، إشارة إلى أنّه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى، كما أشار إليه قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } [الحجر:1]، وقد تقدّم بيانه.

فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو: كتاب، وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل.

وتجري عليه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام:

*/ مقام الأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقا. مثل قوله تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } [78] وقوله { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } [المزمل:20]

*/ مقام كونه فارقا بين الحق والباطل، مثل قوله { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [الفرقان:1].

ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد ﷺ.

{ **فَرَقْنَاهُ** } جعلناه فِرَقًا، أي أنزلناه منجّما مفرّقا. يقال: فرّق الأشياء إذا باعد بينها. ويطلق الفرق على البيان لأنّ البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون { فَرَقْنَاهُ } محتملا معنى بيّناه وفصّلناه.

{ **لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ** } علّتان: أن يُقرأ على النّاس وتلك علّة لجعله قرآنا، وأن يُقرأ على مُكث، أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه. والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين.

{ **وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً** } إشارة إلى تفريق إنزاله المذكور في قوله { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ } [105].

وطُوي بيان الحكمة للاجتزاء بما في قوله { لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ } من اتحاد الحكمة.

ويجوز أن يراد: فرقنا إنزاله رعيا للأسباب والحوادث. وفي كلا الوجهين إبطال لشبهتهم إذ قالوا { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان:32].

{ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً [107] **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** [108] **وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً }** [109].

استئناف خطاب للنبيء ﷺ ليلقّنه بما يقوله للمشركين الذين لم يؤمنوا بأنّ القرآن منزّل من عند الله، فإنّه بعد أنّ أوضح لهم الدلائل على أنّ مثل ذلك القرآن لا يكون إلّا منزلا من عند الله من قوله { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ

الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } [88] فعجزوا عن الإتيان بمثله، ثم بيان فضائل ما اشتمل عليه بقوله { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [89]، ثمّ بالتعرّض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات أخر، ثمّ بكشف شبهتهم التي يموّهون بها امتناعهم من الإيمان برسالة البشر، وبيّن لهم غلطهم أو مغالطتهم، ثمّ بالأمر بإقامة الله شهيدا بينه وبينهم، ثمّ بتهديدهم بعذاب الآخرة، ثمّ بتمثيل حالهم مع رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى وما عجّل لهم من عذاب الدنيا بالاستئصال، ثمّ بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن، أعقب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بصدق القرآن وعدم الإيمان بقوله { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا } للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند الله تعالى.

{ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا** } الأمر للتسوية، أي إن شئتم. وجزم { لا تُؤْمِنُوا } بالعطف على المجزوم. ومثله قوله { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ } [الطور:16]، فحرف (لا) حرف نفي وليس حرف نهي، ولا يقع مع الأمر المراد به التسوية إلّا كذلك، وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلّة المبالاة بهم.

ويندمج فيه مع ذلك تسلية الرسول ﷺ.

{ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً** } تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم به وعدمه أو تعليل لفعل (قل) ، أو لكليهما، شأن العلل التي ترد بعد جمل متعددة. ولذلك فصلت. وموقع (إنّ) فيها موقع فاء التفريع، أي إنّما كان إيمانكم بالقرآن وعدمه سواء، لأنّه مستغن عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل نزوله. فهم أرجح منكم أحلاما وأفضل مقاما، فإنهم يسمعونه ويؤمنون به ويزيدهم إيمانا بما في كتبهم من الوعد بالرسول الذي أنزل هذا عليه. وفي هذا تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة.

والمراد بالذين أوتوا العلم أمثال: ورقة بن نوفل، فقد تسامع أهل مكّة بشهادته للنبيء ﷺ، ومن آمن بعد نزول هذه السورة من مثل: عبد الله بن سلام، ومعيقيب، وسلمان الفارسي. ففي هذه الآية إخبار بمغيب.

{ **يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً** } **الخرور**: سقوط الجسم. وتقدّم في قوله { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } [الأعراف:143].

{ **لِلْأَذْقَانِ** } اللام بمعنى (على) كما في قوله تعالى { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [الصافات:103].

وأصل هذه اللام أنّها استعارة تبعية. استعير حرف الاختصاص لمعنى الاستعلاء للدلالة على مزيد التمكّن كتمكن الشيء بما هو مختص به.

الأذقان: جمع الذَقَن (بفتح الذال وفتح القاف) مجتمع اللحيين وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلّها من الأرض من قوة الرغبة في السجود، لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى.

{ **سُجَّداً** } جمع ساجد، وهو في موضع الحال من ضمير { يَخِرُّونَ } لبيان الغرض من هذا الخرور.

{ **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا** } عطفت على { يَخِرُّونَ } للإشارة إلى أنّهم يجمعون بين الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التنزيه والتعظيم. ونظيره قوله { خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [السجدة:15].

على أنّ في قولهم { سُبْحَانَ رَبِّنَا } دلالة على التعجب والبهجة من تحقّق وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم ﷺ.

{ **إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** } من تمام مقولهم. وهو المقصود من القول. لأنّ تسبيحهم قبله تسبيح تعجّب واعتبار بأنّه الكتاب الموعود به وبرسوله في الكتب السابقة.

{ **مَفْعُولاً** } أن الله يفعل ما جاء في وعده، أي يحقّقه. وهذا السجود سجود تعظيم لله إذ حقق وعده بعد سنين.

{ **وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً** } تكرير للجملة باختلاف الحال المقترنة بها. فالخرور المحكي بالجملة الثانية هو الخرور الأول، وأنّما خروا خرورا واحدا ساجدين باكين، فذكر مرّتين اهتماما بما صحبه من علامات الخشوع.

{ **يَبْكُونَ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة. والبكاء بكاء فرح وبهجة.

ويزيدهم القرآن خشوعا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم.

ومن السنة سجود القارئ والمستمع له بقصد، عند هذه الآية اقتداء بأولئك الساجدين بحيث لا يذكر المسلم سجود أهل الكتاب عند سماع القرآن إلّا وهو يرى نفسه أجدر بالسجود عند تلاوة القرآن.

{ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } [110].

{ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }

لا شكّ أنّ لنزول هذه الآية سببا خاصا إذ لا موجب لذكر هذا التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلم وبين دعائه بصفة الرحمان خاصة دون ذكر غير تلك الصفة من صفات الله مثل: الرحيم أو العزيز وغيرهما من الصفات الحسنى. ثم لا بد بعد ذلك من طلب المناسبة لوقوعها في هذا الموضع من السورة.

فأمّا سبب نزولها فروى الطبري والواحدي عن ابن عباس قال: " كان النبيء ﷺ ساجدا يدعو يا رحمان يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنّه يدعو واحدا وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} . وعليه فالاقتصار على التخيير في الدعاء بين اسم الله وبين صفة الرحمان اكتفاء، أي أو الرحيم.

وفي الكشاف: عن ابن عباس: سمع أبو جهل النبيء ﷺ يقول: يا الله يا رحمان. فقال أبو جهل: أنّه ينهانا أن

نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر ". وأخرجه ابن مردويه. وهذا أنسب بالآية لاقتصارها على اسم الله وصفة الرحمان.

وأما موقعها هنا فيتعين أن يكون سبب نزولها حدث حين نزول الآية التي قبلها.

والكلام ردّ وتعليم بأنّ تعدّد الأسماء لا يقتضي تعدد المسمّى، وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسمّيات، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء.

{ **ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** } ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم، أي اذكروا في دعائكم هذا أو هذا، فالمسمّى واحد. وعلى هذا التفسير قد وقع تجوُّز في فعل { ادْعُوا } مستعملا في معنى اذكروا أو سمّوا في دعائكم. ويجوز أن يكون الدعاء مستعملا في معنى سمّوا، وهو حينئذ يتعدى إلى مفعولين. والتقدير: سمّوا ربكم الله أو سمّوه الرحمان.

{ **أَيّاً** } اسم استفهام في الأصل، فإذا اقترنت بها (ما) الزائدة أفادت الشرط، كما تفيده (كيف) إذا اقترنت بها (ما) الزائدة. ولذلك جزم الفعل بعدها وهو {تَدْعُوا} شرطا، وجيء لها بجواب مقترن بالفاء:

{ **فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } علّة الجواب. والتقدير: لا حرج في دعائه بعدة أسماء إذ له الأسماء الحسنى.

{ **وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً** } لا شك أن لهذه الجملة اتصالا بجملة { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ }، فقد كان ذلك بسبب جهر النبيء ﷺ في دعائه باسم الرحمان.

الصلاة: تحتمل الدعاء، وتحتمل العبادة المعروفة. وقد فسّرها السلف هنا بالمعنيين. ومعلوم أنّ من فسّر الصلاة بالعبادة المعروفة فإنّما أراد قراءتها خاصة، لأنّها التي توصف بالجهر والمخافتة.

ولعلّ سفهاء المشركين توهّموا من صدع النبيء ﷺ بالقراءة أو بالدعاء أنّه يريد بذلك التحكّك بهم والتطاول عليهم بذكر الله تعالى مجردا عن ذكر آلهتهم فاغتاظوا وسبّوا. فأمره الله تعالى بأن لا يجهر بصلاته هذا الجهر تجنّبا لما من شأنه أن يثير حفائظهم ويزيد تصلّبهم في كفرهم في حين أنّ المقصود تليين قلوبهم. والمقصود من الكلام النهي عن شدّة الجهر.

{ **وَلا تُخَافِتْ بِهَا** } المقصود منه الاحتراس لكيلا يجعل دعاءه سرّا أو صلاته كلّها سرا فلا يبلغ أسماع المتهيئين للاهتداء به، لأنّ المقصود من النهي عن الجهر تجنب جهر يتوهّم منه الكفار تحكّكا أو تطاولا.

الجهر: قوّة صوت الناطق بالكلام.

المخافتة: من خفت بكلامه، إذا أسرّ به. وصيغة المفاعلة مستعملة في معنى الشدّة، أي لا تسرّها.

{ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً** } [111]

لمّا كان النهي عن الجهر بالدعاء أو قراءة الصلاة سدّا لذريعة زيادة تصميمهم على الكفر أعقب ذلك بأمره بإعلان التوحيد لقطع دابر توهّم من توهّموا أنّ الرحمان اسم لمسمّى غير مسمّى اسم الله، فبعضهم توهّمه إلها شريكا، وبعضهم توهّمه معينا وناصرا، أمر النبيء بأن يقول ما يقلع ذلك كلّه وأن يعظّمه بأنواع من التعظيم.

{ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** } تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنّه أعظم مستحقّ لأن يُحمد. فالتخصيص ادعائي بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم، كما تقدّم في سورة الفاتحة.

{ **مِنَ الذُّلِّ** } (من) بمعنى لام التعليل.

الذلّ: العجز والافتقار. والمراد: نفي الناصر له على وجه مؤكّد، فإنّ الحاجة إلى الناصر لا تكون إلّا من العجز عن الانتصار للنفس.

{ **كَبِّرْهُ** } اعتقد أنّه كبير، أي عظيم.

{ **تَكْبِيراً** } المفعول المطلق للتوكيد، ولما في التنوين من التعظيم. ولأنّ من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكهف

سمّاها رسول الله ﷺ سورة الكهف.

روى مسلم، وأبو داود، عن أبي الدرداء عن النبيء ﷺ قال: " من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف "، وفي رواية لمسلم: " من آخر الكهف، عصم من فتنة الدجال". ورواه الترمذي عن أبي الدرداء بلفظ: " من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال". قال الترمذي: " حديث حسن صحيح ".

وكذلك وردت تسميتها عن البراء بن عازب في صحيح البخاري، قال: " كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشَطَنين فتغشّته سحابة فجعلت تدنو، وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلمّا أصبح أتى النبيء ﷺ فذكر ذلك له، فقال: " تلك السكينة تنزّلت بالقرآن ".

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن النبيء ﷺ " أنّه سماها سورة أصحاب الكهف ".

وهي مكّيّة بالاتفاق كما حكاه ابن عطية. وقيل قوله { وَاصْبِرْ نَفسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } [28] نزلتا بالمدينة، وقيل قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً } [107] إلى آخر السورة نزل بالمدينة. وكلّ ذلك ضعيف كما سيأتي التنبيه عليه في مواضعه.

نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى.

وهي الثامنة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

وقد ورد في فضلها أحاديث متفاوتة أصحّها الأحاديث المتقدّمة.

وهي من السور التي نزلت جملة واحدة. روى الديلمي في سند الفردوس عن أنس قال: نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفا من الملائكة. وقد أغفل هذا صاحب (الإتقان) .

وعدّت آيها في عدد قراء المدينة ومكّة مائة وخمسا، وفي عدد قراء الشام مائة وستا، وفي عدد قراء البصرة مائة وإحدى عشرة، وفي عدّ قراء الكوفة مائة وعشرا، بناء على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين.

وسبب نزولها ما ذكره كثير من المفسّرين، وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عبّاس بسند فيه رجل مجهول: " أنّ المشركين لمّا أهمّهم أمر النبيء ﷺ وازدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين إلى مكّة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يثرب يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه ممّا يوجّهون به تكذيبهم إيّاه . قالوا: فإنّ اليهود أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء، أي صفاتهم وعلاماتهم علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة ووصفا لليهود دعوة النبيء ﷺ وأخبراهم ببعض

قوله. فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهنّ فهو نبئ وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي. فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشا بما قاله أحبار اليهود، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن هذه الثلاثة، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غدا وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها. ولم يقل: إن شاء الله. فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يوحى إليه، وقال ابن إسحاق: خمسة عشر يوما، فأرجف أهل مكّة وقالوا: وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا اليوم عدّة أيام لا يخبرنا بشيء ممّا سألناه عنه، حتّى أحزن ذلك رسول الله ﷺ وشقّ عليه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين. وأنزل عليه فيما سألوه من أمر الروح { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً } [الاسراء: 85].

وقد يعترضك هنا: أن الآية التي نزلت في أمر الروح هي من سورة الإسراء فلم تكن مقارنة للآية النازلة في شان الفتية وشأن الرجل الطواف فماذا فرّق بين الآيتين، وأن سورة الإسراء نزلت قبل سورة الكهف. وقد يجاب عن هذا بأنّ آية الروح قد تكون نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء، فإنّها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها، ولأن الجواب فيها جواب بتفويض العلم إلى الله، وهو مقام يقتضي الإيجاز، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطا وإطنابا ففرقت آية الروح عن القصتين.

على أنه يجوز أن يكون نزول سورة الإسراء مستمرا إلى وقت نزول سورة الكهف، فأنزل قرآن موزع عليها وعلى سورة الكهف.

فاتّضح من هذا أنّ أهم غرض نزلت فيه سورة الكهف هو بيان قصّة أصحاب الكهف، وقصّة ذي القرنين. وقد ذكرت أولاهما في أول السورة وذكرت الأخرى في آخرها.

وهي مفتتحة بالحمد حتّى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } كما كان افتتاح النصف الأول بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } .

أغراض السورة

افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولا من الله تعالى على المشركين وملقّنيهم من أهل الكتاب.

وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولدا، وبشارة للمؤمنين.

وتسلية رسول الله ﷺ عن أقوالهم حين تريّث الوحي، لما اقتضته سنّة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة.

وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنّها لا تكسب النفوس تزكيّة.

وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه.

وحذّرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده.

وقدّم لقصة ذي القرنين قصّة أهم منها وهي قصّة موسى والخضر عليهما السلام، لأنّ كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم.

وفي ذكر قصّة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل إذ تهمّموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبرا من سيرة نبيّهم.

وتخلّل ذلك مستطردات من إرشاد النبيء ﷺ وتثبيته. وأنّ الحقّ فيما أخبر به، وأنّ أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين.

ومن الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر.

والتذكير بعواقب الأمم الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرّسل.

وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله، ووعد المؤمنين بضدّهم، والتمثيل لسعة علم الله تعالى.

وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ فكان في هذا الختام محسن رد العجز على الصدر.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا [1] قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً [2] مَاكِثِينَ فيهِ أَبَداً } [3].

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً }.

موقع الافتتاح بهذا لتحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهمّ.

ولما كان إنزال القرآن على النبيء ﷺ أجزل نَعماء الله تعالى على عباده المؤمنين لأنّه سبب نجاتهم في حياتهم الأبدية، وسبب فوزهم في الحياة العاجلة بطيب الحياة وانتظام الأحوال والسيادة على النّاس، ونعمة على النبيء ﷺ بأن جعله واسطة ذلك ومبلّغه ومبيّنه، لأجل ذلك استحقّ الله تعالى أكمل الحمد إخبارا وإنشاء.

وقد تقدّم إفادة جملة { الْحَمْدُ لِلَّهِ } استحقاقه أكمل الحمد في صدر سورة الفاتحة.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ** } جملة خبرية. أخبر الله نبيه والمسلمين بأنّ مستحقّ الحمد هو الله تعالى لا غيره.

فأجرى على اسم الجلالة الوصف بالموصول تنويها بمضمون الصلة ولما يفيده الموصول من تعليل الخبر.

{ **عَلَى عَبْدِهِ** } وذكر النبيء ﷺ بوصف العبودية لله تقريب لمنزلته وتنويه به بما في إنزال الكتاب عليه من رفعة قدره كما في قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان: 1].

الكتاب: القرآن. فكلّ مقدار منزّل من القرآن فهو { الكتاب } . فالمراد بالكتاب هنا ما وقع إنزاله من يوم البعثة في غار حراء إلى يوم نزول هذه السورة، ويلحق به ما ينزل بعد هذه الآية.

{ **وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا** } معترضة بين { الكتاب } وبين الحال منه وهو { قيّما }. ويجوز كون الجملة حالا.

العِوَج (بكسر العين وفتحها وبفتح الواو): حقيقته انحراف جسم ما عن الشكل المستقيم، فهو ضد الاستقامة. ويطلق مجازا على الانحراف عن الصواب والمعاني المقبولة المستحسنة.

والذي عليه المحقّقون من أئمة اللغة أن مكسور العين ومفتوحها سواء في الإطلاقين الحقيقي والمجازي.

والمراد بالعوج هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفتها للصواب وتناقضها وبعدها عن الحكمة وإصابة المراد.

والمقصود من هذه الجملة المعترضة أو الحالية إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم افتراه، وأساطير الأوّلين، وقول كاهن، لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج. قال تعالى { أَفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } [النساء: 82].

وإنّما عدّي الجعل بـ (اللام) دون (في) لأنّ العوج المعنوي يناسبه حرف الاختصاص دون حرف الظرفيّة، لأنّ الظرفيّة من علائق الأجسام، وأمّا معنى الاختصاص فهو أعمّ.

فالمعنى: أنّه متّصف بكمال أوصاف الكتب من صحة المعاني والسلامة من الخطأ والاختلاف. وهذا وصف كمال للكتاب في ذاته، وهو مقتض أنّه أهل للانتفاع به، فهذا كوصفه بـ { أنّه لا رَيْبَ فيهِ } [البقرة: 2].

{ **قَيِّماً** } حال من {الكتاب}. والقيّم: صفة مبالغة من القيام المجازي الذي يطلق على دوام تعهّد شيء وملازمة صلاحه، لأنّ التعهّد يستلزم القيام لرؤية الشيء والتيقّظ لأحواله، كما تقدّم عند قوله تعالى { الْحَيُّ الْقَيُّومُ } [البقرة: 255]. والمراد به هنا أنّه قيّم على هدي الأمّة وإصلاحها، فالمراد أنّ كماله متعدٍ بالنفع، فوِزانه وِزان وصفه بأنّه { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 2].

{ **لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ** } متعلّق بـ { أنزل} . والضمير المرفوع عائد إلى اسم الجلالة، أي لينذر الله بأسا شديدا من لدنه، والمفعول الأوّل لـ { ينذر } محذوف لقصد التعميم، أو تنزيلا للفعل منزلة اللازم لأنّ المقصود المنذر به، وهو البأس الشديد، تهويلا له، ولتهديد المشركين المنكرين إنزال القرآن من الله.

البأس: الشدّة في الألم. ويطلق على القوّة في الحرب لأنّها تؤلم العدو. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَالصَّابِرِينَ في الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } [البقرة: 177]. والمراد هنا: شدّة الحال في الحياة الدنيا، وذلك هو الذي أطلق على اسم البأس في القرآن. وعليه درج الطبري. وهذا إيماء بالتهديد للمشركين بما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين، وذلك بأس من لدنه تعالى، لأنّه بتقديره وبأمره عباده أن يفعلوه.

{ **مِنْ لَدُنْهُ** } مستعمل هنا في معنييه الحقيقي والمجازي. ويجوز أن يراد بالبأس عذاب الآخرة فإنّه بأس شديد، ويكون قوله { مِنْ لَدُنْهُ } مستعملا في حقيقته. وبهذا الوجه فسر جمهور المفسرين.

{ **وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فيهِ أَبَداً** }

عطف على قوله { لينذر بأسا } ، فهو سبب آخر لإنزال الكتاب أثارته مناسبة ذكر الإنذار ليبقى الإنذار موجّها إلى غيرهم.

{ **أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً** } متعلّق بـ { يُبَشِّرَ }. وذكر الإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى أنّ استحقاق ذلك الأجر بحصول ذلك لأمرين.

المكث: الاستقرار في المكان، للدلالة على أنّ الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين.

{ **أَبَداً** } ليس بتأكيد بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام.

{ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً [4] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً } [5].

تعليل آخر لإنزال الكتاب على عبده، باعتبار أنّ المراد هنا إنذار مخصوص مقابل لما بشّر به المؤمنين.

وهذا إنذار بجزاء خالدين فيه وهو عذاب الآخرة، فإن جريتَ على تخصيص البأس في قوله { بَأْساً شَدِيداً } بعذاب الدنيا كما تقدّم كان هذا الإنذار مغايرا لما قبله، وإن جريتَ على شمول البأس للعذابين كانت إعادة

فعل { ينذر } تأكيدا، وهو يومئ إلى المنذرين المحذوف في قوله { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً } ويغني عن ذكره. وهذه العلة أثارتها مناسبة ذكر التبشير قبلها.

{ **الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً** } هنا المشركون الذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأنّ عيسى ابن الله تعالى، لأنّ القرآن المكّي ما تعرّض للردّ على أهل الكتاب مع تأهّلهم للدخول في العموم لاتّحاد السبب.

والتعبير عنهم بالموصول وصلته لأنّهم قد عُرفوا بهذه المقالة بين أقوامهم وبين المسلمين تشنيعا عليهم.

الولد: اسم لمن يولد من ذكر أو أنثى، يستوي فيه الواحد والجمع. وتقدّم في قوله تعالى { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ } [يونس:68].

{ **مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ** } حال من { الَّذِينَ قَالُوا } . وفائدة ذكر هذه الحال أنّها أشنع في كفرهم وهي أن يقولوا كذبا ليست لهم فيه شبهة.

{ **ولا لآبائهم** } لقطع حجّتهم لأنّهم كانوا يقولون { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [الزخرف: 23]، فإذا لم يكن لآبائهم حجّة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلّدوهم.

{ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** }

استئناف بالتشاؤم بذلك القول الشنيع. ووجه فصل الجملة أنّها مخالفة للتي قبلها بالإنشائيّة المخالفة للخبريّة.

{ **كَبُرَتْ** } أصله الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه، ويستعمل مجازا في الشدّة والقوّة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة، وهو هنا مستعمل في التعجّب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام. ودلّ على قصد التعجّب منها انتصاب { **كَلِمَةً** } على التمييز إذ لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنّه تمييز نسبة التعجّب.

{ **كَلِمَةً** } أطلقت على الكلام وهو إطلاق شائع، ومنه قوله تعالى { إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100]، وقول النبيء ﷺ: " أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل ".

{ **تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ** } صفة لـ { كلمة } مقصود بها من جرأتهم على النطق بها ووقاحتهم في قولها.

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخيلا لفظاعتها.

الأفواه: جمع فم بوزن أفعال، لأنّ أصل فم (فَوَه) – بفتحتين - ، أو (فيه) بوزن ريح. ولما جمعوه ردوه إلى أصله.

{ **إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** } مؤكدة لمضمون جملة { تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } لأنّ الشيء الذي تنطق به الألسن ولا تحقّق له في الخارج ونفس الأمر هو الكذب.

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً }[6]

تفريع على جملة { وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } [4] باعتبارهم مكذّبين كافرين.

{ فَلَعَلَّكَ } حقيقتها إنشاء الرجاء والتوقّع، وتستعمل في الإنكار والتحذير على طريقة المجاز المرسل لأنّهما لازمان الأمر المكروه. وهي هنا مستعملة في تحذير الرسول ﷺ من الاغتمام والحزن على عدم إيمان من لم يؤمنوا من قومه. وذلك في معنى التسلية.

الباخع: قاتل نفسه، كذا فسّره ابن عباس ومجاهد والسدّي وابن جبير. وفسّره البخاري بمهلك. وتفسيره يرجع إلى أبي عبيدة.

وفي اشتقاقه خلاف، فقيل مشتق البِخاع (بوزن كتاب) وهو عرق مستبطن في القفا فإذا بلغ الذابح البِخاع فذلك أعمق الذبح، قاله الزمخشري في قوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ } [الشعراء:3]. وانفرد الزمخشري بذكر هذا الاشتقاق في (الكشاف) و (الفائق) و (الأساس) . وكفى بالزمخشري حجّة فيما أثبته. وقد تبعه عليه المطرزي في (المغرب) وصاحب (القاموس) .

البخع: أصله أن يبلغ الذابح بالذبح إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ.

{ آثَارِهِمْ } جمع أثر وهو ما يؤثره، أي يبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض من مواطئ أقدامه وأخفاف راحلته. والأثر أيضا ما يبقيه أهل الدار إذا ترحّلوا عنها من تافه آلاتهم التي كانوا يعالجون بها شؤونهم كالأوتاد والرماد.

والمعنى: لعلّك مهلك نفسك لأجل إعراضهم عنك كما يعرض السائر عن المكان الذي كان فيه. فتكون {على} للتعليل.

ويجوز أن يكون المعنى تمثيل حال الرسول ﷺ في شدّة حرصه على اتّباع قومه له وفي غمّه من إعراضهم. وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبّته فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم.

ويكون حرف (على) مستقرّا في موضع الحال من ضمير الخطاب، ومعنى (على) الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان.

وكأن هذا الكلام سيق إلى الرسول ﷺ، في آخر أوقات رجائه في إيمانهم، إلى أنّهم غير صائرين إلى الإيمان، وتهيئة لنفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم، رأفة من ربّه.

{ بِهَذَا الْحَدِيثِ } اسم الإشارة وبيانه مراد به القرآن، لأنّه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية فأشير إليه بذلك الاعتبار. وبيّن بأنه الحديث.

الحديث: الخبر. وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنّه إخبار من الله لرسوله، إذ الحديث هو الكلام

الطويل المتضمن أخبارا وقصصا. أي الأخبار المستجدّة التي لا يعلمها المخاطب. وانظر ما يأتي عند قوله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ } [الزمر:23].
{ **أَسَفًا** } مفعول له من { بَاخِعٌ نَفسَكَ } أي قاتلها لأجل شدة الحزن، والشرط معترض بين المفعولين.

{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [7] وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً } [8].

مناسبة موقع هذه الآية هنا خفيّة جدًّا أعوز المفسّرين بيانها، منهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت.
والذي يبدو أنّها تسلية للنبيء ﷺ على إعراض المشركين بأنّ الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلّهم يشكرونه، وأنّهم بطروا النعمة، فإنّ الله يسلب عنه النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأن سيحلّ بهم قحط السنين السبع التي سأل الله رسول الله ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام.
ولهذا اتصال بقوله { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ } [2].
ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجادا للأشياء وأضدادها من حياة الأرض وموتها المماثل لحياة النّاس وموتهم، والمماثل للحياة المعنويّة والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلّها عِبَر لمن يعتبر بالتغيّر ويأخذ إلى الانتقال من حال إلى حال فلا يثق بقوته وبطشه.
وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها النّاس لأنّها أقرب إلى حسّهم وتعلّقهم، كما قال تعالى { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ } [الذريات:20].
وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معان كثيرة يصلح اللفظ لها من مختلف الأعراض المقصودة، فإنّ الإخبار عن خلق ما على الأرض زينة يجمع الامتنان على النّاس والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبّه النفوس من الزينة والزخرف. والامتنان بمثل هذا كثير، مثل قوله { وَلَكُمْ فيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل: 6]، وقال { زُيِّنَ للنّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [آل عمران:14] ولا تكون الأشياء زينة إلّا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها.
ومن لوازم هذه الزينة أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها وتسبر غور النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موف بحق الشكر، ومقصّر فيه وجاحد كافر بنعمة هذا المنعم ناسب إيّاها إلى غير موجدها.

البلو: الاختبار والتجربة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفسٍ مَا أَسْلَفتْ } [يونس:30]. وهو هنا مستعار لتعلّق علم الله التنجيزي بالمعلوم عند حصوله، بقرينة الأدلة العقلية والسمعية الدالة على إحاطة علم الله بكلّ شيء قبل وقوعه، فهو مستغن عن الاختبار والتجربة. وفائدة هذه الاستعارة الانتقال منها إلى الكناية عن ظهور ذلك لكلّ النّاس حتّى لا يلتبس عليهم الصالح بضدّه.

{ **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً** } تكميل للعبرة وتحقيق لفناء العالم. أي سنجعل ما على الأرض كلّه معدوما، فلا يكون على الأرض إلّا تراب جاف أجرد لا يصلح للحياة فوقه وذلك هو فناء العالم، قال تعالى {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ } [ابراهيم: 48].

الصعيد: التراب. و**الجرز**: القاحل الأجرد. وسيأتي بيان معنى الصعيد عند قوله { فتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً }[40].

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً }[9]

{ أَمْ } للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض. ولمّا كان هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها لم يكن هذا الانتقال اقتضابا بل هو كالانتقال من الديباجة والمقدّمة إلى المقصود.

على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى { فلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [6]، إذ كان ممّا صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان البعث.

والتقدير هنا: أحسبت أنّ أصحاب الكهف كانوا عجبا من بين آياتنا، فإنّ إماتة الأحياء بعد حياتهم من عجب إنامة أهل الكهف، لأنّ في إنامتهم إبقاء للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاء لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم. وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبيء ﷺ بيان قصّة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، بأنّهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب، وهو انقراض العالم، فإنّهم كانوا يُعْرِضون عن ذكر فناء العالم ويقولون { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية: 24]. أي إنّ الحياة إلّا حياتنا الدنيا لا حياة الآخرة وأنّ الدهر يهلكنا وهو باق.

وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أنّ الأولى لهم الاتّعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها. ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله { إِذْ أَوَى الْفتْيَةُ إِلَى الْكَهْف فقَالُوا رَبَّنَا } [10]، فأعلَم النّاس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه، وبقوله { إِنَّهُمْ فتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً} [13]. الدال على أنّهم أبطلوا الشرك وسفّهوا أهله، تعريضا بأنّ حقّ السامعين أن يقتدوا بهداهم.

والخطاب للنبيء ﷺ والمراد: قومه الذين سألوا عن القصة، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها

وتطلّب بيانها. ويظهر أن الذين لقنوا قريشا السؤال عن أهل الكهف هم بعض النصارى الذين لهم صلة بأهل مكّة، من التّجار الواردين إلى مكّة، أو من الرهبان الذين في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكّة إلى الشام وهي رحلة الصيف.

{ **مِنْ آيَاتِنَا** } أي من بين آياتنا الكثيرة المشاهدة لهم وهم لا يتعجّبون منها ويقصرون تعجّبهم على أمثال هذه الخوارق، فيؤول المعنى إلى أنّ أهل الكهف ليسوا هم العجب من بين الآيات الأخرى، بل عجائب صنع الله تعالى كثيرة، منها ما هو أعجب من حال أهل الكهف ومنها ما يساويها.

الكهف: الشقّ المتسع الوسط في جبل، فإن لم يكن متّسعا فهو غار.

الرقيم: فعيل بمعنى مفعول من الرقم وهو الكتابة. فالرقيم كتاب كان مع أصحاب الكهف في كهفهم. قيل: كتبوا فيه ما كانوا يدينون به من التوحيد، وقيل: هو كتاب دينهم، دين كان قبل عيسى عليه السلام، وقيل: هو دين عيسى، وقيل: كتبوا فيه الباعث الذي بعثهم على الالتجاء إلى الكهف فرارا من كفر قومهم.

وقد أشارت الآية إلى قصّة نفر من صالحي الأمم السالفة ثبتوا على دين الحقّ في وقت شيوع الكفر والباطل فانزووا إلى الخلوة تجنبا لمخالطة أهل الكفر فأووا إلى كهف استقروا فيه فرارا من الفتنة في دينهم، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقى عليهم نوما بقوا فيه مدّة طويلة ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافونهم على دينهم. وبعد أن أيقنوا بذلك أعاد نومتهم الخارقة للعادة فأبقاهم أحياء إلى أمد يعلمه الله أو أماتهم وحفظ أجسادهم من البلى كرامة لهم.

وقد عرف النّاس خبرهم ولم يقفوا على أعيانهم ولا وقفوا رقيمهم، ولذلك اختلفوا في شأنهم، فمنهم من يثبت وقوع قصّتهم ومنهم من ينفيها.

ولمّا كانت معاني الآيات لا تتضح إلّا بمعرفة ما أشارت إليه من قصّة أهل الكهف تعيّن أن نذكر ما صح عند أعلام المؤرّخين على ما فيه من اختلاف. وقد ذكر ابن عطية ملخّصا في ذلك دون تعريج على ما هو من زيادات المبالغين والقصاص.

والذي ذكره الأكثر أن في بلد يقال له (**أبْسُس**) - بفتح الهمزة وسكون الموحدة وضم السين بعدها سين أخرى مهملة - وكان بلدا من ثغور طرطوس بين حلب وبلاد أرمينية وأنطاكية.

وليست هي (أفسس) المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها فإنها من بلاد اليونان وإلى أهلها كتب بولس رسالته المشهور. وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرخين والمفسرين.

وهي قريبة من مرعش من بلاد أرمينية، وكانت الديانة النصرانية دخلت في تلك الجهات، وكان الغالب عليها دين عبادة الأصنام على الطريقة الرومية الشرقية قبل تنصّر قسطنطين، فكان من أهل أبْسُس نفر من صالحي النصارى يقاومون عبادة الأصنام. وكانوا في زمن الامبراطور (**دوقيوس** ويقال **دقيانوس**) الذي

ملك في حدود سنة (237م)، وكان ملكه سنة واحدة، وكان متعصّبا للديانة الرومانية وشديد البغض للنصرانية، فأظهر كراهية الديانة الرومانية. وتوعّدهم (**دوقيوس**) بالتعذيب، فاتفقوا على أن يخرجوا من المدينة إلى جبل بينه وبين المدينة فرسخان يقال له (**بنجلوس**) فيه كهف أووا إليه وانفردوا فيه بعبادة الله.
ولما بلغ خبر فرارهم مسامع الملك وأنّهم أووا إلى الكهف أرسل وراءهم فألقى الله عليهم نومة فظنهم أتباع الملك أمواتا. وقد بقوا في رقدتهم مدة طويلة، وذكر القرآن أنّها ثلاثمائة سنة.
وكان انبعاثهم في مدة ملك (**ثاوذوسيوس**) قيصر الصغير، ثم إنّ الله جعلهم آية لأنفسهم وللنّاس فيبعثهم من مرقدهم، ولم يعلموا مدّة مكثهم وأرسلوا أحدهم إلى المدينة، وهي (**أبسس**)، بدراهم ليشتري لهم طعاما. تعجب النّاس من هيئته ومن دراهمه وعجب هو ممّا رأى من تغيير الأحوال. وتسامع أهل المدينة بأمرهم، فخرج قيصر الصغير مع أساقفة وقسيسين وبطارقة إلى الكهف فنظروا إليهم وكلموهم وآمنوا بآيتهم، ولما انصرفوا عنهم ماتوا في مواضعهم. وكانت آية تأيّد بها دين المسيح.
والذي في كتاب الطبري أن الذين ذهبوا إلى مشاهدة أصحاب الكهف هم رئيسا المدينة (أريوس) و (أطيوس) ومن معهما من أهل المدينة، وقيل لما شاهدهم النّاس كتب واليا المدينة إلى ملك الروم. فحضر وشاهدهم وأمر بأن يبنى عليهم مسجد. ولم يذكروا هل نفّذ بناء المسجد أو لم ينفّذ. ولم يذكر أنّه وقع العثور على هذا الكهف بعد ذلك. ولعلّه قد انسد بحادث زلزال أو نحوه كرامة من الله لأصحابه.
وللكهوف ذكر شائع في اللوذ إليها والدفن بها. وقد كان المتنصّرون يُضطهدون في البلاد فكانوا يفرّون من المدن والقرى إلى الكهوف يتّخذونها مساكن فإذا مات أحدهم دفن هنالك. وربما كانوا إذا قتلوهم وضعوهم في الكهوف التي كانوا يتعبّدون فيها. ولذلك يوجد في رومية كهف عظيم من هذه الكهوف اتخذه النصارى لأنفسهم هنالك، وكانوا كثيرا ما يستصحبون معهم كلبا ليدفع عنهم الوحوش من ذئاب ونحوها. وما الكهف الذي ذكره ابن عطية إلّا واحدٌ من هذه الكهوف.

{ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً }[10]

يجوز كون الظرف (إذ) متعلّقا بفعل محذوف تقديره: اذكر، فتكون مستأنفة استئنافا بيانيّا للجملة التي قبلها. وأيا ما كان فالمقصود إجمال قصّتهم ابتداء، تنبيها على أنّ قصتهم ليست أعجب آيات الله. مع التنبيه على أنّ ما أكرمهم الله به من العناية إنّما كان تأييدا لهم لأجل إيمانهم.
أوى أُوِيًّا إلى المكان: جعله مسكنا له، فالمكان: المأوى. وقد تقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [يونس: 8].
الفتية: جمع قلّة لفتى، وهو الشاب المكتمل. وتقدّم في سورة يوسف. والمراد بهم: أصحاب الكهف. وهذا من

الإظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: إذ أووا، فعدل عن ذلك لما يدلّ عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السنّ. وذكرهم بهذا الوصف للإيماء إلى ما فيه من اكتمال خُلُق الرجوليّة المعبّر عنه بالفتوّة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحقّ.

{ **فقالوا** } دلّت الفاء على أنّهم بادروا بالابتهال إلى الله.

{ **رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً** } دعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة، فزيادة {مِنْ لَدُنْكَ } للتعلّق بفعل الإيتاء تشير إلى ذلك، لأنّ في (من) معنى الابتداء وفي (لدن) معنى العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ ممّا لو قالوا: آتنا رحمة، لأنّ الخلْق كلّهم بمحل الرحمة من الله، ولكنّهم سألوا رحمة خاصة وافرة، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة.

{ **وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً** } ثم سألوا الله أن يقدّر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خوّلهم من الثبات على الدين الحقّ والنجاة من مناواة المشركين. فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد الأسباب.

{ **أَمْرِنَا** } الشأن والحال الذي يكونون فيه، وهو مجموع الإيمان والاعتصام إلى محلّ العزلة عن أهل الشرك. وقد أعدّ الله لهم من الأحوال ما به رشدهم. فمن ذلك صرف أعدائهم عن تتبعهم. وأن ألهمهم موضع الكهف، وأن كان وضعه على جهة صالحة ببقاء أجسامهم سليمة، وأن أنامهم نوما طويلا ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة، وحصل رشدهم إذ ثبتوا على الدين الحقّ وشاهدوه منصورا متّبعا. وجعلهم آية للنّاس على صدق الدين وعلى قدرة الله وعلى البعث.

الرَشَد (بفتحتين): الخير وإصابة الحقّ والنفع والصلاح، وقد تكرّر في سورة الجنّ باختلاف هذه المعاني. والرُشْد (بضم الراء وسكون الشين) مرادف الرَشَد. وغلب في حسن تدبير المال.

ولم يقرأ هذا اللفظ هنا في القراءات المشهورة إلّا بفتح الراء بخلاف قوله تعالى { قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة: 256]. وقوله { فإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً} [النساء: 6] فلم يقرأ فيهما إلّا بضم الراء. ووجه إيثار مفتوح الراء والشين في هذه السورة في هذا الموضع وفي قوله الآتي { وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً } [24]، أنّ تحريك الحرفين فيهما أنسب بالكلمات الواقعة في قرائن الفواصل.

{ **فضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً** [11] **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً** } [12].

تفريع هذه الجملة بـ (الفاء) إمّا على جملة دعائهم، فيؤذن بأنّ مضمونها استجابة دعوتهم، فجعل الله إنامتهم كرامة لهم. بأن سلّمهم من التعذيب بأيدي أعدائهم. وأيّد بذلك أنّهم على الحقّ. وأرى النّاس ذلك بعد زمن

طويل. وإمّا تفريع على جملة { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ } [10]، فيؤذن بأنّ الله عجّل لهم حصول ما قصدوه.

{ **فضَرَبْنَا** } الضرب هنا بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب عليه حجابا، ومنه قوله تعالى { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ } [البقرة: 61]، وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة: 26]. وحذف المفعول لظهوره. أي ضربنا على آذانهم غشاوة أو حائلا عن السمع.

والضرب على الآذان كناية عن الإنامة، لأنّ النوم الثقيل يستلزم عدم السمع، بخلاف البصر الصحيح فقد يحجب بتغميض الأجفان. وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز.

{ **سِنِينَ عَدَداً** } والعدد مستعمل في الكثرة، أي سنين ذات عدد كثير. ونظيره ما في حديث بدء الوحي من قول عائشة: " فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد ". وقد أجمل العدد هنا.

البعث: هنا الإيقاظ، أي أيقظناهم من نومتهم. وحسن هذه الاستعارة هنا أن المقصود من هذه القصّة إثبات البعث بعد الموت فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أنّ في هذه الإفاقة دليلا على إمكان البعث وكيفيته.

الحزب: الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد. فالحزبان فريقان: أحدهما مصيب والآخر مخطئ في عدّ الأمد الذي مضى عليهم. فقيل: هما فريقان من أهل الكهف أنفسهم. وفي هذا بعد من لفظ حزب.

فالوجه: أنّ المراد بالحزبين حزبان من النّاس، أهل بلدهم، اختلفت أقوالهم في مدّة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومتهم. أحد الفريقين مصيب والآخر مخطيء، والله يعلم المصيب منهم والمخطئ.

{ **أَحْصَى** } يحتمل أن يكون فعلا ماضيا، وأن يكون اسم تفضيل مصوغا من الرباعي على خلاف القياس. والوجه عندي اسم تفضيل، والتفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة.

والمعنى: لنعلم أي الحزبين أتقن إحصاء. أي عدًّا بأن يكون هو الموافق للواقع ويكون ما عداه تقريبا ورجما بالغيب، وذلك هو ما فصّله قوله تعالى { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ } [22].

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً [13] وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً}[14].

لمّا اقتضى قوله { لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى} أنّ في نبأ أهل الكهف تخرّصات ورجما بالغيب أثار ذلك في النفس تطلعا إلى معرفة الصدق في أمرهم، من أصل وجود القصّة إلى تفاصيلها، من مخبر لا يشكّ في صدق خبره كانت جملة {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ } استئنافا بيانيا.

وهذا شروع في مجمل القصّة والاهتمام بمواضع العبرة منها. وقدّم منها ما فيه وصف ثباتهم على الإيمان

ومنابذتهم قومهم الكفرة ودخولهم الكهف.
{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي يفيد الاختصاص، أي نحن لا غيرنا يقصّ قصصهم بالحقّ.
الحقّ: هنا الصدق. والصدق من أنواع الحقّ، ومنه قوله تعالى { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ } [الأعراف:105]. والباء للملابسة، أي القصص المصاحب للصدق لا للتخرّصات.
القصص: سرد خبر طويل، فالإخبار بمخاطبة مفرّقة ليس بقصص. وتقدّم في طالع سورة يوسف.
النبأ: الخبر الذي فيه أهميّة وله شأن.
{ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } مبيّنة للقصص والنبأ. وافتتاح الجملة بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام لا لرد الإنكار.
زيادة الهدى: يجوز أن يكون تقوية هدى الإيمان المعلوم من قوله { آمَنُوا بِرَبِّهِمْ } بفتح بصائرهم للتفكير في وسائل النجاة بإيمانهم وألهمهم التوفيق والثبات، فكلّ ذلك هدى زائد على هدى الإيمان.
{ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردّد فيه. فلمّا شاع إطلاق القلب على الاعتقاد استعير الربط عليه للتثبيت. كما قال تعالى { لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [القصص: 10]. ومنه قولهم: هو رابط الجأش. وفي ضدّه يقال: اضطرب قلبه.
{ عَلَى } للمبالغة في الشدّ، لأنّ حرف الاستعلاء مستعار لمعنى التمكّن من الفعل.
{ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً } ظرف للربط، أي كان الربط في وقت قيامهم. أي كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارنا لربط الله على قلوبهم.
والقيام يحتمل أن يكون حقيقيا، بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك، أو وقفوا في مجامع قومهم خطباء معلنين فساد عقيدة الشرك. ويحتمل أن يكون القيام مستعارا للإقدام والجسر على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما.
{ فَقَالُوا رَبُّنَا } وعرّفوا الله بطريق الإضافة إلى ضميرهم: إمّا لأنّهم عُرفوا من قبل بأنّهم عبدوا الله المنزّه عن الجسم وخصائص المحدثات، وإمّا لأنّ الله لم يكن معروفا باسم علم عند أولئك المشركين الذين يزعمون أنّ ربّ الأرباب هو جوبتير الممثَّل في كوكب المشتري، فلم يكن طريق لتعريفهم الإله الحقّ إلا طريق الإضافة. وقريب منه ما حكاه الله عن قول موسى لفرعون بقوله تعالى { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } [الشعراء: 24- 25].
هذا إن كان القول مسوقا إلى قومهم المشركين قصدوا به إعلان إيمانهم بين قومهم وإظهار عدم الاكتراث بتهديد الملك وقومه، فيكون موقفهم هذا كموقف بني إسرائيل حين قالوا لفرعون { قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا

مُنْقَلِبُونَ} [الشعراء: 50]، أو قصدوا به موعظة قومهم بدون مواجهة خطابهم، استنزالا لطائرهم على طريقة التعريض، واستقصاء لتبليغ الحقّ إليهم. وهذا هو الأظهر لحمل القيام على حقيقته.

{ **لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً** } استئناف بياني لما أفاده توكيد النفي بـ (لن). واللام للقسم.

الشطط: الإفراط في مخالفة الحقّ والصواب. وهو مشتقّ من الشطّ، وهو البعد عن الموطن لما في البعد عنه من كراهية النفوس، فاستعير للإفراط في شيء مكروه، أي لقد قلنا قولا شططا، وهو نسبة الإلهية إلى من دون الله.

{ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً }[15]

من بقية كلام الفتية. والإشارة إلى قومهم بـ { **هَؤُلاءِ** } لقصد تمييزهم بما سيخبر به عنهم. وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجّب من حالهم وتفضيح صنعهم. وهو من لوازم قصد التمييز.

{ **اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** } خبر عن اسم الإشارة، مستعمل في الإنكار عليهم دون الإخبار، إذ اتخاذهم آلهة من دون الله معلوم بين المتخاطبين. وكان قومهم يومئذ يعبدون الأصنام على عقيدة الروم ولا يؤمنون بالله.

{ **لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ** } مؤكّدة للجملة التي قبلها باعتبار أنّها مستعملة في الإنكار، لأنّ مضمون هذه الجملة يقوّي الإنكار عليهم.

{ **لولا** } حرف تحضيض. حقيقته: الحث على تحصيل مدخولها. ولمّا كان الإتيان بسلطان على ثبوت الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذرا انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط.

السلطان: الحجّة والبرهان.

البيّن: الواضح الدلالة.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** }. إنكار، أي لا أظلم ممن افترى. والمعنى: أنّه أظلم من غيره. كما تقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ} [البقرة: 114]

افتراء الكذب: تقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفرُوا يَفتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة: 103].

{ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفقاً } [16]

يتعيّن أن يكون هذا من كلام بعضهم لبعض على سبيل النصح والمشورة الصائبة. فيجوز أن يكونوا قال بعضهم لبعض ذلك بعد الاعتزال. ويجوز أن يكون ذلك في نفس المقام الذي خاطبوا فيه قومهم بأن غيّروا الخطاب من مواجهة قومهم إلى مواجهة بعضهم بعضا، وهو ضرب من الالتفات.

وعلى الاحتمالين فالقرآن اقتصر في حكاية أقوالهم على المقصد الأهمّ منها في الدلالة على ثباتهم دون ما سوى ذلك ممّا لا أثر له في الغرض وإنّما هو مجرّد قصص.

الاعتزال: التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء، فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم. ومعنى اعتزال ما يعبدون: التباعد عن عبادة الأصنام.

{ **إلّا الله** } الاستثناء منقطع، لأنّ الله تعالى لم يكن يعبده القوم.

{ **فأْوُوا إِلَى الْكَهْف** } الفاء للتفريع على جملة { وَإِذِاعْتَزَلْتُمُوهُمْ } فيقدّر بعدها جملة نحو: وإذ اعتزلتم دينهم يعذبونكم فأووا إلى الكهف.

الأَوْيُ: تقدّم آنفا، أي فاسكنوا الكهف.

{ **الكهف** } يجوز أن يكون تعريف العهد، بأن كان الكهف معهودا عندهم يتعبّدون فيه من قبل. ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة مثل { وَأَخَاف أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } [يوسف: 13]، أي فأووا إلى كهف من الكهوف.

{ **يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ** } توفّر تعلّقها بالمرحومين. شُبِّه تعليق الصفة المتكرّر بنشر الثوب في أنّه لا يُبقي من الثوب شيئا مخفيًّا، كما شُبِّه بالبسط، وشُبِّه ضدّه بالطيّ وبالقبض.

{ **وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ** } مستعارة للإكرام به والعناية، تشبيها بتهيئة القرى للضيف المعتنى به. وهو مبني على الثقة بالرجاء والدعاء. وساقوه مساق الحاصل لشدّة ثقتهم بلطف ربّهم بالمؤمنين.

المَرْفِق (بفتح الميم وكسر الفاء): ما يرتفق به وينتفع. وبذلك قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر، و{ **مِرْفقاً** } (بكسر الميم وفتح الفاء) قرأ الباقون.

{ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً } [17]

{ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ }. عطف بعض أحوالهم على بعض، انتقل إلى ذكره بمناسبة الإشارة إلى تحقيق رجائهم في ربّهم حين قال بعضهم لبعض { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفقاً } . وهذا حال عظيم، وهو ما هيّأ الله لهم في أمرهم من مرفق، وأنّ ذلك جزاؤهم على اهتدائهم وهو من لطف الله بهم.

والخطاب لغير معيّن.

{ تَزَاوَرُ } مضارع مشتق من الزَّور بفتح الزاي، وهو الميل. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الزاي بعدها ألف وفتح الواو. وأصله: تتزاور. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الزاي على حذف إحدى التاءين وهي تاء المضارعة للتخفيف اجتزاء برفع الفعل الدال على المضارعة. وقرأه ابن عامر ويعقوب {تَزْوَرُّ} بفتح التاء بعدها زاي ساكنة وبفتح الواو وتشديد الراء بوزن تَحْمَرُّ. وكلها أبنية مشتقة من (الزَّوَرُ) بالتحريك، وهو الميل عن المكان، قال عنتره:

فازورَّ من وقع القنا بلبانه

(أي مال بعض بدنه إلى بعض وانقبض).

{ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ } أي تنصرف عنهم. وأصل القرض القطع، أي أنّها لا تطلع في كهفهم. فيدلّ على أنّ فم الكهف كان مفتوحا إلى الشمال الشرقي، فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتها، وإذا غربت كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حين طلوعها. وهذا وضع عجيب يسّره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم، وذلك من آيات قدرة الله.

الفجوة: المتّسع من داخل الكهف، بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف. وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو.

{ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله } الإشارة إلى المذكور من قوله { وَتَرَى الشَّمْسَ } ، والإشارة للتعظيم.

آيات الله: دلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيّدي دين الحقّ.

والجملة معترضة في خلال القصّة للتنويه بأصحابها.

{ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً } استئناف بياني لما اقتضاه اسم الإشارة من تعظيم أمر الآية وأصحابها.

والمعنى: أنّهم كانوا مهتدين لأنّ الله هداهم فيمن هدى، تنبيها على أن تيسير ذلك لهم من الله هو أثر تيسيرهم لليسرى والهدى، فأبلغهم الحقّ على لسان رسولهم. ورزقهم أفهاما تؤمن بالحقّ. وقد تقدّم الكلام على نظير {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ} ، وعلى كتابة { المهتد } بدون ياء في سورة الإسراء.

المرشد: الذي يبيّن للحيران وجه الرشد، وهو إصابة المطلوب من الخير.

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } [18]

عطف على بقيّة القصّة، وما بينهما اعتراض. والخطاب فيه كالخطاب في قوله { وَتَرَى الشَّمْسَ } [17]. وهذا انتقال إلى ما في حالهم من العبرة، مدمج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شأنهم، وهو تعجيب من حالهم لمن رآه من النّاس.

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ } أنّهم في حالة تشبه حال اليقظة وتخالف حال النوم. قيل: كانت أعينهم مفتوحة.

{ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } التقليب: تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه.

والمعنى: أنّ الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمانهم إلى شمائلهم والعكس. وذلك لحكمة لعلّ لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة.

والإتيان بالمضارع للدلالة على التجدّد بحسب الزمن المحكي.

{ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطا ذراعيه.

الوصيد: مدخل الكهف، شُبِّه بالباب الذي هو الوصيد لأنّه يوصد ويغلق.

{ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } الخطاب لغير معيّن، أي لو اطلعت عليهم أيّها السامع حين كانوا في تلك الحالة قبل أن يبعثهم الله، لفررت منهم وملكك الرعب.

الاطلاع: الإشراف على الشيء ورؤيته من مكان مرتفع، لأنّه افتعال من طلع إذا ارتقى جبلا، فصيغ الافتعال للمبالغة في الارتقاء، وضمّن معنى الإشراف فعدّي بـ (على)، ثم استعمل مجازا مشهورا في رؤية الشيء الذي لا يراه أحد.

الرعب: تقدّم في قوله تعالى { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } [آل عمران:151].

{ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً [19] إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً } [20].

عطف لجزء من القصّة الذي فيه عبرة لأهل الكهف بأنفسهم ليعلموا ما أكرمهم الله به من حفظهم عن أن تنالهم أيدي أعدائهم بإهانة، ومن إعلامهم علم اليقين ببعض كيفية البعث، فإنّ علمه عظيم.

{ **وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ** } الإشارة إلى المذكور من إنامتهم وكيفيّتها، أي كما أنمناهم قرونا بعثناهم. ووجه الشبه: أنّ في الإفاقة آية على عظيم قدرة الله تعالى مثل آية الإنامة.

وتقدّم الكلام على معنى البعث في الآية المتقدّمة، وفي حسن موقع لفظ البعث في هذه القصّة.

{ **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ** } بيان لجملة { ليتساءلوا } . وسمّيت هذه المحاورة تساؤلا لأنّها تحاور للوصول إلى تحقيق المدّة.

{ **قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** } واسند الجواب إلى ضمير جماعتهم: إمّا لأنّهم تواطأوا عليه، وإمّا على إرادة التوزيع، أي منهم من قال: لبثنا يوما، ومنهم من قال: لبثنا بعض يوم. وعلى هذا يجوز أن تكون (أو) للتقسيم في القول.

{ **قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ** } أي لمّا اختلفوا رجعوا فعدلوا عن القول بالظنّ إلى تفويض العلم إلى الله تعالى، وذلك من كمال إيمانهم. فالقائلون يجوز أن يكون جميعهم وهو الظاهر، ويجوز أن يكون قول بعضهم فأسند إليهم لأنّهم رأوه صوابا.

{ **فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ** } تفريع على قولهم { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } لأنّه في معنى فدعوا الخوض في مدّة اللبث فلا يعلمها إلّا الله وخذوا في شيء آخر ممّا يهمّكم.

الوَرِق (بفتح الواو وكسر الراء): الفضّة. وكذلك قرأه الجمهور. والمراد بالورق هنا القطعة المسكوكة من الفضة، وهي الدراهم. قيل: كانت من دراهم دقيوس سلطان الروم. والإشارة بهذه إلى دراهم معيّنة عندهم.

{ **إِلَى الْمَدِينَةِ** } هي (**أبسُس**)، وقد قدّمنا ذكرها في صدر القصّة.

{ **فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ** } أي فلينظر أي مكان منها هو أزكى طعاما، أي أزكى طعامه من طعام غيره.

الأزكى: الأطيب والأحسن، لأنّ الزَّكْوَ الزيادة في الخير والنفع.

الرزق: القوت. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } [يوسف:37].

{ **وَلْيَتَلَطَّف وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** } أمر لأحد غير معين سيوكّلونه.
قيل التاء من كلمة { وَلْيَتَلَطَّف } هي نصف حروف القرآن عدًّا. وهنالك قول اقتصر عليه ابن عطية هو أنّ النون من قوله تعالى { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً } [الكهف: 74] هي نصف حروف القرآن.
الإشعار: الإعلام، وهو إفعال من شَعَر من باب نصر، أي علم. فالهمزة للتعدية مثل همزة { أعلم }.
والتقدير: ولا يخبرنّ بوجودكم أحدا.
{ **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ** } علّة للأمر بالتلطّف والنهي عن إشعار أحد بهم.
{ **يَظْهَرُوا** } الظهور أصله البروز دون ساتر. ويطلق على الظفر بالشيء، وعلى الغلبة، وهو المراد هنا.
قال تعالى: { تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [البقرة: 85].
الرجم: القتل برمي الحجارة على المرجوم حتّى يموت، وهو قتل إذلال وإهانة وتعذيب.
{ **أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ** } يرجعوكم إلى الملّة الفاسدة التي فررتم منها.
أي لا يخلو أمرهم عن أحد الأمرين إمّا إرجاعكم إلى دينهم أو قتلكم.
الملّة: الدين. وقد تقدّم عند قوله { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [يوسف:37]
{ **وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً** } أكد التحذير من الإرجاع إلى ملّتهم بأنّها يترتب عليها انتفاء فلاحهم في المستقبل، لما دلّت عليه حرف (إذا) من الجزائيّة. و{ أبدا } ظرف للمستقبل كلّه.

{ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً } [21].

انتقل إلى جزء القصّة الذي هو موضع عبرة أهل زمانهم بحالهم، وانتفاعهم باطمئنان قلوبهم لوقوع البعث يوم القيامة بطريقة التقريب بالمشاهدة، وتأييد الدين بما ظهر من كرامة أنصاره.
وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين مثلهم، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان.
{ **وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ** } العثور على الشيء الاطلاع عليه والظفر به بعد الطلب. وقد كان الحديث عن أهل الكهف في تلك المدينة يتناقله أهلها فيسّر الله لهم العثور عليهم للحكمة التي في قوله { لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حق}. ومفعول { أعثرنا } محذوف، تقديره: أعثرنا أهل المدينة عليهم.
{ **لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا** } ووعد الله هو إحياء الموتى للبعث. وأمّا علمهم بأنّ الساعة لا ريب فيها، أي ساعة الحشر، فهو إن صار علمهم بذلك عن مشاهدة تزول بها خواطر الخفاء التي

تعتري المؤمن في اعتقاده حين لا يتصوّر كيفيّة العقائد السمعية، وما هو بريب في العلم ولكنّه في الكيفية، وهو الوارد فيه أنّه لا يخطر إلا لصدِّيق ولا يدوم إلّا عند زنديق.

{ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ }

التنازع: الجدال القويّ، أي يتنازع أهل المدينة بينهم شأن أهل الكهف، مثل: أكانوا نياما أم أمواتا، وأيبقون أحياء أم يموتون، وأيبقون في ذلك الكهف أم يرجعون إلى سكنى المدينة، وفي مدّة مكثهم.

والإتيان بالمضارع لاستحضار حالة التنازع.

{ فقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً }

طوي هنا وصف العثور عليهم، وذكر عودهم إلى الكهف لعدم تعلّق الغرض بذكره، إذ ليس موضع عبرة لأن المصير إلى مرقدهم وطُرُوِّ الموت عليهم شأن معتاد لكل حيّ.

وإنّما ارتأوا أن يبنوا عليهم بنيانا لأنّهم خشوا عليهم من تردّد الزائرين غير المتأدّبين، فلعلّهم أن يؤذوا أجسادهم وثيابهم باللمس والتقليب، فأرادوا أن يبنوا عليهم بناء يمكن غلق بابه وحراسته.

{ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ } يجوز أن تكون من حكاية كلام الذين قالوا، ابنوا عليهم بنيانا، تنهية للتنازع في أمرهم. ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله تعالى في أثناء حكاية تنازع الذين أعثروا عليهم، أي ربّ أهل الكهف أو ربّ المتنازعين في أمرهم أعلم منهم بواقع ما تنازعوا فيه.

{ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ } ولّاة الأمور بالمدينة.

{ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً } وإنما رأوا أن يكون البناء مسجدا ليكون إكراما لهم ويدوم تعهّد النّاس كهفهم. وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنّة النصارى، ونهى عنه النبيء ﷺ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها يوم وفاة رسول الله ﷺ.

واتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منهيّ عنه، لأنّ ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر، أو شبيه بفعل من يعبدون صالحي ملّتهم. وإنّما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأنّ ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنّه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظنّ النّاس أن ذلك لخاصيّة في ذلك الميّت. وكان بناء المساجد على القبور سنّة لأهل النصرانية، فإن كان شرعا لهم فقد نسخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر.

{ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً } [22]

لمّا شاعت قصّة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي، فكانت مثار تخرّصات في معرفة عددهم، وحصر مدّة مكثهم في كهفهم، وربّما أملى عليهم المتنصّرة من العرب في ذلك قصصا، وقد نبّههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم النّاس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعوّد الأمّة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للنّاس، ودلّ عَلَم الاستقبال على أنّ النّاس لا يزالون يخوضون في ذلك.

{ **سَيَقُولُونَ / وَيَقُولُونَ / وَيَقُولُونَ** } عائد إلى غير مذكور لأنّه معلوم من المقام، أي يقول النّاس أو المسلمون، إذ ليس في هذا القول حرج ولكنّهم نُبِّهوا إلى أن جميعه لا حجّة لهم فيه. ومعنى سين الاستقبال سار إلى الفعلين المعطوفين على الفعل المقترن بالسين.

وقد أعلم الله أنّ قليلا من الخلق يعلمون عدّتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك. وفي مقدمتهم محمد ﷺ لأنّ قصّتهم جاءت على لسانه فلا شك أنّ الله أطلعه على عدتهم. وروي أنّ ابن عباس قال: أنا من القليل.

{ **رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ / سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ** } في موضع الصفة لاسم العدد الذي قبلها، أو موضع الخبر الثاني عن المبتدأ المحذوف.

{ **رَجْماً بِالْغَيْبِ** } الرجم حقيقته الرمي بحجر ونحوه. واستعير هنا لرمي الكلام من غير رويّة ولا تثبت. والباء للتعدية، كأنّهم لمّا تكلّموا عن أمر غائب كانوا يرجمون به.

{ **وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** } واو الحال، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ، وهو إن كان نكرة فإن وقوعه خبر على معرفة أكسبه تعريفا. على أن وقوع الحال جملة مقترنة بالواو قد عُدّ من مسوّغات مجيء الحال من النكرة.

روي عن ابن الحاجب: أنّ القاضي الفاضل كان يعتقد أنّ الواو هي **واو الثمانية**.

ومن غريب الاتفاق أن كان لحقيقة الثمانية اعتلاق بالمواضع الخمسة المذكورة من القرآن إمّا بلفظه كما هنا وآية الحاقة { سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً } [7]، وإمّا بالانتهاء إليه كما في آية براءة { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [112] وآية التحريم { ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً }[التحريم: 5] ، وإمّا بكون مسمّاه معدودا بعدد الثمانية كما في آية الزمر{ وَفتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [73]. ولقد يُعدُّ الانتباه إلى ذلك من اللطائف، ولا يبلغ أن يكون من المعارف. ومثل هذه اللطائف كالزهرة تشمُ ولا تحك.

وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [براءة:112].

{ **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لما تثيره جملة { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ } إلى آخرها من ترقّب تعيين ما يُعتمد عليه من أمر عدّتهم. فأجيب بأنّ يحال العلم بذلك على علّام الغيوب.

{ **أَعْلَمُ** } إسناد اسم التفضيل إلى الله تعالى يفيد أنّ علم الله بعدّتهم هو العلم الكامل وأنّ علم غيره مجرّد ظنّ وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه.

{ **مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ** } كذلك مستأنفة استئنافا بيانيّا، وهم من أطلعهم الله على ذلك بوحي. وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأغلبية لأنّ علمهم مكتسب من جهة الله.

{ **فلا تُمَارِ فيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً** }

تفريع على الاختلاف في عدد أهل الكهف، أي إذا أراد بعض المشركين المماراة في عدّة أهل الكهف لأخبار تلقوها من أهل الكتاب أو لأجل طلب تحقيق عدّتهم فلا تمارهم إذ هو اشتغال بما ليس فيه جدوى. وهذا التفريع وما عطف عليه معترض في أثناء القصّة.

التماري: تفاعل مشتق من المِرْيَة، وهي الشكّ. واشتقاق المفاعلة يدل على أنّها إيقاع من الجانبين في الشكّ، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه، فأطلق المراء على المجادلة بطريق المجاز، ثم شاع فصار حقيقة لمّا ساوى الحقيقة.

{ **إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً** } هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه. وذلك مثل قوله { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } وقوله { مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ } ، فإنّ هذا ممّا لا سبيل إلى إنكاره وإبايته لوضوح حجّته.

الاستفتاء: طلب الفتوى، وهي الخبر عن أمر علمي ممّا لا يعلمه كلّ أحد. والمراد من النهي عن استفتائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف.

{ **مِنْهُمْ أَحَداً** } أهل مكة الذين سألوا عن أمر أهل الكهف. ولا يستقيم جعل ضمير { منهم } عائدا إلى أهل الكتاب، لأنّ هذه الآيات مكّيّة باتفاق الرواة والمفسرين.

أو يكون كناية رمزية عن حصول علم النبيء ﷺ بحقيقة أمرهم بحيث هو غني عن استفتاء أحد، وأنه لا يُعلم المشركين بما علّمه الله من شأن أهل الكهف.

{ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً [23] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً } [24].

{ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ }

عطف على الاعتراض. ومناسبة موقعه هنا ما رواه ابن إسحاق والطبري في أوّل هذه السورة والواحدي في سورة مريم: أنّ المشركين لمّا سألوا النبيء ﷺ عن أهل الكهف وذي القرنين وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد ولم يقل (إن شاء الله)، فلم يأته جبريل عليه السلام بالجواب إلّا بعد خمسة عشر يوما، وقيل: بعد ثلاثة أيام كما تقدّم، أي فكان تأخير الوحي إليه بالجواب عتابا رمزيا من الله لرسوله ﷺ.

فأعلم الله رسوله بقصّة أهل الكهف، ثم نهاه عن أن يعد بفعل شيء دون التقييد بمشيئة الله.

{ لِشَيْءٍ } اسم متوغّل في التنكير يفسّره المقام، أي الشيء تريد أن تفعله.

{ غَداً } مستعمل في المستقبل مجازا. وليست الكلمة مرادا بها اليوم الذي يلي يومه، ولكنه مستعمل في معنى الزمان المستقبل، كما يستعمل اليوم بمعنى زمان الحال، والأمس بمعنى زمن الماضي.

{ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } استثناء حقيقي من الكلام الذي قبله. فالمراد بالمشيئة إذن الله له.

وقد جمعت هذه الآية كرامة للنبيء ﷺ من ثلاث جهات:

الأولى: أنه أجاب سُؤْله، فبيّن لهم ما سألوه إيّاه على خلاف عادة الله مع المكابرين.

الثانية: أنّه علّمه علما عظيما من أدب النبوّة.

الثالثة: أنّه ما علّمه ذلك إلّا بعد أن أجاب سؤله استئناسا لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك قبل أن يجيبه، كيلا يتوهّم أنّ النهي يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله، وكذلك شأن تأديب الحبيب المكرّم. ومثاله ما في الصحيح: أن حكيم بن حزام قال: " سألت رسول الله فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خَضِرة حُلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتّى أفارق الدنيا " . فعلم حكيم أنّ قول رسول الله ﷺ له ذلك ليس القصد منه منعه من سؤله وإنّما قصد منه تخليقه بخلق جميل، فلذلك أقسم حكيم: أن لا يأخذ عن أحد غير رسول الله شيئا. ولم يقل: لا أسألك بعد هذه المرّة شيئا.

وظاهر الآية اقتصار إعمالها على الإخبار بالعزم على فعل في المستقبل دون ما كان من الكلام إنشاء مثل الأيمان، فلذلك اختلف فقهاء الأمصار في شمول هذه الآية لإنشاء الأيمان ونحوها، فقال جمهورهم: يكون ذكر { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } حلا لعقد اليمين يُسقط وجوب الكفارة. بحيث إذا أعقبت اليمين بقول { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ } ونحوه لم يلزم البرّ في اليمين.

{ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }

عطف على النهي، أي لا تعد بوعد فإن نسيت فقلت: إني فاعل، فاذكر ربك، أي اذكر ما نهاك عنه. والمراد بالتذكير التدارك وهو هنا مشتقّ من الذُكر بضم الذال وهو كناية عن لازم التذكّر، وهو الامتثال، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

{ رَبَّكَ } من كمال الملاطفة ما لا يخفى.

{ نَسِيتَ } وحذف المفعول لظهوره من المقام، أي إذا نسيت النهي فقلت: إني فاعل.

والجمهور على أن قوله: { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } لا دلالة فيه على جواز تأخير الثنيا (قول: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)، واستدلوا بأن السنة وردت بخلافة. وعن ابن عباس: لا تحديد بمدّة بل ولو طال ما بين اليمين والثنيا.

{ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً }

لما أبرّ الله وعد نبيه ﷺ الذي وعده المشركين أن يبيّن لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك بعتابه على التصدّي لمجاراتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله، وأمره أن يذكر نهي ربّه. ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به. حيث أمره هنا أن يخبر سائليه بأنّه ما بعث للاشتغال بمثل ذلك، وأنّه يرجو أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصّة، وإن كانت هذه القصّة تشتمل على موعظة وهدى ولكن الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم وأهم. والمعنى: وقل لهم عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا.

فالجملة معطوفة على جملة { فلاَ تُمَارِ فيهِمْ }. ويجوز أن تكون عطفا على جملة { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }، أي اذكر أمره ونهيه وقل في نفسك: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا، أي ادع الله بهذا. أي ارج من الله أن يهديك فيذكّرك أن لا تعيد وعدا ببيان شيء دون إذن الله.

{ عسى } مستعملة في الرجاء تأدّبا.

{ مِنْ هَذَا } اسم الإشارة عائد إلى المذكور من القصّة بقرينة وقوع هذا الكلام معترضا في أثنائها.

الرَشَد (بفتحتين) الهدى والخير. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } [10].

{ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً } [25]

رجوع إلى بقيّة القصّة بعد أن تخلّل الاعتراض بينها بقوله { فلاَ تُمَارِ فيهِمْ - إلى قوله - رشدا } [22-24]. فيجوز أن تكون الجملة عطفا على مقولهم في قوله { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ } [22]. أي ويقولون: لبثوا في كهفهم، ليكون موقع قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } [26] كموقع قوله { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} [22]،

وعليه فلا يكون هذا إخبار عن مدّة لبثهم. وعن ابن مسعود أنّه قرأ (وقالوا لَبثوا في كَهفهم) إلى آخره، فذلك تفسير لهذا العطف.

ويجوز أن يكون العطف على القصّة كلّها. والتقدير: وكذلك أعثرنا عليهم إلى آخره، وهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين.

ثم إنّ الظاهر أنّ القرآن أخبر بمدّة لبث أهل الكهف في كهفهم، وقد قدمنا أن مؤرخي النصارى يزعمون أنّ مدة نومة أهل الكهف مائتان وأربعون سنة.

والمعنى: أن يقدّر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين. فعبر عن هذا العدد بأنّه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع. ليعلم أنّ التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم.

{ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً }[26]

إنّ كان قوله تعالى { وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ } إخبارا من الله عن مدّة لبثهم يكون قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } قطعا للمماراة في مدّة لبثهم المختلف فيها بين أهل الكتاب، أي الله أعلم منكم بمدة لبثهم.

وإن كان قوله { ولبثوا } حكاية عن قول أهل الكتاب في مدة لبثهم كان قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } تفويضا إلى الله في علم ذلك، كقوله { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } [22].

{ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ما غاب علمه عن النّاس من موجودات السماوات والأرض وأحوالهم.

واللام للملك. وتقديم الخبر المجرور لإفادة الاختصاص، أي لله لا لغيره، ردا على الذين يزعمون علم خبر أهل الكهف ونحوهم.

{ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ } صيغتا تعجيب من عموم علمه تعالى بالمغيّبات من المسموعات والمبصرات، وهو العلم الذي لا يشاركه فيه أحد.

{ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ } ضمير الجمع يعود إلى المشركين. وهو إبطال لولاية آلهتهم بطريقة التنصيص على عموم النفي بدخول (من) الزائدة على النكرة المنفيّة.

{ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً } ردّ على زعمهم بأنّ الله اتخذ آلهتهم شركاء له في ملكه.

وهنا انتهت قصّة أصحاب الكهف بما تخلّلها، وقد أكثر المفسّرون من رواية الأخبار الموضوعة فيها.

{ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً } [27]

والمقصود من هذا الردُّ على المشركين إذ كانوا أيّامئذ لا يُبيَّن لهم شيء إلّا وانتقلوا إلى طلب شيء آخر فسألوا عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، وطلبوا من النبيء ﷺ أن يجعل بعض القرآن للثناء عليهم، ونحو ذلك، كما تقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } [الاسراء: 73].

والمعنى: لا تعبأ بهم إن كرهوا تلاوة بعض ما أوحى إليك واتل جميع ما أوحي إليك فإنّه لا مبدّل له. فلمّا وعدهم الجواب عن الروح وعن أهل الكهف وأبرّ الله وعده إيّاهم قطعا لمعذرتهم ببيان إحدى المسألتين ذيّل ذلك بأن أمر نبيّه أن يقرأ القرآن كما أنزل عليه وأنّه لا مبدّل لكلمات الله، لكي لا تُطمِعهم الإجابة عن بعض ما سألوه بالطمع في أن يجيبهم عن كل ما طلبوه.

{ **وَاتْلُ** } كناية عن الاستمرار.

التلاوة: القراءة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

{ **مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ** } مفيد للعموم، أي كلّ ما أوحي إليك، ومفهوم الموصول أن ما لم يوح إليه لا يتلوه. وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم وإعطائهم شطرًا من التصويب.

التبديل: التغيير بالزيادة والنقص. أي بإخفاء بعضه، بترك تلاوة ما لا يرضون بسماعه من إبطال شركهم وضلالهم. وهذا يؤذن بأنّهم طعنوا في بعض ما اشتملت عليهم القصّة في القرآن. وقد تقدّم نظير هذا عند قوله تعالى { وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } [الأنعام [34].

الملتحد: مكان الالتحاد، والالتحاد: الميل إلى جانب. وجاء بصيغة الافتعال لأنّ أصله تكلّف الميل. ويفهم من صيغة التكلّف أنّه مفر من مكروه يتكلّف الخائف أن يأوي إليه. فلذلك كان الملتحد بمعنى الملجأ.

والمعنى: لن تجد شيئا ينجيك من عقابه. والمقصود من هذا تأييسهم ممّا طمعوا فيه.

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً } [28]

هذا من ذيول الجواب عن مسألتهم عن أهل الكهف. فهو مشارك لقوله تعالى { وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ } [27]. وتقدّم في سورة الأنعام عند قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }[52] أنّ سادة المشركين كانوا زعموا أنّه لولا أنّ من المؤمنين ناسا أهل خصاصة في الدنيا وأرقاء لا يدانوهم ولا يستأهلون الجلوس معهم لأتوا إلى مجالسة النبيء ﷺ واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش، فرد الله عيهم بما في سورة الأنعام وما في هذه السورة.

{ **وَاصْبِرْ نَفسَكَ** } تأكيد لما سبق، إذ أمره بملازمتهم، أي احبس نفسك معهم حبس ملازمة.

الصبر: الشدّ بالمكان بحيث لا يفارقه. ومنه سمّيت المَصْبورة، وهي الدابة تشدّ لتجعل غرضا للرمي.

ولتضمين فعل { اصبر } معنى الملازمة علّق به ظرف (مع).

{ **مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** } التعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنّهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة.

الدعاء: المناجاة والطلب. والمراد به ما يشمل الصلوات.

الغداة: قرأه الجمهور بألف بعد الدال: اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس. وقرأ ابن عامر { بالغدْوَة } بسكون الدال وواو بعد مفتوحة وهو مرادف الغداة.

العشي: المساء. والمقصود أنّهم يدعون الله دعاء متخللا سائر اليوم والليلة.

{ **يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** } في موضع الحال. ووجه الله: مجاز في إقباله على العبد.

{ **وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ** } ثمّ أكّد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما. أي أن تُجاوزاهم، أي تَبعُدا عنهم. وهو إيجاز بديع.

{ **تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم، لأنّهم لا زينة لهم.

وهذا تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همّهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية، فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة وجعلوا همّهم الصور الظاهرة.

{ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** }

هذا نهي جامع عن ملابسة شيء ممّا يأمره به المشركون. والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تجاه رغائب المشركين، وتأييس المشركين من نوال شيء ممّا رغبوه.

قيل نزلت في أميّة بن خلف الجمحي، دعا النبيء ﷺ إلى طرد فقراء المسلمين عن مجلسه حين يجلس إليه هو وأضرابه من سادة قريش.

{ **مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ** } جعله غافلا عن التفكّر في الوحدانيّة حتّى راج فيه الإشراك، فإنّ ذلك ناشئ عن عقول ضيّقة التبصّر مسوقة بالهوى والإلف. وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن تذكّر الشيء، وأريد بها هنا غفلة خاصة.

{ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } اتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول، فالغفلة خِلقة في قلوبهم، واتباع الهوى كسب من قدرتهم.

{ **فُرُطاً** } : الظلم والاعتداء. وهو مشتق من الفُروط وهو السبق، لأنّ الظلم سَبْق في الشرّ.

وزيادة فعل الكون للدلالة على تمكن الخبر من الاسم، أي حالة تمكّن الإفراط والاعتداء على الحق.

{ **وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفقاً** }[29]

بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بما فيه نقض ما يفتلونه من مقترحاتهم وتعريض بتأييسهم من ذلك أمره أن يصارحهم بأنّه لا يعدل عن الحقّ الذي جاءه من الله، وأنّه مبلغه بدون هوادة، وأنّه لا يرغب في إيمانهم ببعضه دون بعض، ولا يتنازل إلى مشاطرتهم في رغباتهم بشطر الحقّ الذي جاء به، وأنّ إيمانهم وكفرهم موكول إلى أنفسهم، لا يحسبون أنّهم بوعد الإيمان يستنزلون النبيء ﷺ عن بعض ما أوحي إليه.

{ **الحَقُّ** } خبر مبتدأ محذوف معلوم من المقام، أي هذا الحقّ.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتذكير بوجوب توحيده.

{ **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ** } الأمر في { فليؤمن / فليكفر} للتسوية المكنّى بها عن الوعد والوعيد. وقدّم الإيمان على الكفر لأنّ إيمانهم مرغوب فيه.

{ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، والمراد بالظالمين: المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13].

{ **نارًا** } التنوين للتهويل والتعظيم.

السُرادق (بضم السين): قيل هو الفسطاط، أي الخيمة. وقيل: الحُجْزة (بضم الحاء وسكون الجيم)، أي الحاجز الذي يكون محيطا بالخيمة يمنع الوصول إليها، فقد يكون من جنس الفسطاط أديما أو ثوبا وقد يكون غير ذلك كالخندق. وهو كلمة معرّبة من الفارسية، أصلها (**سراطاق**).

والسرادق هنا تخييل لاستعارة مكنية بتشبيه النار بالدار، وشأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكّميّة.

{ **وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ** }

الاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من شدّة وبتخفيف الألم. يطلبون شيئا يبرّد عليهم.

{ **يُغَاثُوا** } مستعارة للزيادة ممّا استغيث من أجله على سبيل التهكّم، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه.

المُهل (بضم الميم) له معان كثيرة أشبهها هنا أنه دُرْدِيُّ الزيت فإنّه يزيدها التهابا، قال تعالى { يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ } [المعارج: 8]. والتشبيه في سواد اللون وشدّة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عقّب بقوله: { **يَشْوِي الْوُجُوهَ** }. والوجه أشد الأعضاء تألما من حر النار قال تعالى { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ } [المؤمنون: 104].

{ **بِئْسَ الشَّرَابُ** } مستأنفة ابتدائية أيضا لتشنيع ذلك الماء مَشْرُوبًا كما شُنِّع مُغْتَسَلًا. وفي عكسه الماء

الممدوح في قوله تعالى { هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [صّ: 42].
{ **وَسَاءَتْ مُرْتَفقاً** } معطوفة على جملة { يَشْوِي الْوُجُوهَ }، فهي مستأنفة أيضا لإنشاء ذمّ تلك النّار بما فيها.
المرتفق: محل الارتفاق، اشتقّ من المرفق وهو مجمع العضد والذراع. سمّي مرفقا لأنّ الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكئ عليه. فالمرتفق هو المتكأ، وتقدم في سورة يوسف.
وشأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النّار تهكّم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم لفظ الإغاثة، وكما أطلق على مكانهم السرادق.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [30]

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا مراعى فيه حال السامعين من المؤمنين، فإنّهم حين يسمعون ما أُعِدَّ للمشركين تتشوف نفوسهم إلى معرفة ما أُعِدَّ للذين آمنوا ونبذوا الشرك فأُعلموا أنّ عملهم مرعى عند ربّهم.
وجريا على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب.
وافتتاح الجملة بحرف التوكيد (إن) لتحقيق مضمونها. وإعادة حرف (إن) في الجملة المخبر بها عن المبتدأ الواقع في الجملة الأولى لمزيد العناية والتحقيق.
الإضاعة: جعل الشيء ضائعا. وحقيقته الضيعة: تلف الشيء من مظنّة وجوده. وتطلق مجازا على انعدام الانتفاع بشيء موجود فكأنّه قد ضاع وتلف، قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [البقرة: 143].
ويطلق على منع التمكين من شيء والانتفاع به، كما في هذه الآية، أي أنّا لا نحرم من أحسن عملا أجر عمله. ومنه قوله { إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [التوبة: 120].

{ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفقاً }[31]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ ما أجمل من عدم إضاعة أجرهم يستشرف بالسامع إلى ترقّب ما يُبيّنه.
{ **أُولَئِكَ** } افتتاح الجملة باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون لما بعده لأجل الأوصاف المذكورة قبله، وهي كونهم آمنوا وعملوا الصالحات.
{ **لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ** } اللام لام الملك. و(من) للابتداء، جعلت جهة تحتهم مَنْشئًا لجري الأنهار. وتقدّم في قوله { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [براءة:72].
{ **عدن** } الخلد والاستقرار المستمّر، تقدّم في قوله تعالى { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } [براءة 72].

اجتمع في هذا الخبر عدة مقرّرات لمضمونه، وهي: التأكيد مرّتين، وذكر اسم الإشارة. ولام الملك، وجر اسم الجهة بـ (من)، وإضافة اسم الجهة إلى ضميرهم، والمقصود من ذلك: التعريض بإغاظة المشركين لتتقرّر بشارة المؤمنين أتّم تقرّر.

{ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** } صفة لـ {جَنَّاتُ عَدْنٍ}.

التحلية: التزيين، والحلية: الزينة. وأسند الفعل إلى المجهول، لأنّهم يجدون أنفسهم محلَّين بتكوين الله تعالى.

الأساور: جمع أسورة الذي هو جمع سوار. فصيغة جمع الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلّون به.

السوار: حليّ من ذهب أو فضة يحيط بموضع الذراع، وهو اسم معرّب عن الفارسية عند المحققين وهو في الفارسية (دستوراه) بهاء في آخره.

{ **مِنْ ذَهَبٍ** } (من) للبيان، وفي الكلام اكتفاء، أي من ذهب وفضّة كما اكتفى في آية سورة الإنسان بذكر الفضة عن ذكر الذهب بقوله { وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ } [21]، ولكلّ من المعدنين جمالة الخاص.

اللباس: ستر البدن بثوب من قميص أو إزار أو رداء، وجميع ذلك للوقاية من الحر والبرد وللتجمّل.

الثياب: جمع ثوب، وهو الشقة من النسيج.

{ **خُضْراً** } واللون الأخضر أعدل الألوان وأنفعها عند البصر، وكان من شعار الملوك. قال النابغة:

يصونون أجسادا قديما نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب

السندس: صنف من الثياب، وهو الديباج الرقيق يُلبس مُباشِرا للجلد ليقيه غلظ الإستبرق.

الإستبرق: الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب، يلبس فوق الثياب المباشِرة للجلد.

وكلا اللفظين معرب. وفي الإتقان للسيوطي عن ابن النقيب: " لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذا اللفظ ويأتوا بلفظ يقوم مقامه في الفصاحة لعجزوا. وذلك أنّ الله تعالى حثّ عباده على الطاعة بالوعد والوعيد. والوعد بما يرغب فيه العقلاء وذلك منحصر في: الأماكن، والمآكل، والمشارب، والملابس، ونحوها مما تتّحد فيه الطباع أو تختلف فيه. وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، والحرير كلّما كان ثوبه أثقل كان أرفع فإذا أريد ذكر هذا فالأحسن أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، وذلك ليس إلّا الإستبرق ولا يوجد في العربية لفظ واحد يدلّ على ما يدل عليه لفظ إستبرق ". هذه خلاصة كلامه على تطويل فيه.

وقدّم ذكر الحليّ على اللباس هنا لأنّ ذلك وقع صفة للجنّات ابتداء، وكانت مظاهر الحلي أبهج للجنّات، فقدّم ذكر الحليّ وأخّر اللباس، لأنّ اللباس أشدّ اتصالا بأصحاب الجنّة لا بمظاهر الجنّة، وعكس ذلك في قوله تعالى { عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ } [الانسان:21] لأنّ الكلام هنالك جرى على صفات أصحاب الجنّة.

{ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ** } في موضع الحال من ضمير { يلبسون }.

الاتكاء: جلسة الراحة والترف. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].

الأرائك: جمع أريكة. وهي اسم لمجموع سرير وحَجَلة. والحَجَلة: قبّة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها. ولذلك يقال للنساء: ربّات الحِجَال، فإذا وضع فيها سرير للاتكاء أو الاضطجاع فهي أريكة. ويجلس فيها الرجل وينام مع المرأة، وذلك من شعار أهل الترف.

{ **نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً** } استئناف مدح، ومخصوص فعل المدح محذوف لدلالة ما تقدّم عليه.

والتقدير: نعم الثواب الجنّات الموصوف، وحسنت مرتفقا. وهذا مقابل قوله في حكاية حال أهل النار {وَسَاءَتْ مُرْتَفقاً }. والمرتفق: هنا مستعمل في معناه الحقيقي بخلاف مقابله المتقدم.

{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَففنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً [32] كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً [33] وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفرا [34] وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً [35] وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً } [36].

بعد أن بيّن لهم ما أعدّ لأهل الشرك، وذكر ما يقابله ممّا أعدّه للذين آمنوا، ضرب مثلا لحال الفريقين بمثل قصّة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر، فكان لذلك المثل شبه بمثل قصّة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعلم المخاطبين. ليظهر للفريقين ما يجرّه الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبّر في العواقب فيكون معرَّضا للصلاح والنجاح.

{ **وَاضْرِبْ لَهُمْ** } الضمير في { لهم } يعود إلى المشركين من أهل مكّة على الوجه الأول ولم يتقدّم لهم ذكر، ويعود إلى جماعة الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني.

{ **مَثَلاً رَجُلَيْنِ** } قال الكلبي: المعني بالرجلين رجلان من بني مخزوم من أهل مكّة أخوان أحدهما كافر وهو الأسود ابن عبد الأشد (بشين معجمة وقيل بسين مهملة) بن عبد ياليل، والآخر مسلم وهو أخوه: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل. وكان زوج أم سلمة قبل أن يتزوّجها رسول الله ﷺ.

ولم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان، ولعلّهما كانت بالطائف، فإنّ فيه جنّات أهل مكّة.

وعن ابن عباس: هما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالا فاشترى أحدهما أرضا وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله فكان من أمرهما في الدنيا ما قصّه الله تعالى في هذه السورة، وحكى مصيرهما

في الآخرة بما حكاه الله في قوله { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } [الصافات:50-52]. فتكون قصّتهما معلومة بما نزل فيها من القرآن في سورة الصافات قبل سورة الكهف.

وجوّز بعض المفسّرين، فيما نقله عنهم ابن عطية أنّ تلك الحالة متصوّرة متخيّلة. قال ابن عطية: فهذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى لا يكاد المرء يتخيّل أجمل منها في مكاسب النّاس، وعلى هذا الوجه يكون هذا التمثيل كالذي في قوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ } [البقرة: 265].

والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب أن يكون هذا المثل قصّة معلومة، ولأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية.

{ **جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً** } ذكر الجنّة والأعناب والنخل تقدّم في قوله تعالى { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ } [البقرة:266].

{ **حَفَفْنَاهُمَا** } أحطناهما، يقال: حفّه بكذا، إذا جعله حافًّا به، أي محيطا، قال تعالى { وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ } [الزمر: 75].

{ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً** } ألهمناه أن يجعل بينهما. وظاهر الكلام أنّ هذا الزرع كان فاصلا بين الجنتين: كانت الجنتان تكتنفان حقل الزرع فكان المجموع ضيعة واحدة. وتقدم ذكر الزرع في سورة الرعد.

{ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** } معترضة بين الجمل المتعاطفة.

والمعنى: أثمرت الجنتان إثمارا كثيرا.

{ **أُكُلَهَا** } قرأه الجمهور بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الهمزة وضم الكاف وهو الثمر، وتقدّم.

{ **وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً** } لم تنقص منه، أي من أكلها شيئا، أي لم تنقصه عن مقدار ما تعطيه الأشجار في حال الخصب. ففي الكلام إيجاز بحذف مضاف. والتقدير: ولم تظلم من مقدار أمثاله. واستعير الظلم لإقلال الإغلال، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار.

{ **وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** } تقدّم عند قوله تعالى { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:90].

والنهر بتحريك الهاء لغة في النهر بسكونها. وتقدم عند قوله { قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة [249].

{ **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ** } في موضع الحال من { لأحدهما }.

الثُمُر (بضم الثاء والميم): المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات والمزارع. وهو مأخوذ من ثُمِّر ماله (بتشديد الميم بالبناء للنائب)، يقال: ثمّر الله ماله إذا كثُر. قال النابغة:

فلما رأى أن ثَمَّر الله ماله ... وأثّل موجودا وسدّ مفاقره

مشتقا من اسم الثمرة على سبيل المجاز أو الاستعارة لأن الأرباح وعفو المال يشبهان ثمر الشجر. وشاع هذا المجاز حتّى صار حقيقة.

وقرأ الجمهور { ثُمُر} بضم المثلثة وضم الميم. وقرأه أبو عمرو ويعقوب بضم المثلثة وسكون الميم.

وقرأه عاصم بفتح المثلثة وفتح الميم { ثَمَر }. فقالوا: إنّه جمع ثمار الذي هو جمع ثَمر، فيكون دالا على أنواع كثيرة ممّا تنتجه المكاسب، كما تقدّم آنفا في جمع أساور من قوله: {أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ}.

والمعنى: وكان لصاحب الجنتين مال، أي غير الجنّتين.

{ **فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفرا** } الفاء للتفريع على الجمل السابقة، لأنّ ما تضمّنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس ينطق عن مثل ذلك القول.

{ **لِصَاحِبِهِ** } هنا بمعنى المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثل، أو أريد به الملابس المخاصم.

والمراد بالصاحب هنا الرجل الآخر من الرجلين، ولم يتعلّق الغرض بذكر مكان هذا القول ولا سببه لعدم الاحتياج إليه في الموعظة.

المحاورة: مراجعة الكلام بين متكلّمين. ودلّ فعل المحاورة على أنّ صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح، فراجعه الكلام بالفخر عليه والتطاول، شأن أهل الغطرسة والنقائص.

{ **وَأَعَزُّ نَفرا** } أشدّ عزّة. والعزة: ضدّ الذلّ. وهي كثرة عدد عشيرة الرجل وشجاعته.

النفر: عشيرة الرجل الذين ينفرون معه. وأراد بهم هنا ولده، كما دل عليه مقابلته في جواب صاحبه { إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً } [39].

{ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ** } في موضع الحال من ضمير(قال) ، أي قال ذلك وقد دخل جنّته مرافقا لصاحبه.

{ **وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ** } وهو مشرك مكذّب بالبعث بَطِرٌ بنعمة الله عليه.

وإنّما أفرد الجنّة هنا وهما جنتان لأنّ الدخول إنّما يكون لإحداها.

{ **قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً** } والظن هنا بمعنى الاعتقاد.

تبيد: تهلك وتفنى. والإشارة بـ (هذه) إلى الجنّة التي هما فيها، أي لا أعتقد أنّها تنتقض وتضمحلّ.

الأبد: مراد منه طول المدّة، أي هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها. وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنّة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حوله، من مياه وظلال.

{ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** } انتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنّة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة. ولا تلازم بين المعتقدين. ولكنه أراد التورّك على صاحبه المؤمن تخطئة إيّاه.

{ **وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً** } تهكّم. وقرينة التهكّم قوله { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }. وأكّد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكّم. وهذا كقول العاصي ابن وائل السهمي لخباب بن الأرت ليكونّن لي مال هنالك فأقضيك دينك منه.

{ **مُنْقَلَباً** } انتصب على تمييز نسبة الخبر. والمنقلب: المكان الذي ينقلب إليه، أي يرجع.

{ **مِنْهَا** } قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالإفراد جريا على قوله { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ } وقوله { أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ }. وعلى قراءة الجمهور {منهما} بالتثنية.

{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً [37] لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً [38] وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً [39] فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً [40] أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً}[41].

{ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ** }.

حكي كلام صاحبه بفعل القول بدون عطف، للدلالة على أنّه واقع موقع المحاورة والمجاوبة.

{ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار، وليس على حقيقته، لأنّ الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله له { وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً } . فالمراد بالكفر هنا الإشراك الذي من جملة معتقداته إنكار البعث.

{ **مِنْ تُرَابٍ** } إشارة إلى الأجزاء التي تتكون منها النطفة وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض، كما قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ } [يّس:36].

النطفة: ماء الرجل، مشتقّة من النطف وهو السيلان.

{ **ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** } عدل خلقك، أي جعله متناسبا في الشكل والعمل.

{ **لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي** } كتب في المصحف بألف بعد النون. واتفق القراء العشرة على إثبات الألف في النطق في حال الوقف، وأما في حال الوصل فقرأه الجمهور بدون نطق بالألف، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بإثبات النطق بالألف في حال الوصل، ورسم المصحف يسمح بكلتا الروايتين.

{ **لَكِنَّا** } مركب من (لكنْ) بسكون النون الذي هو حرف استدراك، ومن ضمير المتكلم (أنا). وأصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة تخفيفا كما قال الزجاج. فـ (أنا) مبتدأ، وجملة { هُوَ اللَّهُ رَبِّي } ضمير شأن وخبره. أي

شأني هو الله ربي. والخبر مستعمل في الإقرار، أي أعترف بأنّه ربّي خلافا لك.
وأكد إثبات اعترافه بالخالق الواحد بمؤكدات أربعة، وهي: الجملتان الاسميتان، وضمير الشأن في قوله {لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي} ، وتعريف المسند والمسند إليه في قول { اللَّهُ رَبِّي } المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم، قصرا إضافيّا بالنسبة لمخاطبه، أي دونك، إذ تعبد آلهة غير الله، وما القصر إلّا توكيد مضاعف، ثم بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله { **وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً** }.
{ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ** } عطف على جملة { أَكَفَرْتَ } عطف إنكار على إنكار.
{ **وَلَوْلا** } للتوبيخ، كشأنها إذا دخلت على الفعل الماضي، نحو{ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } [النور:13] أي كان الشأن أن تقول { مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ } عوض قولك { مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }.
{ **مَا شَاءَ اللَّهُ** } أي هذه الجنّة ما شاء الله، أي الأمر الذي شاء الله إعطاءه إيّاي.
{ **لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ** } تعليل لكون تلك الجنّة من مشيئة الله، أي لا قوة لي على إنشائها، أو لا قوة لمن أنشأها إلّا بالله، فإنّ القوى كلّها موهبة من الله تعالى لا تؤثّر إلّا بإعانته بسلامة الأسباب والآلات المفكرة والصانعة.
{ **إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** }
جملة ابتدائية رجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله { أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفراً } [37]، وعظه فيها بأنّه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلّة أو إلى اضمحلال وأن يصير القليل ماله ذا مال كثير.
{ **تَرَنِ** } حذفت ياء المتكلّم بعد نون الوقاية تخفيفا وهو كثير.
{ **فَعَسَى** } للرجاء، وهو طلب الأمر القريب الحصول. ولعلّه أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه.
الحُسبان: مصدر حسب كالغفران. وهو هنا صفة لموصوف محذوف، أي هلاكا حسبانا، أي **مقدّرا من الله**، كقوله تعالى { عَطَاءً حِسَاباً } [النبأ: 36]. وقيل: الحسبان **اسم جمع لسهام** قصار يرمى بها في طلق واحد وليس له مفرد. وقيل: اسم جمع حسبانة وهي **الصاعقة**. وقيل: **اسم للجراد**. والمعاني الأربعة صالحة هنا.
السماء: الجو المرتفع فوق الأرض.
الصعيد: وجه الأرض. وتقدّم عند قوله تعالى { فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً } [المائدة: 6].
وفي (اللسان) عن الليث: " يقال للحديقة، إذا خربت وذهب شجراؤها: قد صارت صعيدا، أي أرضا مستوية لا شجر فيها ". وهذا إذا صحّ أحسن هنا، ويكون وصفه بـ { زلقا } مبالغة في انعدام النفع به بالمرّة. لكني أظن أن الليث ابتكر هذا المعنى من هذه الآية وهو تفسير معنى الكلام وليس تبيينا لمدلول لفظ صعيد.
ونظيره قوله { وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا } [8].

الزلق: مصدر زلقت الرِّجل، إذا اضطربت وزلّت على الأرض فلم تستقر. ووصف الأرض بذلك مبالغة، أي ذات زلق، أي هي مزلقة.

الغور: مصدر غار الماء، إذا ساخ الماء في الأرض. ووصفه بالمصدر للمبالغة.

{ **فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** } جاء بحرف توكيد النفي زيادة في التحقيق لهذا الرجاء الصادر مصدر الدعاء.

{ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** [42] **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً**}[43].

كان صاحبه المؤمن رجلا صالحا فحقّق الله رجاءه، أو كان رجلا محدَّثا من محدَّثي هذه الأمّة، أو من محدَّثي الأمم الماضية، على الخلاف في المعنيِّ بالرجلين في الآية، ألهمه الله معرفة ما قدّره في الغيب من عقاب في الدنيا للرجل الكافر المتجبّر.

{ **وَأُحِيطَ** } لم تعطف الجملة بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلّق الغرض في هذا المقام بالإشارة إلى الرجل المؤمن، وإنّما المهمّ التنبيه على أنّ ذلك حادث حلّ بالكافر عقابا له على كفره، ليعلم السامعون أنّ ذلك جزاء أمثاله، وأن ليس بخصوصيّة لدعوة الرجل المؤمن.

الإحاطة: الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم. وتقدّمت في قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } [يوسف:66] وقوله { إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } [الإسراء:60].

والمعنى: أُتلف ماله كلّه بأن أُرسل على الجنّة والزرع حُسْبَانٌ من السماء فأصبحت صعيدا زلقا وهلكت أنعامه وسُلبت أمواله، أو خُسف بها بزلزال أو نحوه.

{ **بِثَمَرِهِ** } تقدّم اختلاف القراء في لفظ { ثمر} آنفا عند قوله تعالى { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ } [34].

تقليب الكفّين: حركة يفعلها المتحسّر، وذلك أن يقلّبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته، تحسّرا على ما صرفه من المال. ومثله قولهم: قرع السنّ من ندم، وقوله تعالى { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119].

الخاوية: الخالية، أي وهي خالية من الشجر والزرع.

العروش: السقف. و(على) للاستعلاء.

{ **خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** } وهذا التركيب أرسله القرآن مثلا للخراب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه. وتقدّم في قوله { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [البقرة:259]، على أن الضمير في آية البقرة مراد به جدران القرية بقرينة مقابلته بعروشها، إذ القرية هي المنازل.

{ **وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي** } حرف النداء مستعمل في التلهّف. و(ليتني) تمنّ مراد به التندّم. ومثله قوله تعالى { أَنْ

تَقُولَ نَفسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّهِ } [الزمر:56].

{ **لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** } وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنّه آمن بالله وحده حينئذ.

{ **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } موعظة وتنبيه على جزاء قوله { وَأَعَزُّ نَفراً } [34].

الفئة: الجماعة. وجملة { ينصرونه } صفة، أي لم تكن له فئة هذه صفتها.

{ **وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً** } أي ولا يكون له انتصار وتخلّص من العذاب.

وأحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر، لأنّ الله قد يمتّع كافرين كثيرين طوال حياتهم ويملي لهم ويستدرجهم. وإنّما أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، فإنّه لمّا اعتز بتلك النعم وتوسّل بها إلى التكذيب بوعد الله استحقّ عقاب الله بسلب تلك النعم عنه كما سلبت النعمة عن قارون حين قال { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص: 78]. وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفّع عن مجالس الدعوة لأنّها تجمع قوما يرونهم أحطّ منهم، وطلبوا من النبيء ﷺ طردهم عن مجلسه كما تقدم.

{ **هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الحقّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً** } [44] .

تذييل للجمل قبلها لما في هذه الجملة من العموم الحاصل من قصر الولاية على الله تعالى، المقتضي تحقيق جملة { وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً }، وجملة { وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً } [34]، لأنّ الولاية من شأنها أن تبعث على نصر المولى وأن تُطمع المولى في أنّ وليّه ينصره. ولذلك لما رأى الكافر ما دهاه من جرّاء كفره التجأ إلى أن يقول { يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً } [42]، إذ علم أنّ الآلهة الأخرى لم تغن ولايتهم عنه شيئا، كما قال أبو سفيان يوم أسلم " لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنى عني شيئا".

{ **هُنَالِكَ** } اسم إشارة المكان البعيد مستعار للإشارة إلى الحال العجيبة، بتشبيه الحالة بالمكان لإحاطتها بصاحبها، وتشبيه غرابتها بالبعد لندرة حصولها. والمعنى: أنّ في مثل تلك الحالة تقصر الولاية على الله.

الوَلاية: (بفتح الواو) مصدر وَلِيَ، إذا ثبت له الولاء. وتقدّمت عند قوله تعالى { مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حتّى يُهَاجِرُوا } [الأنفال 72].

{ **الحقّ** } قرأه الجمهور بالجر، على أنّه وصف الله تعالى، كما وصف بذلك في قوله تعالى { وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ } [يونس:30]. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف {الحقُّ} بالرفع صفة للولاية، فالحقّ على هذا الوجه بمعنى الصدق لأنّ ولاية غيره كذب وباطل.

ووصفه هنا بالحقّ دون وصف آخر، لأنه قد ظهر في مثل تلك الحال أنّ غير الله لا حقيقة له أو لا دوام له.

{ **هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً** } يجوز أن يكون بمعنى أخْيَرُ، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقْب غيره، فإنّ ما يأتي من ثوابٍ من غيره ومن عقبى إمّا زائف مفض إلى ضرّ وإما زائل، وثواب الله خالص دائم وكذلك عقباه.

ويجوز أن يكون { **خَيْرٌ** } اسما ضدّ الشرّ، أي هو الذي ثوابه وعُقُبه خير وما سواه فهو شرّ.

{العقب}

{ **عُقْباً** } بمعنى العاقبة، أي آخرة الأمر. وهي ما يرجوه المرء من سعيه وعمله. وقرأ الجمهور بضمّتين وبالتنوين. وقرأه عاصم وحمزة وخلف بإسكان القاف وبالتنوين.

فكأنّ ما ناله ذلك المشرك الجبّار من عطاء إنّما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيرا وكانت عاقبته شرا عليه.

{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً } [45]

كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها، والغرور الذي غرّ طغاة أهل الشرك وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد والبعث كما قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11]، وقال { أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين } [القلم: 14-15]. وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية: 24]. وما كان أحد الرجلين الذين تقدّمت قصتهما إلّا واحدا من المشركين إذ قال { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً } [36].

فأمر الله رسوله بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا التي غرَّتهم بهجتها.

{ **لَهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين كما دلّ عليه تناسق ضمائر الجمع.

الحياة الدنيا: تطلق على مدّة بقاء الأنواع الحيّة على الأرض وبقاء الأرض على حالتها. فإطلاق هذا الاسم على تلك المدة لأنّها مدّة الحياة الناقصة، غير الأبديّة لأنها مقدّر زوالها، فهي دنيا. ووصفها بـ (الدنيا) بمعنى القريبة، أي الحاضرة غير المنتظرة، كنّى عن الحضور بالقرب.

وتطلق (الحياة الدنيا) على مدّة حياة الأفراد، أي حياة كلّ أحد.

{ **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** } الكاف في محلّ الحال من الحياة المضاف إليه {مثل}. أي اضرب لهم مثلا لها حال أنّها كماء أنزلناه. وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها.

اختلاط النبات: وفرته والتفاف بعضه ببعض من قوّة الخصب والازدهار. و(به) باء السببية، والضمير عائد إلى { **كَمَاءٍ** }، أي فاختلط النبات بسبب الماء. وليست الباء لتعدية فعل (اختلط) إلى المفعول لعدم وضوح المعنى عليه. وفي ذكر الأرض بعد ذكر السماء محسن الطباق.

{ **فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** }، مستعملة هنا بمعنى صار، وهو استعمال شائع لـ (أصبح).

الهشيم: اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي مهشوما محطّما. والهشم: الكسر والتفتيت.

{ **تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** } أي تفرّقه في الهواء. **والذرو**: الرمي في الهواء.

شُبهت حالة هذا العالم بما فيه بحالة الروضة تبقى زمانا بَهِجة خَضِرة ثم يصير نبتُها بعد حين إلى اضمحلال ووجه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال سيء.

وأيضا شُبِّهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجِدَّة وزخرف العيش لأهله، ثم تقلّص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه أشتاتا، بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتّع به ثم تطايره أشتاتا في الهواء، تشبيها لمركب محسوس بمركب.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً** } جملة معترضة في آخر الكلام. موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله {على كل شيء} وهو بذلك العموم أشبه التذييل.

المقتدر: قويّ القدرة.

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [46]

اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأنّ ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلّا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنّها إلى زوال، كقوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196] وأنّ ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملا.

{ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ** } وتقديم المال على البنين في الذكر لأنّه أسبق خطورا لأذهان النّاس، لأنّه يرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه.

{ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ** } صفتان جرتا على موصوف محذوف، أي الأعمال الصالحات البقيات، أي التي لا زوال لخيرها، وهو ثوابها الخالد، فهي خير من زينة الحياة الدنيا التي هي غير باقية.

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفين أن يقدّم { الصالحات } على { الباقيات }، لأنّه قد شاع أن يقال:

الأعمال الصالحات ولا يقال الأعمال البقيات، ولأن بقاءها مترتب على صلاحها، فلا جرم أن الصالحات وصف قام مقام الموصوف وأغنى عنه كثيرا في الكلام حتّى صار لفظ {الصالحات} بمنزلة الاسم الدال على عمل خير، وذلك كثير في القرآن قال تعالى: { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [العصر:3].
ولكن خولف مقتضى الظاهر هنا، فقدّم {الباقيات} للتنبيه على أنّ ما ذكر قبله إنّما كان مفصولا لأنه ليس بباق، وهو المال والبنون. ونظير هذه الآية قوله { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا } [مريم: 76].
{ **وَخَيْرٌ أَمَلاً** } أنّ أمل الآمل في المال والبنين إنّما يأمل حصول أمر مشكوك في حصوله ومقصور على مدّته. وأمّا الآمل لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد. ويأمل شيئا تحصل منه منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة كما قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97].

{ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً [47] وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً } [48].
عطف على جملة { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [45] فلفظ { يَوْمَ } منصوب بفعل مضمر تقديره: اذكر، كما هو متعارف في أمثاله. فبعد أن بيّن لهم تعرّض ما هم فيه من نعيم إلى الزوال على وجه الموعظة، أعقبه بالتذكير بما بعد ذلك الزوال، بتصوير حال البعث وما يترقّبهم فيه من العقاب على كفرهم به، وذلك مقابلة لضدّه المذكور في قوله { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ }.
{ **نُسَيِّرُ الْجِبَالَ** } نقلها من مواضعها بزلزال أرضي عظيم، وهو مثل قوله { وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [التكوير:3] وقيل: أطلق التسيير على تناثر أجزائها، فيكون كقوله { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ } [القارعة: 5]، وقوله { وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً } [الواقعة: 5-6] وقوله { وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً } [النبأ: 20]. وهو من أحوال انقراض نظام هذا العالم، وإقبال عالم الحياة الخالدة والبعث.
{ **وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً** } الخطاب لغير معيّن. والمعنى: ويرى الرائي. وهو نظير قوله { فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممّا فيهِ } [49].
البارزة: الظاهرة، أي الظاهر سطحها، إذ ليس عليها شيء يستر وجهها من شجر ونبات أو حيوان، كقوله تعالى { فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [النازعات: 14].
{ **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً** } في موضع الحال من ضمير { نُسَيِّرُ }. يجوز أن نجعل الجملة معطوفة

على جملة { نُسَيِّرُ الْجِبَالَ }. و**المغادرة**: إبقاء شيء وتركه.

{ **وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً** } في موضع الحال من الضمير المنصوب في { حشرناهم } ، أي حشرناهم وقد عرضوا، تنبيها على سرعة عرضهم في حين حشرهم.

عرض الشيء: إحضاره ليرى حاله وما يحتاجه. وفي الحديث: " عرضت عليّ الأمم ". وهو هنا مستعار لإحضارهم، حيث يعلمون أنّهم سيتلقّون ما يأمر الله به في شأنهم.

الصفّ: جماعة يقفون واحدا حذو واحد بحيث يبدو جميعهم لا يحجب أحد منهم أحدا. وأصله مصدر صفّهم إذا أوقفهم. وتلك الحالة إيذان بأنّهم أحضروا بحالة الجناة الذين لا يخفى منهم أحد، إيقاعا للرعب في قلوبهم.

{ **عَلَى رَبِّكَ** } عدل عن الإضمار إلى التعريف بالإضافة، دون أن يقال: علينا، لتضمّن الإضافة تنويها بشأن المضاف إليه بأنّ في هذا العرض، وما فيه من التهديد، نصيبا من الانتصار للمخاطب إذ كذّبوه حين أخبرهم وأنذرهم بالبعث.

{ **لَقَدْ جِئْتُمُونَا** } مقول لقول محذوف دلّ عليه أنّ الجملة خطاب للمعروضين، فتعيّن تقدير القول. والجملة في محلّ الحال. والتقدير: قائلين لهم لقد جئتمونا. وذلك بإسماعهم هذا الكلام من جانب الله تعالى.

المجيء: مجاز في الحضور، شُبِّهوا حين موتهم بالغائبين، وشُبِّهت حياتهم بعد الموت بمجيء الغائب.

{ **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } واقع موقع المفعول المطلق المفيد للمشابهة، أي جئتمونا مجيئا كخلقكم أوّل مرّة. فالخلق الثاني أشبه الخلق الأوّل، أي فهذا خلق ثان. قال تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [قّ:15]. والمقصود التعريض بخطئهم في إنكارهم البعث.

{ **بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً** } الإضراب انتقال من التهديد وما معه من التعريض بالتغليط إلى التصريح بالتغليط في قالب الإنكار، فالخبر مستعمل في التغليط مجازا وليس مستعملا في إفادة مدلوله الأصلي.

الزعم: الاعتقاد المخطئ، أو الخبر المعرّض للكذب.

الموعد: أصله وقت الوعد بشئ أو مكان الوعد. وهو هنا الزمن الموعود به الحياة بعد الموت.

والمعنى: أنّكم اعتقدتم باطلا أن لا يكون لكم موعد للبعث بعد الموت أبدا.

{ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفقِينَ ممّا فيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [49]

معطوفة على جملة { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ } [48]، فهي في موضع الحال، أي وقد وُضع الكتاب.

{ **الْكِتَابُ** } مراد به الجنس، أي وضعت كتب أعمال البشر، لأنّ لكلّ أحد كتابا، كما دلّت عليه آيات أخرى كقوله { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً } [الاسراء: 13- 14].

وإفراد الضمير في قوله {مما فيه} لمراعاة إفراد لفظ {الكتاب}. وعن الغزالي: أنّه قال: يكون كتاب جامع لجميع ما هو متفرّق في الكتب الخاصة بكل أحد. ولعلّه انتزعه من هذه الآية.

{ **فتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفقِينَ ممّا فيهِ** } الخطاب لغير معيّن. وليس للنبيء ﷺ لأنّ الرسول ﷺ يومئذ في مقامات عالية عن ذلك الموضع.

الإشفاق: الخوف من أمر يحصل في المستقبل.

{ **وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا** } التعبير بالمضارع لاستحضار الحالة الفظيعة، أو لإفادة تكرّر قولهم ذلك وإعادته، شأن الفزعين الخائفين.

نداء الويل: ندبة للتوجّع من الويل. وأصله نداء استعمل مجازا بتنزيل ما لا ينادى منزلة ما ينادى لقصد حضوره، ثم شاع ذلك فصار لمجرّد الغرض من النداء، وهو التوجّع ونحوه.

الويلة: تأنيث الويل للمبالغة، وهو سوء الحال والهلاك. كما أنّثت الدار على دارة، للدلالة على سعة المكان. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قال يا وليتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب} [المائدة:31].

{ **مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** } الاستفهام مستعمل في التعجيب. فـ **(ما)** اسم استفهام، ومعناها: أي شيء، و {هَذَا الْكِتَابِ} صفة لـ (ما) الاستفهامية لما فيها من التنكير، أي ما ثبت لهذا الكتاب. والـ **(لام)** للاختصاص.

{ **لا يغادر** } في موضع الحال، هي مثار التعجيب.

المغادرة: الترك، وتقدّم آنفا في قوله { فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً } [47].

{ **صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً** } وصفان لموصوف محذوف لدلالة المقام. والمراد بالصغر والكبر هنا الأفعال العظيمة والأفعال الحقيرة. والعظم والحقارة يكونان بحسب الوضوح والخفاء ويكونان بحسب القوّة والضعف.

وتقديم ذكر الصغيرة لأنّها أهم من حيث يتعلّق التعجّب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة لإرادة التعميم في الإحصاء لأنّ التعميم أيضا ممّا يثير التعجّب.

{ **إِلَّا أَحْصَاهَا** } الاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه لأنّه إذا أحصاه فهو لم يغادره، فآل إلى معنى

أنه لا يغادر شيئا، وانتفت حقيقة الاستثناء.
الإحصاء: العدّ، أي كانت أفعالهم معدودة مفصّلة.
{ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً** } في موضع الحال من ضمير {يقولون} . أي إنّما قالوا ذلك حين عرضت عليهم أعمالهم كلّها عند وضع ذلك الكتاب عرضا سريعا حصل به علم كلّ بما في كتابه على وجه خارق للعادة.
{ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** } عطف على جملة { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً } لما أفْهمته الصلة من أنّهم لم يجدوا غير ما عملوا، لأنّ الله لا يظلم أحدا فيؤاخذه بما لم يقترفه. وقد حدّد لهم من قبل ذلك ما ليس لهم أن يفعلوه وما أمروا بفعله، وتوعدهم ووعدهم، فلم يكن في مؤاخذتهم بما عملوه من المنهيات بعد ذلك ظلم لهم.

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ففسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً } [50]
عطف على جملة { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ } [47] بتقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة، تفنّنا لغرض الموعظة الذي سيقت له هذه الجمل، وهو التذكير بعواقب اتباع الهوى والإعراض عن الصالحات، وبمداحض الكبرياء والعجب واحتقار الفضيلة والابتهاج بالأعراض التي لا تُكسب أصحابها كمالا نفسيّا. وكما وُعظوا بآخر أيّام الدنيا ذُكّروا هنا بالموعظة بأوّل أيّامها، وهو يوم خلق آدم، وهذا أيضا تمهيد وتوطئة لقوله { يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ } [52]، فإنّ الإشراك كان من غرور الشيطان ببني آدم.
ولها أيضا مناسبة بما تقدّم من الآيات التي أنحت على الذين افتخروا بجاههم وأموالهم واحتقروا فقراء أهل الإسلام ولم يميّزوا بين الكمال الحقّ والغرور الباطل، فكان في قصّة إبليس نحو آدم مثل لهم، ولأنّ في هذه القصّة تذكيرا بأنّ الشيطان هو أصل الضلال، وأن خسران الخاسرين يوم القيامة آيل إلى اتّباعهم خطوات الشيطان وأوليائه. ولهذا فُرّع على الأمرين قوله تعالى { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ }.
وهذه القصّة تكرّرت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع، ذكرت فيه، عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة مثلا إعلام بمبادئ الأمور، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقسّ على ذلك.
{ **ففسَقَ** } تجاوز عن طاعته. وأصله قولهم: فسقت الرُّطَبة، إذا خرجت من قشرها فاستعمل مجازا في التجاوز. قال أبو عبيدة. والفسق بمعنى التجاوز عن الطاعة، ولم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها وإنّما تكلّم به العرب بعد نزول القرآن"، أي في هذه الآية ونحوها. ووافقه المبرد وابن الأعرابي.

وأطلق الفسق في مواضع من القرآن على العصيان العظيم، كقوله { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ } [البقرة:26]. { **عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** } الأمر بمعنى المأمور، أي ترك وابتعد عمّا أمره لله به. والعدول إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير لتفظيع فسق الشيطان عن أمر الله بأنّه فسق عبد أمر من تجب عليه طاعته لأنّه مالكه.

{ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ** } وفرّع على التذكير بفسق الشيطان وعلى تعاظمه على أصل النوع الإنساني إنكار اتخاذه واتخاذ جنده أولياء، لأن تكبّره على آدم يقتضي عداوته للنوع، ولأنّ عصيانه أمر مالكه يقتضي أنّه لا يرجى منه خير وليس أهلا لأن يتّبع.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتوبيخ للمشركين، إذ كانوا يعبدون الجنّ، قال تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } [الأنعام: 100].

الذرية: النسل، وذرية الشيطان الشياطين والجنّ.

الولي: من يتولّى، أي يتّخذ ذا وَلاية (بفتح الواو) وهي القرب. والمراد به القرب المعنوي، وهو الصداقة والنسب والحلف.

العدو: اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } [الممتحنة: 1] وقال { هُمُ الْعَدُوُّ } [المنافقون: 4].

{ **بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** } مستأنفة لإنشاء ذم إبليس وذريته باعتبار اتخاذ المشركين إيّاهم أولياء. أي بئس البدل للمشركين الشيطان وذرّيّته.

{ **بَدَلاً** } تمييز مفسر لاسم { بئس } المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز على طريقة الإجمال ثم التفصيل. والظالمون هم المشركون. وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم. ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذمّ لهم.

{ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً }[51]

تتنزّل هذه الجملة منزلة التعليل للجملتين اللتين قبلها وهما { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ - إلى قوله – بدلا } [50]، فإنّهم لمّا لم يشهدوا خلق السماوات والأرض لم يكونوا شركاء لله في الخلق بطريق الأولى فلم يكونوا أحقّاء بأن يُعبدوا. وهذا احتجاج على المشركين بما يعترفون به، فإنّهم يعترفون بأنّ الله هو المتفرّد بخلق السماوات والأرض وخلق الموجودات.

الإشهاد: جعل الغير شاهدا، أي حاضرا، وهو هنا كناية عن إحضار خاص، وهو إحضار المشاركة في العمل أو الإعانة عليه. ونفي هذا الشهود يستلزم نفي المشاركة في الخلق والإلهية بالفحوى، أي بالأولى، فإنّ

خلق السماوات كان قبل وجود إبليس وذرّيّته، فهو استدلال على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم. وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم، والقدم من لوازم الإلهيّة.

{ **أشهدتم / أنفسهم** } ضمائر الغيبة عائدة إلى المتحدّث عنه، أي إبليس وذرّيّته كما عاد إليهم الضمير في قوله { وَهُمْ لَكُمْ عَدُو }.

واعلم أنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض قبل أن يخلق لهما سكّانهما كما دلّ عليه قوله { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فوْقِهَا وَبَارَكَ فيهَا وَقَدَّرَ فيهَا أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:9-12].

وكان أهل الجاهلية يعتقدون في الأرض جنّا متصرّفين فكانوا إذا نزلوا واديا مَخُوفًا قالوا: أعوذ بعزيز هذا الوادي، ليكونوا في أمن من ضرّه.

{ **وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً** } الجملة تذييل لجملة { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }. والعدول عن الإضمار بأن يقال: وما كنت متخذهم إلى { المضلّين } لإفادة الذم، ولأن التذييل ينبغي أن يكون كلاما مستقلّا.

{ **الْمُضِلِّينَ** } الشياطين، لأنّهم أضلّوا النّاس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس، كما قال تعالى { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام: 121]..

العَضُد: بفتح العين وضم الضاد المعجمة في الأفصح، و بالفتح وسكون الضاد في لغة تميم. وفيه لغات أخرى أضعف. وهو: العظم الذي بين المرفق والكتف. وهو يطلق مجازا على المعين على العمل، يقال: فلان عضدي واعتضدت به.

والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتّخذ أهل الإضلال أعوانا فأشركهم في تصرفي في الإنشاء، فإن الله مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة.

{ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فدَعَوْهُمْ فلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً }[52]

عطف على { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } فيقدّر: واذكر يوم يقول نادوا شركائي، أو على جملة { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [51] فالتقدير: ولا أشهدت شركاءهم جميعا ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر، فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجنّ إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين، مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذ.

وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية بانتفاء لوازمها، فإنّه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها استلزم ذلك انتفاء إلهيتها، وحصل بذلك تشخيص خيبتهم ويأسهم من النجاة.

{ **وَيَوْمَ يَقُولُ** } يوم الحشر. والمعنى: يقول للمشركين، كما دل عليه قوله { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ }، أي زعمتموهم شركائي. وقدم وصفهم بوصف الشركاء قبل فعل الزعم، تهكّما بالمخاطبين وتوبيخا لهم.

{ **نَادُوا** } النداء طلب الإقبال للنصرة والشفاعة.

{ **فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** } والاستجابة الكلام الدال على سماع النداء والإقبال على المنادي بنحو قول: لبيكم. وأمره إيّاهم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمه وهو إظهار باطلهم بقرينة الزعم. ولذلك لم يسعهم إلّا أن ينادوهم، { **فدعوهم** } لطمعهم، فإذا نادوهم تبيّن لهم خيبة طمعهم. ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب. وأتى به في صيغة الماضي للدلالة على تعجيل وقوعه، حتّى كأنّه قد انقضى.

الموبق: مكان الوُبوق، أي الهلاك. يقال: وَبَقَ مثل وعد . والموبق هنا أريد به جهنم، أي حين دعوا أصنامهم بأسمائهم كوّن الله فيما بين مكانهم ومكان أصنامهم فوهات جهنم، ويجوز أن تكون الجملة في مقام الحال.

{ وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً }[53]

عطف على جملة { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً }، أي جعلنا الموبق ورآه المجرمون، فذكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للدلالة على تلبّسهم بما استحقوا به عذاب النار. وكذلك بـ { النّار } في مقام الإضمار للموبق للدلالة على أنّ الموبق هو النّار، فهو شبيه بعطف البيان.

{ **فظَنُّوا** } والظنّ مستعمل هنا في معنى التحقّق وهو من استعمالاته. ولعل اختياره هنا ضرب من التهكّم بهم، بأنّهم رجّحوا أن تلك النار أعدت لأجلهم في حين أنهم موقنون بذلك.

المواقعة: مفاعلة من الوقوع، وهو الحصول لقصد المبالغة.

المصرف: مكان الصرف، أي التخلّص والمجاوزة.

وفي الكلام إيجاز، تقديره: وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفا، أي مخلصا.

{ وَلَقَدْ صَرَّفنَا في هَذَا الْقُرْآنِ للنّاس مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54]

عطف على الجمل السابقة التي ضُربت فيها أمثال من قوله { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ } [32] وقوله {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [45]. ولمّا كان في ذلك لهم مقنع وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدي القرآن عودا ناظرا إلى قوله { وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ } [27] وقوله { وَقُلِ الحقّ مِنْ رَبِّكُمْ فمَنْ

شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ} [29]، فأشار لهم أنّ هذه الأمثال التي قرعت أسماعهم هي من جملة هدي القرآن الذي تبرّموا منه. وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية عند قوله { وَلَقَدْ صَرَّفنَا للنّاس في هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فأَبَى أَكْثَرُ النّاس إِلَّا كُفوراً} [الإسراء:89]، سوى أنّه يتجه هنا أن يُسال لم قدّم في هذه الآية أحد متعلقي فعل التصريف على الآخر إذ قدم هنا قوله { في هَذَا الْقُرْآنِ } على قوله { للناس } عكس آية سورة الإسراء. وهو ما أشرنا إليه عند الآية السابقة من أن ذكر القرآن أهم من ذكر النّاس بالأصالة، ولا مقتضى للعدول عنه هنا بل الأمر بالعكس لأنّ الكلام جار في التنويه بشأن القرآن وأنّه ينزل بالحق لا بهوى الأنفس.

{ **للنّاس** } اسم عام لكلّ من يبلغه القرآن في سائر العصور المستقبلة، والمقصود على الخصوص المشركون. كما دل عليه جملة { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً }. وسيجيء قوله { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } [56]. وهذا يشبه العام الوارد على سبب خاص وقرائن خاصة.

{ **وَكَانَ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** } تذييل، وهو مؤذن بكلام محذوف على وجه الإيجاز، والتقدير: فجادلوا فيه وكان الإنسان أكثر جدلا.

{ **الْإنْسَانُ** } وليس المراد الإنسان الكافر كما في قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [مريم: 66] ولا المراد بالجدل الجدل بالباطل، لأنّ هذا سيجيء في قوله تعالى { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ } فالكلام هنا تمهيد لقوله بعده { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ } [56].

{ **شَيْءٍ** } اسم مفرد متوغّل في العموم. ولذلك صحّت إضافة اسم التفضيل إليه، أي أكثر الأشياء. واسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة، وإنّما أتي بصيغته لقصد المبالغة في شدّة جدل الإنسان وجنوحه إلى المماراة والنزاع. وإنما أُلجئنا إلى هذا التأويل في اسم التفضيل لظهور أنّ غير الإنسان من أنواع ما على الأرض لا يتصور منه الجدل. فالجدل خاص بالإنسان لأنّه من شعب النطق الذي هو فصل حقيقة الإنسانية، أما الملائكة فجدلهم محمود مثل قولهم { أَتَجْعَلُ فيهَا مَنْ يُفسِدُ فيهَا - إلى قوله - ونُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة: 30]. وأمّا الشياطين فهم أكثر جدلا من الإنسان، ولكن لمّا نبا المقام عن إرادتهم كانوا غير مرادين بالتفضيل عليهم في الجدل.

{ **جَدَلاً** } تمييز لنسبة الأكثرية إلى الإنسان. أي كثيرا جدله.

الجدل: المنازعة بمعاوضة القول، أي هو الكلام الذي يحاول به إبطال ما في كلام المخاطب من رأي أو عزم عليه، بالحجة أو بالإقناع أو بالباطل، قال تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت: 46]، وقال { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ } [المجادلة: 1]، وقال تعالى { يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ} [هود: 74]، وقال { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفسَهُمْ } [النساء: 107] وقال { يجادلونك في الحقّ بعد ما تبين} [الأنفال: 6].

والمراد هنا مطلق الجدل وبخاصة ما كان منه بباطل، أي أن كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف بأحقية معتقده أو عمله. وسياق الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل.

{ وَمَا مَنَعَ النَّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً } [55]

عطف على جملة { وَلَقَدْ صَرَّفنَا في هَذَا الْقُرْآنِ } [54]. ومعناها متّصل تمام الاتصال بمعنى الجملة التي قبلها بحيث لو عطفت عليها بفاء التفريع لكان ذلك مقتضى الظاهر. وتعتبر جملة { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54] معترضة بينهما.

{ النَّاس } يعم النّاس الذين يسمعون القرآن في أزمان ما بعد نزول تلك الآية، وهذا يعم النّاس كلهم الذين امتنعوا من الإيمان بالله.

{ الْهُدَى } لفظ عام يشمل هدى القرآن وما قبله من الكتب الإلهية وأقوال الأنبياء كلّها، فكانت هذه الجملة قياسا تمثيليا بشواهد التاريخ وأحوال تلقّي الأمم دعوات رسلهم.

{ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ } وذكر الاستغفار هنا بعد ذكر الإيمان لتلقينهم بأن يبادروا بالإقلاع عن الكفر وأن يتوبوا إلى الله من تكذيب النبيء ومكابرته.

{ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } تحلّ فيهم وتعتريهم. أي تلقى في نفوسهم وتسوِّل إليهم. والمعنى: أنهم يشبهون خُلُق من كانوا قبلهم من أهل الضلال ويقلدونهم، كما قال { أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذريات:53].

{ الأولين } السابقون من الأمم في الضلال والعناد. ويجوز أن يراد بهم الآباء، أي سنّة آبائهم، أي طريقتهم ودينهم. ولكلّ أمّةٍ أمّةٌ سبقتها. وإسناد منعهم من الإيمان إلى إتيان سنة الأولين استعارة.

والمعنى: ما منع النّاس أن يؤمنوا إلّا الذي منع الأولين قبلهم من عادة العناد والطغيان، وطريقتهم في تكذيب الرّسل والاستخفاف بهم.

{ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً }

{ أَوْ } هي التي بمعنى إلى، وانتصاب فعل { يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ } بـ (أن) مضمرة بعد (أو). أي منعهم تقليد سنة الأولين من الإيمان إلى أنّ يأتيهم العذاب كما أتى الأوّلين.

هذا ما بدا لي في تفسير هذه الآية وأراه أليق بموقع هاته الآية من التي قبلها.

{ **قُبُلاً** } حال من العذاب . وهو في قراءة الجمهور { **قِبَلاً** } (بكسر القاف وفتح الباء) بمعنى المقابل الظاهر. وقرأ حمزة وعاصم والككسائي وأبو جعفر وخلف { **قُبُلاً** } (بضمّتين) وهو جمع قبيل، أي يأتيهم العذاب أنواعا.

{ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً } [56]

بعد أن أشار إلى جدالهم في هدى القرآن بما مهّد له من قوله { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54]. وأشار إلى أنّ الجدال فيه مجرّد مكابرة وعناد، وأنّه لا يحفّ بالقرآن ما يمنع من الإيمان به، كما لم يحف بالهدى الذي أرسل إلى الأمم ما يمنعهم الإيمان به، أعقب ذلك بأنّ وظيفة الرسل التبليغ بالبشارة والنذارة لا التصدي للمجادلة، لأنّها مجادلة لم يقصد منها الاسترشاد بل الغاية منها إبطال الحقّ.

{ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ** } مفيدة معنى الاستدراك، أي أرسلنا الرّسل مبشّرين ومنذرين بما فيه مقنع لطالب الهدى، ولكن الذين كفروا جادلوه بالباطل لإزالة الحقّ لا لقصد آخر. واختيار فعل المضارعة للدلالة على تكرر المجادلة، أو لاستحضار صورة المجادلة.

المجادلة: تقدّمت في قوله تعالى { يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ} [هود: 74].

{ **لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ** } الإدحاض: الإزلاق، يقال: دحضت القدم، إذا زلّت، وهو مجاز في الإزالة، لأنّ الرجل إذا زلقت زالت عن موضع تخطيها، قال تعالى { فسَاهَمَ فكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } [الصافات:141].

{ **وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً** } عطف على جملة { وَيُجَادِلُ } فإنّهم ما قصدوا من المجادلة الاهتداء، ولكن أرادوا إدحاض الحقّ واتخاذ الآيات كلها وبخاصة آيات الإنذار هزؤا.

الهُزُو: مصدر هَزَا، أي اتخذوا ذلك مستهزأ به. والاستهزاء بالآيات هو الاستهزاء عند سماعها، كما يفعلون عند سماع آيات الإخبار بالبعث وعند سماع آيات الوعيد والإنذار بالعذاب.

وعطف { وَمَا أُنْذِرُوا } على { الآيات } عطف خاص على عام لأنّه أبلغ في الدلالة على توغل كفرهم وحماقة عقولهم.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً } [57]

لمّا بيّن حالهم من مجادلة الرّسل لسوء نيّة، ومن استهزائهم بالإنذار، وعرّض بحماقتهم أتبع ذلك بأنّه أشدّ الظلم. وذلك لأنّه ظلم المرء نفسه، وهو أعجب الظلم. فقد ذُكّروا ما هم في غفلة عنه تذكيرا بواسطة آيات الله، وأعرضوا عن التأمّل فيها، مع أنّها تنذرهم بسوء العاقبة. وشأن العاقل إذا سمع مثل ذلك أن يتأهّب للتأمّل وأخذ الحذر، كما قال النبيء ﷺ لقريش " إذا أخبرتكم أنّ العدوّ مصبّحكم غدا أكنتم مصدّقي؟ فقالوا: ما جرّبنا عليك كذبا، فقال فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد ".

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } المراد بها المشركين من العرب الذين ذُكّروا بالقرآن فأعرضوا عنه. والاستفهام مستعمل في الإنكار، أي لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدّث عنهم.

{ **فَأَعْرَضَ عَنْهَا** } عطف إعراضهم عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب إشارة إلى أنّهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمّل.

{ **وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** } المعنى أنّه لم يعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم أهي صالحة لا تُخشى عواقبها أم هي سيّئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة، والصلاح بيّن والفساد بيّن، ولذلك سمّي الأوّل معروفا والثاني منكرا، ولا سيما بعد أن جاءتهم الذكرى على لسان الرسول ﷺ.

النسيان: مستعمل في التغاضي عن العمل. وتقدّم عند قوله تعالى {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا} [البقرة:106].

{ **مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** } ما أسلفه من الأعمال. وأكثر ما يُستعمل مثل هذا التركيب في القرآن في العمل السيّء، فصار جاريا مجرى المثل، قال تعالى { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }[آل عمران:182]، وقال { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى: 30].

والآية مصوغة بصيغة العموم، والمقصود الأوّل منها مشركو أهل مكّة.

{ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً** } مستأنفة بيانيّة وهي تفيد معنى التعليل بالمآل.

{ **قُلُوبِهِمْ** } مراد بها مدارك العلم.

الأكنّة: جمع كِنان، وهو الغطاء، لأنّه يُكنّ الشيء، أي يحجبه.

{ **أَنْ يَفقَهُوهُ** } مجرور بحرف محذوف، أي من أن يفقهوه، لتضمين { أكنة } معنى الحائل أو المانع.

والضمير المفرد في { يفقهوه } عائد إلى القرآن المفهوم من المقام والمعبّر عنه بالآيات.

الوقر: ثقل السمع المانع من وصول الصوت إلى الصماخ.

{ **وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً** } عطف على جملة { إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} ، وهي متفرّعة

عليها، ولكنها لم تعطف بالفاء لأنّ المقصود جعل ذلك في الإخبار المستقلّ.
وأكد نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو (لن)، وبلفظ { أبدا } المؤكّد لمعنى (لن)، وبحرف الجزاء (إذا) المفيد تسبّب الجواب على الشرط. وإنّما حصل معنى الجزاء باعتبار تفرع جملة الشرط على جملة الاستئناف البياني، أي ذلك مسبّب على فطر قلوبهم على عدم قبول الحقّ.

{ وَرَبُّكَ الْغَفورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً } [58]

جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلمّا رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة، لعلّهم يتفكّرون في مرضاته، ثم التذكير بأنّه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد، فيؤخّر ما توعّدهم به إلى حد معلوم، إمهالا للنّاس لعلّهم يرجعون عن ضلالهم ويتدبّرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى، فلعلّهم يشكرون، موجّها الخطاب إلى النبيء ﷺ.
وخصّ بالذكر من أسماء الله تعالى اسم { الغفور } تعريضا بالترغيب في الاستغفار.
الغفور: اسم يتضمّن مبالغة الغفران لأنّه واسع المغفرة إذ يغفر لمن لا يحصون ويغفر ذنوبا لا تحصى إن جاءه عبده تائبا منكسرا، على أنّ إمهاله الكفّار والعصاة هو أيضا من أثر المغفرة إذ هو مغفرة مؤقّتة.
{ ذُو الرَّحْمَةِ } بيان لجملة { وَرَبُّكَ الْغَفورُ } باعتبار الغفور الخبر وهو الوصف الثاني.
والمعنى: أنّهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة ولكنّ الله يمهلهم إلى أمد معلوم مقدّر.
وفي ذلك التأجيل رحمة بالنّاس بتمكين بعضهم من مهلة التدارك وإعادة النظر.
فوصف { ذُو الرَّحْمَةِ } يساوي وصف { الرحيم } لأنّ (ذو) تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه. وإنّما عدل عن وصف { الرحيم } إلى { ذو الرحمة } للتنبيه على أنّه خبر لا نعت، تنبيها بطريقة تغيير الأسلوب، فإنّ اسم { الرحيم } صار شبيها بالأسماء الجامدة، لأنّه صيغ بصيغة الصفة المشبّهة فبعُد عن ملاحظة الاشتقاق فيه واقترب من صنف الصفة الذاتية.
{ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً } (بل) للإضراب الإبطالي عن مضمون جواب (لو)، أي لم يعجّل لهم العذاب إذ لهم موعد للعذاب متأخّر. وهذا تهديدٌ بما يحصل لهم يوم بدر.
الموئل: مَفْعل من (وَأَلَ) بمعنى لجأ، فهو اسم مكان بمعنى الملجأ.
وأكد النفي بـ (لن) ردا على إنكارهم، إذ هم يحسبون أنّهم مفلتون من العذاب حين يرون أنّه تأخّر مدة طويلة،

أي لأنّ لا ملجأ لهم من العذاب دون وقت وعده أو مكان وعده، فهو ملجؤهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، أي هم غير مفلتين منه.

{ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً } [59]

بعد أن أزيل غرورهم بتأخّر العذاب، وأبطل الإفلات منه ببيان أنّ ذلك إمهال من أثر رحمة الله بخلقه.
ضرب لهم المثل في ذلك بحال أهل القرى السالفين الذين أُخِّر عنهم العذاب مدّة ثمّ لم ينجوا منه بأَخَرة، فالجملة معطوفة على جملة { بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ } [58].
{ وَتِلْكَ الْقُرَى } الإشارة بـ (تلك) إلى مقدّر في الذهن. والعرب يعرفون ديار عاد وثمود ومدين ويسمعون بقوم لوط وقوم فرعون فكانت كالحاضرة حين الإشارة.
الظلم: الشرك وتكذيب الرّسل.
{ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً } والمُهْلَك (بضم الميم وفتح اللام) مصدر ميمي من (أهلك)، أي جعلنا لإهلاكنا إيّاهم وقتا معيّنا في علمنا إذا جاء حلّ بهم الهلاك. وهذه قراءة الجمهور. وقرأه حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام على أنّه اسم زمان على وزن (**مَفْعِل**). وقرأه أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللام على أنه مصدر ميمي لهلك.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفتَاهُ لا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً }[60]

لما جرى ذكر قصّة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له، وما عرض للشيطان من الكبر والاعتزاز بعنصره، جهلا بأسباب الفضائل ومكابرة في الاعتراف بها وحسدا في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلا لأهل الضلال عبيد الهوى والكبر والحسد، أعقب تلك القصّة بقصة هي مَثَل في ضدّها، لأنّ تطلُّب ذي الفضل والكمال للازدياد منهما وسعيه للظفر بمن يبلّغه الزيادة من الكمال، اعترافا للفاضل بفضلته. وفي ذلك إبداء المقابلة بين الخُلُقين ولإقامة الحجّة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين المؤمنين والكافرين، وفي خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتّقين.
ولأن هذه السورة نزلت بسبب ما سأل المشركون والذين أملوا عليهم من أهل الكتاب عن قصتين قصّة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. وقد تقضَّى الجواب عن القصّة الأولى وما ذيّلت به، وآن أن ينتقل إلى الجواب عن القصّة الثانية، قدمت لهذه القصّة قصّة لها شبه بها في أنّها تطواف في الأرض لطلب نفع صالح. وهي قصّة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى.

وفي سوق هذه القصّة تعريض بأهل الكتاب بأنّ الأولى لهم أن يدلّوا النّاس على أخبار أنبياء بني إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ } معطوفة على { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ } [50] عطف القصّة على القصّة. والتقدير: واذكر إذ قال موسى لفتاه. وناسبها تقدير فعل (اذكر) لأنّ في هذه القصّة موعظة وذكرى كما في قصّة آدم.

الفتى: الذكر الشاب، والأنثى فتاة، وهو مستعمل مجازا في التابع والخادم. وتقدّم عند قوله { تُرَاوِدُ فَتَاهَا } [يوسف:30]. وفتى موسى: خادمه وتابعه، وهو (**يوشع بن نون**) من سبط أفرايم.

وقد قيل: إنّه ابن أخت موسى، كان اسمه الأصلي (هوشع) فدعاه موسى حين بعثه للتجسّس في أرض كنعان يوشع. ولعل ذلك التغير في الاسم تلطّف به، كما قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: " يا أبا هرّ ".

وفي التوراة: أن إبراهيم كان اسمه أبرام فلما أمره الله بخصال الفطرة دعاه إبراهام. ولعلّ هذه التغييرات في العبرانية تفيد معاني غير معاني الأسماء الأولى، فتكون كما دعا النبيء ﷺ زيد الخيل زيدَ الخير.

(يوشع بن نون) أحد الرجال الاثني عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام ليتجسّسوا في أرض كنعان في جهات حلب وحبرون ويختبروا بأس أهلها وخيرات أرضها ومكثوا أربعين يوما في التجسّس. وهو أحد الرجلين اللذين شجعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان اللذين ذكرهما القرآن في آية { قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} [المائدة:23].

كان ميلاد يوشع في حدود سنة (1463 ق م) ووفاته في حدود سنة (1353 ق م) وعمّر مائة وعشر سنين.

وكان موسى عليه السلام قد قرّبه إلى نفسه واتخذه تلميذا وخادما.

وكان يوشع أحد الرجلين الذين عهد إليهما موسى عليه السلام بأن يقسّما الأرض بين أسباط بني إسرائيل بعد وفاته. وأمر الله موسى بأن يعهد إليه بتدبير أمر الأمّة الإسرائيلية، فعهد إليه موسى بذلك فصار نبيّا من يومئذ. ودبّر أمر الأمّة بعد موسى سبعا وعشرين سنة. وكتاب يوشع هو أوّل كتب الأنبياء.

{ لا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً } ابتدئت القصّة بحكاية كلام موسى عليه السلام المقتضي تصميما على أن لا يزول عما هو فيه، أي لا يشتغل بشيء آخر حتّى يبلغ مجمع البحرين، ابتداء عجيبا في باب الإيجاز. ويدلّ على أن فتاه استعظم هذه الرحلة.

{ أَبْرَحُ } مضارع برِح بكسر الراء، بمعنى زال يزول. وتقدّم في سورة يوسف عليه السلام. واستعير هنا لمعنى: لا أترك، أولا أكف عن السير حتّى أبلغ مجمع البحرين.

وحذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى عليه السلام لأنه سيذكر بعد، وهو حذف إيجاز وتشويق. له موقع عظيم في حكاية القصة، لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال قضاء لحق بلاغة الإعجاز.

وتفصيل هذه القصّة وارد في صحيح البخاري من حديث: عمرو بن دينار ويعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب عن النبيء ﷺ: " أنّ موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي النّاس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى الله إليه: بلى عبدُنا خِضْرٌ هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى عليه السلام: يا رب اجعل لي عَلَمًا أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتا في مِكْتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتا فجعله في مكتل وقال لفتاه يوشع بن نون: لا أكلفك إلّا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال(فتاه): ما كلّفت كثيرا. ثم انطلق وانطلق بفتاه حتّى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وموسى نائم، فقال فتاه (وكان لم ينم): لا أوقظه وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار الماء عليه مثل الطاق. فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهما حتّى إذا كان من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم يجد موسى النصب حتّى جاوز المكان الذي أمره الله به (أي لأنّ الله ميسّر أسباب الامتثال لأوليائه) فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجبا. قال: فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدّا على آثارهما قصصا، قال: رجعا يَقُصَّان آثارهما حتّى انتهى إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى ثوبا فسلم عليه موسى. فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام...".

{ **مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ** } لا ينبغي أن يختلف في أنّه مكان من أرض فلسطين. والأظهر أنّه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنّه النهر العظيم الذي يمرّ بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تسمّى عند الإسرائيليين بحر الجليل.

ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنّه يعلم علوما من معاملة النّاس لم يعلّمها الله لموسى. فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم. وهو تفاوت نسبي.

الخضر: اسم رجل صالح. قيل: هو نبي من أحفاد عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام. فهو الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابر. فيكون ابن عم الجد الثاني لإبراهيم عليه السلام. وقيل: الخضر لقبه. وأمّا اسمه فهو (بليا) بموحدة أو (إيليا) بهمزة وتحتية.

واتفق النّاس على أنّه كان من المعمرين، ثم اختلفوا في أنّه لم يزل حيّا، اختلافا لم يُبْنَ على أدلّة مقبولة متعارفة ولكنّه مستند إلى أقوال بعض الصوفية. وهي لا ينبغي اعتمادها لكثرة ما يقع في كلامهم من الرموز والخلط بين الحياتين الروحية والمادية، والمشاهدات الحسّيّة والكشفيّة، وقد جعلوه رمز العلوم الباطنية كما سيأتي.

وزعم بعض العلماء أن الخضر هو جرجس: وقيل: هو من ذرية عيسو بن إسحاق. وقيل: هو نبي بعث بعد شعيب.

قيل: لقّب خضرا لأنّه كان إذا جلس على الأرض أخضر ما حوله، أي أخضر بالنبات من أثر بركته.

والمحقّق أن قصّة الخضر وموسى يهوديّة الأصل ولكنّها غير مسطورة في كتب اليهود المعبّر عنها بالتوراة أو العهد القديم. ولعلّ عدم ذكرها في تلك الكتب هو الذي أقدم (نَوْفًا البكالي) على أن قال: إنّ موسى المذكور في هذه الآيات هو غير موسى بني إسرائيل، كما ذكر ذلك في صحيح البخاري، وأنّ ابن عباس كذّب نوفا، وساق الحديث المتقدّم.

وقيل هو رجل آخر اسمه (موسى بن ميشا) أو (مِنسه ابن يوسف بن يعقوب). وسمّي الخضر بليا بن ملكان أو إيليا أو إلياس، فقيل: إن الخضر هو إلياس المذكور في سورة يس.

ولا يصح أن يكون الخضر من بني إسرائيل إذ لا يجوز أن يكون مكلفا بشريعة موسى ويُقرُّه موسى على أفعال لا تبيحها شريعته. بل يتعيّن أن يكون نبيّا موحى إليه بوحي خاص، وعَلِمَ موسى أنّه من أمّة غير مبعوث موسى إليها. لذلك لم يصرفه عنه ما رأى من أعماله التي تخالف شريعة التوراة.

وأمّا وجوده في أرض بني إسرائيل فهو من السياحة في العبادة، أو أمره الله بأن يحضر في المكان الذي قدّره للقاء موسى رفقا بموسى عليه السلام.

{ **أَوَأَمْضِيَ** } أو أسير. والمضيّ: الذهاب والسير.

الحُقُب: (بضمتين) اسم للزمان الطويل غير منحصر المقدار، وجمعه أحقاب.

أي إمّا أن أبلغ المكان أو أمضي زمنا طويلا. ولما كان موسى لا يخامره الشك في وجود مكان هو مجمع للبحرين وإلقاء طلبته عنده، لأنه علم ذلك بوحي من الله تعالى، تعين أن يكون المقصود بحرف الترديد تأكيد مضيّه زمنا يتحقّق فيه الوصول إلى مجمع البحرين.

وكأنه أراد بهذا تأييس فتاه من محاولة رجوعهما. كما دلّ عليه قوله بعد { لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفرِنَا هَذَا نَصَباً } [62]، أو أراد شحذ عزيمة فتاه ليساويه في صحّة العزم، حتّى يكونا على عزم متّحد.

{ فلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً [61] فلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفرِنَا هَذَا نَصَباً [62] قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً } [63].

{ **فلَمَّا بَلَغَا** } الفاء للتفريع والفصيحة لأنّها تفصح عن كلام مقدّر، أي فسارا حتّى بلغا مجمع البحرين.

{ **بينهما** } عائد إلى البحرين، أي محلا يجمع بين البحرين.

{ **نَسِيَا حُوتَهُمَا** } والحوت هو الذي أمر الله موسى باستصحابه معه ليكون له علامة على المكان الذي فيه الخضر، كما تقدّم في سياق الحديث.

النسيان: تقدّم في قوله تعالى { أَوْ نُنْسِهَا } [البقرة:106].

السَّرَبُ: النفق. و**الاتخاذ**: الجعل. وقد انتصب {سربا} على الحال من {سبيله} مرادا بالحال التشبيه.

وقد مر تفسير كيف اتخذ البحر سربا في الحديث السابق عن أبي بن كعب.

الغداء: طعام النهار مشتقّ من كلمة الغدوة، لأنّه يؤكل في وقت الغدوة، وضدّه العشاء، وهو طعام العشيّ.

النصب: التعب.

الصخرة: صخرة معهودة لهما. إذ كانا قد أويا إليها في سيرهما فجلسا عليها، وكانت في مجمع البحرين. قيل: إن موضعها دون نهر يقال له: نهر الزيت، لكثرة ما عنده من شجر الزيتون.

{ **فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ** } أي نسيت حفظه وافتقاده. أي فانقلب في البحر.

{ **وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ** } هذا نسيان آخر غير النسيان الأوّل. فهذا نسيان ذكر الإخبار عنه. وقرأ حفص عن عاصم { وَمَا أَنْسَانِيهُ } بضم هاء الضمير على أصل الضمير وهي لغة. والكسر أشهر لأنّ حركة الكسرة بعد الياء أخف.

{ **أَنْ أَذْكُرَهُ** } بدل اشتمال من ضمير { أنسانيه } لا من الحوت، والمعنى: ما أنساني أن أذكره لك إلّا الشيطان. فالذكر هنا ذكر اللسان.

ووجه حصره إسناد هذا الإنساء إلى الشيطان أنّ ما حصل له من نسيان أن يخبر موسى بتلك الحادثة نسيان ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدّة الاهتمام بالأمر المنسي وشدّة عنايته بإخبار نبيه به. ومع كون المنسي أعجوبة شأنها أن لا تُنسى، يتعيّن أنّ الشيطان يسوءه التقاء هذين العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة فهو يصرف عنها ولو بتأخير وقوعها طمعا في حدوث العوائق.

{ **وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً** } عطف على جملة { فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} وهي بقية كلام فتى موسى، أي وأنّه اتخذ سبيله في البحر، أي سبح في البحر بعد أن كان ميّتا زمنا طويلا.

{ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً [64] فوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً [65] قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ممّا عُلِّمْتَ رُشْداً [66] قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً [67] وَكَيْف تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً [68] قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً [69] قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } [70].

{ **قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ** } جواب عن كلامه، ولذلك فصلت كما بيّنّاه غير مرّة.

{ **ذلك**} الإشارة إلى ما تضمّنه خبر الفتى من فقد الحوت. ومعنى كونه المبتغى أنّه وسيلة المبتغى. وإنّما المبتغى هو لقاء العبد الصالح في المكان الذي يُفقد فيه الحوت.

{ **نَبْغِ** } كتب في المصحف بدون ياء في آخره، فقيل: أراد الكاتبون مراعاة حالة الوقف، لأنّ الأحسن في الوقف على ياء المنقوص أن يوقف بحذفها. وقيل: أرادوا التنبيه على أنهّا رويت محذوفة في هذه الآية. والعرب يميلون إلى التخفيف. فقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر بحذف الياء في الوقف وإثباتها في الوصل. وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر بحذف الياء في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، ويعقوب بإثباتها في الحالين.

والنون نون المتكلّم المشارك، أي ما أبغيه أنا وأنت، وكلاهما يبغي ملاقاة العبد الصالح.

الارتداد: أي رجعا على آثار سيرهما، أي رجعا على طريقهما الذي أتيا منه.

القصص: مصدر قصّ الأثر، إذا توخّى متابعته كيلا يخطئا الطريق الأول.

{ **فوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا** } المراد به الخِضْر، ووُصف بأنّه من عباد الله تشريفا له، كما تقدّم عند قوله تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الاسراء: 1]. وعدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنّه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وللإشارة إلى أنّ هذا الحال الغريب الذي ذكر من قصّته ما هو إلّا من أحوال عباد كثيرين لله تعالى.

{ **آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا** } وإيتاء الرحمة يجوز أن يكون معناه: أنّه جُعل مرحوما، وذلك بأن رفق الله به في أحواله. ويجوز أن يكون جعلناه سبب رحمة بأن صرَّفه تصرّفا يجلب الرحمة العامة.

{ **وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** } والعلم من لدن الله: هو الإعلام بطريق الوحي.

(**لدن**) حقيقته اسم مكان قريب، مثل {عند}. ويستعملان مجازا في اختصاص المضاف إليه بموصوفهما.

والمخالفة بين { مِنْ عِنْدِنَا } وبين { من لدنا } للتفنّن تفاديا من إعادة الكلمة.

أي آتيناه رحمة صدرت من مكان القرب، وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلما صدر منه أيضا.

وذلك أنّ ما أوتيه من الولاية أو النبوءة رحمة عزيزة، أو ما أوتيه من العلم عزيز، فكأنّهما ممّا يُدّخر عند الله

فلا يُعطى إلّا للمصطفين.

{ **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ممّا عُلِّمْتَ رُشْداً** } ابتداء محاورة، فهو استئناف ابتدائي، ولذلك وقع التعبير بـ { **قَالَ** } مجرّدة عن العاطف.

{ **هَلْ أَتَّبِعُكَ** } الاستفهام مستعمل في العرض بقرينة أنّه استفهام عن عمل نفس المستفهم.

الاتباع: مجاز في المصاحبة، كقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [النجم: 28].

{ **عَلَى** } مستعملة في معنى الاشتراط، لأنّه استعلاء مجازي. فصيغة: أفعل كذا على كذا. من صيغ الالتزام والتعاقد.

ويؤخذ من الآية جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم. كما في حديث تزويج المرأة التي عرضت نفسها على النبيء ﷺ فلم يقبلها، فزوّجها من رغب فيها على أن يعلّمها ما معه من القرآن.

وفيه أنّه التزام يجب الوفاء به. وقد تفرع عن حكم لزوم الالتزام أنّ العرف فيه يقوم مقام الاشتراط، فيجب على المنتصب للتعليم أن يعامل المتعلمين بما جرى عليه عرف أقاليمهم.

ذكر عياض في باب صفة مجلس مالك العلم من كتاب المدارك: أنّ رجلا خراسانيا جاء من خراسان إلى المدينة للسماع من مالك فوجد النّاس يعرضون عليه وهو يسمع ولا يسمعون قراءة منه عليهم، فسأله أن يقرأ عليهم فأبى مالك، فاستدعى الخراساني قاضي المدينة. وقال: جئت من خراسان ونحن لا نرى العرض وأبى مالك أن يقرأ علينا. فحكم القاضي على مالك: أن يقرأ له، فقيل لمالك: أأصاب القاضي الحق؟ قال: نعم.

وفيه أيضا إشارة إلى أنّ حقّ المعلّم على المتعلّم اتباعه والاقتداء به.

{ **رُشْداً** } انتصب على المفعولية لـ { **تُعَلِّمَنِ** } أي ما به الرشد، أي الخير.

وهذا العلم الذي سأل موسى تعلّمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلّق بالتشريع للأمّة الإسرائيلية، فإنّ موسى مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلّا من وحي الله إليه مباشرة، لأنّه لذلك أرسله، وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه.

وإنّما رام موسى أن يعلم شيئا من العلم الذي خصّ الله به الخضر، لأنّ الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير. وقد قال الله تعالى تعليما لنبيّه { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً } [طه: 114].

وهذا العلم الذي أوتيه الخضر هو علم سياسة خاصة غير عامة، تتعلّق بمعيَّنين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة بحسب ما تهيّئه الحوادث والأكوان لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة. فلعلّ الله يسّره لنفع معيّنين من عنده كما جعل محمدا ﷺ رحمة عامة لكافة النّاس، ومن هنا فارق سياسة التشريع العامة.

ونظيره معرفة النبيء ﷺ أحوال بعض المشركين والمنافقين، وتحقّقه أنّ أولئك المشركين لا يؤمنون وهو مع ذلك يدعوهم دوما إلى الإيمان، وتحقّقه أن أولئك المنافقين غير مؤمنين وهو يعاملهم معاملة المؤمنين، وكان

حذيفة بن اليمان يعرفهم بأعيانهم بإخبار النبيء ﷺ إيّاه بهم.

{ **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** } أكّد الجملة بحرف (إنّ) وبحرف (لن) تحقيقا لمضمونها من توقّع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه، لأنّه علم أنّه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف. ولمّا كان موسى عليه السلام من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجراء الأحكام على الظاهر، علم أنّه سينكر ما يشاهده من تصرّفاته، لاختلاف المشربين، لأنّ الأنبياء لا يقرّون المنكر.

وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه، حتّى يقدم على متابعته، إن شاء، على بصيرة وعلى غير اغترار، وليس المقصود منه الإخبار.

فمناط التأكيدات في الجملة إنّما هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تُتحمّل.

وفي هذا أصل من أصول التعليم، أن ينبّه المعلِّمُ المتعلِّمَ بعوارض موضوعات العلوم الملقّنة، لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقّة.

{ **صَبْراً** } وزادها تأكيدا عموم الصبر المنفي، لوقوعه نكرة في سياق النفي. فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه.

{ **وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً** } في موضع الحال من اسم (إن) أو من ضمير (تستطيع) . فالواو واو الحال وليست واو العطف، لأن شأن هذه الجملة أن لا تعطف على التي قبلها لأنّ بينهما كمال الاتصال إذ الثانية كالعلّة للأولى.

{ **وَكَيْف** } للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي وأنت لا تصبر على ما لم تحط به خبرا.

{ **خُبْراً** } العلم. وهو منصوب على أنّه تمييز لنسبة الإحاطة في قوله { مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ }.

الإحاطة: مجاز في التمكّن، تشبيها لقوّة تمكّن الاتصاف بتمكّن الجسم المحيط بما أحاط به.

{ **قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً** } أبلغ في ثبوت الصبر من نحو: سأصبر، لأنّه يدلّ على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه. وظاهر أنّ متعلّق الصبر هنا هو الصبر على ما من شانه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في المتابعة، ومن مشاهدة ما لا يتحمّله إدراكه، ومن ترقّب بيان الأسباب والعلل والمقاصد.

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } وفي تأكيده ذلك بالتعليق على مشيئة الله استعانة به وحرصا على تقدّم التيسير، تأدّبا مع الله إيذانٌ بأنّ الصبر والطاعة من المتعلّم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلّم الساذج، لأنّ خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب. إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها. فالمتعلّمُ الذي له نصيب من العلم وجاء طالبا الكمال في علومه إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرّر في علمه يبادر إلى الاعتراض والمنازعة. وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذه.

{ **وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً** } ولمّا كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمر فيما يأمره به عطف عليه ما يفيد الطاعة إبلاغا في الاتّسام بأكمل أحوال طالب العلم. فالجملة معطوفة على جملة { ستجدني } ، أو هو من عطف الفعل على الاسم المشتق عطفا على { صابرا } فيؤوّل بمصدر، أي وغير عاص.

وفي هذا دليل على أنّ أهم ما يتّسم به طالب العلم هو الصبر والطاعة للمعلّم.

والتزام موسى ذلك مبني على ثقته بعصمة متبوعه، لأنّ الله أخبره بأنّه آتاه علما.

{ **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** } تفريع على وعد موسى إيّاه بأنّه يجده صابرا، ففرّع على ذلك نهيه عن السؤال عن شيء ممّا يشاهده من تصرفاته حتّى يبيّنه له من تلقاء نفسه.

وأكّد النهي بحرف التوكيد تحقيقا لحصول أكمل أحوال المتعلّم مع المعلّم، لأنّ السؤال قد يصادف وقت اشتغال المسؤول بإكمال عمله فتضيق له نفسه، فربّما كان الجواب عنه بدون شره نفس. وربّما خالطه بعض القلق فيكون الجواب غير شاف. فأراد الخضر أن يتولّى هو بيان أعماله في الإبّان الذي يراه مناسبا، ليكون البيان أبسط والإقبال أبهج فيزيد الاتصال بين القرينين.

الذكر: هنا ذكر اللسان. أعني بيان العلل والتوجيهات وكشف الغوامض .

{ **حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** } وإحداث الذكر إنشاؤه وإبرازه.

{ **تَسْأَلْنِي** } قرأ نافع بالهمز وبفتح اللام وتشديد النون { تَسْأَلَنِّي } على أنّه مضارع سأل المهموز مقترنا بنون التوكيد الخفيفة المدغمة في نون الوقاية وبإثبات ياء المتكلّم. وقرأ ابن عامر مثله. لكن بحذف ياء المتكلم. وقرأ البقية { تسألْني } بالهمز وسكون اللام وتخفيف النون. وأثبتوا ياء المتكلم.

{ فانْطَلَقَا حتّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً }[71]

الانطلاق: الذهاب والمشي، مشتقّ من الإطلاق وهو ضدّ التقييد. لأنّ الدابة إذا حُلّ عقالها مشت.

{ **حتّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ خَرَقَهَا** } غاية للانطلاق. أي إلى أن ركبا في السفينة. و(حتّى) ابتدائية. وفي الكلام إيجاز، وأصل الكلام: حتّى استأجرا سفينة فركباها فلمّا ركبا في السفينة خرقها.

{ **إِذَا** } ظرف للزمان الماضي هنا. وليست متضمّنة معنى الشرط. وهذا التوقيت يؤذن بأخذه في خرق السفينة حين ركوبهما. وفي ذلك ما يشير إلى أنّ الركوب فيها كان لأجل خرقها.

{ **السَّفينَةِ** } تعريف العهد الذهني، مثل التعريف في قوله تعالى { وَأَخَاف أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } [يوسف:13].

الخرق: الثقب والشق. وهو ضد الالتئام.

{ **قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً** } الاستفهام للإنكار. ومحلّ الإنكار هو العلة { لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا } لأنّ العلّة ملازمة للفعل المستفهم عنه. ولذلك توجّه أن يغيّر موسى عليه السلام هذا المنكر في ظاهر الأمر.

الإمر (بكسر الهمزة): هو العظيم المفظع. يقال: أَمِرَ (كفرح) إِمْرًا، إذا كثر في نوعه. ولذلك فسّره الراغب بالمنكر. لأنّ المقام دال على شيء ضارّ. ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدّة وصراحة. ولم يجعله نكرا كما في الآية بعدها لأنّ العمل الذي عمله الخضر ذريعة للغرق ولم يقع الغرق بالفعل.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } [72]

استفهام تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، أي أتقرّ أني قلت إنّك لا تستطيع معي صبرا. فاستطاعة الصبر المنفيّة هي التي تكون في صحبته، لأنّه يرى أمورا عجيبة لا يدرك تأويلها.

{ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً }[73]

اعتذر موسى بالنسيان وكان قد نسي التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره.

{ **لا تُؤَاخِذْنِي** } النهي مستعمل في التعطّف والتِماس عدم المؤاخذة، لأنّه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر. ولذلك بُني كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يُبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقا بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار.

المؤاخذة: مفاعلة من الأخذ، وهي هنا للمبالغة لأنّها من جانب واحد كقوله تعالى { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ } [النحل: 61].

الإرهاق: تعدية رهق، إذا غشي ولحق، أي لا تغشني عسرا. وهو هنا مجاز في المعاملة بالشدّة.

العسر: الشدّة وضدّ اليسر. والمراد، هنا: عسر المعاملة، أي عدم التسامح معه فيما فعله، فهو يسأله الإغضاء والصفح.

{ **من** } يجوز أن تكون ابتدائيّة، فكون المراد بأمره نسيانه، أي لا تجعل نسياني منشئا لإرهاقي عسرا. ويجوز أن تكون بيانيّة، فيكون المراد بأمره شأنه معه.

{ فانْطَلَقَا حتّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً }[74]

{ **فانْطَلَقَا** } يدل هذا التفريع، على أنّ الخضر قبل عذره وانطلقا مصطحبين.

{ **حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاما** } كقوله { حَتَّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ } [الكهف: 71].

{ **فقَتَلَهُ** } تعقيب لفعل { لقيا } تأكيدا للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكانت المبادرة بقتل الغلام عند لقائه أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها.

وكلام موسى في إنكار ذلك جرى على نسق كلامه في إنكار خرق السفينة سوى أنّه وصف هذا الفعل بأنّه **نُكُر** (بضمّتين): الذي تنكره العقول وتستقبحه. فهو أشدّ من { **شَيْئاً إِمْراً** }، لأنّ هذا فساد حاصل والآخر ذريعة فساد، كما تقدّم.

{ **نَفساً زَكِيَّةً** } لأنّها نفس غلام لم يبلغ الحلم، فلم يقترف ذنبا فكان زكيّا طاهرا. و**الزكاء**: الزيادة في الخير.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب { زاكية } بألف بعد الزاي اسم فاعل من زكا. وقرأ الباقون { زكيّة } . وهما بمعنى واحد.

قال ابن عطية: " النون من قوله { **نكرا** } هي نصف القرآن. أي نصف حروفه. وقد تقدّم أنّ ذلك مخالف لقول الجمهور: إنّ نصف القرآن هو حرف التاء من قوله تعالى { **وليتلطف** } في هذه السورة ".

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً [75] قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً } [76].

كان جواب الخضر هذا على نسق جوابه السابق إلّا أنّه زاد ما حُكي في الآية بكلمة { **لَكَ** } وهو تصريح بمتعلّق فعل القول. وإذ كان المقول له معلوما من مقام الخطاب كان في التصريح بمتعلق فعل القول تحقيق لوقوع القول وتثبيت له وتقوية، والداعي لذلك أنّه أهمل العمل به.

{ **قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي** } وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان، إمّا لأنّه لم يكن نسي، ولكنّه رجّح تغيير المنكر العظيم. وهو قتل النفس بدون موجب، وإمّا لأنّه نسي، وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرّر الاعتذار به. وعلى الاحتماليين فقد عدل إلى المبادرة باشتراط ما تطمئن إليه نفس صاحبه، بأنّه إن عاد للسؤال الذي لا يبتغيه صاحبه فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده.

وفي الحديث عن النبيء ﷺ: " كانت الأولى من موسى نسيانا، والثانية شرطا " ، فاحتمل كلام النبيء الاحتمالين المذكورين.

وأنصف موسى إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنبا لإحراجه.

{ **قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً** } قد وصلت من جهتي إلى العذر. فاستعير (بلغت) لمعنى (تحتّم و تعيّن) لوجود أسبابه، بتشبيه العذر في قطع الصحبة بمكان ينتهي إليه السائر على طريقة المكنية.

وقرأ نافع، وأبو بكر، وأبو جعفر { من لدني } بتخفيف النون على أنّه حذف منه نون الوقاية تخفيفا، وقرأ الجمهور{ لدنّي } بتشديد النون. قال ابن عطية: وهي قراءة النبيء ﷺ يعني أّن فيها سندا خاصا مرويا فيه عن النبيء ﷺ كما تقدّم في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير.

{ فانْطَلَقَا حتّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُمَا فوَجَدَا فيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقضَّ فأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً } [77]

نظم قوله { فانْطَلَقَا حتّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا } كنظم نظيريه السابقين.

الاستطعام: طلب الطعام. وموقع جملة {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا} كموقع جملة {خرقها} وجملة {فقتله}.

{ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُمَا } إظهار لفظ { أهلها } دون الإتيان بضميرهم بأن يقال: استطعماهم، لزيادة التصريح. تشنيعا بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيّفوهما وذلك لؤم، لأنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام، وهي من المواساة المتّبعة عند النّاس، ويقوم بها من ينتدب إليها ممّن يمرّ عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعدّ نفسه لذلك من كرام القبيلة.

وفي الآية دليل على أباحة طلب الطعام لعابر السبيل لأنّه شرع من قبلنا، وحكاه القرآن ولم يرد ما ينسخه.

ودل لَوْم موسى الخضر، على أن لم يأخذ أجر إقامة الحائط على صاحبه من أهل القرية، على أنّه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة بحرمانهم من إقامة الجدار في قريتهم.

وفي الآية مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية. وفي حديث الموطأ أنّ النبيء ﷺ قال: " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة (أي يتحفه ويبالغ في بره) وضيافته ثلاثة أيام (أي إطعام وإيواء بما حضر من غير تكلّف كما يتكلف في أول ليلة) فما كان بعد ذلك فهو صدقة "

قال الجمهور: الضيافة من مكارم الأخلاق وهي مستحبة وليست واجبة. وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي. وقال سحنون: " الضيافة على أهل القُرى والأحياء ، أمّا الحضر فالفندق ينزل فيه المسافرون ". ونُسب إلى مالك.

وقال الشافعي ومحمد بن عبد الحكم من المالكية: " الضيافة حق على أهل الحضر والبوادي".

وقال الليث واحمد: الضيافة فرض يوما وليلة.

{ أَنْ يُضَيِّفوهُمَا } يقال: ضيّفه وأضافه. فهو مضيِّف بالتشديد. ومُضيف بالتخفيف. والمتعرّض للضيافة: ضائف ومتضيّف. يقال: ضفته وتضيّفته. إذا نزل به ومال إليه.

الجدار: الحائط المبني.

{ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ } أشرف على الانقضاض. أي يكاد يسقط. فعبّر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة.

إقامة الجدار: تسوية ميله. وكانت إقامته بفعل خارق للعادة بأن أشار إليه بيده كالذي يسوي شيئا ليّنا، كما ورد في بعض الآثار.

{ **قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** } لَوْم، أي كان في مُكنتك أن تجعل لنفسك أجرا على إقامة الجدار، تأخذه ممن يملكه من أهل القرية، ولا تقيمه مجانا لأنّهم لم يقوموا بحقّ الضيافة.
وهذا اللوم يتضمن سؤالا عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر. وليس هو لومًا على مجرد إقامته مجانا، لأنّ ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم.

{ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً [78] أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً [79] وأَمَّا الْغُلامُ فكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً [80] فأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً [81] وَأَمَّا الْجِدَارُ فكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [82].
{ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** } المشار إليه بلفظ { هذا } مقدّر في الذهن حاصل من اشتراط موسى على نفسه أنّه إن سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما، أي هذا الذي حصل الآن هو فراق بيننا، وكثيرا ما يكون المشار إليه مقدّرا في الذهن كقوله تعالى { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ } [القصص: 83].
{ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، تقع جوابا لسؤال يهجس في خاطر موسى عليه السلام عن أسباب الأفعال التي فعلها الخضر عليه السلام وسأله عنها موسى، فإنّه قد وعده أن يُحدث له ذكرا ممّا يفعله.
التأويل: تفسير لشيء غير واضح، وهو مشتقّ من الأول وهو الرجوع. شبّه تحصيل المعنى على تكلّفٍ بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه. وقد مضى في المقدمة الأولى من مقدّمات هذا التفسير.
{ **مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } تعريض باللوم على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده بقوله { فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً }.
المساكين: هنا بمعنى ضعفاء المال الذين يرتزقون من جهدهم ويُرَقّ لهم لأنّهم يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم. فليس المراد أنهم فقراء أشدّ الفقر كما في قوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } [التوبة: 60].
{ **فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا** } متفرّعة على كل من جملتي {فكَانَتْ لِمَسَاكِينَ} ، {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ} ، فكان حقّها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر، ولكنّها قدّمت خلافا لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام والعناية بإرادة

إعابة السفينة، حيث كان عملا ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح، زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأنّ كون السفينة لمساكين ممّا يزيد السامع تعجّبا في الإقدام على خرقها.

{ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً } هو ملك بلادهم بالمرصاد منهم ومن أمثالهم يسخّر كل سفينة يجدها غصبا، أي بدون عوض، وكان ذلك لنقل أمور بناء أو نحوه ممّا يستعمله الملك في مصالح نفسه وشهواته. كما كان الفراعنة يسخّرون النّاس للعمل في بناء الأهرام.

ولو كان ذلك لمصلحة عامة للأمّة لجاز التسخير من كلٍ بحسب حاله من الاحتياج، لأنّ ذلك فرض كفاية بقدر الحاجة وبعد تحققها.

وراء: اسم الجهة التي خلف ظهر من أضيف إليه ذلك الاسم،وهو ضدّ أمام وقدّام. ويستعار (الوراء) لحال تعقّب شيء شيئا، وحال ملازمة طلب شيء شيئا بحق، وحال الشيء الذي سيأتي قريبا. كلّ ذلك تشبيه بالكائن خلف شيء لا يلبث أن يتّصل به، كقوله تعالى { مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ } [الجاثية: 10].

وبعض المفسّرين فسروا { وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ } بمعنى أمامهم ملك. فتوهّم بعض مدوني اللغة أن {وراء} من أسماء الأضداد، وأنكره الفراء. وقال الزجاج: وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة.

{ كُلَّ سَفِينَةٍ } أي صالحة، بقرينة قوله { فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } .

وقد ذكروا في تعيين هذا الملك وسبب أخذه للسفن قصصا وأقوالا لم يثبت شيء منها بعينه، ولا يتعلّق به غرض في مقام العبرة.

وتصرّف الخضر في أمر السفينة تصرّف برعي المصلحة الخاصة عن إذن من الله بالتصرّف في مصالح الضعفاء، إذ كان الخضر عالما بحال الملك، أو كان الله أعلمه بوجوده حينئذ، فتصرّف الخضر قائم مقام تصرّف المرء في ماله، بإتلاف بعضه لسلامة الباقي. وهذا أمر خفي لم يطلع عليه إلّا الخضر. فلذلك أنكره موسى.

{ وأَمَّا الْغُلامُ فكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً } وأمّا تصرّفه في قتل الغلام فتصرّف بوحي من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحي، فليس من مقام التشريع. وأراد الله اللطف بأبويه بحفظ إيمانهما، ففي هذا مصلحة للدين بحفظ أتباعه من الكفر، وهو مصلحة خاصة فيها حفظ الدين.

الخشية: توقع ذلك لو لم يتدارك بقتله.

{ فأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً }.

الزكاة: الطهارة

الرُحْم (بضم الراء وسكون الحاء): نظير الكثر للكثرة.

{ **يُبْدِلَهُمَا** } قرأ الجمهور {أَنْ يُبَدِّلَهُمَا} بفتح الموحدة وتشديد الدال من التبديل. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف بسكون الموحدة وتخفيف الدال من الإبدال.

{ **فخشينا – فأردنا** } ضميرا الجماعة عائدان إلى المتكلّم الواحد بإظهار أنّه مشارك لغيره في الفعل. وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم، لأنّ المقام مقام الإعلام بأنّ الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع فقال: {فخشينا.. فأردنا} ، ولم يقل مثله عندما قال { فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } لأنّ سبب الإعابة إدراكه متيسّر لمن له علم بحال تلك الأصقاع.

{ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ** }

وأمّا قضية الجدار فالخضر تصرّف في شأنها عن إرادة الله اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه. إذ علم الله أن أباهما كان يهمّه أمر عيشهما بعده. وكان قد أودع تحت الجدار مالا. ولعلّه سأل الله أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما أن يبحثا عن مدفن الكنز تحت الجدار بقصد أو بمصادفة. فلو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولت الأيدي مكانه بالحفر ونحوه فعثر عليه عاثر، فذلك أيضا لطف خارق للعادة. وقد أسند الإرادة في قصّة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأنّ العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كلّ من يقف على سرّه لأنّ فيهما دفع فساد عن النّاس بخلاف قصّة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين.

{ **رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } تصريح بما يزيل إنكار موسى عليه تصرفاته هذه بأنّها رحمة ومصلحة فلا إنكار فيها بعد معرفة تأويلها.

{ **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** } ثم زاد بأنّه فعلها عن وحي من الله، وقد علم موسى ذلك، لأنّ النبيء إنّما يتصرّف عن اجتهاد أو عن وحي، فلمّا نفى أن يكون فعله ذلك عن أمر نفسه تعيّن أنّه عن أمر الله تعالى.

{ **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } فذلكة للجمل التي قبلها ابتداء من قوله {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ}، فالإشارة بذلك إلى المذكور في الكلام السابق، وهو تلخيص للمقصود، كحوصلة المدرّس في آخر درسه.

{ **تَسْطِعْ** } مضارع (اسطاع) بمعنى (استطاع). حذف تاء الاستفعال تخفيفا لقربها من مخرج الطاء.

والمخالفة بينه وبين قوله { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } للتفنّن، تجنبا لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتدئ بأشهرهما استعمالا وجيء بالثانية بالفعل المخفّف.

واعلم أن قصّة موسى والخضر قد اتّخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلا بنوا عليه قواعد موهومة. فأوّل ما أسّسوه منها أنّ الخضر لم يكن نبيّا وإنّما كان عبدا صالحا، وأنّ العلم الذي أوتيه ليس وحيا ولكنّه إلهام، وأنّ تصرّفه الذي تصرّفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأنّ الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدّة الدنيا ليكون مرجعا لتلقّي العلوم الباطنية، وأنّه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقّيه.

وبنوا على ذلك أنّ الإلهام ضرب من ضروب الوحي، وسمّوه الوحي الإلهامي، وأنّه يجيء على لسان ملك الإلهام، وقد فصّله الشيخ محيي الدين ابن عربي في الباب الخامس والثمانين من كتابه (الفتوحات المكّيّة)، وبيّن الفرق بينه وبين وحي الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها منشورة في الأبواب الثالث والسبعين، والثامن والستين بعد المائتين، والرابع والستين بعد ثلاثمائة (73 / 268 / 364)، وجزم بأنّ هذا الوحي الإلهامي لا يكون مخالفا للشريعة، وأطال في ذلك، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز.

وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يسمّى بالإلهام حجّة. وعرفّوه بأنّه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجّة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوما، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم. وقد تعرّض لها النسفي في عقائده ، وكلّ ما قاله النسفي في ذلك حقّ، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط.

والأظهر أنّ الخضر نبيء عليه السلام وأنّه كان موحى إليه بما أوحي، لقوله { وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي }، وأنّه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصّت في هذه السورة، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفرض.

{ وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً [83] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } [84].

{ **وَيَسْأَلونَكَ** } يدلّ على أنّها ممّا نزلت السورة للجواب عنه، كما كان الابتداء بقصّة أصحاب الكهف.

وقد ذكرنا عند تفسير قوله تعالى { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الإسراء:85] عن ابن عباس أنّ المشركين بمكّة سألوا النبيء ﷺ ثلاثة أسئلة، بإغراء من أحبار اليهود في يثرب. فقالوا: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أجاب عنها كلّها فليس بنبيء وإن أجاب عن بعضها وأمسك عن بعض فهو نبيء؟. وبيّنا هنالك وجه التعجيل في سورة الإسراء النازلة قبل سورة الكهف بالجواب عن سؤالهم عن الروح وتأخير الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين إلى سورة الكهف. وأعقبنا ذلك بما رأيناه في تحقيق الحقّ من سوق هذه الأسئلة الثلاثة في مواقع مختلفة.

فالسائلون: قريش لا محالة. والمسئول عنه: خبر رجل من عظماء العالم عرف بلقب ذي القرنين، كانت أخبار سيرته خفيّة مجملة مغلقة، فسألوا النبيء عن تحقيقها وتفصيلها. وأذن له الله أن يبيّن منها ما هو موضع العبرة للنّاس في شؤون الصلاح والعدل، وفي عجيب صنع الله تعالى في اختلاف أحوال الخلق، فكان أحبار اليهود منفردين بمعرفة إجماليّة عن هذه المسائل وكانت من أسرارهم، فلذلك جرّبوا بها نبوّة محمد ﷺ.

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأنّ ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمّة من هذه القصّة عبرة حِكَميّة أو خُلُقيّة فلذلك قال الله { **قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً** }.

الذكر: التذكّر والتفكّر، أي سأتلو عليكم ما به التذكّر، فجعل المتلو نفسه ذكرا مبالغة بالوصف بالمصدر، ولكن القرآن جاء بالحقّ الذي لا تخليط فيه من حال الرجل الذي يوصف بذي القرنين، بما فيه إبطال لما خلط به النّاس بين أحوال رجال عظماء كانوا في عصور متقاربة، أو كانت قصصهم تساق مساق من جاسوا خلال بلاد متقاربة متماثلة، وشوّهوا تخليطهم بالأكاذيب، وأكثرهم في ذلك صاحب (الشاهنامة) الفردوسي وهو معروف بالأكاذيب والأوهام الخرافية.

{ **ذِي الْقَرْنَيْنِ** } اختلف المفسرون في تعيين المسمّى بذي القرنين اختلافا كثيرا تفرّقت بهم فيه أخبار قصصيّة وأخبار تاريخيّة واسترواح من الاشتقاقات اللفظيّة، ولعلّ اختلافهم له مزيد اتصال باختلاف القصّاصين الذين عنو بأحوال الفاتحين عناية تخليط لا عناية تحقيق، فراموا تطبيق هذه القصّة عليها. والذي يجب الانفصال فيه، بادئ ذي بدء، أنّ وصفه بذي القرنين يتعيّن أن يكون وصفا ذاتيّا له، وهو وصف عربي يظهر أن يكون عُرف بمدلوله بين المثيرين للسؤال عنه فترجموه بهذا اللفظ.

ويتعيّن أن لا يُحمل القرنان على الحقيقة بل هما على التشبيه أو على الصورة.

فالأظهر أن يكونا ذؤابتين من شعر الرأس متدليتين، وإطلاق القرن على الضفيرة من الشعر شائع في العربية، قال عمر بن أبي ربيعة:

فلثمتُ فاها آخذًا بقرونها ... شُرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وفي حديث أم عطية في صفة غسل ابنة النبيء ﷺ قالت أم عطية:" **فجعلنا رأسها ثلاثة قرون** "، فيكون هذا الملك قد أطال شعر رأسه وضفره ضفرتين فسمّي ذا القرنين، كما سمِّي خرباق: ذا اليدين.

وقيل: هما شبه قرني الكبش من نحاس كانا في خوذة هذا الملك فنعت بهما.

وقيل: هما ضربتان على موضعين من رأس الإنسان يشبهان منبتي القرنين من ذوات القرون.

ومن هنا تأتي الأقوال في **تعيين ذي القرنين**:

القول الأوّل: إنّه الإسكندر بن فيليبوس المقدوني. وذكروا في وجه تلقيبه بذي القرنين أنّه ضفر شعره قرنين. وقيل: كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان. وقيل: رسم ذاته على بعض نقوده بقرنين في رأسه تمثيلا لنفسه بالمعبود آمون، معبود المصريين وذلك حين ملك مصر.

القول الثاني: إنّه ملك من ملوك حِمْيَر هو (تُبَّع أبو كرب.)

القول الثالث: إنّه ملك من ملوك الفرس وأنّه (أفريدون بن أنفيان بن جمشيد).

هذه أوضح الأقوال، وما دونها لا ينبغي التعويل عليه ولا تصحيح روايته.
ونحن تجاه هذا الاختلاف يحقّ علينا أن نستخلص من قصّته في هذه الآية أحوال تقرّب تعيينه وتزييف ما عداه من الأقوال. وليس يجب الاقتصار على تعيينه من بين أصحاب هذه الأقوال بل الأمر في ذلك أوسع.
والقصّة القرآنية تعطى صفات لا محيد عنها:

الأولى: أنّه كان ملكا صالحا عادلا.

الثانية: أنّه كان ملهما من الله.

الثالثة: أنّ ملكه شمل أقطارا شاسعه.

الرابعة: أنّه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكانا كان مجهولا وهو عين حمئة.

الخامسة: أنّه بلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأنّها كانت في جهة ممّا شمله ملكه غير الجهتين الشرقية والغربية فكانت وسطا بينهما كما يقتضيه استقراء مبلغ أسبابه.

السادسة: أنّه أقام سُدًّا يحول بين يأجوج ومأجوج وبين قوم آخرين.

السابعة: أنّ يأجوج ومأجوج هؤلاء كانوا عائثين في الأرض فسادا، وأنّهم كانوا يفسدون بلاد قوم موالين له.

الثامنة: أنّه كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء.

التاسعة: أنّ خبره خفيّ دقيق لا يعلمه إلّا الأحبار، علما إجماليا كما دلّ عليه سبب النزول.

وأنت إذا تدبّرت جميع هذه الأحوال نفيت أن يكون ذو القرنين إسكندر المقدوني، لأنّه لم يكن ملكا صالحا بل كان وثنيا، فلم يكن أهلا لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضا فلا يعرف في تاريخه أنّه أقام سُدًّا بين بلدين.
وأما نسبة السُدّ الفاصل بين الصين وبين بلاد يأجوج ومأجوج إليه في كلام بعض المؤرخين فهو ناشئ عن شهرة الاسكندر فتوهّم القصاصون أن ذلك السدّ لا يكون إلّا من بنائه، كما توهّم العرب أنّ مدينة تدمر بناها سليمان عليه السلام. وأيضا فإنّ (هيرودوتس اليوناني) المؤرخ ذكر أن الاسكندر حارب أمّة (**سكيثوس**).
وهذا الاسم هو اسم مأجوج [انظر القاموس الجديد تأليف لاروس في مادة سكيتس].
وأحسب أن لتركيب القصّة المذكورة في هذه السورة على اسم إسكندر المقدوني أثرا في اشتهار نسبة السُدّ إليه. وذلك من أوهام المؤرّخين في الإسلام.
ولا يعرف أن مملكة إسكندر كانت تبلغ في الغرب إلى عين حمئة، وفي الشرق إلى قوم مجهولين عراة أو عديمي المساكن، ولا أنّ أمّته كانت تلقّبه بذي القرنين. وإنّما انتُحل هذا اللقب له لمّا توهّموا أنّه المعنيّ بذي القرنين في هذه الآية. فمنحُه هذا اللقب من مخترعات مؤرخي المسلمين، وليس رسم وجهه على النقود

بقرنين ممّا شأنه أن يلقّب به. وأيضا فالإسكندر كانت أخباره مشهورة لأنّه حارب الفرس والقبط وهما أمتان مجاورتان للأمّة العربية.

ومثل هذه المبطلات التي ذكرناها تتأتى، أيضا، لإبطال أن يكون الملك المتحدَّث عنه هو(**أفريدون بن أنفيان بن جمشيد**). فإمّا أن يكون من تبابعة حِمْيَر، فقد يجوز أن يكون في عصر متوغّل في القدم. وقد توهّم بعض المفسّرين أنّه كان معاصرا إبراهيم عليه السلام، وكانت بلاده التي فتحها مجهولة المواقع. ولكن يبعد أن يكون هو المراد لأنّ العرب لا يعرفون من خبره مثل هذا. وقد ظهر من أقوالهم أن سبب هذا التوهّم هو وجود كلمة (ذو) التي اشتهر وجود مثلها في ألقاب ملوك اليمن وتبابعته.

فالذي يظهر لي أنّ ذا القرنين كان ملكا **من ملوك الصين** لوجوه:

الأوّل: أنّ بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنّهم أهل تدبير وصنائع.

الثاني: أنّ معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة.

الثالث: أنّ من سماتهم تطويل شعر رؤوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين.

الرابع: أنّ سُدًّا ورَدْمًا عظيما لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول. وهو المشهور في كتب الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم، وسيرد وصفه.

الخامس: ما روت أمّ حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنّ النبيء ﷺ خرج ليلة فقال:**" ويل للعرب من شرّ قد اقترب فُتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا"**. وأشار بعقد تسعين (أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام). وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد فتعيّن أن يأجوج ومأجوج هم المغول، وأنّ الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين وبانيه ملك من ملوكهم. وأنّ وصفه في القرآن بذي القرنين توصيف لا تلقيب فهو مثل التعبير عن شاول ملك إسرائيل باسم طالوت.

واسم هذا الملك (**تْسِيْنشي هْوانْقتي - أو- تْسِينْ شِى هْوَانْقْ تي**). وكان موجودا في حدود سنة (247 ق م) فهو متأخّر عن إسكندر المقدوني بنحو قرن. وبلاد الصين في ذلك العصر كانت متديّنة بدين (**كنفيشيوس**) المشرِّع المصلح. فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين.

... والله أعلم بالحقيقة.

{ **قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ** } الأمر إذْن من الله لرسوله بأن يعد بالجواب عن سؤالهم عملا بقوله { وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [23] على أحد تأويلين في معناه.

والسين في { سَأَتْلُو } لتحقيق الوعد كما في قوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ } [يوسف:98].

{ **مِنْهُ ذِكْراً** } وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرا للإشارة إلى أنّ المهمّ من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح لأن يكون تلاوة، حسب شأن القرآن، فإنّه يتلى لأجل الذكر ولا يساق مساق القصص.

و(منه) للتنبيه على أنّ أحواله وأخباره كثيرة وأنهم إنّما يهمّهم بعض أحواله المفيدة ذكرا وعظة. ولذلك لم يقل في قصّة أهل الكهف: نحن نقصّ عليك من نبئهم. لأنّ قصتهم منحصرة فيما ذكر. وأحوال ذي القرنين غير منحصرة فيما ذكر هنا.

{ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً** }

التمكين: جعل الشيء متمكّنا، أي راسخا. وهو تمثيل لقوّة التصرف بحيث لا يزعزع قوّته أحد. وحقّ الفعل التعدية بنفسه، فيقال: مكّنّاه في الأرض كقوله { مَكَّنَّاهُمْ في الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام: 6].

فاللام في { **لَهُ** } للتوكيد، كاللام في قولهم: شكرت له، ونصحت له، والجمع بينهما تفنّن.

فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرّف.

{ **فِي الْأَرْضِ** } المراد بها أهل الأرض، وهي أرض ملكه.

{ **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } مستعمل هنا في الأشياء الكثيرة ، أي آتيناه وسائل أشياء عظيمة كثيرة .

{ **سَبَباً** } حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يتوسّل به إلى الشيء، من علم أو مقدرة أو آلات التسخير، على وجه الاستعارة كقوله تعالى { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:166].

{ فَأَتْبَعَ سَبَباً [85] حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً [86] قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً [87] وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } [88].

السبب: الوسيلة. المراد هنا معنى مجازي وهو الطريق، لأنّ الطريق وسيلة إلى المكان المقصود، وقرينة المجاز ذكر الاتباع والبلوغ في قوله { فَأَتْبَع سَبَبا حتّى إذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشّمْسِ } . والدليل على إرادة غير معنى السبب في قوله تعالى { وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } إظهار اسم السبب دون إظماره، لأنّه لمّا أريد به

معنى غير ما أريد بالأوّل حسن إظهار اسمه تنبيها على اختلاف المعنيين، أي فاتبع طريقا للسير.
ولم يعدّ أهل اللغة معنى الطريق في معاني لفظ السبب، لعلهّم رأوه لم يكثر وينتشر في الكلام.
ويظهر أن قوله تعالى { أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ } [غافر:37] من هذا المعنى.
{ **مَغْرِبَ الشَّمْسِ** } من حيث يلوح الغروب من طريق غزوته أو مملكته. إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلّا فيما يلوح للتخيّل. والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو (بحيرة قزوين) فإنّها غرب الصين.
{ **في عَيْنٍ حَمِئَةٍ** } العين: منبع ماء. والمعنى: عين مختلط ماؤها بالحمأة: وهو **الطين الأسود**.
ويظهر أنّ هذه العين من عيون النفط الواقعة على ساحل بحر الخزر حيث مدينة باكو، وفيها منابع النفط الآن، ولم يكن معروفا يومئذ. والمؤرخون المسلمون يسمُّونها البلاد المنتنة.
وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص { في عَيْنٍ حَمِئَةٍ } مهموزا مشتقا من الحمأة (الطين الأسود).
وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وخلف { **في عَيْنٍ حامية** } بألف بعد الحاء وياء بعد الميم، أي حارة من **الحمو** وهو الحرارة، أي أن **ماءها سُخن**.
{ **قَوْماً** } التنكير يؤذن بأنّهم أمّة غير معروفة ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم.
{ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً** } استئناف بياني. وقد دلّ على أنّهم مستحقّون للعذاب، فدلّ على أنّ أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل.
{ **قُلْنَا** } إسناد القول إلى ضمير الجلالة يحتمل أنّه قول إلهام، أي ألقينا في نفسه تردّدا بين أن يبادر استئصالهم وأن يمهلهم ويدعوهم إلى الإيمان وحسن العمل، ويكون قوله { قال أَمَّا مَنْ ظَلَمَ }، قال في نفسه معتمدا على حالة وسط بين صورتي التردّد.
وقيل: إنّ ذا القرنين كان نبيّا يوحى إليه، فيكون القول كلاما موحى به إليه يخيّره فيه بين الأمرين، مثل التخيير الذي في قوله { فإمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فداءً } [محمد: 4]. ويكون قوله { أَمَّا مَنْ ظَلَمَ } جوابا منه إلى ربّه.
{ **حُسْناً** } مصدر. مبالغة في الإحسان إليهم، مثل قوله تعالى { وَقُولُوا للنّاس حُسْناً } [البقرة: 83].
{ **قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فسَوْف نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً** }
الظلم: الشرك، بقرينه قسيمه في قوله { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً }.
{ **فَسَوفَ نُعَذِّبُهُ** } اجتلاب حرف الاستقبال يشير إلى أنّه سيدعوه إلى الإيمان فإن أصرّ على الكفر يعذّبه. وقد صرح بهذا المفهوم في قوله { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } أي آمن بعد كفره. ولا يجوز أن يكون المراد من هو مؤمن الآن، لأنّ التخيير بين تعذيبهم واتخاذ الإمهال معهم يمنع أن يكون فيهم مؤمنون حين التخيير.
{ **ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً** } وذلك عذاب الآخرة.

{ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً }

وقرأ الجمهور { جَزَاءَ الْحُسْنَى } بإضافة (جزاء) إلى (الحسنى) على الإضافة البيانية. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وخلف { جزاءً الحسنى } بنصب (جزاء) منونا على أنّه تمييز لنسبه استحقاقه الحسنى، أو مصدر مؤكّد، أو حال مقدّمة.

{ **الْحُسْنَى** } يجوز أن تكون هي الجنّة كما في قوله { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } [يونس: 26].

القول اليُسر: هو الكلام الحسن. وصف باليسر المعنوي لكونه لا يثقل سماعه. وهو مثل قوله تعالى { فقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً } [الاسراء: 28] أي جميلا.

فإن كان المراد من { **الْحُسْنَى** } الخصال الحُسنى، فمعنى عطف { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } أنه يجازي بالإحسان وبالثناء. وكلاهما من ذي القرنين، وإن كان المراد ثواب الآخرة فذلك من أمر الله تعالى، وإنّما ذو القرنين مخبر به، على معنى: إنّا نبشره بذلك، أو مستعملا في لازم الفائدة تأدبا مع الله تعالى، أي أنّي أعلم جزاءه عندك الحسنى.

{ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً [89] حتّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً } [90].

مطلع الشمس: جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاصية من الشرق حيث يخال أن لا عمران وراءها، فالمطلع مكان الطلوع. والظاهر أنّه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو (كوريا شرقا).

{ **لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً** } فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها شيء، أي لا جبل فيها يستظلّون بظله ولا شجر فيها، فهي أرض مكشوفة للشمس.

ويجوز أن يكون المعنى أنّهم كانوا **قوما عراة**، فكانوا يتّقون شعاع الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب. فالمراد بالستر ما يستر الجسد.

وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد، وسيرتهم على نحو مناخهم.

{ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [91]

{ **كَذَلِكَ** } الكاف للتشبيه، والمشبّه به شيء تضمّنه الكلام السابق بلفظة أو معناه.

ويجوز أن يكون جزء جملة حذف أحد جزأيها والمحذوف مبتدأ. والتقدير: أمر ذي القرنين كذلك، أي كما سمعت.

ويجوز أن يكون صفة لـ (قوما) أي قوما كذلك القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس، أي في كونهم كفارا، وفي تخييره في إجراء أمرهم على العقاب أو على الإمهال.
ويجوز أن يكون المجرور جزء جملة أيضا جلبت للانتقال من كلام إلى كلام، فيكون فصل خطاب كما يقال: هذا الأمر كذا.
وعلى الوجوه كلّها فهو اعتراض.
{ **وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً** } حال من الضمير المرفوع في { ثُمَّ أَتْبَعَ }.
{ **بِمَا لَدَيْهِ** } : ما عنده من عظمة الملك من جند وقوّة وثروة.
الخُبْر(بضم الخاء وسكون الموحدة): العلم والإحاطة بالخبر. كناية عن كون المعلوم عظيما بحيث لا يحيط به علما إلّا علّام الغيوب.

{ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً [92] حتّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَوْلاً [93] قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً [94] قَالَ مَا مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً [95] آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حتّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفيْنِ قَالَ انْفخُوا حتّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً [96] فمَا اسطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً [97] قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً } [98].
السدّ (بضم السين وفتحها): الجبل. ويطلق أيضا على الجدار الفاصل، لأنّه يُسَدُّ به الفضاء، وقيل: الضم في الجبل والفتح في الحاجز.
وقرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر. وخلف، ويعقوب بضم السين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاعصم بفتح السين على لغة عدم التفرقة.
{ **بَيْنَ السَّدَّيْنِ** } والمراد بالسدّين هنا الجبلان، وبالسد المفرد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عيّنت المراد من هذا اللفظ المشترك. والتعريف تعريف الجنس، أى بين سدّين معينين. أي اتبع طريقا آخر في غزوة حتّى بلغ بين جبلين معلومين.
ويظهر أن هذا السبب اتجه به إلى جهة غير جهتي المغرب والمشرق فيحتمل أنّها الشمال أو الجنوب. وعينه المفسرون أنّه للشمال، وبنوا على أنّ ذا القرنين هو إسكندر المقدوني، فقالوا: إن جهة السدين بين أرمينيا وأذربيجان. ونحن نبني على ما عيّنّاه في الملقب بذي القرنين، فنقول: إنّ موضع السدين هو الشمال الغربي

لصحراء قوبي الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب مغوليا. وقد وجد السدّ هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهدها الجغرافيون والسائحون وصورت صورا شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية.

{ **قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَوْلاً** } أنّهم لا يعرفون شيئا من قول غيرهم، فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة، بحيث لا يعرفها تراجمة ذي القرنين لأنّ شأن الملوك أن يتّخذوا تراجمة ليترجموا لغات الأمم الذين يحتاجون إلى مخاطبتهم، فهؤلاء القوم كانوا يتكلّمون بلغة غريبة، لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة، فلا يوجد من يستطيع إفهامهم مراد الملك ولا هم يستطيعون الإفهام.

ويجوز أن يكون المعنى أنّهم قوم متوغّلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم.

وهؤلاء القوم مجاورون يأجوج ومأجوج. وكانوا أضعف منهم فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد يأجوج ومأجوج. ولم يذكر المفسّرون تعين هؤلاء القوم ولا أسماء قبيلتهم سوى أنّهم قالوا: هم في منقطع بلاد الترك نحو المشرق، وكانوا قوما صالحين فلا شك أنّهم من قبائل بلاد الصين التي تتاخم بلاد المغول والتتر.

{ **قالوا** } استئناف للمحاورة. وقد بيّنّا في غير موضع أنّ جمل حكاية القول في المحاورات لا تقترن بحرف العطف. فعلى أول الاحتمالين في معنى { لا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَوْلاً } أنّهم لا يدركون ما يطلب منهم من طاعة ونظام، ومع ذلك يعربون عمّا في نفوسهم من الأغراض مثل إعراب الأطفال. وعلى الاحتمال الثاني أنّهم أمكنهم أن يُفهم مرادهم بعد لأي.

{ **يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ** } وافتتاحهم الكلام بالنداء أنّهم نادوه نداء المستغيثين المضطّرين. ونداؤهم إيّاه بلقب ذي القرنين على أنّه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده.

يأجوج ومأجوج: أمّة كثيرة العدد فيحتمل أنّ الواو الواقعة بين الاسمين حرف عطف فتكون أمة ذات شعبين. وهم المغول وبعض أصناف التتار. وهذا هو المناسب لأصل رسم الكلمة ولا سيما على القول بأنّهما اسمان عربيان كما سيأتي، فقد كان الصنفان متجاورين.

ووقع لعلماء التأريخ وعلماء الأنساب اختلاف إطلاق اسمي المغول والتتار كلّ على ما يطلق عليه الآخر لعسر التفرقة بين المتقاربين منهما. وقد قال بعض العلماء: إنّ المغول هم مأجوج (بالميم) اسم جدّ لهم يقال أيضا (سكيشوس). وكان الاسم العام الذي يجمع القبيلتين مأجوج، ثم أنقسمت الأمّة فسمّيت فروعها بأسماء خاصة؛ فمنها مأجوج ويأجوج وتتر ثم التركمان ثم الترك.

ويحتمل أنّ (الواو) المذكورة ليست عاطفة ولكنها جاءت في صورة العاطفة فيكون اللفظ كلمة واحدة مركبة تركيبا مزْجيا. فيتكوّن اسما لأمّة وهم المغول.

والذي يجب اعتماده أن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتر.

وقد ذكر أبو الفداء أن مأجوج هم المغول فيكون يأجوج هم التتر. وقد كثرت التتر على المغول فاندمج المغول في التتر وغلب اسم التتر على القبيلتين. وأوضح شاهد على ذلك ما ورد في حديث أم حبيبة عن زينب بنت جحش أنّ النبيء صلى الله عليه و سلم دخل عليها فزعا يقول: " لا اله إلّا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " . وحلَّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. وقد تقدّم آنفا. ولا يعرف بالضبط وقت إنطلاقهم من بلادهم ولا سبب ذلك. ويقدّر أن انطلاقهم كان أواخر القرن السادس الهجري. وتشتت ملك العرب بأيدي المغول والتتر من خروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بخارى سنة (616 هـ) ووصلوا ديار بكر سنة (628 هـ) ثم ماكان من تخريب هولاكو بغداد عاصمة ملك العرب سنة (660 هـ).

ونظير إطلاق اسمين على حي مؤتلف من قبيلتين إطلاق (طسم وجديس) على أمّة من العرب البائدة. وإطلاق (السكاسك والسكرن) في القبائل اليمنية، وإطلاق (هلال وزغبة) على أعراب إفريقيّة الواردين من صعيد مصر. وإطلاق (أولاد يحيى) على حي بتونس بالجنوب الغربي. و(مُرادة وفِرجان) على حي من وطن نابل بتونس.

وقرأ الجمهور { يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ } كلتيهما بألف بعد التحتية بدون همز. وقرأه عاصم بالهمز.

واختلف المفسّرون في أنّه اسم عربي أو معرب. وغالب ظنّي أنّه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه في لغة تلك الأمّة المناسب لحال مجتمعهم فاشتق لهما من مادة (**الأج**)، وهو **الخلط**. إذ قد علمت أنّ تلك الأمّة كانت أخلاطا من أصناف.

{ **فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً** } الاستفهام مستعمل في العرض.

الخَرْج: المال الذي يدفع للملك. وهو بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء في قراءة الجمهور. ويقال فيه الخراج بألف بعد الراء. وكذلك قرأه حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الجمهور { سُدا } بضم السين وقرأه ابن كثير،وأبو عمرو،وحفص، والكسائي، وخلف بفتح السين.

{ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً** } أي ما آتاني الله من المال والقوّة خير من الخراج الذي عرضتموه أو خير من السدّ الذي سألتموه. أي ما مكنني فيه ربي يأتي بخير ممّا سألتم، فإنّه لاح له أنّه إن سدّ عليهم المرور من بين الصدفين تحيّلوا فتسلقوا الجبال ودخلوا بلاد الصين، فأراد أن يبني سورا ممتدا على الجبال في طول حدود البلاد حتّى يتعذر عليهم تسلق تلك الجبال، ولذلك سمّاه ردْما.

الردم: البناء المردّم. شبِّه بالثوب المردّم المؤتلف من رقاع فوق رقاع. أي سدّا مضاعفا. ولعله بني جدارين متباعدين وردم الفراغ الذي بينهما بالتراب المخلوط ليتعذر نقبه.

{ **فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ** } أي بقوة الأبدان. أراد تسخيرهم للعمل لدفع الضرر عنهم.

وقد بنى ذو القرنين وهو (تسين شى هوانق تي) سلطان الصين هذا الردم بناء عجيبا في القرن الثالث قبل المسيح وكان يعمل فيه ملايين من الخدمة. وهو مبنيّ بالحجارة والآجر وبعضه من الطين فقط.

وهو الآن بحالة خراب فلم يبق له اعتبار من جهة الدفاع. ولكنّه بقي علامة على الحدّ الفاصل بين المقاطعات الأرضية فهو فاصل بين الصين ومنغوليا. ويخترق جبال بابلوني التي هي حدود طببيعية بين الصين وبلاد منغوليا، فمنتهى طرفه إلى الشمال الغربي لصحراء قوبي.

{ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ** } هو أمر لهم بمناولة زبر الحديد. فالإيتاء مستعمل في حقيقة معناه وهو المناولة، وليس تكليفا للقوم بأن يجلبوا له الحديد من معادنه لأنّ ذلك ينافي قوله { مَا مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ }، أي أنّه غنيّ عن تكليفهم إنفاقا على جعل السدّ. وكأنّ هذا لقصد إقامة أبواب من حديد في مداخل الردم لمرور سيول الماء في شعب الجبل حتّى لا ينهدم البناء بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور النّاس ولا تمنع انسياب الماء، وجعل قضبان الحديد معضودة بالنحاس المذاب المصبوب على الحديد.

الزُّبر: جمع زُبْرة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد.

الحديد: معدن من معادن الأرض يكون قطعا كالحصى ودون ذلك، يكون فيها صلابة. وهو إذا صهر بنار قويّة في أتون مغلق التأمت أجزاؤه وتجمعت في وسط النار كالاسفنجة واشتدت صلابته لأنّه بالصهر يدفع ماكان فيه من الأجزاء الترابية، وهي المسماة بالصدأ والخبث، فتعلو تلك الأجزاء على سطحه وهي الزبد. ولذلك فبمقدار ما يطفو من تلك الجزاء الغريبة الخبيثة يخلص الجزء الحديدي ويصفو ويصير زُبُرا. ومن تلك الزبر تُصنع الأشياء الحديديّة؛ من سيوف ودروع وغيرها.

{ **حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ** } أشعرت (حتّى) بشيء مُغَيًّا قبلها، وهو كلام محذوف تقديره: فآتوه زبر الحديد فنضدها وبناها حتّى إذا جعل بين الصدفين. وهذا إيجاز الحذف.

المساواة : جعل الأشياء متساوية، أي متماثلة في مقار أو وصف.

الصدفان: (بفتح الصاد وفتح الدال) في قراءة الجمهور، وهو الأشهر، هما جانبا الجبلين وهما السدّان.

وعن أبي عيسى: الصدف كل بناء عظيم مرتفع.

{ **انْفُخُوا / آتُونِي** } خطاب للعملة. وحذف متعلق { انفخوا } لظهوره. والتقدير: انفخوا في الكيران المصفوفة على طول ما بين الصدفين من زُبُر الحديد.

القِطر (بكسر القاف): النحاس المذاب.

{ **فمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً** } الضمائر ليأجوج ومأجوج.

الظهور: العلو. و{ **نَقْباً** } كسر الردم، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته.

{ **اسطاعوا** } تخفيف {استطاعوا} . والجمع بينهما تفنّن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. وابتدئ

بالأخف منهما لأنّه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف.
ومقتضى الظاهر أن يبتدأ بفعل { استطاعوا } ويثنى بفعل { اسطاعوا } لأنّه يثقل بالتكرير، كما وقع في قوله آنف { مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [78]، ثم قوله { مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [82].
ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى، لأنّ استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلّقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى.
{ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي** } مستأنفة استئنافا بيانيا. والإشارة بـ (هذا) إلى الردم. وهو رحمة للنّاس لما فيه من رد فساد أمّة يأجوج ومأجوج عن أمّة أخرى صالحة.
{ **مِنْ** } ابتدائية. وجُعلت من الله، لأنّ الله ألهمه لذلك ويسر له ما هو صعب.
{ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ** } لأنّه يعلم أنّ كلّ حادث صائر إلى زوال. ولأنّه علم أنّ عملا عظيما مثل ذلك يحتاج إلى التعهّد والمحافظة عليه من الانهدام. وعلم أنّ ذلك لا يتسنّى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذي لا محيص منه لكلّ ذي سلطان.
الوعد: هو الإخبار بأمر مستقبل، وأراد به ما في علم الله تعالى من الأجل الذي ينتهي إليه دوام ذلك الردم.
{ **دَكَّاءَ** } على قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. والدكّاء: اسم للناقة التي لا سنام لها، وذلك على التشبيه البليغ. وعلى قراءة الجمهور{ دَكًّا }، مصدر بمعنى المفعول للمبالغة، أي جعله مدكوكا، أي مسوًّى بالأرض بعد ارتفاع.
{ **وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً** } تذييل للعلم بأنّه لا بد له من أجل ينتهي إليه لقوله { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: 38]، أي وكان تأجيل الله الأشياء حقا ثابتا لا يتخلّف. وهذه الجملة بعمومها وما فيها من حكمة كانت تذييلا بديعا.

{ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً [99] وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً [100] الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً } [101].

{ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ** }
الترك: حقيقته مفارقة شيء شيئا كان بقربه، ويطلق مجازا على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة.
{ **يَوْمَئِذٍ** } هو يوم إتمام بناء السدّ المستفاد من قوله { فما استطاعوا أن يظهروه }.
{ **يَمُوجُ** } يضطرب تشبيها بموج البحر. أي جعلنا ياجوج وماجوج يومئذ مضطربين بينهم. لأنّهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويّهم على ضعيفهم بالاعتداء.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }.

تخلّص من أغراض الاعتبار بما في القصّة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة، وهو تخلّص يؤذن بتشبيه حال تموّجهم بحال تموّج النّاس في المحشر، تذكيرا للسامعين بأمر الحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين، فإنّ القادر على جمع أمّة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسّره لذلك من خلقه، هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في عالم الآخرة أعجب.

وقد تقدّم أن من أهم أغراض هذه السورة إثبات البعث. واستعمل الماضي موضع المضارع تنبيها على تحقيق وقوعه.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ } تمثيليّة مكنية تشبيها لحال الداعي المطاع وحال المدعو الكثير العدد السريع الإجابة، بحال الجند الذين ينفذون أمر القائد بالنفير فينفخون في بوق النفير، وبحال بقيّة الجند حين يسمعون بوق النفير فيسرعون إلى الخروج. على أنّه يجوز أن يكون الصور من مخلوقات الآخرة.

والحالة الممثّلة حالة غريبة لا يعلم تفصيلها إلّا الله تعالى.

{ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ } وعرض جهنم مستعمل في إبرازها حين يشرفون عليها وقد سيقوا إليها فيعلمون أنّها المهيئة لهم، فشبّه ذلك بالعرض تهكّما بهم، لأنّ العرض هو إظهار ما فيه رغبة وشهوة.

{ فَجَمَعْنَاهُمْ / جَمْعاً - عَرَضْنَا / عَرْضاً } وتأكيد فعلي (جمعناهم) و (عرضنا) بمصدريهما لتحقّق أنّه جمع حقيقي وعرض حقيقي ليسا من المجاز، وفي تنكير الجمع والعرض تهويل.

{ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ } الغطاء مستعار لعدم الانتفاع بدلالة البصر على تفرد الله بالإلهية. وحرف (في) للظرفية المجازية. وهي تمكّن الغطاء من أعينهم بحيث كأنّها محوية للغطاء.

{ عَنْ ذِكْرِي } للمجاوزة، أي عن النظر فيما يحصل به ذكري.

{ وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً } لشدّة كفرهم لا تطاوعهم نفوسهم للاستماع. وحذف مفعول { سمعا } لدلالة قوله {عَنْ ذِكْرِي} عليه.

{ **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً**}[102].

أعقب وصف حرمانهم الانتفاع بدلائل المشاهدات على وحدانية الله، وإعراضهم عن سماع الآيات بتفريع الإنكار، لاتّخاذهم أولياء من دون الله يزعمونها نافعة لهم تنصرهم. أي حسبوا حسبانا باطلا فلم يغن عنهم ما حسبوه شيئا، ولأجله كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا.

{ **أَفَحَسِبَ** } وتقدّم حرف الاستفهام على فاء العطف لأنّ للاستفهام صدر الكلام وهو كثير في أمثاله.

والاستفهام إنكاري. والإنكار عليهم فيما يحسبونه يقتضي أنّ ما ظنّوه باطل. ونظيره قوله { أَحَسِبَ النَّاس أَنْ يُتْرَكُوا } [العنكبوت: 2].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار الذين كفروا دون أن يقال: أفحسبوا، بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها، لقصد استقلال الجملة بدلالتها، وزيادة في إظهار التوبيخ لهم.

{ **أَنْ يَتَّخِذُوا** } صيغ فعل الاتخاذ بصيغة المضارع للدلالة على تجدّده منهم وأنّهم غير مقلعين عنه.

وجَعل في (الكشّاف) فعل { يتخذوا } للمستقبل. أي أحسبوا أن يتّخذوا عبادي أولياء يوم القيامة، كما اتخذوهم في الدنيا. ونظّره بقوله تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ } [سبأ: 40-41].

{ **عِبَادِي** } صادق على الملائكة والجن والشياطين ومن عبدوهم من الأخيار مثل عيسى عليه السلام، ويصدق على الأصنام بطريق التغليب.

{ **مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ** } إمّا يجعل { دوني } اسما بمعنى **حول**، أي من حول عذابي، وتأويل { أولياء } بمعنى أنصارا، أي حائلين دون عذابي ومانعينهم منه.

وإمّا يجعل دوني بمعنى **غيري**. أي أحسبوا أنّهم يستغنون بولايتهم.

{ **إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** } مقرّرة لإنكار انتفاعهم بأوليائهم، فأكّد بأنّ جهنم أُعدّت لهم نزلا، فلا محيص لهم عنها، ولذلك أكّد بحرف (إنّ).

{ **أَعْتَدْنَا** } : أعددنا، أُبدل الدال الأول تاء لقرب الحرفين، والإعداد: التهيئة، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً } [29]. وجعل المسند إليه ضمير الجلالة لإدخال الروع في ضمائر المشركين.

النُّزُل (بضمتين): ما يُعدّ للنزيل والضيف من القرى. وإطلاق اسم النزل على العذاب استعارة علاقتها التهكّم.

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً [103] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [104].

اعتراض باستئناف ابتدائي أثاره مضمون جملة { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا }. فإنّهم لمّا اتّخذوا أولياء من ليسوا ينفعونهم، فاختاروا الأصنام وعبدوها وتقرّبوا إليها بما أمكنهم من القرب، اغترارا بأنّها تدفع عنهم، وهي لا تغني عنهم شيئا، فكان عملهم خاسرا وسعيهم باطلا.

{ **قُلْ** } افتتاح الجملة بالأمر بالقول للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين، لأنّ مثل هذا الافتتاح يشعر بأنّه في غرض مُهمّ.

{ **هَلْ نُنَبِّئُكُمْ** } وكذلك افتتاحه باستفهامهم عن إنبائهم، استفهاما مستعملا في العرض لأنّه بمعنى: أتحبون أن ننبئكم بالأخسرين أعمالا، وهو عرض تهكّم، لأنّه منبئهم بذلك دون توقّف على رضاهم.

ونون المتكلّم المشارك في قوله { **نُنَبِّئُكُمْ** } يجوز أن تكون نون العظمة راجعة إلى ذات الله على طريقة الالتفات في الحكاية. ويجوز أن تكون للمتكلّم المشارك راجعة إلى الرسول ﷺ وإلى الله تعالى، لأنّه ينبئهم بما يوحى إليه من ربّه. ويجوز أن تكون راجعة للرسول وللمسلمين.

{ **بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً** } إلى آخره، تمليح، إذ عُدل فيه عن طريقة الخطاب بأن يقال لهم: هل ننبئكم بأنّكم الأخسرون أعمالا، إلى طريقة الغيبة بحيث يستشرفون إلى معرفة هؤلاء الأخسرين، فما يروعهم إلّا أن يعلموا أنّ المخبَر عنهم هم أنفسهم.

والمقول لهم: المشركون، توبيخا لهم وتنبيها على ما غفلوا عنه من خيبة سعيهم.

{ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ** } بدل من { بالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً } وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصا على معرفة الموصوفين بتلك الأوصاف والأحوال.

الضلال: خطأ السبيل. شُبّه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة.

السعي: المشي في شدّة. وهو هنا مجاز في العمل كما تقدّم عند قوله { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء:19]، أي عملوا أعمالا تقرّبوا بها للأصنام يحسبونها مبلّغة إيّاهم أغراضا وقد أخطأوها وهم يحسبون أنهم يفعلون خيرا.

وإسناد الضلال إلى سعيهم مجاز عقلي. والمعنى: الذين ضلّوا في سعيهم.

وبين {يحسبون} و {يحسنون} جناس مصحَّف، وقد مُثّل بهما في مبحث الجناس.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً }[105]

استئناف بياني بعد قوله { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ }.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة لتمييزهم أكمل تميز لئلّا يلتبسوا بغيرهم. وللتنبيه على أنّ المشار إليهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من حكم، بسبب ما أجري عليهم من الأوصاف.

الآيات: القرآن والمعجزات.

الحبط: البطلان والدحض.

{ **فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً** } نفي إقامة الوزن مستعمل في عدم الاعتداد بالشيء. وفي حقارته لأنّ النّاس يزنون الأشياء المتنافس في مقاديرها والشيء التافه لا يوزن، فشُبِّهوا بالمحقّرات.

وجُعل عدم إقامة الوزن مفرّعا على حبط أعمالهم، لأنّهم بحبط أعمالهم صاروا محقّرين لا شيء لهم من الصالحات.

{ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً } [106]

الإشارة إمّا إلى ما تقدّم من وعيدهم في قوله { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً } ، أي ذلك الإعداد جزاؤهم. وإمّا إلى مقدّر في الذهن دلّ عليه السياق بيّنه ما بعده. والتقدير: الأمر والشأن ذلك جزاؤهم جهنّم.

{ **وَاتَّخَذُوا** } عطف على { كَفرُوا } فهو من صلة (ما) المصدريّة. والتقدير: وبما اتخذوا آياتي ورسلي هزوا.

{ **وَرُسُلِي** } يجوز أن يراد به حقيقة الجمع فيكون إخبارا عن حال كفار قريش ومن سبقهم من الأمم المكذّبين، ويجوز أن يراد به الرّسول ﷺ، الذي أرسل إلى النّاس كلّهم وأطلق عليه اسم الجمع تعظيما، كما في قوله { نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } [ابراهيم: 44].

{ **هُزُواً** } (بضمّتين) مصدر بمعنى المفعول. وهو أشد مبالغة، أي كانوا كثيري الهزو بهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً } [107] **خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً }** [108].

هذا مقابل قوله { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً } على عادة القرآن في ذكر البشارة بعد الإنذار.

وهي مؤكّدة كي لا يظنّ ظان أنّ جزاء المؤمنين غير مهتمّ بتأكيده.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } جعل المسند إليه الموصول بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام

بشأن أعمالهم، فلذلك خولف نظم الجملة التي تقابلها فلم يقل: جزاؤهم الجنّة. وقد تقدّم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءين عند قوله تعالى في هذه السورة { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } [29] ثم قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [30].

{ **كَانَتْ** } دلالة على أنّ استحقاقهم الجنّات أمر مستقرّ من قبل مهيّأ لهم.

{ **لَهُمْ** } وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنّهم نالوا الجنّة باستحقاق إيمانهم وعملهم.

{ **جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** } وجمع الجنّات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنّها جنات كثيرة كما جاء في الحديث : "إنها جنان كثيرة ".

الفردوس: البستان الجامع لكلّ ما يكون في البساتين. وعن مجاهد هو معرّب عن الروميّة. وقيل عن السريانية. وقال الفراء: هو عربي. ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل القرآن.

وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم: الفراديس. وفي مدينة حلب باب يسمّى باب الفراديس.

وإضافة الجنّات إلى الفردوس بيانية، أي جنّات هي من صنف الفردوس. وورد في الحديث أنّ الفردوس أعلى الجنّة أو وسط الجنّة. وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنّه علم بالغلبة.

{ **لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** } أي ليس بعدما حوته تلك الجنات من ضروب اللذات والتمتع ما تتطلع النفوس إليه فتودّ مفارقة ما هي فيه إلى ما هو خير منه. أي هم يجدون فيها كل ما يخامر أنفسهم من المشتهى.

الحِوَل: مصدر بوزن العِوَج والصِغَر. المفارقة والانتقال.

{ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً}[109]

لمّا ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذُكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة وموعظة، وما هو خفيّ من أحوال الأمم، حُوِّل الكلام إلى الإيذان بأنّ كلّ ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى.

فهذا استئناف ابتدائي وهو انتقال إلى التنويه بعلم الله تعالى، مفيض العلم على رسوله ﷺ. لأنّ المشركين لمّا سألوه عن أشياء يظنّونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها، علّمه الله إيّاها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبيّنها بأقصى ما تقبله أفهامهم، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها، وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يُعلم منه سعة علم الله تعالى وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي، إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفي هذا ردّ عجز السورة على صدرها.

كلمات الله: ما يدلّ على شيء من علمه ممّا يوحي إلى رسله أن يبلّغوه، فكلّ معلوم يمكن أن يخبر به، فإذا أخبر به صار كلمة. ولذلك يطلق على المعلومات كلمات، لأنّ الله أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره، فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل. ونظيرها قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّمَا في الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } [لقمان: 27].وفي هذا دليل لإثبات الكلام النفسي، ولإثبات التعلّق الصلوحي لصفة العلم. وقلّ من يتنبه لهذا التعلّق.

ولما كان شأن ما يخبر الله به على لسان أحد رسله أن يُكتب حرصا على بقائه في الأمّة، شُبّهت معلومات الله المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات.

{ **لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً** } والمداد يطلق على الحبر لأنّه تُمدّ به الدواة، أي يمد به ما كان فيها من نوعه، ويطلق المداد على الزيت الذي يُمدّ به السراج، فقد شُبّه نور الله وهديه بالمصباح في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فيهَا مِصْبَاحٌ } [النور: 35].

وغلب إطلاقه على الحبر. وهو في هذه الآية يحتمل المعنيين.

النفاد: الفناء والاضمحلال. ونفاد البحر ممكن عقلا. وأمّا نفاد كلمات الله، بمعنى تعلّقات علمه فمستحيل، فلا يُفهم من تقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف وهو { قبل } إمكان نفاد كلمات الله. والكلام كناية عن عدم تناهي معلومات الله تعالى التي منها تلك المسائل الثلاث التي سألوا عنها النبيء ﷺ.

{ **وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدا** } في موضع الحال. و(لو) وصلية، وهي الدالة على حالة هي أجدر الأحوال بأن لا يتحقّق معها مفاد الكلام السابق، فيُنبَّه السامع على أنّها متحقق معها مفاد الكلام السابق. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افتَدَى به } [آل عمران:91]. وهذا مبالغة ثانية.

{ **مددا** } انتصب على التمييز المفسر للإبهام الذي في لفظ { بمثله } أي مثل البحر في الإمداد.

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً } [100]

استئناف ثان، انتقل به من التنويه بسعة علم الله تعالى وأنّه لا يعجزه أن يوحي إلى رسوله بعلم كل ما يُسأل عن الإخبار به، إلى إعلامهم بأنّ الرّسول لم يبعث للإخبار عن الحوادث الماضية والقرون الخالية. ولا أنّ من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء، فيتصدّى للإجابة عن أسئلة تلقى إليه، ولكنّه بشر علمه كعلم البشر، أوحى الله إليه بما شاء إبلاغه عباده من التوحيد والشريعة. ولا علم له إلّا ما علّمه ربّه، كما قال تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي } [لأعراف: 203].

{ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } فالحصر قصر الموصوف على الصفة وهو إضافي للقلب. أي ما أنا إلّا بشر لا أتجاوز البشريةّ إلى العلم بالمغيّبات.

وأدمج في هذا أهم ما يوحى إليه وما بعث لأجله وهو توحيد الله والسعي لما فيه السلامة عند لقاء الله تعالى.

وهذا من رد العجز على الصدر من قوله في أول السورة { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْه - إلى قوله - إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً } [2 – 5].

{ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** } هو من جملة الموحى به إليه. أي يُوحى إليّ بوحدانية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة.

فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة، إذ جعل التوحيد أصلا لها وفُرّع عليه الأصلان الآخران، وأكّد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى. وحصل مع ذلك ردّ العجز على الصدر وهو أسلوب بديع.